
Bibliotheca Alexandrina
0137784

اقرأ

سيد حنفى

الفروسية العربية

فى العصر الجاهلى

دار المعارف بمصر

الفُروسِيّة العَربيّة

في العصر الجاهلي

سيد حنفي

الفروسية العربية

في العصر الجاهلي

اقرأ ٢١١

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢١١ – يولية سنة ١٩٦٠

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ٥ شارع ماسبيرو – القاهرة

مقدمة

فوق رمال الصحراء الشاحبة ، وتحت أشعة الشمس اللاهبة وبين تلك المراعى البائسة المتناثرة عاش أفراد شعب كأنهم جذوع نخل سامقة ، فيهم صلابة ومضاء ، وحدة وذكاء . قد هدتهم الفطرة للون من الحياة ، ثم دفعتهم ظروفهم وظروف بيئتهم لتشكيل هذه الحياة . فتكونت لهم مثل فيها بداوة وفطرة ، وتميزت لهم أخلاق فيها بأس وشدة . ذلك الشعب هو الشعب العربى فى شبه جزيرته التى كانت تحيط بها حضارة الفرس والروم فى الشمال وحضارة اليمن والأحباش فى الجنوب .

ولم يعش هذا الشعب منعزلاً عن الأجناس التى كانت تحف به ، فقد كان جواباً لصحرائه ، متنقلاً فى مراعيه ، إما ساعياً وراء ماء أو كلأ ، أو متاجراً فى أمواله وأنعامه ، أو ناقلا تجارة الجنوب إلى الشمال أو تجارة الشمال إلى الجنوب .

وأثر هذا كله فى فروسية الجاهليين . وسجل الرواة فى القرنين الأول والثانى الهجريين فى عصر التدوين أخبار هذه

الفروسية ومظاهرها وخاصة فى كتب الحماسة وشعر الحرب .

وكعادة هؤلاء المدونين دائماً، ولأنهم يسجلون أخبار هذه الفترة عن رواة يروونها شفاهاً، شاب أخبار الفرسان كثير من الأساطير والمبالغات وأضيف إليهم كثير من الشعر المنتحل .

وقد حاولت فى هذا الكتيب أن أعرض لنظرية الفروسية الجاهلية عرضاً سريعاً دون مناقشة أو تحليل لتفاصيل قد تكسبها جفافاً لا يتطلبه هذا الكتيب ، فعرضت للعوامل التى ساعدت أو أثرت فى نشأة الفروسية ، ثم تحدثت عن خطة الحرب عند الجاهليين وقارنتها بخطة الحرب عند الفرس والروم . وانتقلت إلى الحديث عن الفارس : عن سلاحه وجواده ثم عن أخلاقه ومثله ، وانتهيت إلى تصوير موقفه من المجتمع الجاهلى وموقف هذا المجتمع منه .

وجعلنى هذا الحديث أذكر نماذج ثلاثة من الفرسان : الفارس السيد والفارس الصعلوك والفارس العبد . وأوضحت أن كل نموذج منهم كان يرتبط بمجتمعه ارتباطاً يخالف فيه ارتباط صاحبيه ، كما أن كلا منهم تشابه مع صاحبيه فى جانب من مثله واختلف عنه فى جانب آخر . وقد كتبت ترجمة لكل نموذج من النماذج الثلاثة . فمثل عمرو بن معد يكرب نموذج

الفارس السيد ومثّل عروة بن الورد نموذج الفارس الصعلوك ، ومثّل عنترة بن شداد نموذج الفارس العبد . وأخيراً ذكرت أخبار بعض الفرسان وهم ربيعة بن مكدم وزيد الخيل ثم الشنفرى . وكان هدفى من ذكر هذه الأمثلة أن يلمس القارئ النماذج التى تحدثت عنها نظريًّا لمساً حسيًّا ، فيثبت فى نفسه ما أردت أن أصوره فى هذا الكتيب .

وبعد . . . فإن من يتابع دراسة تطور الفروسية الجاهلية على مدى العصور الإسلامية يرى كيف امتزجت هذه الفروسية بفروسية الترك والفرس وكيف تغلغلت فى مناطق الشرق الأقصى حتى دخلت الهند وغربى الصين وجنوبى روسيا . ومن يتابع هذا الامتزاج أيضاً فى الغرب فى شمالى أفريقيا وفى أسبانيا وجنوبى فرنسا يدرك كيف كانت هذه الفروسية طابع الشرق الحربى وكيف أفادت فروسية القرون الوسطى من هذه الفروسية العربية ، بل إن التقاء هاتين الفروسيتين : العربية والأوروبية فى الحروب الصليبية ليصور أعظم تصوير خصائص كل من الفروسيتين وكيف أثرت الفروسية العربية فى الفروسية الأوروبية ومدى فضلها عليها واستمدادها منها .

وقد أطلت الوقوف فى هذا الكتيب عند فروسية الجاهليين

لأنى أعتقد أن إدراكنا لطبيعة هذه الفروسية أساس مهم لفهم الفروسية العربية بعد ذلك على توالى العصور .

والله ولى التوفيق .

سيد حنفى

١

لا شك أننا لو بحثنا العوامل التى دعت إلى ظهور الفروسية عند العرب الجاهليين ، لوجدناها فى بيئتهم وفى تكوينهم الاجتماعى والجسمى والنفسى إذ أن ظاهرة الفروسية مظهر من مظاهر الفتوة الجاهلية ، فهى إذن ظاهرة اجتماعية دعت إليها الحياة التى يحيونها ، والإقليم الذى ينزلونه .

وقد عرفت خصائص الجزيرة الجغرافية منذ الزمن القديم ، وتحدث عنها الدارسون حديثاً مستفيضاً . وأهم ما يعنينا من هذه الدراسات أن الحياة فى هذه الصحراء لم تكن كالحياة التى يعيشها سكان الأقاليم الشمالية كإقليمى العراق والشام حيث الأمن مستتب تحت ظلال الفرس والروم ، والأرض خصبة تغل لأهلها الخير والحياة السهلة الآمنة برغم قسوة الفرس وظلم الرومان ، فتكونت الأسرة الصغيرة مسالمة مستكينة ، توفر لها الجيوش المنظمة حاجتها إلى الأمن والسلام .

أما الجزيرة . . . فقد فرضت الصحراء على أهلها نوعاً من

الحياة يتناسب مع طبيعتها القاسية ، وأجوائها المتقلبة ، بل إنها صبغت سكانها صبغة خاصة تختلف اختلافاً كبيراً عن صبغة من يسكنون الوديان الخصبة المثمرة ، أو من يعيشون فى أجواء لطيفة معتدلة .

ويتضح تأثير الصحراء فى ناحيتين : فى التكوين الاجتماعى لمجموع السكان ثم فى التكوين الجسمى والنفسى للأفراد . فقد فرضت الصحراء النظام القبلى كتنظيم اجتماعى لسكانها وهو نظام أملته ضرورة اجتماعية فرضتها الصحراء لاتساعها وشظف الحياة فيها ، ثم صعوبة مواصلاتها وضرورة انتقال الأفراد والعشائر من مكان إلى مكان طلباً للماء أو سعياً وراء الكلأ ، كذلك رغبة فى الأمن والحماية حتى إنه لا يمكن للبدوى أن يعيش خارج نطاق هذا التنظيم ، فالخليع الذى تلفظه القبيلة قد أعدم اجتماعياً إلا إذا وجد قبيلة أخرى تضمه إليها وتفرض عليه حمايتها .

ولا يسرى النظام القبلى فحسب على سكان البوادى ، وإنما يفرض نفسه أيضاً على سكان المدن القليلة المتناثرة فى الصحراء ، فكل مدينة تنقسم فى داخلها إلى مناطق ، كل منطقة تسكنها قبيلة من القبائل النازلة فيها ، وتعيش القبيلة فى داخل المدينة وكأنها

تعيش فى بادية ، فكل مظاهر القبلية من منازعات وأحلاف ، وخلع وجوار يتحقق فى المدينة كما يتحقق فى البادية .

وكما كان النظام الإقطاعى فى أوروبا فى العصور الوسطى عاملا من عوامل ظهور الفرسان كذلك كان النظام القبلى عاملا من عوامل ظهور الفروسية الجاهلية ، فكما يحكم المقاطعة حاكم أو أمير يدير شئونها وينظم أحوال ساداتها وعبيدها وقد يكون ولاؤه لحاكم أكثر منه قوة يمده بالعون الأدبى والمادى فى وقت الحاجة أو أثناء وقوع أزمة — كذلك يصرف شيخ القبيلة أمور قبيلته ، وينطوى تحت لواء قبيلة أخرى أكثر عدداً وأقوى عدة حتى يأمن الغارات ، ويستنصرها فى الملمات ، وكثيراً ما كانت تخرج القبيلة عن ولائها لحاميتها لتدخل فى ولاء قبيلة أخرى أعظم قوة وأوفر أموالاً .

فالنظام القبلى إذن هو الذى أوجد نظام الفرسان الذين يمثلون الجيش فى الدولة ، ولو كان العرب فى صحرائهم أمة واحدة لكان الجيش جيشاً واحداً يفرض حمايته على الجميع ويشيع الأمن بين الناس ، وهذا لن يدع فرصة لروح الفردية أن تظهر أو يسمح لفارس أن يخرج عن خطة الجيش ليبرز ، إذ أن قيمة التنظيم العسكرى فيما يقوم به المجموع لا فيما يقوم به الفرد ،

أما وقد كان العرب فى صحرائهم قبائل كثيرة متفرقة فقد تعددت الجيوش وكان كل جيش قائماً بنفسه ، وكل فرد يهتم بإظهار بطولته وتمجيد فروسيته ، لا يخضع لتنظيم حتى تصبح ضربته ضربة للقبيلة كلها ، ولا يرضى بقيادة حتى يوجه مع المقاتلين نحو الهدف الأول وهو هزيمة الأعداء . لذلك أصبح انتصار القبيلة يتوقف على تصرف الأفراد وقدرتهم فى القتال لا على التنظيم العسكرى لمجموع المحاربين مما قوى روح الفردية ، وجعل الفرصة مواتية للأفراد لإظهار شجاعتهم وإبراز فروسيتهم . وكم كانت نشوة الحرب تبلغ بالفارس حين يناديه الأبطال ليبرز إليهم يصاولهم ويصاولونه ، ويصارعهم ويصارعونه ، وكأن المعركة معركته الخاصة وليست معركة القبيلة كلها . يقول عنترة وقد بلغت به نشوة القتال مبلغها :

يدعون عنترَ والرماحُ كأنها ... أشطانُ بئرٍ فى لبانِ الأدهمِ

ويقول

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها ... قيلُ الفوارس : ويكَ عنترَ أقدمِ

فالمعركة إذن معركة أفراد ، والفرد فى يده النصر كما فى يده الهزيمة ، وغالباً ما ينتظر الجيشان نتيجة هذا الصراع الفردى ، ثم يحمل كل جيش على الآخر ، ولما كان فى هذه المبارزات

الفردية مصير المعركة نجد القبائل تدفع بأشهر فرسانها فى أول القتال حتى تضمن الغلبة .

والواقع أن الفارس هنا كان يمثل القبيلة ولم تكن القبيلة تمثله إلا فى نطاق انتسابه إليها ، فليس غريباً إذن أن يشيد بنفسه لأن فى هذا تمجيد للقبيلة ، وأن يظهر قدرته لأن فى هذا قوة لها .

فطبيعة تكوين المجتمع الجاهلى وانقسامه إلى قبائل متفرقة من أهم العوامل التى أتاحت للفروسية العربية أن تظهر كما كانت تلك الظاهرة نفسها وهى انقسام أوروبا إلى مقاطعات صغيرة متحاربة هى التى أتاحت للفروسية أن تظهر عندهم .

* * *

وعامل اجتماعى آخر لعب دوراً هاماً فى توجيه الفروسية العربية ، وفى بناء الفارس الجاهلى وذلك هو العصبية الجاهلية التى سببت كثيراً من الحروب التى وقعت بين القبائل ، ونظرة واحدة إلى أيام العرب فى الجاهلية توضح إلى أى مدى كانت القبيلة فى حاجة إلى فرسان مدربين لهم نفسية خاصة وتكوين جسمي معين .

وتنقسم أيام العرب حسب تكوينهم القبلى إلى مجموعات :

١ ــ أيام القحطانية (عرب الجنوب) فيما بينهم ، وأشهرها :

أيام البردان والكلاب الأول واليحاميم ثم حروب الأوس والخزرج .

٢ — أيام العدنانية (عرب الشمال) فيما بينهم ، وأشهرها :

أيام ربيعة فيما بينها وأهمها حرب البسوس ، وأيام ربيعة وتميم ، وأيام قيس فيما بينها وأهمها يوم داحس والغبراء ، وأيام قيس وكنانة وأهمها حروب الفجار ، وأيام قيس وتميم ، وأيام ضبة .

٣ — أيام بين القحطانية والعدنانية وأشهرها :

أيام طخفة وأوارة الأول والثانى وخزاز والكلاب الثانى .

٤ — أيام بين العرب وبين الفرس أو الروم أو الأحباش ، وأشهرها :

يوم الصفقة ويوم ذى قار بين العرب والفرس .

ولم تكن هذه الحروب أو الأيام قتالا فاصلا بمعنى أن جيوشاً تلتقى وتقرر مصير المعركة ، برغم أن العرب كانوا فى جاهليتهم أهل حروب كثيرة غير أنها لم تكن حروباً منظمة وإنما كانت تلتقى فيها القبائل المتحاربة ساعات من النهار ثم يقف القتال إذا ما حل الليل ، وربما انقضت الحرب بعد ذلك أو استؤنفت فى اليوم التالى . وكان الكثير من هذه الأيام غارات تفاجئ بها القبيلة الأخرى فى غيبة من رجالها الذين يكونون قد خرجوا لأمر

من أمورهم ، وسرعان ما ينسحبون وقد سبوا النساء وسلبوا الأموال.

ولو حاولنا أن نحصى أسباب هذه الحروب لوجدناها لا تخرج عن رغبة فى سلب الأموال وسبى النساء ، أو مزاحمة على الماء والكلأ ، هذا إلى جانب أسباب أخرى تدعو إليها عنجهية البدوى ، وتمس صميم كرامته وقد تضرب على أهم وتر فى حياة الجاهليين وهو تمرد فردياتهم ضد فردية الآخرين مثل حرب البسوس التى وقعت من أجل ناقة وكان الدافع إليها الحفاظ على الجوار . أو حرب داحس والغبراء التى أفضى إليها التنافس فى الرهان بين سيدى قبيلتين عظيمتين . وقليلا ما كانت تقع الحرب لدفع عدو غريب كيوم ذى قار بين الفرس وبنى بكر وفيه انتصر العرب على الفرس انتصاراً ساحقاً ، أو حروب اليمن والأحباش التى انتهى بعضها باحتلال الأحباش لليمن ، وذلك لأن العرب فى داخل جزيرتهم كانوا فى حماية الصحراء ، ولم يكن اختراقها أمراً سهلاً بالنسبة لجيوش ذلك العصر ، ولهذا فإن مثل هذه الحروب لم تكن تقع إلا فى الأطراف الشمالية أو الجنوبية للجزيرة حيث يتاخم العرب الأجناس والدول الغريبة عنهم كالفرس والروم والأحباش .

كذلك كان يحدث أن يقاتل العرب فى صفوف الفرس أو

الروم أعداء هاتين الدولتين سواء أكان الأعداء عرباً أم غير عرب وذلك نتيجة للسياسة التي سارت عليها هاتان الدولتان فى حماية حدودهما الجنوبية بإقامة إمارتى الحيرة وغسان وكان يحكمهما ملوك من العرب يخضعون لسلطانهما ويحاربون فى سبيلهما .

كانت معظم حروبهم إذن داخلية قبلية ، وربما اشتركت فيها عدة قبائل متحالفة ليس لها مصلحة فى القتال إلا محالفة قبيلة تريد الحرب لرفع ظلم أو ردّ غَبن أو لسلب مال ونهب عير . ولم تكن هذه الحروب والغزوات تفجع البدو بكثير من القتلى إذ كانت الخطة المتبعة هى خطة حرب العصابات الحديثة فى معظم الأحوال وهى تلك التى تقول « اضرب واهرب » فقد كانت معظم غزوات الجاهليين قائمة على النهب والفرار بالغنيمة . ويقول بعض الباحثين إن البدوى كان يتحامى القتل جهده لأن تقاليدهم تقضى بأخذ الثأر أو الدّيات الباهظة ، وربما لا تغسل الديات الأحقاد لما فى قبولها وترك الدم من غضاضة ، ثم لاعتقادهم أنه إذا قتل الرجل ولم يدرك بثأره خرج من رأسه طائر يشبه البوم يسمونه الهامة أو الصدى ، فلا يزال يصيح : « اسقونى !

اسقونى ! » حتى يقتل القاتل أو أحد أقاربه . يقول ذو الإصبع العدوانى

يا عمرو إلا تَدَعْ شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامةُ اسقونى

وربما كان هذا الرأى تفسيراً بسيطاً لظاهر الأمر ، ولكن إذا كنا قد فهمنا إلى أى مدى كان الجاهلى يشعر بذاته ويهتم بها ، ولم تكن هناك عقيدة دينية أو مبدأ دنيوى يدفعانه إلى أن يضحى بهذه الذات فى سبيل نصرة عقيدة كما حدث فى الإسلام ، أو نصرة مبدأ كما يحدث فى الدفاع عن النظريات السياسية والاقتصادية . . . إذا كنا قد فهمنا هذا فإننا نستطيع أن نعرف السبب الحقيقى فى حرص المقاتل الجاهلى على حياته ، وليس معنى هذا أن أنانية الجاهلى منعته من الدفاع عن قبيلته أو أورثته الجبن والخور ، فالحروب الجاهلية تثبت عكس ذلك ، فقد كان المقاتل مستعدًّا لأن يضحى بنفسه فى سبيل الدفاع عن شرف القبيلة وكرامة العشيرة وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بشرف المرأة التى فى عصمته ، أو تلك التى تمثل شرف القبيلة وكرامة من يمثلونها كما حدث فى يوم البردان عند ما أسر زياد بن الهبولة هند بنت ظالم زوج حجر بن عمرو بن معاوية الكندى .

* * *

سبب آخر دعا إلى ظهور الفروسية الجاهلية وهو طبيعة الصحراء والأخطار التى كان يتعرض لها الجاهلى فى حياته اليومية وربما كان لفظ الأخطار لفظاً عامًّا يشمل كل مسببات الحروب التى وقعت فى العصر الجاهلى . ولكننى أعنى هنا نوعين من الأخطار فرضتهما حياة الصحراء ، أخطار أسبابها اقتصادية وأخرى أسبابها اجتماعية؛ ويتمثل النوع الأول فيما يعتور الجزيرة من قحط يدهمها بين حين وحين ، وجدب يقتل حيواناتها بين فترة وأخرى ، فكان على أفراد القبيلة أن يقاوموا هذا القحط وأن يدفعوا ذلك الجدب ، وهنا كان الصراع المرير يبلغ أشده بين القبائل على مواطن الكلأ والماء مما كان يتيح للفرسان أن يظهروا بطولتهم فى الدفاع عن هذه المواطن أو الإغارة عليها حفظاً لحياتهم وحيوات قبائلهم وأنعامهم، وربما اشتد القحط واكتظت بعض المناطق بساكنيها فلا يبقى هناك مفر من الهجرة ، فتخرج القبائل نازحة إلى مناطق أخرى تنزل فيها ، وربما نزلت على قبائل مقيمة فى تلك المناطق فينشب صراع هائل فى سبيل العيش قد ينتهى بانتصار المهاجر واستكانة النازل وبقائهما معاً فى هذا الموطن كما حدث عند ما نزل الأوس والخزرج فى ظاهر المدينة وتغلبوا على قبائل اليهود فيما بعد وجاوروهم ، أو هزيمة

المهاجر أو النازل فينزح المنهزم إلى مكان آخر يجد فيه المأوى والمرعى كما حدث لبعض قبائل عمرو بن عامر بعد أن هاجرت إلى الشمال بسبب اشتداد القحط بعد انهيار سد مأرب ، وتفرق القبائل القحطانية وسط الجزيرة وشماليها . وكان الفرسان هم عماد هذه الهجرات ووقود تلك الحروب .

كذلك كانت القوافل التجارية تقطع الصحراء شمالاً وجنوباً محملة بتجارة الشرق ، ولم تكن الطريق مأمونة لها أو ذلولة لسالكيها ، فظهرت طائفة من الفرسان تحمى القوافل وتؤمن الطريق وتأخذ الأجر على ذلك، وبرغم هذا لم تكن القوافل تسلم من الغارات عليها ، وقطع الطريق على أصحابها ، فنشبت الحروب بين حماتها وبين المغيرين عليها كما حدث يوم الصفقة فقد بعث كسرى أنوشروان إلى عامله باليمن عيراً تحمل نبعاً وهو شجر ينبت فى قمم الجبال كانت تصنع منه القسى والسهام . وكان جنود كسرى يخفرون القافلة من المدائن العاصمة حتى تصل إلى النعمان بالحيرة فيبعث معها النعمان بفرسان من بنى ربيعة يخفرونها حتى تدفع إلى هوذة بن على الحنفى فيخفرها حتى يخرجها من أرض بنى حنيفة ثم تدفع إلى تميم ويجعل لهم أجر فتسير فى حراسة فرسان بنى تميم حتى تبلغ اليمن وتسلم إلى عمال

كسرى هناك . ولما بعث كسرى بالعير ووصلت إلى اليمامة قال هوذة بن على لحراسها من الفرس : انظروا الذى تجعلونه لبنى تميم فأعطونيه وأنا أكفيكم أمرهم وأسير بها حتى تبلغوا مأمنكم . فلما بلغ بنى تميم ما صنع هوذة بن على ساروا إليهم وأخذوا ما كان بالقافلة فاقتسموه وقتلوا حماتها وأسروا هوذة بن على فافتدى منهم نفسه بثلاثمائة بعير . واستطاع كسرى أن ينتقم من بنى تميم بسبب ذلك .

فواضح هنا أن طبقة من الفرسان العرب كانت تأخذ جعلا من المال مقابل حراستها للقوافل التجارية وخاصة عند ما كانت تمر بأراضى قبائلها .

أما النوع الآخر من الأخطار فكان يتمثل فى نشوء طبقة من الفرسان الفقراء لهم تقاليدهم الخاصة وحياتهم المتميزة ، ربضوا فى بطن الصحراء يقطعون السبيل ويغيرون على القوافل ويتقاسمون الغنيمة ، ويتعاونون فى دفع المكروه عن أنفسهم وتلك الطبقة هى « صعاليك العرب » .

والصعاليك نفر من العرب فقراء جياع ، منبوذون من مجتمعهم ، مخلوعون من قبائلهم ، محتقرون من عشائرهم ، وقد كان قيس بن الحدادية يرى أنه لا يساوى عند قومه « عنزاً

جرباء جذماء» ؛ وفى أخبار الشنفرى أن قومه قتلوا رجلا فى خفرة بعض الفهميين فرهنوهم الشنفرى وأمه وأخاه وأسلموهم ولم يفدوهم . والمتأمل فى أخبار الصعاليك وأشعارهم يجد أنهم يشعرون شعوراً أليماً بفقرهم ويحسون إحساساً مريراً بهوان منزلتهم الاجتماعية وعدم تقدير المجتمع لهم ، لا لأنهم عاجزون وإنما لأن مجتمعهم ظلمهم وحرمهم العدالة الاجتماعية التى يتوقون إليها ، وحرمهم الوسائل المشروعة التى تسمح لهم بمواجهة الحياة كما يواجهها غيرهم . لذلك لم يجدوا أمامهم إلا أمرين : إما أن يقبلوا على هذه الحياة الذليلة وإما أن يشقوا طريقهم بالقوة نحو حياة كريمة يفرضون فيها أنفسهم وينزعون لقمة العيش من أيدى من حرمهم إياها ، دون أن يبالوا بالوسيلة التى يتخذونها سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة . فلا الموت يمنعهم ولا القتل فى ميادين القتال يصدهم . وقد سلك معظم الصعاليك السبيل الثانى يقول عروة :

إذا المرء لم يبعث سواماً ولم يُرَحْ ... عليه ولم تعطف عليه أقاربه
فللموت خير للفتى من حياته ... فقيراً ومن مولى تدبُّ عقاربه

ويقول

فقلت له :

ألا احْىَ وأنت حُرٌّ ستشبع من حياتك أو تموت

ويتضح مدى استهانة هؤلاء الناس بالحياة فى قول عروة أيضاً :

أرى أم حسان الغداة تلومنى تخوفنى الأعداء والنفس أخوف

لعل الذى خوفتنا من أمامنا يصادفه فى أهله المتخلف

ويقول تأبط شرًّا :

لو كنت فى ريمان تحرس بابه أراجيل أحبوش وأغضف آلف

إذن لأتتنى حيث كنت منيتى يخب بها هادٍ بأمرى قائف

إذن فهؤلاء الناس لا يثنيهم عن تحقيق أهدافهم شىء ولو كان الموت نفسه لأنهم يعلمون أن الموت لا مفر منه وسوف يلقاه كل فرد سواء أكان جباناً متخوفاً أم شجاعاً متهوراً لذلك اتسمت فروسيتهم بطابع المغامرة والجرأة الخارقة فخافهم العرب حتى إننا نجد فارساً من العرب المعدودين وهو عمرو بن معد يكرب يصرح بأنه لا يخشى أحداً من فرسان العرب إلا أربعة أحدهم السليك ابن السلكة الصعلوك. يقول : « لو سرت بظيعنة وحدى على مياه معد كلها ما خفت أن أغلب عليها ما لم يلقنى حُراها أو عبداها ، فأما الحران فعامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، أما العبدان فأسود بنى عبس (يعنى عنترة) والسليك بن السلكة ،

وكلهم قد لقيت ، فأما عامر بن الطفيل فسريع الطعن على الصوت ، وأما عتيبة فأول الخيل إذا أغارت وآخرها إذا آبت ، وأما عنترة فقليل الكبوة شديد الجلب وأما السليك فبعيد الغارة كالليث الضارى .

وعرف الصعاليك بالشجاعة الفائقة حتى لقد ضربت بشجاعتهم الأمثال ، فمن حديث لرسول المهلب يصف فيه للحجاج ابن يوسف الثقفى قتاله الخوارج :

« كان يقاتلهم بجنده مقاتلة الصعلوك » . وكان الصعاليك يأنفون من الأعمال التى يقوم بها العبيد كما يأنف السادة من رعى للإبل وخدمة للأحرار ، يقول تأبط شرًّا :

ولست براعٍ ثلة قام وسطها طويل العصا غُرنيق ضحلٍ مرسل

تلك إذن هى طبقة فرسان الصعاليك وهى طبقة سببتها ظروف اجتماعية واقتصادية ، وهم يختلفون عن الفرسان السادة الذين تفخر بهم القبائل إذ أنهم قوم دفعهم وضعهم الاجتماعى والاقتصادى إلى نوع من الفروسية تنبع مبادئها من طبيعتهم ومن ظروفهم ، وهى فروسية تختلف فى بعض مظاهرها عن فروسية السادة . ونلاحظ هذا الاختلاف عند ما يرسم تأبط شرًّا صورة الفارس الصعلوك فيقول :

قليل التشكى للمهم يصيبه
كثير الهوى شتّى النوى والمسالك

يظل بموماة ويمسى بغيرهـــا
جحيشاً ويعرورى ظهور المهالك

ويسبق وفد الريح من حيث ينتمى
بمنخرق من شـــدة المتدارك

إذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل
له كالئ من قلب شيحان فاتك

إذا طلعت أولى العدىّ فنَفَرُه
إلى سلة من صارم الغرب باتك

إذا هزّه فى عظم قِرن تهللتْ
نواجذ أفواه المنايا الضواحك

يرى الوحشة الأنسْ الأنيس ويهتدى
بحيث اهتدتْ أم النجوم الشوابك

فهو يقول إن الفارس الصعلوك صبور على الهموم كثير المسالك مختلف الهوى ، وهو يقطع الصحراء وحيداً راكباً ظهور المهالك ، وهو سريع العدو فحيثما اتجه فى سيره سبق الريح بخفته ، وهو ينام نوماً خفيفاً ، لا يغط فيه أو يستغرق ، وهو

شجاع فاتك يفزع إلى سيفه إذا طلعت إليه مقدمات الجيوش ، وهذا السيف متى حركه فى وجه قرن ضحك الموت لعلمه أنه ظافر به ، وهذا الفارس أنسه فى الوحشة والتفرد ، وهو يعلم طرق الصحراء ويسير فيها دون دليل يهتدى كما تهتدى الشمس فى حركتها اليومية .

هذه صورة الفارس الصعلوك وهى تختلف عن صورة الفارس السيد الذى يمثلها مثلاً عمرو بن كلثوم حين يقول :

أبا هند فلا تعجل علينـــا وأنظرنـــا نخبرك اليقينـــا
بأنـــا نورد الرايات بيضاً ونصدرهن حمراً قد روينا
وأيام لنـــا غرّ طـــوال عصينا الملك فيها أن ندينـــا
وسيد معشر قـــد توجوه بتاج الملك يحمى المحجرينا
تركنا الخيل عاكفة عليه مقلـــدة أعنتهـــا صفونـــا
وأنزلنا البيوت بذى طلوح إلى الشامات تنفى الموعدينا
وقد هرت كلاب الحى منا وشذ بنا قتادة من يلينـــا
متى ننقل إلى قوم رحانا يكونوا فى اللقاء لها طحينا
يكون ثفالهـــا شرقى نجـــد ولهوتها قضاعـــة أجمعينا

ويستمر فى هذا الفخر وهذا الإحساس بالسيادة والسلطان إلى أن يقول :

ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبينا
ونحن إذا عماد الحى خرت على الأحفاض نمنع من يلينا
نجذ رءوسهم فى غير بر فما يدرون ماذا يتقونا

هذا وسوف نترجم لفارسين يمثلان الطبقتين .

* * *

وكان نتيجة لتلك الأخطار الطبيعية التى يجابهها الجاهلى فى صحرائه من مقابلة للوحش أو منازلة لقطاع الطرق أن اتجه تفكيره نحو اتخاذ وسيلة سريعة يستطيع بها الهرب من مثل هذه الأخطار التى لا يستطيع أن يدافع عن نفسه ضدها فكانت الناقة وكانت الفرس هما الوسيلتان السريعتان اللتان ينقذانه من هذه المآزق وإن كانت الفرس أفضل من الناقة فى هذه الناحية . وقد لاحظ بعض الباحثين أن العرب عرفوا الفرس فى صحراء نجد وقلت معرفتهم بها فى اليمن ويرجع ذلك إلى أن طبيعة الأخطار التى يمكن أن يقابلها العربى فى وهاد نجد تختلف عن تلك التى يمكن أن يقابلها العربى فى اليمن ، لذلك عنى أهل الصحراء بالفرس فكرموها وبالغوا فى رعايتها ، وحفظوا أنسابها فكانت وسيلتهم فى الهروب من مواطن الخطر كما كانت وسيلتهم فى مواجهتها.

فوجود الفرس فى الصحراء وإدراك الجاهلى لقيمتها وعنايته بها وحرصه عليها حرصه على وليده كان عاملا من العوامل التى ساعدت على نشأة الفروسية الجاهلية .

* * *

ولا نستطيع أن نهمل أثر الرياضة التى كان يزاولها الجاهلى كعامل من العوامل التى جعلت الفروسية الجاهلية تأخذ طابعها المألوف ولاسيّما أن هذه الرياضة كانت تعتمد على فرسه وسلاحه إلى حد كبير . فقد عرف العرب السباق بين الأفراس وليست حرب داحس والغبراء إلا نتيجة لهذا السباق . وقد جاء فى مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم سبق بين الخيل وأرهن وفى المسند أيضاً من حديث أنس أنه قيل له : أكنتم تراهنون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراهن ؟ قال : نعم ، والله لقد راهن رسول الله صلى الله عليه وسلم على فرس له يقال له سبحة فَسبق الناسَ فبش لذلك وأعجبه .

كذلك كان من رياضتهم ركوب الخيل والكر والفر بها ، والمقارعة بالسيوف والطعن بالرماح والرمى بالقوس والمصارعة بين ندّين . وكانت تلك الرياضات تدريباً عملياً يفرض على الفتى

الجاهلى ليصبح فارساً . فقد عرف ابن القيم الجوزية الفروسية فقال: « الفروسية أربعة أنواع أحدها ركوب الخيل والكر والفر بها والثانى الرمى بالقوس ، والثالث المطاعنة بالرماح ، والرابع المداورة بالسيوف ، فمن استكملها استكمل الفروسية » .

كذلك صارع رسول الله صلى الله عليه وسلم شباب قريش قبل الإسلام وبعده فقد صارع ركانة بن عبد يزيد بن هشام ابن المطلب مرتين أو ثلاثا قبل إسلامه وقيل لقد كان ذلك سبب إسلام ركانة ، فقد روى أن ركانة بن عبد يزيد الذى صارع النبى صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام وكان أشد الناس قال : يا محمد ! إن صارعتنى آمنت بك ، فصرعه النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال أشهد أنك ساحر ثم أسلم بعد .

كذلك كانت رياضة الصيد نوعاً من التدريب على تحكم الفارس فى فرسه وامتحاناً لقدرته على إصابة الهدف أثناء عدو جواده . والصيد ضرورة لجأ إليها الجاهلى لإشباع جوعه قبل أن يكون وسيلة من وسائل رياضته . وقد أتاحت له الصحراء بامتدادها الشاسع وحيواناتها الكثيرة السريعة العدو أن تتغلغل هذه الرياضة فى نفوسهم فكانوا يترنمون مشيدين بها واصفين لها ، ويفخرون ببراعتهم وقدرة خيولهم على العدو ، وكلنا يذكر صورة

امرئ القيس التى ذكر فيها كيف أن فرسه قيد الأوابد أى أنه استطاع أن يحاذى الوحوش فى عدوها فلا هى تسبقه ولا هو يسبقها ليمكن الفارس أن ينال بغيته فى صيدها . يقول واصفاً قدرته وقدرة جواده :

فعن لنا سرب كأن نعاجه　　عذارى دوار فى ملاء مذيل
فأدبرن كالجزع المفصل بينه　　بجيد معم فى العشيرة مخول
فألحقه بالهاديات ودونه　　جواحرها فى صرة لم تزيل
فعادى عداء بين ثور ونعجة　　دراكاً ولم ينضح بماء فيغسل
فظل طهاة اللحم من بين منضج　　صفيف شواء أو قدير معجل

* * *

بقى سؤال أخير قد يتردد فى أذهاننا ونحن نعالج العوامل التى أثرت أو ساعدت فى نشأة الفروسية الجاهلية وهو : ألم تؤثر فروسية الروم أو الفرس فى فروسية الجاهليين وإلى أى مدى يمكن أن يتغلغل هذا التأثير ؟

لا شك أننا نعلم أن الجزيرة العربية لم تكن منفصلة عن العالم الخارجى ، فقد كان احتكاك العرب بالفرس والروم مستمراً منذ وقت طويل بسبب الحروب والتجارة ، فعرف العربى كيف يلبس الفرسان من الفرس والروم ، وعرف بأية أسلحة يقاتلون

كما عرف فنون قتالهم وكيف يصاولون ويداورون .

فخر العرب بالسيوف المشرفية عند ما يقول شاعرهم :

ولو سئلت عنا جنوب لخبرت عشية سالت عقرباء بها الدم
عشية لا تغنى الرماح مكانها ولا النبل إلا المشرفى المصمم

فلو بحثنا فى معنى المشرفى من السيوف نجد أن من معانى هذه الصفة أن السيوف المشرفية منسوبة إلى مشارف الشام الخاضعة للنفوذ الرومانى أو مشارف الهند التى تحد الإمبراطورية الفارسية من الشرق وكانت العلاقة بين عرب الجزيرة وبين هاتين الدولتين مستمرة فى الجاهلية سواء عن طريق التجارة أو الحرب .

كذلك افتخر العرب بالرماح الخطية ، ويقول الأصمعى : لا أعلم إلا نسبة الخط وهى جزيرة بالبحرين إليها تنتسب الرماح إلا أن يقال إن سفن الرماح ترفأ إلى هذا الموضع فقيل للرماح خطية . ونقول متسائلين : ومن أين كانت تجىء هذه السفن التى كانت ترسو فى جزائر البحرين ومنها تنتقل إلى الجزيرة العربية ؟ فإما أنها آتية من الهند أو جنوب فارس [1] .

كذلك يفتخر العرب بالكنائن الزغرية ، والكنانة محفظة

---

(١) عن الجوهرى : الخط موضع باليمامة ، وهو خط هجر تنسب إليه الرماح الخطية لأنها تحمل من بلاد الهند فتقوم به .

(اللسان مادة خطط)

النبال ، وهى منسوبة إلى زُغَر موضع بالشام تعمل به كنائن حمر مذهبة أى أنها من مناطق رومانية ، يقول أبو دؤاد واصفاً فرساً :

ككنانة الزُغرى زينهـا (م) من الذهب الدلاص

ومن عدتهم الحربية أيضاً الدرع وهو القميص المتخذ من الزرد ، ويظهر أن مثل هذه الدروع كانت تصنع أفضل أنواعها خارج الجزيرة العربية إذ يقول الشاعر العربى :

بكل فرعـونية لونهـا لون فضيض البخشة الغاديه

فالدرع هو هذه الفرعونية منسوباً إلى فرعون مصر .

عرف العرب كذلك المنجنيق وهو آلة تقذف بها الحجارة أو الحرق المشتعلة على حصون الأعداء وقد نصب رسول الله صلى الله عليه وسلم منجنيقاً على أهل الطائف . وواضح أن هذه الآلة غير عربية .

إذن لا شك أن فروسية الشعوب الشمالية قد أثّرت فى الجزيرة العربية ولكننا لا نستطيع أن نقول إن هذه الشعوب أثرت فى العرب التأثير كله وإنما هو نوع من التأثير حتمته طبيعة المخالطة ، وفرضته هذه الاحتكاكات المستمرة .

وإذا أردنا أن نبين كيف أن العرب تفردوا فى كثير من مظاهر الفروسية ، فلنقارن بين فن القتـال عند العرب هذا

الفن عند الفرس والروم ، فالخطة الجاهلية تعتمد على خفة المقاتل وسرعة حركته لينفذ مبدأ « الكر والفر » وهو المبدأ الذى تطبعت به الحروب العربية جميعها . يقول الألوسى : « وصفة الحرب الواقعة بين أهل الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين : نوع بالزحف صفوفاً ، ونوع بالكر والفر . أما الذى بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم ، وأما الذى بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب » وتلك الخطة هى التى نجد امرأ القيس يدرب فرسه عليها ويمدحه بها عندما يقول :

مكر مفر مقبل مدبر معا　　كجلمود صخر حطه السيل من عل

وليس الكر والفر مبدأ اخترعه العرب وإنما فرضته ظروف الصحراء ، إذ عند ما يهاجم الجيش العربى قوات العدو ثم تشتد عليه وطأة القتال ينسحب إلى الصحراء — حاميته الأولى وحصنه الصعب الاختراق — فلا يستطيع العدو أن يتبعه داخلها ، فيجمع شمله وينظم صفوفه ثم يهجم ثانياً ، ويتكرر هذا الكر والفر حتى تتكسر قوة جيش العدو فيهجم الهجوم الأخير الساحق ويفسر بعض الباحثين الكثير من الحروب الإسلامية على أساس هذا المبدأ ، بل إن خالد بن الوليد قد نفذه تنفيذاً متقناً فى حروبه وخاصة فى غزوة أحد وفى موقعة اليرموك .

وبهذا المبدأ أيضاً يعلل بعض الباحثين نشأة المدن العسكرية الإسلامية كالكوفة والفسطاط . فعندما نزل عمرو بن العاص الجيزة رفض عمر بن الخطاب أن يعسكر الجيش الإسلامى فى هذه المنطقة الزراعية وطلب منه أن يختار مكاناً آخر يقع على أطراف الصحراء ليناسب البيئة العربية ثم لتحميهم الصحراء عندما يقوم الجيش بتنفيذ خطة «الكر والفر» ؛ ونحن نذكر كيف أن بعض القبائل التى نزلت الجيزة رفضت الانتقال بعد أن ألفت الحياة الناعمة ، فطلب منها عمرو بن العاص أن تبنى حصناً لها تلجأ إليه بدلا من اللجوء إلى الصحراء ، فرفضت هذه القبائل لأنها ليست ممن يقاتل من وراء الحصون وأخيراً قبلت بناء الحصن بعد جدال طويل .

أما الخطة الفارسية والرومانية فكانت عكس الخطة العربية، فهم إما مهاجمون فى صورة زحف صفوفاً وراء صفوف ، أو مدافعون من وراء الحصون . وفى كلتا الحالتين يتحمل الجيش الكثير من الصعاب وخاصة إذا كان أمامه جيش من العرب ينفذ خطة « الكر والفر » فالمهاجم للجيش العربى إذا فشل هجومه تعرض للهزيمة ، والمدافع ضد هجماتهم من وراء الحصون تفل عزيمته ويرفع راية التسليم بعد حصار طويل تتفشى فيه المجاعة

والأمراض فتهوى روح الجيش المعنوية إلى الحضيض ، لذلك لم يغير العرب من خطتهم هذه حتى فى العصور الإسلامية الأولى عصور الفتح والحضارة الزاهرة .

وقد لا نستطيع فى هذا الكتيب الصغير أن نتناول بالمقارنة الطويلة مدى تأثير الفروسية الفارسية والرومانية فى فروسية الجاهليين ، ولكنى أعتقد أن هذه الإشارات السريعة تبين أن هناك نوعاً ما من التأثير وبخاصة فى بعض ألوان التسليح أو فى تقاليد المبارزات الفردية ، وكذلك فى تأثر الخيال العربى بنموذج الفارس الفارسى لأن قصص فرسان الفرس والأساطير التى تتناول حياتهم كقصص رستم واسفنديار كانت معروفة للجاهليين قبيل الإسلام ، وكانوا يستمعون إليها فى مجالس سمرهم وساعات لهوهم من قصاصين من العرب سافروا إلى الشمال والشرق وعاشوا بين هذه الشعوب فترات طويلة . ومن هؤلاء القصاص من عارض قصص القرآن بقصص الفرس ، وحاول أن يقلل من أهمية هذه الأخبار التى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعظ قومه بها .

تلك إذن هى العوامل التى دعت إلى ظهور الفروسية الجاهلية والمؤثرات التى وجهتها وجهة معينة أو طبعتها بطابع خاص .

٢

والآن ما هى صفات الفارس العربى الجسمية وما هى تقاليده ومثله ، ثم ما هى أسلحته وألوان فروسيته ، وأخيراً ما هى أخلاقه وعلاقاته بمجتمعه الجاهلى وما نظرة هذا المجتمع إليه ؟ كل هذه الأسئلة يستطيع التاريخ القديم والشعر الجاهلى أن يجيبا عنها فى دقة .

ليس هناك اختلاف كبير فى التكوين الجسمى وملامح الخلقة بين الجاهلى القديم فى صحرائه وبين البدوى الحديث فى جزيرته . فكلاهما جاف العود ، صلب التكوين ، يميل إلى السمرة الشديدة بسبب حرارة الشمس وشظف العيش ، وقد يكون هناك اختلاف طفيف بين الفارس السيد والفارس العبد أو الصعلوك من ناحية المظهر الجسمى كظهور آثار النعمة والعيش الرغيد على السيد وعدم ظهورها على الصعلوك والعبد . وإذا تأمل إنسان وجه البدوى فسيجده أسود العينين مقوس الأنف شفتاه أقرب إلى الغلظة ، وشعره أقرب إلى التجعد . وهو يميل إلى الطول

لذلك مدح العرب الرجل الطويل النجاد أى طويل حمائل السيف يعنون بذلك مدح ظاهرة الطول فى العربى .

والعربى حديد البصر ، سريع العدو ، ماكر التفكير ، وكلها صفات تتطلبها البيئة التى يعيش فيها ، وليس معنى ذلك أن العرب جميعاً لهم تلك الصفات ، فهناك من اختلطت دماؤهم بدماء أجنبية لذلك نجد فيهم الأبيض اللون والأشقر الشعر ، كما نجد فيهم شديد سواد البشرة تشبه ملامحه ملامح الزنجى .

وإذا عرضنا لملابس الفارس العربى فسنجد رسالة من عمر ابن الخطاب ينصح فيها فرسان المسلمين يقول فيها : « أما بعد ؛ فاتزروا وارتدوا وانتعلوا ، والقوا الخفاف ، والقوا السراويلات ، وعليكم بثياب أبيكم إسماعيل ، وإياكم والتنعم وزى العجم ، وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب ، وتمعددوا ، واخشوشنوا ، واخلولقوا ، واقطعوا الركب ، وانزوا على الخيل نزواً ، وارتموا الأغراض » .

وواضح فى هذه الرسالة أنها نوع من التعليم للفروسية كما يقول ابن القيم الجوزية ، فهى لا تصف ملابس الفارس العربى فحسب بل تحدد طريقة معيشته ، وتصور كيفية ركوبه ، وترسم خطة قتاله .

فقد أمر عمر بن الخطاب فرسانه بالائتزار والارتداء والانتعال وإلقاء الخفاف لتعتاد الأرجل الحر والبرد فتتصلب وتقوى على دفع أذاهما ؛ وأما قوله : « وألقوا السراويلات » فذلك استغناء عنها بالأزر فهو زى العرب إذ يدل قوله : « وعليكم بثياب أبيكم إسماعيل» أن لباسه كان الأزر والأردية وهى لباس العرب جميعاً الشائع بينهم . ولقد دعا عمر بن الخطاب فرسانه ألا يرتدوا زى الفرسان الأعاجم وهى تلك الملابس الثقيلة التى تعوق الحركة ، وتفقد الفارس سرعة المداورة ودقة المحاورة .

وينصح عمر فرسان المسلمين فيقول : « وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب» فإن العرب لم تكن تعرف الحمام وكانوا يتعوضون عنه بالشمس فإنها تسخن وتحلل كما يقول ابن القيم . ولكن هذا القول لا ينفى أن العرب عرفوا الاغتسال . ويعنى عمر بقوله : « وتمعددوا » أى الزموا المعدية وهى عادة معد بن عدنان أب العرب وذلك فى أخلاقه وزيه وفروسيته . وقوله « واخشوشنوا واخلولقوا » أى تعاطوا ما يوجب الخشونة ويصلب الجسم وتهيئوا واستعدوا لما يراد منكم وكونوا خلقاء به جديرين بفعله . ثم قوله « واقطعوا الركب » فإنما أمرهم بذلك لئلا يعتادوا الركوب دائماً بالركاب فأحب أن يعودهم الركوب بلا ركب وأن ينزوا على

الخيل نزواً ثم يرتموا الأغراض فيكون قصدهم فى الرمى الإصابة لا البعد .

فإذا نظرنا فى أسلحة الفارس الجاهلى فسوف نجد أن السيف أقربها إلى نفسه لأنه كما يقولون يُغْنى عن غيره ولا يغنى عنه غيره ويعمل به عمل السلاح كله، إذ يذكر ابن هذيل الأندلسى أن العرب كانت تطعن به كالرمح ، وتضرب به كالعمود ، وتقطع به كالسكين ، وتجعله سوطاً ومقرعة ، وتتخذه جمالا فى الملأ ، وسراجاً فى الظلمة ، وأنساً فى الوحدة ، وجليساً فى الخلاء ، وضجيعاً للنائم ، ورفيقاً للسائر . قال عتبة بن عبد السلمى : أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفاً قصيراً فقال : « إن لم تستطع أن تضرب به فاطعن به طعناً » لذلك اشتهرت السيوف العربية وكثرت أسماؤها فسموها عطافاً ووشاحاً وعصا ورداء وثوباً. كذلك أرخ العرب لها ولهجوا بها فى أشعارهم . قال الأحنف بن قيس : ما تزال العرب عرباً ما لبست العمائم وتقلدت السيوف ولم تَعْدُد الحلم ذلا .

وقد وصفت العرب السيف الجيد والسيف الردىء . فقد سأل أعرابى ابنين له عن أحب السيوف إليهما ، فقال أحدهما :

الصقيل الحسام ، الباتر المخذام [١] الماضى السطام [٢] ، المرهف [٣] الصمصام [٤] الذى إذا هززته لم يكب وإذا ضربت به لم ينب . فقال للآخر : فما تقول أنت ؟ فقال : نعم السيف نعت ، وغيره أحب إلى دونه . قال : وما هو ؟ قال : الحسام القاطع ، والرونق اللامع ، الظمآن الجائع ، الذى إذا هززته هتك ، وإذا ضربت به فتك . فقال لهما : أخبرانى عن أبغض السيوف إليكما ؟ فقال أحدهما : الفُطار [٥] الكهام [٦] ، النابى عن اللحم والعظام ، الذى إذا ضرب به لم يقطع ، وإذا ذبح به لم ينجع . فقال الآخر : فما تقول أنت ؟ قال : بئس السيف نعت وغيره أبغض إلىّ منه . قال : وما هو ؟ قال : الطبع [٧] الدّدان [٨] ، المعضد المهان ، الذى إذا ضرب به لم يسل الدم وإن أنت أكرهته .

---

(١) القاطع .
(٢) الحد .
(٣) الرقيق .
(٤) الذى لا ينثنى .
(٥) المتشقق .
(٦) الكليل .
(٧) الذى علاه الصدأ .
(٨) الذى لا يقطع .

كذلك تردد ذكر السيف فى أقوال العرب وأمثالهم فهم يقولون : السيف ظل الموت ولعاب المنية . ويكنونه بأبى الوجل .

ونتيجة لهذا التقدير نجد العرب يصفون كل جزء من أجزائه ويسمونه اسماً خاصاً به فهذا جوهره وذاك ذبابه وظبته وغراره وعموده . . إلخ

وكذلك فعلوا بغمده .

وقد اشتهرت سيوف عربية إما لدقة صنعها أو شجاعة أصحابها فكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جملة أسياف منها ذوالفقار الذى غنمه يوم بدر ، والعضب وكان أعطاه إياه سعد ابن عبادة ، ومنها أيضاً البتار والمخذم والرسوب والحتف .

وقد سأل عمر بن الخطاب يوماً عن أى سيوف العرب أمضى ؟ فقيل له : صمصامة عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، فبعث عمر إلى عمرو أن يرسل إليه سيفه ، فبعث به إليه ، فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه ، فكتب إليه فى ذلك ، فرد إليه : إنى إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث إليه بالساعد الذى يضرب به !

يقول طرفة واصفاً سيفاً :

وآليت لا ينفك كشحى بطانة ً لعضب صقيل الشفرتين مهنّد ِ
أخى ثقة لا ينثنى عن ضريبة إذا قيل : مهلا ، قال حاجزه : قد
إذا ابتدر القوم السلاح وجدتنى منيعاً إذا ابتلت بقائمه يدى

وتعتقد العرب أن السيف إذا سل من غمده دون أن يضرب به أورث الجبن . وهم يعرفون خطورة هذا السلاح فمن عمل به بغير حذر ولا دربة أصاب أذن فرسه أو عضده ، وربما أصاب أذن نفسه أو رجله فقطعها أو أثر فيها . لذلك يدربون الفارس الناشىء على طريقة استعماله ، وقد تطور هذا التدريب حتّى عصر ابن هذيل حين يقول : ومن أراد التعلم به والتّمرن فى الضرب فليعمد إلى قصبة رطبة أو قضيب رطب ، ويثبت أصله فى الأرض ، ويتوثق منه ، ثم يتباعد عنه ، ويجعله على يمينه ويجرى فرسه ملء فروجه ، فإذا دنا منه سل سيفه بسرعة وحذر وخفة ، ونفح [1] به ما يحاذى رأسه من ذلك القضيب أو القصبة أو يضرب ذلك شزراً [2] بلباقة وخفة ، يفعل ذلك مراراً يقص فى كل طلق منه ما أمكنه إلى أن يبقى قدر ذراع ، ويدمن العمل حتّى يصير له عادة ويخف عليه العمل به .

---

(١) النفح : الضرب به إلى خارج اليمين .

(٢) الشزر : الضرب به عن يمين وشمال .

ويشرح القدماء طريقة استخدام الفارس لهذا السلاح فيقولون: إذا أراد الفارس العمل به طرّف رجله فى ركابه حتّى لا يظهر منها شىء عن مقدم الركاب بحسب ما يمكن اعتماده عليه ، ويضرب بالسيف نفحاً وشزراً إلا ما كان قبالة وجهه فيكون حينئذ أشدّ حذراً على نفسه وفرسه ، ويعتلى يده عند الضرب به إلى الخارج ليكون آمنا ، ويطرح مقابله عن يمينه أبدا فى كل حال .

والرمح من أسلحة الفارس ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« عليكم بالقنا والقسى فبها نصر نبيكم وفتح لكم فى البلاد ».

وسئل أعرابى عن أحب الرماح إلى نفسه فقال : المارن المثقف ، المقوم المخطف ، الذى إذا هززته لم يتعطف وإن طعنت به لم يتقصف . ثم سئل عن أبغض الرماح إليه فقال : الأعصل عند الطعان ، المثلم السنان ، الذى إذا هززته انعطف ، وإذا ضربت به انقصف .

وللرمح أسماء عدة تبعا لأوصافه فهو صعدة إذا كانت العصا قد نبتت مستوية وهو لدن ومارن إذا كان لينا ، وسمهرى إذا كان شديدا ، وصدق إذا كان صلبا . وكذلك فصل العرب

أجزاءه وأعطوا لكل جزء اسما .

وتطور تدريب الفرسان على الطعن بالرماح على مر التاريخ العربي . يقول ابن هذيل فيمن أراد أن يركب جواده ورمحه معه إنه يأخذ رمحه بيمينه وعنانه بشماله مع قربوس[1] سرجه ، ويضع زُج رمحه بالأرض ويبعد منها قليلا ، ويضع صدر قدمه اليسرى فى ركابه الأيسر ثم يعتمد على الرمح ويرفع نفسه على فرسه وينهض وهو يدير الرمح على كفل الفرس إلى الجانب الأيمن حتى يستقل بسرعة ثم يضع الرمح فى يساره مع العنان ويسوى ثيابه وآلته بيمينه ثم يصرف رمحه إلى يمينه . ولا ينبغى أن يتعرض الرجل لأخذ رمحه من الأرض وهو راكب فربما وطئه الفرس فكسره أو ضربه فأبعده عنه ، وحين ينزل بالرمح فهو يأخذه بيساره ويضع زجه بالأرض عند يد فرسه اليسرى ويأخذ القربوس بيده اليمنى ثم ينزل وحين يصير إلى الأرض يأخذ رمحه بيمينه بسرعة لئلا يدور عليه الفرس فيحطمه أو يصيب الأرض بسنانه أو يعقر أحداً .

وحين يدرب الفارس على العمل بالرمح يضع رديئة وهى

---

(١) قربوس السرج : حنوه .

عود أو شبهه قائما بالأرض قدر ارتفاع الفارس ، ويتوثق من أسفله ، ويشد فى أعلاه حلقه أو حبلا ملتويا يشبه الحلقة ، ثم يتباعد عنه ويجرى فرسه ملء فروجه فإذا قرب من تلك الرديئة تأبط رمحه وأخرج منه عن إبطه بقدر ما يخف عليه حمله وتحتمله قوته ثم يأخذ سنانه تلك الحلقة ، ثم يلوى رمحه بسرعة ليخلص السنان من الحلقة .

ومن أسلحة الفارس القوس والنبل . قال صلى الله عليه وسلم : «منتهى المؤمن القوس والنبل » والقسى جنسان: قوس اليد وهى العربية ، وقوس أفرنجية لم يعرفها الجاهليون . وكان الشنفرى من أوصف الشعراء للقسي بشهادة الحطيئة والفرزدق . قال :

وإنى كفانى فقد من ليس جازيا
بحسنى ولا فى قربة متعلل

ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع
وأبيض أصليت وصفراء عيطل

هتوف من الملس المتون يزينها
رصائع قد نيطت إليها ومحمل

إذا زل عنها السهم حنت كأنها
مرزأة ثكلى ترن وتعول

كذلك عُرف الجاهليون الدرع وهو القميص المتخذ من الزرد « والبيضة » وهي ما يلبس في الرأس « والمجن أو الترس أو الدرقة » وهي أسماء ثلاثة لشيء واحد يصنع من الجلد يتقي الفرسان بها وقع السيوف .

وقد عرف العرب اللواء يتخذونه في حروبهم يلتفون حوله ويستدلون به على قبائلهم حين يشتد القتال ويختلط الفرسان .

بقي بعد ذلك أهم عون للفارس في القتال وهو فرسه . وقد قدر العرب الجواد تقديرا كبيرا ، ونظرة واحدة في المكتبة العربية توضح إلى أي مدى اهتم المؤلفون بتسجيل تاريخ الأفراس وأنسابها ككتاب ابن هشام الكلبي في نسب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها ، وكتاب ابن الأعرابي في أسماء الخيل وفرسانها ، والفصول الطويلة التي كتبها الجاحظ عنها في كتاب الحيوان ، ثم ما جاء بعد ذلك عنها في كل مؤلف يتعلق بتاريخ العرب وأحوال معيشتهم .

ولم تكن العرب تعد المال في الجاهلية إلا الخيل والإبل ، وكان للخيل عندها مزية على الإبل فلم تكن تعدل بها غيرها ،

ولا ترى القوة والمنعة بسواها ، لذلك اهتم العرب بمعرفة خصائص هذا الحيوان ودرسوه دراسة طبيعية ونفسية . يقول الجاحظ : الفرس من طبعه الزهو فى المشي ويحب سائسه ويعجبه راكبه ، ولا يحب الأولاد ، وهو غيور ويعرف المصيبة . كذلك وصفوا أعضاءه وما يستحب منها خَلْقاً ولوناً . سأل عمر بن الخطاب العبسيين : أى الخيل وجدتموه أصبر فى حروبكم ؟ قالوا : الكميت .

وقال امرؤ القيس واصفاً جواده :

كميت يزل اللبد عن حال متنــه
كما زلت الصفواء بالمتنــزل

وقد وضعت العرب لعتاق الخيل أسماء تدل على عتقها وكرمها فى أوصاف مخصوصة فمن ذلك « الطرف » وهو الحسن الطويل « واللهموم » وهو الجيد الحسن الخلق الصبور على العدو « والنهد » العظيم الشديد الأعضاء وغير ذلك من أسماء تشير إليها كتب الخيل .

وكان العربى فى صباه يتعلم ركوب الخيل ليصبح فارسا فى شبابه ويقول ابن هذيل واصفا طريقة هذا التعليم : « واعلم

أرشدك الله أن أصل الفروسية الثبات وأن مبتدأها إنما هو الركوب على العرى من الخيل ، ومن لم يتدرب أولا على عرى لم يستحكم ثبوته فى الغالب ، بل يكون أبداً قلقا فى سرجه ، لا سيما عند خببه وركضه ، فلا يُؤْمَنُ سقوطه إن اضطرب فرسه أو أصابته هنة » . ثم يقول : « فمن أراد التفرس على العرى فليلبس ثياباً خفافاً مشهرة ، ويلجم فرسه ، ويشد عليه جُلّ صوف أو شعر وثيق الحزام واللبب ، فإن الراكب على الجلّ أثبت منه على المجرد ، ويقف على يسار فرسه عند منكبه ويمسك عنان لجامه بيده اليسرى . وإن أخذ العرفُ مع العنان فلا بأس به ، ويثب بسرعة وخفة ، فإذا استوى على ظهره جمع يديه فى العنان عند كاهل الفرس ، ونصب ظهره ، ولزم بفخذيه موضع دفتى السرج من ظهر الفرس ، ويتقدم قليلا ، فالتقدم أحسن على العرى من التأخر ، ويمد ركبتيه وساقيه وقدميه إلى كتفى الفرس حتى يمكنه أن ينظر إلى إبهامى قدميه ، وليكن اعتماده على اللزوم بفخذيه فبذلك يحوز الثبات » . وكل من لزم ركوبه غير ذلك فلا ركوب له ولا ثبات » .

وقد اشتهرت بعض الأفراس بشهرة فرسانها مثل العطاف

فرس عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، والمطال فرس زيد الخيل ابن مهلهل الطائى وفيه يقول :

أقرب مربط المطال إنى أرى حربا تلقح عن حيال
أسويه بمكنف إذ شتونا وأوثره على جل العيال

وقد سمى زيد الخيل لكثرة خيله ، فمن عتاقها غير المطال : الكامل والكميت والورد ولاحق وذءول . كما اشتهر البريت فرس ابن قبيصة الطائى واليحموم فرس النعمان بن المنذر . وفى كتاب ابن الأعرابى فى أسماء الخيل نجده يذكر قوائم كثيرة لأسماء خيول القبائل ، كل قبيلة على حدة ، فتلك أسماء خيل بنى هاشم ثم خيل قريش وخيل بنى أسد وخيل بنى ضبة وخيل بنى سليم وخيل هوازن . . . إلى آخر سلسلة القبائل العربية .

وتتضح عناية العرب بخيلها إذا تصفحنا الكتب التى سجل فيها مؤلفوها أنساب الخيل ككتاب ابن هشام الكلبى إذ نشعر بقيمة الفرس وحرص الجاهلى على تسجيل نسبه ليقدر أصالته ، فداحس ذلك الفرس المشهور فى أيام عبس وذبيان هو ابن ذى العقال وأمه جلوى ، والغبراء خالة داحس وأخته لأبيه كما ذكر ابن الكلبى . وقد روى لأحد بنى عامر بن صعصعة

أبياتاً يصور فيها فضل الخيل على قومه . يقول فيها :

بنى عامر مالى أرى الخيل أصبحت
بطانا وبعض الضمر للخيل أفضل
بنى عامر إن الخيــول وقايــة
لأنفسكم والمــوت وقت مؤجل
أهينوا لها ما تكرمون وباشروا
صيانتهــا ، والصون للخيل أجمــل
متى تكرمــوها يكرم المــرء نفسه
وكل امرئ من قومه حيث ينــزل

ويروى أن أحد فرسان العرب الجاهليين وهو عبيدة بن ربيعة التميمى قد طلب منه أحد ملوكهم فرسا تسمى سكاب فمنعها منه وقال :

أبيت اللعن إن سكاب علقٌ نفيس لا يعــار ولا يباع
مفــداة مكرمــة علينــا يجــاع لها العيال ولا تجاع
سليلة سابقين تنــاجــلاها إذا نسبا يضمهما الكراع
ففيها عزة من غــير نفــر يحيدها إذا حر القراع

فلا تطمع – أبيت اللعن – فيها ومنعكها بشيء يستطاع
وكفى تستقل بحمل سيفى وبى ممن تهضمنى امتناع
وحولى من بنى قحفان شيب وشبان إلى الهيجا سراع
إذا فزعوا فأمرهم جميع وإن لاقوا فأيديهم شعاع

فالفارس يتحدى الملك ويعلن أنه وقبيلته سيحاربون فى سبيل هذا الفرس حتى لا يأخذه الملك . وقد عرف العرب نفسية الخيل وأخلاقها وخاطبوها مخاطبتهم للآدمى . يقول عنترة مصورا حالة جواده ونفسيته أثناء المعركة .

فازور من وقع القنا بلبانه وشكى إلى بعبرة وتحمحم
لوكان يدرى ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمى

وإذا كان قد تحدثنا عن عدة الفارس : ملابسه وسلاحه وفرسه فقد بقى أن نعرف أخلاقه وتقاليده ومثله وعلاقاته بمجتمعه وعلاقة المجتمع به .

فلو نظرنا فى أخلاقه فسنجدها الأخلاق التى يتصف بها العرب جميعا وإن امتاز الفارس فيها امتيازا خاصا . فالفارس شجاع وكريم وعزيز النفس ، يحترم المرأة ويدافع عنها ، ويجير

المستجير ، ويغيث الملهوف ، ويعمل على رفع الظلم عن المظلومين ، وهو يخلص لعشيرته القريبة قبل إخلاصه لقبيلته الكبيرة فإذا تعارضت مصالحهما انضم فى أغلب الأحيان إلى جانب عشيرته القريبة ، فهى أولى بإخلاصه وحمايته . ثم هو بعد ذلك يشرب الخمر ويلهو بالنساء ويجد فى ذلك وفى تبذير ماله عليهما موطن فخر وزهو . وهو شاعر وخطيب يدافع عن قبيلته بلسانه كما يدافع عنها بسيفه ، ويفتخر بمآثرها فى شعره ، ويردد أمجادها فى قصائده . وقد أحب كثير من فرسان الجاهلية فصدحت أشعارهم بأعذب نغم ، وكشفت أغانيهم عن أرق العواطف وأنبل الأحاسيس .

وإذا أردنا أن نمثل لأخلاق الفرسان فسنجد أن افتخارهم بالشجاعة يشمل معظم أشعارهم وأقوالهم . فهم يتمادحون بالموت فى القتال ويتهاجون بالموت على الفراش ويقولون فيه « مات فلان حتف أنفه » وقد جاء أن أعرابيا بلغه قتل أخيه فقال : «إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه إنا والله لا نموت حتفا ولكن قعصا بأطراف الرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف » .

قال عنترة :

بكرت تخوفني الحتوف كأنني
أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها إن المنية منهل
لا بد أن أسقى بكأس المنهل

فاقني حياءك لا أبالك واعلمي
أني امرؤ سأموت إن لم أقتل

ولم يعتمد فرسان القبيلة الواحدة في حروبهم على أعدادهم بقدر ما كانوا يعتمدون على شجاعتهم وقدرتهم في القتال ، فقد قيل لعنتره : كم كنتم يوم الفروق ؟ قال : كنا مائة كالذهب لم نكثر فنكل ولم نقل فنذل » .

وكما افتخر العرب بشجاعتهم افتخارا عظيما افتخروا أيضا بقدرتهم وكفاءتهم كفرسان مدربين . قال ربيعة بن مقروم الضبي :

ولقد شهدت الخيل يوم طرادها
بسليم أوظفة القوائم هيكل

فدعوا نزال فكنتُ أول نازل
وعلام أركبه إذا لم أنزل

وألـــد ذى حنـــق علىّ كأنمـــا
تغلى عـــداوة صـــدره فى مرجل
أرجبتـــه عنى فأبصر قصـــده
وكويتـــه فوق النـــواظر من عل

وقد اشتهر من فرسان الجاهليين كثيرون ضربت بشجاعتهم الأمثال منهم خالد بن جعفر بن كلاب العامرى ، وعتيبة بن حارث ، وربيعة بن مكدم وعنترة العبسى وملاعب الأسنة وابن جذل الطعان ، وزيد الخيل ، وزيد الفوارس وعامر بن الطفيل . والملاحظ أن بعض هؤلاء الفرسان لقبوا بألقاب مشتقة من أسماء السلاح كملاعب الأسنة أو بشهرتهم فى استعمال أسلحتهم كابن جذل الطعان . وسوف نترجم لبعضهم فى هذا الكتاب .

وكما اشتهر الفرسان بالشجاعة اشتهروا بالكرم أيضا . يقول عروة أحد فرسان الصعاليك :

سلى الطارق المعتر يا أم مالك إذا ما أتانى بين قدرى ومجزرى
أيسفرُ وجهى أنه أول القرى وأبذل معروفى له دون منكر

وأخبار سخاء هذا الفارس صفحة رائعة من صفحات الخلق

العربى فى الإيثار وبذل ما فى اليد للمحتاج .

يقول عمرو بن كلثوم مصورا كرم قبيلته وشجاعة أفرادها :

نعم أناسنا ونعف عنهم ونحمل عنهم ما حملونا
نطاعن ما تراخى الناس عنا ونضرب بالسيوف إذا غشينا

ونلمح خصائص خلقية أخرى للفارس الجاهلى حين يقول :

أثنى علىّ بما علمت فإننى سمح مخالقتى إذا لم أظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمى باسل مُر مذاقته كطعم العلقم
وإذا شربت فإننى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يُكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى

فمن صفات الفارس إذن أنه يشرب الخمر ويبذل ماله فى شرائها لأنها علامة من علامات الرجولة والثراء ، كما أنها علامة من علامات السيادة والكرم .

والفارس العربى حليم سمح الخلق إلا إذا ظلم فعندئذ يصبح ثورة تدمر ظالميه كما يقول عنترة . ومن الحكم المشهورة لدى الجاهليين « إذا ملكت فاسجح » ، والإسجاح حسن العفو .

وقد ترنم العرب بهذه الخلة الخلقية ، واعتبروها من صفات الرجل العظيم . يقول المهلهل الفارس المشهور فى إحدى مراثيه لأخيه كليب :

وإنك كنت تحلم عن رجال وتعفو عنهم ولك اقتـــدار
وتمنـــع أن يمسهم لســـان مخـــافة من يجـــير ولا يجار

ونسمع معن بن أوس يكظم غيظه لإساءة بعض الناس له وهم من أقاربه فيبلغ القمة فى الحلم حين يقول :

وذى رحم قلمت أظفار ضغنـــه
بحلمى عنه وهو ليس له حلم
يحـــاول رغمى لا يحاول غـــيره
وكالموت عندى أن يعزّ به الرغم
وإن أعف عنه أغض عينا على قذى
وليس له بالصفح عن ذنبه علمُ
صبرتُ على ما كان بينى وبينه
وما يستوى حرب الأقارب والسلم

ويقول الحارث بن وعلة الجرمى يقتل بعض أقاربه أخاه :

قومى هم قتـــلوا أميم أخى فإذا رميت يصيبنى سهمى

فلئن عفوت لأعفونْ جللا ولئن سطوت لأوهين عظمى

ورغم أن الفارس العربى حليم صابر إلا أنه يأبى الضيم ويرفض الذل والهوان . يقول عمرو بن كلثوم :

إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقر الذل فينا
ألا لا يجهلن أحـــد علينــــا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ويقول عنترة :

لا تسقنى ماء الحيـــاة بذلة بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل

والفارس العربى صادق وفىّ ، يكره الغدر ، ويأبى نقض المواثيق ، وكان العرب يشهرون من لا يعرفون بالعهود فى سوق عكاظ ، فيرفعون لهم ألوية ليعرفهم الناس بغدرهم فلا يعاملوهم . يقول قطبة بن أوس ينفى الغدر عن نفسه وعن قومه :

أسُمَىَّ ويحك هل سمعت بغدرة
رفــع اللـــواء لنا بها فى مجمع
إنا نعف فلا نريب حليفنا
ونكف شح نفوسنا فى المطمع

وتاريخ الفروسية الجاهلية يحفظ كثيراً من أمثلة الوفاء بالوعد وتمسك الفارس العربى بكلمته مهما وقع عليه من غبن

بسبب ذلك ، فهذا الحارث بن عباد يأسر عدى بن ربيعة المشهور بالمهلهل قاتل ولده بجير فى حرب البسوس وكان لا يعرفه ، فيسأله عن مكان المهلهل فيقول له : أتطلق سراحى إن دللتك عليه ؟ فيعده بهذا ، فيكشف عن شخصيته ويخبره أنه هو المهلهل ، ويضطر الحارث أن يطلقه وفاء بوعده ، ويكتفى بجز ناصيته .

والفارس العربى يحمى الضعيف ويدفع عنه الظلم ، ويتمثل هذا الخلق فى حماية الجار وهو ذلك الشخص الذى ينزل بجوار آخر طالبا حمايته فإذا قبل جواره صار واحدا من أفراد أسرته وقبيلته وسمى حليفا أو مولى أو جارا ، له كل ما لأفراد القبيلة من حقوق . وقانون الصحراء يأبى على العربى رفض الجوار بل إنه ليغضب إذا رحل عنه جاره وتنازل عن حمايته له . وكثيرا ما شبت الحرب وفتكت بالقبائل فتكا ذريعاً لأن جار قبيلة قد أهين أو اعتدى عليه وهذا ما وقع فى حرب البسوس حين رمى كليب ناقة البسوس جارة جساس بسهم فى ضرعها فما كان من جساس إلا أن قتل كليبا رغم أنه زوج أخته .

وكانت حماية الجار دليلا على عظم شأن القبيلة الحامية

وشهرة فرسانها وقوة نفوذها بين القبائل .

وقد بلغت تقاليدهم فى حماية الضعفاء حد حماية الوحوش وإجارة الطيور رحمة بها وإحساسا بقدرتهم وشأو فروسيتهم ، بل إن منهم من كان يجير من الإنس والجن كما فعل عامر بن الطفيل مع الأعشى حين استجار الأخير به ، فقال له : أتجيرنى من الإنس والجن ؟ قال : أجرك . قال : ومن الموت ؟ قال : نعم ! قال : وكيف تجيرنى من الموت ؟ قال : إن مت وأنت فى جوارى بعثت إلى أهلك الدية . قال : الآن علمت أنك قد أجرتنى من الموت .

ومن مظاهر حماية الضعيف تلبية الفرسان لنداء المستغيث ولو كان ظالما . وكان يعد من نقص المروءة أن يسأل الفارس عن السبب الذى دفع المستغيث أن يناديه أو اللاجئ أن يطلب عونه قبل أن يمد يد المساعدة له ، وهذا دليل الشجاعة الفائقة التى لا يحدها حد ولا يقيدها قيد .

قال الحطيئة يصف فرسانا :

إذا ما دعـــوا لم يسألوا من دعاهم
ولم يمسكوا فـــوق القلوب الخوافق

وطاروا إلى الجرد العتاق وألجموا

وشدوا على أوســـاطهم بالمنـــاطق

أولئك آباء الغريب وغاثة الصريخ (م)

ومأوى المرملين الدرادق

أحلوا حياض المجد فوق جباههم

مكان النواصي من وجـــوه السوابق

وقد أجل الفارس الجاهلي المرأة أيما إجلال ، ودافع عنها لسببين : الأول أنه دفاع عن العرض والشرف والآخر أنها تمثل نوعا من حماية الضعيف المخفوض الجناح . ويُسمى الفارس المدافع عن النساء والأعراض حامى الذمار ، وحماية الذمار صفة من الصفات التي يحب الفارس الجاهلي أن يمدح بها . يقول زهير مادحا :

حـــامى الذمارعلى محافظة الـ (م)

ـجلى أمين مغيب الصـــدر

ويقول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بيض كـــرام نحـــاذر أن تفارق أو تهونا

وكان العار الذى يلحق العربى أن تؤسر نساؤه أو يهمل فى

الدفاع عنها ، وفى هذا يقول الشاعر محرضا قومه على القتال دفاعا عن شرف المرأة :

من فر منكم فرّ عن حريمه وجـــار وفر عن نديمـــه

والفارس العربى لا يهتك ستر امرأة أو يتعرض لها بسوء أو يرفع نظره إلى وجهها يقول عنترة :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى

حتى يوارى جـــارتى مأواهـــا

وتقول الخنساء فى رثاء أخيها صخر :

لم ترأه جارة يمشى بساحتها لريبة حين يُخلى بيته الجار

تلك هى أخلاق الفارس الجاهلى ومثله .

ظاهرة أخيرة يلحظها القارئ فى أخبار الجاهليين تتعلق بمفهوم السيادة وعلاقة هذا المفهوم بالفروسية . لقد ارتبطت هذه السيادة ارتباطا شديدا بالقيم التى تضفيها صفة الفروسية على السيد ، فالفارس عربى حر له مكانته فى القبيلة ، بل له المكانة الأولى والمفضلة فيها ، فهذا عامر بن الطفيل عندما يستسلم لربيعة بن مكدم فى معركة من المعارك ويجز ربيعة

ناصيته تخلعه القبيلة من رياستها وترفض أن يتولى قيادتها بعد ذلك مدة طويلة حتى يساعده ربيعة على استعادة مكانته ، كما أن العبد يستطيع أن يتحرر ويتولى مكان الصدارة فى الحروب ويصبح سيدا من سادات القبيلة إذا استطاع أن يوفى بمطالب الفروسية وأن يحقق النصر والكرامة لقبيلته كما فعل عنترة :

لهذا اختلفت مكانة الفارس فى المجتمع الجاهلى عن مكانته فى المجتمع الفارسى المعاصر له مثلا ، فالفارس فى الدولة الفارسية جندى وتابع للملك أو للأمير يأخذ أجره ويقاتل فى سبيله ، وقد يكون هذا الفارس مؤجرا أو عبدا مشترى فيظل مقاتلا مخلصا حتى تضعف مكانة الملك أو الأمير أو تقل نقوده فيخرج عليه أو يلجأ إلى منافسه أما الفارس العربى فهو أب يدافع عن أسرته ونعمه ، وابن يدافع عن والديه وإخوته ، وشيخ يدافع عن كيان قبيلته ووجودها . وكل مقاتل سيد من سادات مجتمعه الصغير أو مجتمعه الكبير ، ارتبط مصيره بمصير هذا المجتمع ، وارتبط وجوده بوجود مجموع هذه القبيلة ، فى فنائها ضياع له ، وفى قوتها تمكين لشخصيته القبلية .

وأخيرا وبعد كل هذه الفضائل التى عرفناها عن الفروسية

الجاهلية تقول إنها لا تخلو من العيوب والنقائص شأنها فى هذا شأن الفروسية الغربية فيما بعد . فرغم أن الفرسان الجاهليين أشادوا بالمرأة فى شعرهم ودافعوا عن شرفها ، وضحوا بحياتهم فى سبيل استردادها من سبي ، أو حمايتها فى ظعن ، فقد ظلت ضعيفة الجانب مهضومة الجناح ، لا يرفعون لها قدرا أو يحترمون لها جنسا . فهم يسيئون بها الظن ويرمونها بالغدر والخيانة بل يدفنونها حية تشاؤما بها أو تخلصا من عارها .

ولم يكن الدفاع عن المرأة دفاعا مطلقا ، أى أن العربى يدافع عنها سواء كانت من قبيلته أو من غيرها ، وإنما كان يدافع عن المرأة من قبيلته أو الجارة لها ، أما نساء القبائل الأخرى وخاصة القبائل المعادية فكانت حلاً له .

كذلك لم تتنزه فروسيتهم عن غلاظة الطبع والعنجهية والكبرياء وخشونه المظهر وذلك كله بسبب طبيعة الصحراء والحياة التى يحيونها كذلك لم تتنزه عن التكالب على الأسلاب والغنائم ، والفتك بالفرسان فى سبيل مغنم تافه ، أو مسلب ضئيل .

وقد لجأ بعض الفرسان إلى الخداع والحيل الدنيئة ، والغدر

والخيانة إذ أن قانون الصحراء يفرض عليهم اللجوء إلى هذه الوسائل ليحافظوا على أرواحهم ، ويبقوا على وجودهم فى هذه البيئة المتصارعة ، والظروف الصعبة الشائكة ، ولكن كل هذا لا ينفى أن الفروسية الجاهلية كانت من فضائل العرب التى رفعت من مكانتهم ، وسمت بأخلاقهم لما جُبل عليه الفرسان من بطولة وفداء فى سبيل مثل وأخلاق عالية .

عمرو بن يكرب

هو أحد الفرسان الشعراء الذين اشتهروا فى النصف الثانى من القرن السادس للميلاد قبيل الإسلام . وكنيته أبو ثور ، واسمه عمرو بن معد يكرب وينتهى نسبه إلى زبيد فهو فارس قحطانى . عن أبى عبيدة قال : كان عمرو بن معد يكرب فارس اليمن وهو متقدم على زيد الخيل أحد فرسان العرب المشهورين فى الشدة والبأس .

وكانت شجاعته معترفا بها بين العرب ، بل كان عمر ابن الخطاب يعده بألف فارس وإن كان لا يثق بحسن تصرفه فى قيادة الجيوش ، فعندما بعثه إلى سعد بن أبى وقاص كتب إليه يقول : « أمددتك بألفى رجل : عمرو بن معد يكرب وطليحة الأسدى ، فشاورهما فى الحرب ولا تولهما شيئا » فحارب أبو ثور مع سعدوأبلى أحسن البلاء

ويمثل أبو ثور الفارس العربى البدوى فى صفاته وحياته

خير تمثيل . وقد ذكرت الروايات أنه دخل الإسلام فى السنة التاسعة أو العاشرة من الهجرة .

وأبوه هو معديكرب بن عبد الله بن عمرو من سادات بنى زبيد وكان من الفرسان المعدودين فى الجاهلية ، وكان لا يتوسم خيراً فى ولده إذ كان عمرو شابًّا لاهيا عابثا أكولا منصرفا إلى الشراب ، لذلك لقبه والده بالمائق أى الأحمق الذى لا يصلح لشئ . وفى يوم بلغ بنى زبيد أن قبيلة خثعم سوف تغير عليهم فجمع معد يكرب بنى زبيد ، وتأهبت القبيلة لصدهم . ودخل عمرو على أخته فقال : اشبعينى إن غدا الكتيبة ! فلما جاء والده أخبرته ابنته بقول عمرو فقال : هذا المائق يقول ذلك ؟ قالت : نعم . قال : فسليه ما يشبعه . فسألته ، فقال : فرق من ذرة وعنز رباعية . فصنع له ذلك وذبح العنز وهيء له الطعام فجلس حتى أتى عليه كله ثم نام. وجاء الصباح . وأتتهم خثعم مغيرة فالتقت بها زبيد واشتد القتال فاستيقظ عمرو فرفع رأسه ونظر فرأى لواء أبيه مرفوعا فعاد ونام . وبعد فترة رفع رأسه ثانية ونظر فإذا بلواء أبيه قد نزل فهب مندفعاً نحو القتال كالنار المستعرة فلقى والده راجعاً منهزما

فقال له : انزل عن فرسك فاليوم ظلم ، فقال له : إليك يا مائق . فقال له بنو زبيد : خله أيها الرجل وما يريد فإن قتل كفيت مؤنته وإن ظهر فهو لك . فألقى إليه سلاحه فركب ورمى خثعم بنفسه حتى خرج من بين أظهرهم ثم كر عليهم وفعل ذلك مراراً وحملت عليهم بنو زبيد فانهزمت خثعم وقهروا . فلقب عمرو يومئذ بفارس زبيد .

وقد جاء فى أخبار نهم عمرو أنه جاء عمر بن الخطاب وهو يغدى الناس وقد جفن لعشرة عشرة فأقعده عمر مع عشرة ، فأكلوا ونهضوا ولم يقم عمرو فأقعد معه تكملة عشرة حتى أكل مع ثلاثين ثم قام فقال : يا أمير المؤمنين إنه كانت لى مآكل فى الجاهلية منعنى منها الإسلام ، وقد صررت فى بطنى صرتين وتركت بينهما هواء فسده . قال عمر : عليك حجارة من حجارة الحرة فسده به يا عمرو .

ويظهر أن أبا ثور لم يستطع أن يمتنع عن كل مآكل الجاهلية ، إذ أنه لم يمتنع عن شرب الخمر رغم معرفته برأى الإسلام فيها ، ويظهر أيضا أن سعد بن أبى وقاص غفر له شربه عندما علم بذلك اعترافا بما قام به فى حرب القادسية إذ

جاء أنه قال حين قيل له إن عمرو بن معد يكرب قد وقع فى الخمر : لقد كان له موطن صالح يوم القادسية عظيم الفناء شديد النكاية للعدو .

وقال الإخباريون فى أخبار شربه أن صديقة عيينة بن حصن نزل عليه زائرا وهو فى الكوفة وكانا رفيقى شراب فى الجاهلية . فوقف عيينه ببابه ونادى : أى أبا ثور ، اخرج إلينا . فخرج إليه مؤتزرا وقال له مرحبا : أنعم صباحا أبا مالك . فقال عيينه : أو ليس قد أبدلنا الله تعالى بهذا السلام عليكم . فقال عمرو : دعنا مما لا نعرف ! إنزل فإن عندى كبشا سياحا . فنزل فعمد إلى الكبش فذبحه وألقاه فى قدر وطبخه حتى إذا نضج جاء بجفنة عظيمة فثرد فيها فأكفأ القدر عليها فقعدا فأكلاه . ثم قال له : أى الشراب أحب إليك اللبن أم ما كنا نتنادم عليه فى الجاهلية . قال أو ليس قد حرمها الله — جل وعز — علينا فى الإسلام . قال عمرو : أنت أكبر سنا أم أنا ؟ قال عيينه : أنت ! فقال عمرو : فأنت أقدم إسلاما أم أنا ؟ قال : أنت ! قال عمرو : فإنى قد قرأت ما بين دفتى المصحف فوالله ما وجدت له تحريما إلا أنه قال « فهل أنتم

منتهون » فقلنا : لا ، فسكت وسكتنا ، فقال عيينه له : أنت أكبر سنا وأقدم إسلاما فجلسا يتناشدان ويشربان ويذكران أيام الجاهلية حتى أمسيا . فلما أراد عيينه الانصراف قال عمرو : لئن انصرف أبو مالك بغير عطاء إنه لوصمة عار . فأمر بناقة عظيمة له وأربعة آلاف درهم ، فرفض عيينه المال وأخذ الناقة وانصرف وهو ينشد :

جزيت أبا ثور جزاء كرامة
فنعم الفتى المزدار والمتضيف
قريت فأكرمت القرى وأفدتنا
تحية علم لم تكن قط تعرف
وقلت حلال أن تدير مدامة
كلون انعقاق البرق والليل مسدف
وقدمت فيها حجة عربية
ترد إلى الأنصاف من ليس ينصف
وأنت لنا والله ذى العرش قدوة
إذا صدنا عن شربها المتكلف
يقول أبو ثور أحل حرامها
وقول أبى ثور أسد وأعرف

ويظهر أن عمراً كان رقيق الدين كما تدل هذه الرواية ، إذ أنه يفتى فى الدين بغير حرج ويحلل المحرم ، كما أنه ادعى مرة معرفته بالقرآن وهو يجهله وكان ذلك بعد أن أصاب المسلمون أموالا كثيرة فى معركة القادسية ، فأخذ سعد بن أبى وقاص نصيب ديوان المال وهو خمس الغنيمة ووزع البقية على جند المسلمين فأصاب الفارس ستة آلاف درهم وأصاب الراجل ألفين . وأخذ أبو ثور نصيب الفارس وبقى بعد ذلك مال كثير لم يوزع . فكتب سعد إلى عمر يسأله ما يفعل بهذا المال . فأرسل إليه عمر أن يوزعه على حفظة القرآن فى الجيش . فدعاهم سعد فجاءوا وبينهم أبو ثور . فدهش سعد من وجوده بينهم وهو يعلم أنه لا يحفظه فسأله : ما معك من كتاب الله ؟ فقال عمرو : إنى أسلمت باليمن ثم غزوت فشغلت عن حفظ القرآن . قال سعد : مالك فى هذا المال نصيب . فغضب أبو ثور وأنشد :

إذا قتلنـــا ، ولا يبكى لنا أحد
قالت قريش : ألا تلك المقادير
نعطى السوية من طعن له نفــذ
ولا ســوية إذ تُعطى الدنانير

فكتب سعد إلى عمرو بن الخطاب يخبره بذلك ، فأذن له عمر بأن يعطيه على بلائه فى القتال فأعطاه ألفى درهم . وكان عمر يعرف قدر أبى ثور دائما ويعامله على أنه فارس من فرسان الجاهلية المشهورين وخاصة عندما كتب إليه سعد بن أبى وقاص يثنى على فروسية أبى ثور وشدته فى قتال الفرس . وكان عمر قد رصد له ألفين من الدراهم فقال له عمرو : يا أمير المؤمنين ألف ههنا وأومأ إلى شق بطنه الأيمن وألف ههنا وأومأ إلى شق بطنه الأيسر فما يكون ههنا وأومأ إلى وسط بطنه . فضحك عمر وزاده خمسمائة .

ومن دلائل رقة دين أبى ثور أيضا أنه كان من المرتدين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وناصر الأسود العنسى الخارج على الإسلام ، فلما أخفقت ثورة العنسى واستسلم أبو ثور لم يشأ الخليفة قتله بل أحب أن يعيده إلى الإسلام فقال له مؤنبا : أما تخزى يا عمرو ! إنك فى كل يوم مهزوم أو مأسور لو ناصرت هذا الدين لرفعك الله . ثم خلى سبيله ، وعاش عمرو بقية حياته على هامش الدين .

وقد بارز عمرو أشهر فرسان الجاهلية وكان يقول : لو سرت

بظعينة وحدى على مياه معد كلها ما خفت أن أغلب عليها ما لم يلقنى حراها أو عبداها فأما الحران فعامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وأما العبدان فأسود بنى عبس يعنى عنترة والسليك بن السلكة ، وكلهم قد لقيت .

وقد اشتهر سيف عمرو الذى كان يسمى بالصمصامة وهو السيف الذى طلب عمر بن الخطاب رؤيته فأرسله له فلم يعجب الخليفة فأرسل إليه عمرو قائلا : إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث إليه بالساعد الذى يضرب به .

وكان عمرو ذا قوة جسدية خارقة ظهرت خاصة فى موقعة القادسية فكان يأسر الفارس ويلوى رقبته بيديه فيقتله ثم يذبحه ويقول إنما الفارس تيس بعد أن يلقى يبرك ! .

وجاء أنه بعد أن عبر نهر القادسية كانت فرسه ضعيفة فطلب غيرها فجاءوا له بفرس فأخذ بعكوة ذنبه وأجلد به إلى الأرض فأقعى الفرس فردّه ، وجاءوا له بآخر ففعل به مثل ذلك فلم يقع ، فقال هذا على كل حال أقوى من تلك ، وقال لأصحابه إنى حامل وعابر الجسر فإن أسرعتم بمقدار جزر الجزور

وجدتمونى وسيفى بيدى أقاتل به تلقاء وجهى وقد عقرنى القوم وأنا قائم بينهم وقد قتلتُ وجردتُ ، وإن أبطأتم وجدتمونى قتيلا بينهم وقد قُتِلتُ وجُرِّدتُ . ثم حمل فى العدو فقال بعضهم يا بنى زبيد ، تدعون صاحبكم ، والله ما نرى أن تدركوه حيا ، فحملوا فانتهوا إليه وقد صرع عن فرسه وقد أخذ برجل فرسل رجل من العجم فأمسكها والفارس يضرب الفرس فما تقدر أن تتحرك من يده ، فرمى الأعجمى بنفسه وترك فرسه فركبه عمرو .

وكان لأبى ثور طريقة خاصة فى القتال ، قال واحد ممن شاهد موقعة القادسية : شهدت القادسية فرأيت يوما اشتد فيه القتال بيننا وبين الفرس ورأيت رجلا يومئذ يفعل بالعدو الأفاعيل ، يقاتل فارسا ثم يقتحم عن فرسه ويربط مقوده فى حقوه فيقاتل ، فسأل الرجل : من هذا جزاه الله خيرا ؟ قالوا له : هذا عمرو بن معد يكرب !

وكان أبو ثور يقول للمسلمين يوم القادسية ألزموا خراطيم الفيلة السيوف فإنه ليس لها مقتل إلا خراطيمها . وكان الفرس يقاتلون فوق الفيلة . وقد شدّ أبو ثور على رستم قائد الجيش الفارسى وهو على فيل فضرب خرطومه وجذم عرقوبيه فسقط

الفيل وسقط رستم من فوقه فقتل .

وحدث عندما بلغ أبو ثور أرذل عمره أن جاء رجل وأراد أن يمتحن قوة أبي ثور ، وكان هذا راكبا فرسا له ، فأدخل الرجل يده بين ساقه وبين السرج وفطن عمرو فضمها عليه وحرك فرسه فجعل الرجل يعدو مع الفرس لا يقدر أن ينزع يده حتى إذا بلغ منه قال له أبو ثور : يا ابن أخي مالك ! قال : يدى تحت ساقك ، فخلى أبو ثور عنه وقال له : يا ابن أخي إن في عمك بقية !

ويظهر أن أبا ثور لم يكن متهورا رغم شجاعته وقوته ، فقد جاء أن الصمة بن بكر أغار على بني زبيد فاستاق إبلهم وسبي ريحانة أخت أبي ثور وانهزمت زبيد ، فتبعه عمرو وأخوه عبد الله ابنا معد يكرب ثم رجع عبد الله واتبعه عمرو وأخذ يناشد الصمة بن بكر أن يخلي عن أخته فلم يفعل ، فلما يئس منها رجع وهي تناديه بأعلى صوتها : يا عمرو ! ولم يقدر على انتزاعها ثم قال :

أمن ريحانة الداعي السميع   يؤرقني وأصحابي هجوع
سباها الصمة الجشمي غصبا   كأن بياض غرتها صديع

وحالت دونها فرسان قيس تكشف عن سواعدها الدروع
إذا لم تستطع شيئا فدعــه وجاوزه إلى ما تستطيع

ويذكرون أن ربيعة بن مكدم أحد فرسان العرب العظام طعن عمرو ابن معد يكرب فألقاه عن فرسه وأخذ فرسه ، وأنه لقيه مرة أخرى فضربه فوقعت الضربة فى قربوس السرج فقطعته حتى عض السيف بكاثبة الفرس فسالمه عمرو وانصرف .

وكان عمرو يتحدث عن فراره إذا لم يجد فيه عيبا وذلك عندما يشعر بأنه لا يستطيع أن يستمر فى القتال . فقد لقى مرة بنى عبس فى أبطالهم ففر عنهم هاربا ، وفى هذا يقول :

لقيت أبا شاس وشاساً ومالكا
وقيساً فجاشت من لقائهم نفسى
لقــونا فضموا جانبينا بصــادق
من الطعن مثل النار فى الحطب اليبس
ولما دخلنـــا تحت فىء رمـــاحهم
خبطتُ بكفى أطلب الأرض باللمس
وليس يعاب المرء من جبن يومه
إذا عُرفت منه الشجاعة بالأمس

وكان عمرو يميل إلى الكذب أحيانا ، فقد حدث أن وقف إلى جانب خالد بن الصقعب النهدى فأقبل عليه يحدثه ويقول :

أغرتُ على بنى نهد فخرجوا إلى مسترعفين بخالد بن الصقعب يقدمهم فطعنته طعنة فوقع ، وضربته بالصمصامة حتى فاضت نفسه ، فقال له الرجل : يا أبا ثور ! أنا مقتولك الذى تحدث ! فقال عمرو : اللهم غفرا ، إنما أنت محدث فاستمع ! وإنما نحن نتحدث بمثل هذا لنرهب هذه المعدية ! . وهم العرب الشماليون وكان التنافس والصراع شديدا بينهم وبين اليمنية . وكان الراوية خلف الأحمر يتعصب لليمنية فإذا سئل عن كذب عمرو قال : كان يكذب باللسان ويصدق بالفعال .

وهكذا كان أبو ثور ، فارس مغوار فى الجاهلية ولكنه ليس متهورا ، نهما أكولا خفيف الظل مع ذلك ، وكان فى الإسلام أحد أبطاله المحاربين وإن كان رقيق الدين غير حريص على تجنب ما حرم ، والبعد عما نهى عنه . وأثرت فيه عصبية اليمنية ضد المضرية مما دفعه إلى الكذب فى سبيل هذه العصبية . وقد كرّمه الخلفاء والقواد العظام وعرفوا قدره محاربا شجاعا وفارسا قويا . وقد تعددت الروايات فى كيفية موته ، وإن كان

أكثرها رجحانا أنه مات بالفالج في نهاية عهد عمر بن الخطاب وقد شارف المائة أو عدّاها بقليل .

ومن شعره يصف استعداده للمعركة :

أعـددت للحـرب فضفاضـة
دلاصـا تثنى على الراهش [١]
وأجـرد مطـردا كالرشـاء
وسيفَ سـلامة ذى فائش [٢]
وذات عـداد لهـا أزمـلٌ
برتهـا رمـاةُ بنى وابش [٣]

(١) فضفاضة : واسعة يريد الدرع . الدلاص : اللينة البراقة الملساء . الراهش : أعصاب وعروق الذراع وجمعها رواهش .

(٢) أجرد : يعنى به الرمح قد سويت كعوبه فأصبح أملساً . مطرد : مستقيم . الرشاء : الحبل . سلامة ذو فائش : هو سلامة بن زيد بن مرة من قبيلة يحصب وقيل إنه قيل من أقيال اليمن . وفائش : واد كان يحميه باليمن .

(٣) ذات عداد : يريد القوس وعدادها صوت رنين وترها . الأزمل : الصوت . بنو وابش قبيلتان اشتهرت إحداهما وهى بنو وابش بن زيد بن عدوان بأنها من أرمى الناس

وكلّ نحيــض فتيــق الغــرار

عــزوف على ظفر الرائش (١)

وأجــرد ســاط كشاة الإرا

ن ريــع فعن على الناجش (٢)

وآوى إلى فــرع جــرثومــة

وعــز يفوت يد الناهش (٣)

تمتعتُ ذاك وكنت أمــرأ

أصــد عن الخــلق الفاحش

ويقول واصفا بطولته فى معركة :

لمــا رأيت نســاءنا يفحصن بالمعــزاء شدا

وبدتْ لميس كأنها بدر والسماء إذا تبــدا

وبــدت محاسنها التى تخفى وكان الأمر جدا

---

(١) النحيص : السهم المرقق . فتيق : عريض . غرار : . عزوف : تسمع له صوتاً . الرائش : الذى يريش السهم .

(٢) أجرد : يعنى جواداً أجرد أى قصير الشعر وتلك علامة على امتيازه . ساط : بعيد الخطوة . شاة الإران : الثور الوحشى . الناجش : الذى يثير الصيد ليمر على الصياد .

(٣) الجرثومة : الأصل .

٧٨

نازلت كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا

هم ينذرون دمى وأنـذر إن لقيت بأن أشدا

كم من أخ لى صالح بوّأته بيدىّ لحدا

ما إن جزعت ولا هلعت ولا يردّ بكاى زندا

ألبسته أثوا به وخلقت يوم خلقت جلدا

أغنى غناء الذاهبين أعد الأعداء عدا

ذهب الذين أحبهم وبقيتُ مثل السيف فردا

عروة بن الورد

فارس من عبس ، وعبس اشتهرت بفرسانها المبرزين وشعرائها المشهورين ولكن فروسيته من نوع آخر غير الذى وجدناه عند معديكرب مثلا إذ هى فروسية صعلوك تختلف فى بواعثها وملامحها العامة عن فروسية السادة .

وقد ذكرت من قبل من هم الصعاليك . وقلت إنهم فئة من العرب طردتهم قبائلهم أو خرجوا هم عن ولائها بسبب اضطهاد قبائلهم لهم وإحساسهم بعدم المساواة مع نظائرهم سواء كانت هذه المساوة اجتماعية أو اقتصادية فأرادوا أن يحققوا بأنفسهم هذه المساواة وأن يأخذوا بنصيبهم كاملا فى كل ما يحق لإنسان حر أن يأخذه فى مجتمع ما . وكان سبيلهم فى هذا « الغزو والإغارة للسلب والنهب » .

وقد تخلص صعاليك العرب جميعاً سواء الخلعاء منهم أو الأغربة أو الفقراء المتمردون من فكرة العصبية الجاهلية أو

الانتماء لقبيلة يدافعون عنها ويخضعون لتقاليدها ويحرصون على رضائها ، فأصبحت تصرفاتهم غير مرتبطة بالحياة الاجتماعية العامة فى قبائلهم بل إنهم استعاضوا عن هذه العصبية القبلية بعصبية مذهبية تجعلهم يخضعون فى سلوكهم لهذا المنطق الجديد الذى اختاروه لأنفسهم ، والمذهب الذى عملوا من أجله ، وهو غزو وسلب للميسورين وتوزيع الغنيمة على المعسرين سواء كانوا منهم أو من غيرهم ممن ليسوا من مذهبهم .

وقد اشتهر كثيرون من فرسان الصعاليك أمثال السليك بن السلكة الذى هابه عمرو بن معديكرب كما ذكرنا آنفاً ، والشنفرى تلك الشخصية التى كان لا يرضيها إلا أن تستغل بطولتها الفردية فى أن ترى رءوس الأغنياء المترفين تتطاير تحت ضربات سيوفها ، ثم عروة بن الورد الذى كان تمرده وسيلة لغاية إنسانية نبيلة هى رفع الظلم عن المظلومين وحماية الضعفاء من سيطرة القساة المتجبرين من سادة القبائل . وكان عروة الداعية الحقيقى لهذا المذهب سواء فى شعره أو فى تصرفاته مع الآخرين .

وكانت عبس تتشاءم من والد عروة وهو الورد بن زيد بن عبد الله لأنه كان السبب فى حرب داحس والغبراء التى نشبت

بينها وبين فزارة حين راهن حذيفة بن بدر الفزارى على أن خيول قيس بن زهير العبسى أفضل من خيله .

وكانت أمه من نهد إحدى قبائل قضاعة ، ويظهر أن عروة كان ساخطاً على أمه أو على قبيلتها لسبب أو لآخر وذلك لأننا نراه يهجو أخواله هجاء مراً . ويقول أحد الباحثين أن سبب هذا السخط هو أن قبيلة نهد كانت أقل شرفاً من قبيلة عبس قبيلة أبيه . فكان هذان السببان :

تشاؤم قبيلته من والده ، وقلة شأن قبيلة أمه ، من العوامل الرئيسية التى جعلته يشعر بالظلم الاجتماعى فى مجتمعه القبلى[1].

ويقول الإخباريون أن والده كان يفضل أخاه الأصغر

---

(١) قال عروة هاجياً أخواله :

ما بى من عار أخال علمته — سوى أن أخوالى إذا نسبوا نهد
إذا ما أردت المجد قصر مجدهم — فأعيا على أن يقاربنى المجد
فياليتهم لم يضربوا فى ضربة — وأنى عبد فيهم وأبى عبد
ثعالب فى الحرب العوان وإن تبخ — وتنفرج الجلى فإنهم الأسد

تبخ الحرب أى تنطفىء .

عليه مما ضاعف إحساسه بهذا الظلم وخاصة أنه كان مرهف الحس رقيق العاطفة فقد كان يغنم الكثير ثم يوزع ما غنمه على طائفته سواء من خرج منهم إلى الغزو أو من لم يخرج لضعفه أو لمرضه . وكان يأخذ نصيبه مساوياً لنصيب أى فرد منهم . لذلك أصبحت شخصيته أقرب إلى شخصية رب الأسرة فى أسرته الصغيرة منها إلى شخصية الزعيم فى عشيرته ولذلك أطلق عليه عروة الصعاليك .

وقد عرف الصعاليك هذه الأخلاق عن عروة ، فكان إذا أصابهم قحط أتوه فجلسوا أمام بيته حتى إذا بصروا به صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك أغثنا ! . فيخرج ليغزو بهم . وحدث أن نهته امرأته مرة عن الخروج لما تخوفت عليه من الهلاك ، فعصاها وخرج غازياً ، فمر على بعض من يعرفهم فسألوه أين يريد ، فأخبرهم . فأمروا له بجزور فنحروها وأكل منها ، وأشاروا عليه أن يرجع ، فعصاهم ومضى حتى انتهى إلى بلاد بنى القين فأغار عليهم فأصاب هجمة عاد بها على نفسه وأصحابه . وقال فى ذلك :

أرى أم حسان الغداة تلومنى تخوفنى الأعداء والنفس أخوف

وتقول سلمى لو أقمت لسرنا ... ولم تدر أنى للمقام أطوف
لعل الذى خوفتنا من أمامنـــا ... يصادفه فى أهله المتخلف

وقد لقب عروة بأسماء تدل على صفاته فهو أبو نجدة وهو مانع الضيم ، بل إن أخلاقه أسمى من هذه الصفات جميعاً فقد كان يقدم طعامه للجائع وهو جوعان ويقدم شرابه للظامئ وهو فى حاجة إليه ، وهو يجهد ويتعب ليجعل إناءه مشتركاً بينه وبين غيره وهو يصور هذا كله فيقول :

وإنى امرؤ عافى إنائى شركة ... وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى ... بجسمى مس الحق ، والحق جاهد
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

وأحب شيء إلى نفس عروة أن يسطو على الأغنياء البخلاء ليعطى الفقراء المعوزين ، أما أولئك الذى عرف عنهم الكرم وبسط اليد فلم يكن يعتدى عليهم بل كان يمدحهم بجودهم كما مدح مالك بن حمار لكرمه . وكيف لا يمدحهم وهو نفسه يلزم نفسه هذه الخلة ، فإذا ناقشته امرأته فى هذا التبذير عنفها ورفض أن يسمع لها ، بل إن الضيف عنده فى المكان الأول وعليه أن يقدم له كل ما فى منزله والبشاشة فى وجهه أول

مظهر من مظاهر إكرامه يقول :

فراشي فراش الضيف والبيت بيته ولم يلهنى عنه غزال مقنع
أحدثه إن الحديث من القرى وتعلم نفسى أنه سوف يهجع

لهذا قال عبد الملك بن مروان : من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد . وكان معاوية وهو خليفة يتمنى أن يكون لعروة ولد ليصاهره ويشرف بالانتساب إليه .

وتظهر فروسية عروة أول ما تظهر فى قدرته كقائد حربى لجيش الصعاليك إن صح هذا التعبير . فقد كان يرسم الخطط الدقيقة التى تضمن لهم الفوز . فقد جاء أنه خرج بصعاليكه إلى أرض بنى القين ، فهبط أرضاً ذات حجارة كبيرة فيها ماء فرأى آثاراً فقال : هذه آثار من يرد هذا الماء فأكمنوا ، فأحر أن يكون قد جاءكم رزق . فأقاموا يوماً ثم ورد عليهم فصيل فقالوا : دعنا فلنأخذه فلنأكل منه يوماً أو يومين . فقال : إنكم إذن تنفرون أهله وإن بعده إبلا . فتركوه فندموا وجعلوا يلومون عروة عندما هدهم الجوع وأجهدهم ، ثم وردت الإبل وفيها ظعينة ورجل معه سيف ورمح فخرج إليه عروة فرماه بسهم فخر ميتاً واستاق عروة الإبل والظعينة حتى أتى قومه .

وبهذا استطاع عروة بفضل مهارته وخبرته أن يضرب حين تحين الفرصة المناسبة .

ومن مظاهر هذه القيادة الحكيمة أيضاً أنه كان إذا نزل فى مكان بعث بصعلوك فيرتقى ربوة عاليه ليراقب الطريق وينذرهم إن رأى ما يخشونه ، ويقول فى ذلك :

إذا ما هبطنا منهلا فى مخوفة بعثنا ربيئا فى المرابئ كالجذل
يقلب فى الأرض الفضاء بطرفه وهن مناخات ومرجلنا يغلى

وعند ما قتل الشنفرى الصعلوك ، وقف زميله تأبط شراً يرثيه ويتذكر كيف وقف مراقباً فى انتظار فرائسه :

ومرقبة شماء أقعيت فوقها ليغنم غاز أو ليدرك ثائر

ويعلل عروة لمغامراته بكثرة أضيافه وقلة ماله وكثرة عياله فكان عليه أن يغامر فى سبيل الحصول على المال .

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح

والصعلوك يفضل الموت على أن يعيش ذليلا جائعاً ، وهو لا يخاف هذا الموت لأنه يعلم أنه واقع له لا محالة ، وكان هذا هو أساس تكوينه النفسى . يقول عروة :

إذا المرء لم يبعث سواماً ولم يرح　　عليه ، ولم تعطف عليه أقاربه
فللموت خير للفتى من حياته　　فقيراً . ومن مولى تدب عقاربه

ويقول :

فقلت له : ألا أحى وأنت حر　　ستشبع فى حياتك أو تموت

لهذا كانت شجاعة الصعلوك شجاعة خارقة ، وهى شجاعة خافتها القبائل ، كما خافها الفرسان كما ظهر فى قول عمرو بن معديكرب .

ولم يكن الفارس الصعلوك يعتمد على فرسه دائماً وإنما كانت رجلاه خير معين له فى الهجوم وفى الهروب ، لذلك اشتهر الصعاليك بسرعة العدو ، وكثيراً ما كانت هذه الخاصية سبباً فى نجاتهم من مآزق كثيرة . ويجيب أبو خراش الصعلوك ابنته عند ما سألته كيف سلم من ذلك المأزق الذى أوقع نفسه فيه أنه نجا بسرعة عدوه ولولا ذلك لأصبحت امرأته أمة ويتم ابنه .

تقول ابنتى لما رأتنى عشيـــة
سلمت وما إن كدت بالأمس تسلم

ولولا دراك الشد قاظت حليلتى
تخيَّر من خطابها وهى أيِّم
فتقعد أو ترضى مكانى خليفة
وكاد خراش يوم ذلك ييتم

وهذا صعلوك يرى أن رجليه أثمن ما فيه وهو يفديهما بأمه وخالته :

فدى لكما رجلىَّ أمى وخالتى بسعيكما بين الصفا والأثائب

وعلى هذا فقد كانت غزوات الصعاليك تعتمد على أرجلهم كما اعتمدت على أفراسهم وهم فى هذا يختلفون عن الفرسان السادة الذين كان جل اعتمادهم على الخيل . وفى شعر عروة أحاديث كثيرة عن هذين الأسلوبين من أساليب الغزو ، فها هو تخاطبه امرأته وتلومه على غارته المتكررة بأولئك الرَّجليين الذين يعتمدون فى غزواتهم على أرجلهم . وبإخوانهم الفرسان الذين يعتمدون على الخيل :

تقول : لك الويلات ، هل أنت تارك
ضبوءاً[1] برجل تارة وبمنسر

(١) ضبأ : اختبأ واستتر ليختل . المنسر : جماعة الخيل .

ويقول أيضاً مصوراً هذين الأسلوبين فى الغزو :

لعـــل انطلاقى فى البلاد ورحلتى
وشدى حيازيم المطية بالرحل

سيـــدفعنى يوماً إلى رب هجمة
يدافع عنها بالعقوق وبالبخل

قليل تواليهـــا وطالب وترها
إذا صحت فيها بالفوارس والرجل

وقد وفر الفرسان الصعاليك لغزواتهم كل عناصر النجاح وتحقيق الأهداف ، ففيهم قوة الجسم . وشدة البأس ، وشجاعة القلب ، وصدق العزيمة . وسرعة العدو . وهم أيضاً واسعو الحيلة عميقو الدهاء يعرفون كيف يتخلصون من المآزق الضيقة والمواقف الحرجة ففى أخبار الشنفرى أنه كان إذا سار بالليل نزع نعلا ولبس نعلا وضرب برجله حتى يموه على الناس فيظنوه الضبع ، وفى أخبار السليك بن السلكة أنه احتال على رجل فى سوق عكاظ حتى عرف منه منازل قومه تمهيداً للإغارة عليها .

كذلك وفر الصعاليك كل أنواع السلاح المعروفة فى عصرهم وبيئتهم لمعاركهم وقد وصفوا تلك الأسلحة فى شعرهم

وتحدثوا عن قيمتها فى حياتهم ، ويذكر عروة أنه لن يترك بعد موته سوى سيف ورمح ودرع ومغفر وجواد . وهذا هو ما سوف يرثه وارثوه من بعده :

وذى أمل يرجو تراثى ، وإن ما
يصير له منــه غدا لقليل
ومالى مال غير درع ومغفــر
وأبيض من ماء الحديد صقيــل
وأسمر خطى القنــاة مثقف
وأجرد عريان السراة طويل

وتفوق خبرة الفارس الصعلوك بالصحراء خبرة الفارس السيد وذلك بسبب طبيعة حياته التى تعتمد على الإغارة والتشرد، إذ إن فى معرفة دروبها درباً درباً وجبالها جبلا جبلا إنقاذاً لحياته وتأمينا لطرق مواصلاته ، ولذلك وصفهم القدماء بأنهم « أهدى من القطا ، وقالوا « أدل من قطاه » لذلك برعوا فى وصفهم لهذه الصحراء ووهادها وهضابها ووحوشها ونباتها ، وهم لا ينسون أنفسهم فى كل هذا الوصف وإنما يصورون كيف تغلبوا على هذه الصحراء فقطعوها وصارعوا وحوشها وكمنوا فى مغاراتها .

والصحراء جزء من نفوسهم بل هي كل حياتهم وهم فى هذا يختلفون عن وصف الفرسان السادة لها ، فالفارس السيد ينظر إلى الصحراء على أنها مادة من مواد الفخر بنفسه أو بقبيلته. أما الفارس الصعلوك فهو وقد وهنت فيه هذه النزعة القبلية ينظر إلى الصحراء وكأنه ينظر إلى نفسه فهو قد امتزج بها وأصبح كيانها وكيانها كلا واحداً، فهي تعيش فى نفسه ليلا ونهاراً، لا ينساها أبداً فى صحوه أو نومه . وقد ألف كل عناصرها وصادق كل ما اشتملت عليه من حيوان أو نبات أو مسالك وحرار ، فهذا تأبط شرًّا يقول إنه قد ألفته وحوش الصحراء واطمأنت إليه حتى لتوشك أن تصافحه لو أن وحشاً تصافح إنساً :

يبيت بمغنى الوحش حتى ألفنه
ويصبح لا يحمى لها الدهر مرتعا
رأين فتى لا صيد وحش يهمه
فلو صافحت إنسا لصافحنه معا

وأخيراً فعند ما ننظر إلى نموذج الصعلوك الذى يحبه أبو الصعاليك والنموذج الذى يكره . نجد ذلك مصوراً فى شعره عندما يقول إن آسوأ صعلوك عنده هو ذلك الذى يقضى حياته

ذليلا مهاناً ، كسولا خاملا قاعداً عن طلب الغنى ، ليست فيه شده الصعلوك الحقيقى وصلابته ، وإباؤه وشجاعته وإنما يخدم نساء الحى المترفات .

لحى الله صعلوكاً إذا جن ليـــله
مصافى المشاش آلفاً كل مجزر
يعد الغنى من دهره كل ليلة
أصاب قراها من صديق ميسر
ينـــام عشاء ثم يصبح طاويا
يحث الحصى عن جنبه المتعفر
قليل التماس الزاد إلا لنفسه
إذا هو أمسى كالعريش المجور
يعين نساء الحى ما يستعنــــه
فيمسى طليحاً كالبعير المحسر

أما الصعلوك الذى يقدره عروة فهو صعلوك نشيط بعيد الغارة ، يلقى المنية وهو عارف أنها نصيبه ، ويعيش فينفق أمواله فيما يخلد مآثره فى حياته وبعد موته :

ولكن صعلوكاً صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور

مُطلاًّ على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر
فإن بعدوا لا يأمنون اقترابه تشوف أهل الغائب المتنظر
فذلك إن يلق المنية يلقها حميداً وإن يستغن يوماً فأجدر

وقد وردت أبيات أخرى قريبة الشبه من أبيات عروة تنسب إلى حاتم الطائي وهي تصور أيضاً الفرق بين الصعلوك الكسلول والصعلوك النشيط :

لحى الله صعلوكاً مناه وهمه
من العيش أن يلقى لبوساً ومطعما
ينام الضحى حتى إذا الليل جنّه
تنبه مثلوج الفؤاد مُورَّما
مقيماً مع المثرين ليس ببارح
إذا نال جدوى من طعام ومجثما
ولكن صعلوكاً يساور همّه
ويمضي على الهيجاء ليثا مصمما
فتى طلبات لا يرى الخمص ترحة
ولا شبعة إن نالها عد مغنما
إذا ما رأى يوماً مكارم أعرضت
تيمم كبراهن ثمت صمما

٩٣

ترى رمحه ونبـــله ومجنـــه
وذا شطب عضب الضريبة مخذماً
فذلك إن يلق الكريهة يلقها
حميـــداً وإن يستغن يوماً فربما

عنترة بن شداد

أى صدى فى النفس يخلفه وقع هذا البيت عند ما نسمع المنشد يردد :

وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت
ألفيتُ خيراً من مُعِم مخول

لا شك أنها نفسية فارس من طابع يختلف عما ألفه المجتمع الجاهلى فى الفخر ، فالشاعر عند ما يفخر فإنما يفخر بنسبه من ناحيتيه : ناحية أمه وناحية أبيه . أما شاعرنا فهو لا يستمد عناصر فخره من أعمامه أو من أخواله وإنما يستمده من نفسه ، من بطولته وفروسيته ، من ضرباته وهجماته ، من إقدامه حين تحجم الفرسان ، ومن جرأته حين تجبن الكتائب . ذلك الفارس الشاعر هو عنترة بن شداد العبسى .

فإذا نظرنا فى مكونات شخصية هذا الفارس ، فسوف نجدها ترتكز على عنصرين :

أولهما أنه عبد رغم أن أباه سيد من سادات عبس ، فقد

كانت أمه أمة حبشية يقال لها زبيبة كان قد سباها عمرو بن شداد فى إحدى غزواته ، وكان من تقاليد الجاهليين أن لايعترفوا ببنوة أبنائهم الذين جاءوا من إمائهم ، وإنما تستعبدهم القبيلة ، فإن أنجبوا اعترفت بهم وإلا بقوا عبيداً . لهذا كان عنترة أسود اللون كأمه كما كان عبداً .

أما العنصر الآخر فهو نتيجة للعنصر الأول ، وذلك أن قبيلته عاملته معاملة العبد وهى لا تعلم ما يدور فى نفسه من خوالج ، وما تضطرم به مشاعره من ثورات على هذا الوضع فقد كانت القبيلة إذا خرجت للغزو وغنمت الغنائم لا تفرض لعبيدها نصيباً رغم أنهم شاركوا فى هذه الحرب ساداتهم ، كذلك كانت امرأة أبيه تحتك به وتدفع أباه إلى ضربه ، فقد حدث أن جاءت شداد مرة وقالت : إنه يراودنى عن نفسى . فغضب عمرو بن شداد غضباً شديداً وضربه ضرباً مبرحاً بل ضربه بالسيف فلما رأت ما به من الجراح كفته عنه وبكت نادمة وكان اسمها سمية فقال عنترة :

أمن سمية دمع العين مذروف

لو أن ذا منك قبل اليوم معروف

كأنهـــا يوم صـــدت ما تكلمنى
ظبي بعسفان ساجى العين مطروف[١]
تجللتنى إذ أهوى العصا قبـــلى
كأنها صنم يعتـــاد معكوف[٢]
العبـــد عبدكم والمال مالكم
فهل عذابك عنى اليوم مصروف
تنسى بلائى إذا ما غارة لحقت
تخرج منها الطوالات السراعيف[٣]
يخرجن منهـــا وقد بلت رحائلها
بالماء تركضها الشم الغطايف[٤]
قد أطعن الطعنة النجلاء عن عرض
تصفر كف أخيها وهو منزوف

لهذا كانت فروسية عنترة نموذجاً مخالفاً لنموذج الفارس السيد والفارس الصعلوك فى دوافعها النفسية وفى موقف القبيلة

---

(١) عسفان : منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة .
(٢) صنم يعتاد : يؤتى مرة بعد مرة .
(٣) الطوالات : الخيل ، السراعيف : السراع .
(٤) الغطاريف : الكرام والسادة .

منها وموقفها من القبيلة . فالفارس السيد ابن قبيلته البار فهو عند ما يتغنى ببطولته لا ينسى أن هذه البطولة إنما هى ملك للقبيلة . بل إنه يتغنى بكل شاب وصبى وطفل يستطيع أن يباهى به لأنه عنوان لبأس القبيلة ورمز لخشية أعدائها لها يقول عمرو بن كلثوم وهو يحس قيمة قبيلته ، مشيداً ببطولة كل فرد فيها :

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدينا

أما الفارس الصعلوك فهو ابن جماعته الصغيرة ومذهبها فى الحياة ، ابن صحرائه بوحوشها ونباتها وعواصفها ، وفروسيته قائمة على صداقة عناصرها الطبيعية ومحاداة أناسها الظالمين يقول الشنفرى :

ولى دونكم أهلون : سيد عملس
وأرقط زهلول ، وعرفاء جيأل[1]
هم الأهل، لا مستودع السر ذائع
لديهم ، ولا الجانى بما جر يخذل

---

(١) السيد : الذئب . العملس : القوى على السير السريع . الأرقط : المراد به النمر . الزهلول : الأملس . العرفاء : الضبع الطويلة العرف . جيأل : اسم للضبع .

فأهله هم الذئاب والنمور والضباع وهم قوم شرفاء ، السر لديهم لا يذاع وجانبهم لا يخذل .

أما عنترة الفارس العبد فهو ابن بطولته ، ابن صراعه اليومى فى سبيل حريته وفى سبيل إبقائه على حياته ، فإذا فتشنا فى شعره عن فخر بنسب فلن نجد إلا البيتين يفتخر فى الأول بنسبه من جهة والده ويفتخر فى الثانى ببطولته تعويضاً عن نسبه من جهة أمه . يقول :

إنى امرؤ من خير عبس منصباً
شطرى وأحمى سائرى بالمنصل
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت
ألفيت خيراً من معم مخـول

فشطره الأول من خير عبس منصباً ، وشطره الآخر يحميه ببطولته وفروسيته فى ميدان القتال ولا يحميه نسبه لأمه ، بل إنه بغد ذلك فوق كل الأنساب .

وزاد من ضيق عنترة بواقعه المر ، وألهب من ثورته العارمة ضد قومه وضد أعدائه على السواء ذلك الحب اليائس الذى ملأ فؤاده ، وسهد جفنه ، بل زاد من إحساسه . بحطه منزلته الاجتماعية فدفعه . نحو انفجار نفسى مروع جعله يطلب

الحرية بكل الوسائل ليتساوى مع من يحب فتخاذل عن دخول معارك قومه حتى يعترفوا به حرا من أحرار القبيلة ، وفارساً من فرسانها السادة . فقد حدث أن أغارت عبس على طيئ فأصابوا نعماً فلما أرادوا القسمة قالوا لعنترة : لانقسم لك نصيباً مثل أنصبا ثنا لأنك عبد، وطال ذلك ثم حدث أن كرت عليهم طيئ فاعتزلهم عنترة وقال : دونكم القوم فإنكم عددهم . واستنقذت طيئ الإبل . فقال له أبوه : كر يا عنترة فقال : أو يحسن العبد الكر ! فقال له أبوه : العبد غيرك ، فاعترف به ، فكر واستنقذ النعم ، وجعل يقول :

أنا الهجين عنترة　　كل امرئ يحمى حره
أسـوده وأحمـره　　والشـعرات المشعره
الواردات مشفرة

وبهذا اعترف والده ببنوته عند ما أثبت عنترة بطولته .

وأصبحت فروسية عنترة بعد ذلك وحبه شيئاً واحداً ، فهو عند ما يغنى حبه فإنما يغنى فروسيته ، وعند ما يدخل المعركة فعبلة هى التى فى مخيلته يهبها بطولته ، ويتخذها أيقونة له ، وفى كلتا الحالتين يبرر لها سواده أروع تبرير ، فيكرم ذاته ، ويفاخر بشدته وبأسه :

أعبلة قد زاد شوقى وما أرى الدهر يدنى إلى الأحبة
وكم جهد نائبة قد لقيت لأجلك يا بنت عمى ونكبة
فلو أن عينيك يوم اللقـــاء ترى موقفى زدت لى فى المحبة
يفيض سنانى دماء النحـــور ورمحى يشك مع الدرع قلبه
وأفرح بالسيف تحت الغبار إذا ما ضربت به ألف ضربه
وتشهد لى الخيل يوم الطعان بأنى أفرقها ألف سربه[1]
وإن كان جلدى يرى أسوداً فلى فى المكارم عز ورتبة
ولو صلت العرب يوم الوغى لأبطالها كنت للعرب كعبة
ولو أن للموت شخصاً يرى لروعته ولأكثرت رعبه

وتقف القبيلة ضد حبه لأنه عبد ويقطع عنترة الصحراء ليلا ونهاراً يبثها أشجانه ، وينشدها خفقات قلبه ، وهو لا ينسى فى كل هذا نفسه وبطولته فهو كما قلت ابن لهذه البطولة فهى نسبه وهى أصدقاؤه

كم ليلة سرت فى البيداء منفرداً والليل للغرب قد مالت كواكبه
سيفى أنيسى ورمحى كلما نهمت أسد الدحال إليها مال جانبه[2]

---

(١) السربه بالضم : الجماعة من الخيل .

(٢) الدحال : جمع داحل وهو نقب ضيق فمه ثم يتسع أسفله ينبت فيه نبات السدر .

وكم غدير مزجت الماء فيه دماً ... عند الصباح وراح الوحش طالبه
ياطامعا فى هلاكى عد بلا طمع ... ولا ترد كأس حتف أنت شاربه

وتشف هذه النفس الغليظة فى الحرب أمام الحب شفافية البلور ، وذلك حينما يعاتبها ويعاتب قومها الذين وقفوا ضد هذا الحب .

ألا يا عبل قد زاد التصابى
ولج اليوم قومك فى عذابى
وظل هواك ينمو كل يوم
كما ينمو مشيبى فى شبابى
عتبت صروف دهرى فيك حتى
فنى وأبيك عمرى فى العتاب
ولاقيت العـدا وحفظت قومـاً
أضاعونى ولم يرعوا جنـابى

ويقص علينا عنترة رأى عبلة فيه فى قصيدة رواها الأصمعى وتعتبر من غرر القصائد التى وردت فى ديوانه إذ أننا نشعر فيه بهذا المحب المفاخر وهذا التضاحك بين فتى وفتاة يعيشان فى أروع فترات حياتهما ، فترات التبادل العاطفى ، والترابط القلبى . يقول :

عجبت عبيلة من فتى متبذل
عارى الأشاجع شاحب كالمنصل
شعث المفارق منهج سرباله
لم يدهن حولا ولم يترجل
لا يكتسى إلا الحديد إذا اكتسى
وكذاك كل مغاور مستبسل
قد طالما لبس الحديد فإنما
صدأ الحديد بجلده لم يغسل

فهذا العجب عجب حبيبة من حبيبها فهى تهتم به وتعيب عليه أنه لا يغتسل . وأنه قد أصبح شاحب الوجه نحيف الجسم، وليس معنى هذا أنها تأخذ عليه ذلك وإنما تمزح معه ، وتدل عليه :

فتضاحكت عجباً وقالت يا فتى
لا خير فيك كأنها لم تحفل

وهنا يرد عليها رد البطل ، فهى تهتم بالأشياء التافهة وهو يهتم بأشياء أسمى من الاغتسال أو الحرص على أن يكون ممتلئاً ، يهتم بالحرب وبما تتطلبه من سلاح وإعداد خيل وجرأة قلب :

فعجبت منها حين زلت عينها
عن ماجد طلق اليــدين شمردل

لا تصرميني يا عبيل وراجعي .
في البصــيرة نظرة المتــأمل

فلرب أملح منك دلا فاعلمي
وأقر في الدنيا لعــين المجتلي ،

وصلت حبالي بالذي أنا أهله
من ودها وأنا رخي المطول

وعنترة في هذه الأبيات كأنه يريد أن يبث الغيرة في قلبها ولكنه سرعان ما يتذكر نفسه وفروسيته فيقول :

يا عبــل كم من غمرة باشرتها
بالنفس ما كادت لعمرك تنجلي

فيها لوامع لو شهدت زهاءها
لسلوت بعد تخضب وتكحل

إما تريني قد نحلت ومن يكن
غرضاً لأطراف الأسنة ينحلي

فلرب أبلج مثــل بعلك بادن
ضخم على ظهر الجواد مهبــل

غادرته متعفراً أوصالـه
والقـوم بين مجـرح ومجـدل
فيهم أخو ثقة يضارب نازلا
بالمشرفي وفارس لم ينزل
ورماحنـا تكف النجيع صدورها.
وسـيوفنا تخلى الرقاب فتختلى

وإذا بحثنا فى قصة حب هذا الفارس فلن نجد أخباراً وافية عنها فى كتب الأدب والأخبار وإن تردد أنه نشأ بعد أن رفض والد عبلة حبه لابنته ، وكيف يرضى به بعلا لفتاة حرة ذات نسب عريق ؟ ويقال إنه أراد أن يخفف من قسوة هذا الرفض فطلب منه مهراً لا يطيقه محب وذلك أنه طلب ألف ناقة من عصافير الملك النعمان ، وخرج عنترة يطلبها. فلاقى من الأهوال ما لم يلقه فارس ، بل إنه وقع فى الأسر وأبدى بطولات خارقة ليرضى عنه من أسره ويحرره ، وأخيراً ينجح عنترة ويأتى قبيلته ومعه النوق العصافير ، ولكن والد عبلة يماطل فى تزويجها له فيعرض ابنته على فرسان القبائل الأخرى وساداتها مشترطاً عليهم رأس عنترة مهراً لها . ويبارز عنترة المنافسين ويقهرهم فيقتل مسحل بن طراق ويصادقه بسطام فارس

بني شيبان بعد أن أوشك عنترة على قتله ، ثم لا نعلم بعد هذا كله أنجح عنترة فى تحقيق حلمه بزواجه من عبلة أم لا .

وقد شارك عنترة فى حروب عبس مشاركة أنقذت قبيلته من مآزق كثيرة وكانت سبباً فى انتصارها ويكفى أن نذكر أنه كان أحد أبطال حرب داحس والغبراء . فقد حدث أن غزت بنو عبس بني تميم وعليهم قيس بن زهير أحد أبطال العرب ، فانهزمت بنو عبس وطلبتهم بنو تميم ، فوقف لهم عنترة ، ولحقتهم كبكبة من الخيل ، فحامى عنترة عن الناس فلم يصب مدبر ، فساء قيس بن زهير ما أظهره عنترة من بطولة فى حماية قومه فقال حين رجع من المعركة : والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء . فقال عنترة يهجو قيس بن زهير وكان أكولا ويفتخر ببطولته فى المعركة :

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى
أصبحت عن عرض الحتوف بمعزل

فأجبتها إن المنية منهل
لا بد أن أسقى بكأس المنهل

ثم يقول يرد على قول قيس إنه ابن السوداء :

إنى امرؤ من خير عبس منصباً
شطرى وأحمى سائرى بالمنصل
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت
ألفيت خيراً من معنم مخول
والخيل تعلم والفوارس أننى
فرقت جمعهم بضربة فيصل
إذ لا أبادر فى المضيق فوارسى
أو لا أوكل بالرعيل الأول
إن يلحقوا أكرر وإن يستلحموا
أشدد وإن يلفوا بضنك أنزل

ثم يقول بيته المشهور الذى أنشد للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : « ما وصف لى أعرابى قط فأحببت أن أراه إلا عنترة » .

ولقد أبيت على الطوى وأظله
حتى أنال به كريم المأكل

وكان عنترة أحد فرسان حرب داحس والغبراء التى نشبت بين عبس وذبيان وقد أظهر فيها عنترة بطولات اشتهرت وذاعت بين القبائل فخشوا بأسه وحاولوا أن يتجنبوه فى حروبهم ؛ وقد قتل فى هذه الحرب فرساناً كثيرة منهم ضمضم أبو الحصين

المرى والحارث بن بدر ، ورغم هذا فلم يكن عنترة سفاكاً للدماء أو راغباً فى الحرب بل إنه يندم على قبول القبائل للسباق الذى تسبب فى هذه الحرب ، يقول فى قصيدة رثى بها مالك بن زهير العبسى :

فلله عينا من رأى مثل مــالك
عقيرة قــوم أن جــرى فرسان
فليتهما لم يجــريا نصف غلــوة
وليتهمــا لم يرســلا لرهــان
وليتهما ماتــا جميعــاً ببلــدة
وأخطاهمــا قيس فــلا يريــان
لقد جلبا حينــاً وحرباً عظيمة
تبيد سراة القوم من غطفــان

ويظهر أن عنترة رغم هذه الشدة وذاك البأس كان على شىء من التواضع فقد قيل له : أنت أشجع العرب وأشدها ؟ قال : لا . فسئل : فبم شاع لك هذا فى الناس ؟ قال : كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزماً وأحجم إذا رأيت الإحجام حزماً ، ولا أدخل إلا موضعاً أرى لى منه مخرجاً ، وكنت أعتمد

الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثنى عليه فأقتله .

فهذا يوضح صراحته وتواضعه كما يصور حنكة الفارس الخبير بالحروب ، فليست الشجاعة تهوراً وإنما هى الإقدام فى موضع الإقدام والحذر فى موضع الحذر بل التقهقر قد يكون خطة ناجحة يلجأ إليها الشجاع لينتصر .

وقد اشتهر كثير من فرسان عبس غير عنترة فقد قال عمر بن الخطاب للشاعر الحطيئة وهو ينسب فى قبيلة عبس : كيف كنتم فى حربكم ؟ قال : كنا ألف فارس حازم . قال : وكيف يكون ذلك ؟ قال الحطيئة : كان قيس بن زهير فينا وكان حازماً فكنا لا نعصيه . وكان فارسنا عنترة فكنا نحمل إذا حمل ونحجم إذا أحجم . وكان فينا الربيع بن زياد وكان ذا رأى فكنا نستشيره ولا نخالفه . وكان فينا عروة بن الورد فكنا نأتم بشعره ، فكنا كما وصفت لك . فقال عمر : صدقت .

وقد مات عنترة مقتولا كما جاء فى أكثر الروايات وكان ذلك أوائل القرن السابع الميلادى ، وربما كان قبل البعثة بسنين معدودة فقد عاصر الحطيئة الشاعر المخضرم كما عاصر

عمرو بن معد يكرب الذى كان يخشى منازلته . وكان عنترة مسناً حينما أغار على بنى نبهان أو بنى طىء فرموه بسهم فأصابوا منه مقتلا ، وكانت نهاية فارس بطل عاش فى الحرب ومات فى الحرب .

من أخبار الفرسان

ربيعة بن مكدم :

واحد من فرسان بني كنانة ، اعترف له فرسان الجاهلية بالفضل والإقدام رغم أنه مات صغير السن . عاصر عنترة العبسي ، والسليك بن السلكة وعامر بن الطفيل ، وقد خاف بأسه عمرو بن معد يكرب وعندما نازله أوشك ربيعة أن يقتله . أطلق عليه الرواة حامى الظعينة وهى المرأة التى تحمل فى هودجها ، وكان العرب يفتخرون بحماية الظعائن والذود عن النساء ، وتدور بطولة ربيعة حول حماية النساء والدفاع عنهن فقد حماهن من دريد بن الصمة حين خرج دريد يريد الغارة على بنى كنانة فلما انتهى إلى وادى الأخرم بالقرب من ديار القوم ظهر له من جانب الوادى شخص ومعه ظعينة فقال لفارس من أصحابه : سر إليه وصح به : خل الظعينة وانج بنفسك . وكان ربيعة إذ ذاك ما زال غلاماً فناداه الفارس فلم يجبه ، فألح عليه الفارس أن ينجو بنفسه ويترك الظعينة

فرفض ربيعة مستكبراً وقال للظعينة :

سيرى على رسلك سير الآمن
سير رداح ذات جأش ساكن
إن انثنائى دون قرنى شائنى
أبلى بلائى ، فاخبرى وعاينى

ثم حمل على الفارس فصرعه وأخذ فرسه فدفعه إلى الظعينة. فلما استبطأ دريد صاحبه بعث فارساً آخر يكشف له الخبر فوجد رفيقه صريعاً ورأى الفتى يقود الراحلة فصاح به فتصامم عنه ، فاقتحمه بفرسه ، فنازله ربيعة وصرعه وهو ينشد :

خل سبيل الحرة المنيعة . إنك لاق دونها ربيعة
فى كفه خطيّة مطيعة أو لا فخذها طعنة سريعة
فالطعن منى فى الوغى شريعة

فلما أبطأ الفارس على دريد بعث ثالثاً لينظر ما صنع الفارسان الآخران ، فانتهى إليهما فرآهما صريعين ، ونظر فرأى الفتى يقود ظعينته ويجر رمحه فقال له الفارس : خل عن الظعينة . فقال لها ربيعة « اقصدى قصد البيوت » ثم رجع إلى الفارس وقال له :

ماذا تريد من شتيم عابس ألم تر الفارس بعد الفارس

أرداهما عامل رمـــح يابس

ثم طعنه فصرعه فانكسر رمحه . واستبطأ دريد أصحابه فظن أنهم قد أخذوا الظعينة وقتلوا الرجل فلحق بهم فوجد ربيعة لا رمح معه وقد دنا من الحي ووجد أصحابه قد قتلوا فقال له دريد : أيها الفارس ، إن مثلك لا يقتل وإن الخيل ثائرة بأصحابها ولا أرى معك رمحاً وأراك حديث السن فدونك هذا الرمح ، فإني راجع إلى أصحابي فمثبط عنك . ثم أتى دريد أصحابه وقال لهم : إن فارس الظعينة قد حماها وقتل فوارسكم وانتزع رمحي ولا طمع لكم فيه ، فانصرف القوم ودريد ينشد :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثلـــه

حامى الظعينة فارساً لم يقتـــل

أردى فوارس لم يكونوا نهــزة

ثم استمـــر كأنه لم يفعـــل

متهلل تبــدو أسرة وجهـــه

مثل الحسام جلته أيدى الصيقـــل

يزجي ظعينتـــة ويسحب رمحـــه

متوجهـــاً يمناه نحـــو المنـــزل

وترى الفوارس من مخافة رمحــه
مثل البغاث خشين وقــع الأجدل
يا ليت شعرى من أبوه وأمــه
يا صاح من يك مثله لم يجهل
فقال ربيعه مجيباً :
إن كان ينفعك اليقين فسائــلى
عنى الظعينة يوم وادى الأخرم

وفى هذه القصيدة يصف ما وقع له مع دريد بن الصمة وفرسانه .

وقد سأل عمر بن الخطاب عمرو بن معد يكرب : من أشجع من رأيت ! قال : كانت لى فرس شمقمقة طويلة سريعة الإنفاذ فركبتها فلم أكن ألقى أحداً إلا قتلته ، ثم مضيت فأصبحت بين رجال متعاقدة فنظرت إلى أبيات فعدلت إليها فإذا فيها جوار ثلاث كأنهن نجوم الثريا ، فبكين حين رأينى فقلت : ما يبكيكن ؟ فقلن : لما ابتلينا به منك . ومن ورائنا أخت لنا أجمل منا ، فتركتهن وسرت فى طلبها فأشرفت على مكان مرتفع ، وإذا بغلام قد جلس يخصف نعله (يرقعها) فلما

نظر إلى وثب على فرسه مبادراً ثم ركض فسبقنى إلى الفتيات فوجدهن قد ارتعن فسمعته يقول لهن :

مهلا نسياتى فلا ترتعــن
إن تمنع اليوم نساء تمنعـــن

فلما دنوت منه قال : أتطرد لى أو أطرد لك . قلت : بل اطرد لى فركض وركضت فى إثره حتى أمكنت السنان من لفتته (أسفل الكتف) فإذا هو والله ينقلب على صدر جواده فتذهب الطعنة خائبة . ثم استوى فى سرجه . فعدت إلى طرده وهو يركض أمامى حتى إذا مكنت السنان بين ناصيته إذا هو والله قائم على الأرض ومضى السنان زالجاً فى الهواء . ثم استوى على فرسه ، فطردته ثالثة حتى إذا أمكنت السنان من متنه اتكأت عليه وأنا أظن أنى قد فرغت منه فمال فى سرجه حتى خالط بدنه الأرض وذهبت الطعنة فى الهواء مرة أخرى ثم استوى على فرسه وقال : أبعد ثلاث تريد ماذا ؟! ثكلتك أمك ! فوليت وأنا مرعوب منه فلما غشينى أحسست مس الرمح فى بدنى فالتفت فإذا هو يطردنى بالرمح دون سنان . ثم كف عنى واستنزلنى فنزلت عن فرسى فجز ناصيتى وقال :

انطلق فإنى أنفس بك عن القتل . فكان ذلك عندى يا أمير المؤمنين أشد من الموت . ثم سألت عن الفتى فقيل ربيعة ابن مكدم فذلك أشجع من رأيت .

وقصة موت ربيعة من أروع قصص البطولة التى وصلتنا من العصر الجاهلى كان قد وقع نزاع بين نفر من بنى سليم ونفر من بنى كنانة فقتلت بنو كنانة رجلين من بنى سليم ثم أعطوا ديتهما . وكف النزاع مدة من الزمن . وفى يوم خرج نبيشة بن حبيب فى جماعة من بنى سليم غازياً ، فلقى ظعائن من بنى كنانة فى موضع يقال له الكديد . وكانت الظعائن فى حماية بعض الفرسان فيهم ربيعة بن مكدم وكان مريضاً يحمل فى محفة . فلما رأوهم قال الحارث بن مكدم أخو ربيعة : هؤلاء بنو سليم يطلبون دماءهم . فلما سمع ربيعة ذلك غالب ضعفه وامتطى جواده وقال : أنا أذهب أعلم علم القوم فآتيكم بخبرهم » وتوجه نحوهم . فقال بعض الظعن : هرب ربيعة . وقالت أم عزة بنت مكدم ، : أين تنتهى نفرة الفتى . فعطف وقد سمع قول النساء وأنشد :

لقدعلمن أنى غـير فرق
لأطعنن طعنـة وأعتنـق
أصبحهم صاح بعحمر الحدق
عضبـا حساماً ، وسناناً يأتلـق

ثم انطلق يعدو به فرسه ، فحمل عليه فارس من بنى سليم ، فاستطرد له ربيعة فى طريق الظعن وانفرد به ثم عطف عليه فشكه بالرمح فأرداه . فلحق به فارسهم نبيشة ورماه بسهم فأصابه فى عضده ، فارتد إلى الظعن حتى انتهى إلى أمه وكانت معهم فى الرحل فقال لها : اجعلى على يدى عصابة

ثم أنشد يرتجز :

شدى على العصْب أم سيـار
قد رزئت فارسـاً كالدينـار

فقالت أمه :

إنا بنو ثعلبـة بن مالك مرزؤو خيـارنا كذلك
من بين مقتول وبين هالك

وشدت أمه عليه عصابة ، فاستسقاها ماء ، فقالت :

إن شربت الماء مت فكر على القوم فإن الماء لا يفوتك ؛ فكر راجعاً يشتد على القوم ودمه ينزف حتى كشفهم وردهم عن الظعائن . ثم رجع فقال للظعن : اسرعن إلى أدنى بيوت الحى فإنى سوف أقف دونكن لهم على العقبة فأعتمد على رمحى فإن فاضت روحى كان الرمح عمادى ، وهم لا يجرؤون ما دمت واقفاً مكانى على اللحاق بكن لأن هيبتى وقعت فى نفوسهم فالنجاء ! النجاء ! فإنى أرد بذلك وجوه القوم عنكن ساعة من النهار .

وأسرعت الظعائن فوصلت إلى الحى آمنات ، وهرب الرجال فى إثرهن وربيعة واقف إزاء أعدائه على جواده معتمداً على رمحه والدم يسيل من جروحه حتى لفظ آخر أنفاسه وبنو سليم واقفون يخافون أن يقدموا فى إثر الظعائن لا يجرؤون على الدنو منه . فلما طال منهم ذلك قال نبيشة : إنه لمائل العنق وما أظنه إلا قد مات . وأمر فارساً من فرسانه أن يرمى فرسه فرماها فمضت فخر ربيعة على وجهه . فأسرعت الفرسان وراء الظعن فلم يدركوهن وإنما أدركوا أخاه الحارث فقتلوه . ثم رجعوا إلى ربيعة فأهالوا الحجارة على جثته وأصبح ذلك

المكان قبراً له . وكان الفرسان يمرون به خاشعين يحيون حامى الظعينة حياً وميتاً ، بل أصبح مثلا أعلى للفروسية الجاهلية التى تضحى بأغلى ما تملك لتحمى المرأة من التردى فى الأسر وهو أشد عار تخاف منه القبيلة العربية .

وقد مدحه كثير من الشعراء وعيروا أهله من الفرسان الذين هربوا وخلوه وحده يقاتل فرسان بنى سليم ، وهذا شاعر يعتذر حينما مر بقبره ولم يعقر ناقته تعظيماً له :

نفرت قلوصى من حجـارة حـرة
بنيت على طلق اليديـن وهـوب

لا تنفرى يا نـاق منه فإنـه
سباء خمـر مسعـر لحروب

لولا السفار وبعد خـرق مهمـه
لتركتهـا تحبـو على العرقوب

فر الفوارس عن ربيعة بعـدما
نجاهم من غمـرة المـكروب

لا يبعـدن ربيعـة بن مـكدم
وسقى الغـوادى قـبره بذنـوب .

* * *

زيد الخيل :

فارس من طيء قبيلة الشعراء والفرسان والأجواد ، وزيد فارسها المعلم العملاق وشاعرها المجيد المقل . أضيفت الخيل إلى اسمه لشغفه بها وكثرة ما اجتمع لديه منها ، وكان لا يقتنى الخيل إلا الفارس الموسر ، وقد عرفت له أفراس عدة منها : الهطال والورد والكميت ودؤول ولاحق .

وكان زيد الخيل طويلاً عملاقاً تخط رجلاه الأرض إذا ركب فرسه ، فكان منظره يروع منافسيه قبل أن يصاولوه أو ينازلوه . قدم على النبي فى وفد بنى طيئ سنة تسع للهجرة ، فلما رآه أعجب بمنظره وقال له : « ما وصف أحد فى الجاهلية فرأيته فى الإسلام إلا رأيته دون الصفة غيرك » . وقد أسلم زيد الخيل فسماه الرسول زيد الخير وأقطعه أرضاً يستغلها ، ثم مرض بالحمى ومات بعد فترة قصيرة .

وأخباره فى الجاهلية تشهد ببطولته وفروسيته ، كان عامر ابن الطفيل أحد فرسان العرب المشهورين قد أغار على

بنى فزارة فسبي امرأة يقال لها هند، واستاق نعماً كثيرة لهم .
فاتفق أن خرج زيد الخيل يومذاك إلى بنى بدر وهم بطن من فزارة يطلب نعماً لهم عندهم . فقالوا : ما كنا قط إلى نعمك أحوج منا اليوم . وأخبروه بما فعل عامر بن الطفيل بهم .
فانطلق زيد فى إثره يبحث عنه ، فأدركه وهو يسوق النعم مطمئناً . ورآه عامر فأدهشه طوله وضخامته . وبرز إليه زيد وناداه : خلٍّ عن الظعينة والنعم ! فسأله عامر : من أنت ؟ .
قال : فزارى أنا . قال عامر : والله ما أنت من القُلح أفواهاً (أى صفر الأسنان) ويريد بهم بنى فزارة . فقال زيد : خل عنها ! قال عامر : لا أو تخبرنى من أنت . قال : أسدى .
قال : لا والله ما أنت من المتكورين على ظهور الخيل .
يريد بنى أسد . قال : خل سبيلها . قال : لا والله أو تخبرنى ، فاصدقنى . قال : أنا زيد الخيل . قال : صدقت ، فما تريد من قتالى ؟ فو الله لئن قتلتنى لتطلبنك بنو عامر ، ولتذهبن بنو فزارة بالذكر . واستأسر له عامر ، فجز زيد ناصيته ، وأخذ رمحه ورد هند والنعم إلى بنى بدر . ورجع عامر إلى قومه مجزوزاً ، وأخبرهم بما وقع له فغضبوا وقالوا له : « لا ترأسنا أبداً » وخرجوا عن قيادته لهم . ثم جهزوا ليغيروا على بنى طيئ

ورأسوا عليهم علقمة بن علاثة منافس عامر فى الرئاسة . فبعث عامر إلى زيد الخيل يخبرهم أنهم خرجوا لغزوهم . فجمع زيد قومه وتربص لهم فى مضيق جبلين حتى إذا أقبلوا قاتلهم وأسر منهم جماعة وهرب الباقون . وكان بين المأسورين الشاعران الحطيئة وكعب بن زهير . فمدحه الحطيئة بشعر وأعطاه كعب فرسه الكميت فخلى سبيلهما . واستبقى بقية بنى عامر فى الأسر . ولما طال أسرهم سألوه أن يقبل الفداء ويطلق سراحهم فقال لهم : الأمر إلى عامر بن الطفيل يريد بذلك أن يعيد مكانته عندهم . فرفض بنو عامر لكنهم اضطروا أخيراً إلى أن يهبهم لعامر الذى أطلق سراحهم واستعاد مكانته لديهم .

وكان زيد الخيل شديد العصبية ليمنيته كثير الغزوات للعدنانية ، وقد خص بنى أسد بأكثر غاراته وأعنفها . وكان زيد لا يغفل عن حقه فى الرئاسة وأخذ ربع الغنيمة فى كل غزوة يغزوها ، وكانت قبيلته تخضع لشروطه لأنها تعلم أنها تعود معه ظافرة غانمة . حدث أن غزت بنو نبهان ومعهم زيد الخيل قبيلة بنى فزارة فاقتتلوا قتالاً شديداً . فانهزمت فزارة

وساقت بنو نبهان الغنائم . ولكن فزارة حشدت فرسانها واستعانت بأحياء من قيس وفيهم رجل من سليم شديد البأس يقال له عباس بن أنس كان نازلاً فى فزارة ، فأغاروا على نبهان ولم تكن الرئاسة حينئذ لزيد الخيل ، فامتنع عن القتال ووقف ينظر إلى المعركة . فثقلت الوطأة على بنى نبهان وأثخنت فيهم فزارة . فلما رأى زيد ما حل بقومه ناداهم : يا بنى نبهان أ أحمل ولى المرباع . قالوا : نعم ! فشد على بنى سليم فهزمهم وأخذ أم الأسود امرأة عباس بن أنس ، ثم شد على بنى فزارة ومن معهم فهزمهم وفى ذلك يقول :

ألا ودعت جيرانهـــا أم أســـودا
وضنت على ذى حاجة أن يزودا

وسائل بنى نبهـــان عنا وعندهم
بلاء كحد السيف إذ قطع اليدا

وكان زيد الخيل لا يحب لقومه أن يتحاربوا فيفنى بعضهم البعض وكان ينصح أبناءه أن لا يدخلوا تلك الحرب التى تفتك بين بطون القبيلة الواحدة . فقد قال لابنيه مكنف وحريث يوم اليحاميم عندما تنازعت بطون قبيلته : أى ابنى ، ابقيا على قوميكما ، فإن اليوم يوم التفانى ، فإن يكن هؤلاء أعماماً

فهؤلاء أخوال . واضطر يوماً إلى الابتعاد عن قومه حين يئس من الإصلاح بينهم ونزل على بنى تميم . فلما خرجت بنو تميم لغزو البكريين بقيادة قيس بن عاصم خرج معهم . واقتتلت القبائل فترة وزيد الخيل واقف ينظر فلما رأى أن كفة بنى بكر قد رجحت وأوشك التميميون أن ينهزموا عز عليه أن لا ينجدها فحمل على البكريين يضرب أعناقهم ولا يتكنى بكنيته حتى لا يعرفوه فيثير عداء بين قبيلته وبينهم . فلما انتصر بنو تميم جاء إلى قيس بن عاصم فقال له : اقسم لى يا قيس نصيبى .

قال قيس : وأى نصيب ؟ فوالله ما ولى القتال غيرى وغير أصحابى . ورفض أن يعطيه شيئاً لكى لا يظهر له فضلا عليه أو على بنى تميم فغضب زيد الخيل وخرج وهو يقول :

فلست بوقاف إذا الخيل أحجمت
ولست بكذاب كقيس بن عاصم

بل الفارس الطائى فض جموعهم
ومكة والبيت الذى عند هاشم

إذا ما دعوا عجلا عجلنا عليهم
بمأثورة تشفى صداع الجماجم

فلما عرف بنو عجل أن زيد الخيل سبب هزيمتهم – وبنو عجل بطن من بكر – أغاروا على بنى نبهان وأخذوا نعمهم انتقاماً منه . وبلغ ذلك زيد الخيل فانطلق فى فوارس من بنى نبهان فقاتل بنى عجل واستنقذ بعض ما كان بأيديهم ولكنه لم يرجع إلى منازله خجلا من أنه لم يستطع أن يسترجع كل النعم فأغار على قبيلة تيم الله من قبيلة النمر بن قاسط أقرباء البكريين فغنم وسبي ورجع إلى قومه وهو يقول :

إذا عركت عجل بنا ذنب غيرنا

عركنا بتيم الله ذنب بنى عجل

وعاش زيد الخيل مرهوب الجانب طيلة حياته ومات مسلماً بعد أن غير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه من زيد الخيل إلى زيد الخير .

الشنفرى الصعلوك :

نمط آخر من الفرسان الصعاليك يختلف عن ذلك النمط الذى يمثله عروة بن الورد ، فإذا كان عروة يمثل الفارس الإنسان فإن الشنفرى يمثل الفارس الشيطان . .

فهو أحد أغربة العرب أولئك الذين شعروا بالاضطهاد

النفسى والمادى بسبب لونهم ووضعهم الاجتماعى فى قبائلهم .

وقد اختلف فى اسمه كما اختلف فى نسبه ، فهو ثابت والشنفرى لقبه لضخامة شفتيه أو أن الشنفرى اسمه وليس لقبه . وهو أزدى ونشأ فيهم ثم أغاظوه فهجرهم أو أنه ولد فى بنى سلامان أو نشأ عندهم ، ثم إن حياً من بنى فهم أغار على بنى سلامان وأسر الشنفرى وهو غلام صغير فلم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان رجلا من فهم ، ففداه الفهميون بالشنفرى . وكبر فى بنى سلامان وظن أنه منهم وحدث ذات يوم أن أراد أن يقبل ابنة من ينزل عليه فلطمت وجهه . فغضب ثم أخبره الرجل أنه أزدى من الأوس .

ورغم كل هذا الاضطراب الذى ساد نسبه فإننا نستطيع أن نقول إنه فقد توافقه الاجتماعى مع قبيلته الأزدية فجاور بنى فهم تلك التى اشتهرت بلصوصها وصعاليكها ، وهناك اتصل بالصعلوك تأبط شرا ووجد فيه تلميذاً ممتازاً ووجد فيه تأبط شرا خير رفيق له فى غزواته ، وبهذا سنحت الفرصة للشنفرى لينتقم من قبيلته ، فصب عليها جام غضبه .

وحفلت حياة الشنفرى بقدرته على سفك الدماء ، فكان يقطع الطريق على المسافرين ويغير على أموالهم ونسائهم ،

كذلك كان يغير على الأحياء ليلا فيروع ساكنيها من النساء والأطفال ويبطش بالرجال ، وبلغ من تحديه لأعدائه أنه كان يعلم سهامه قبل أن يرمى بها الرجال حتى تعرف القبائل أنه هو القاتل . وكان يأتى الرجل ويقف على مبعدة منه ويقول له : أ أطرفك ؟ ثم يرميه فيصيبه فى عينه .

وتحاملت عليه القبائل جميعاً ورغبت فى التخلص منه ، وتروى قصة جميلة تتصل بغضب القبائل عليه وانتقامها منه .

كان الشنفرى عندما ترك بنى سلامان مغاضباً قد أقسم أن يقتل مائة رجل منهم فما زال يترصدهم ويغتالهم حتى قتل تسعة وتسعين فارساً ، ولم يبق إلا فارس واحد حتى يبر بقسمه . وكمن له أسيد بن جابر السلامانى وكان من مشهورى العدائين مع نفر من قبيلته وكان الشنفرى قد قتل أخا أسيد وهو حرام ابن جابر . ومر الشنفرى بهم يريد الماء فأبصر عن بعد سواداً فرماه بسهم وكان من عادته أن لا يرى سواداً إلا رماه فأصاب السهم ذراع واحد منهم فلم يصرخ حتى لا يفطن الشنفرى إلى أمكنتهم ، فلما أمن ألقى سلاحه ونزل الماء ليشرب ، فانقض عليه أسيد ومن معه وأسروه وجاءوا به إلى بنى سلامان ، فقضت عليه القبيلة بالموت انتقاماً منه وتركوا جثته للضوارى

طريحة الفضاء . ويكمل الرواة هذه القصة فيقولون إن رجلا من بنى سلامان عثر على جمجمته يوماً ملقاة فى الصحراء فرفسها برجله تشفياً وازدراء فغرزت شظية من عظمها فى قدمه فجرحته ، وتعفن الجرح فمات الرجل فتمت به المائه . وبهذا بر الشنفرى بقسمه فى حياته وفى موته . ويظهر أن القدر نفذ له رغبته مقابل وفائه بقسمه إذ كان يخاف أن يدفن بعد موته ، فيأتى أعداؤه فيمثلوا بجثته ، ولذلك أوصى بأن يطرح فى الصحراء لأصدقائه من الحيوانات المفترسة ليكون طعاماً لها فهى أبرّ به من الإنسان .

فلا تقبرونى إن قبرى محرم
عليكم ولكن أبشرى أم عامر

ولا يستطيع متحدث عن هذا الصعلوك أن ينسى لاميته التى أطلق عليها لامية العرب . فهى من القصائد المختارة فى تاريخ الشعر العربى لأنها تمثل الفطرة البدوية الخشنة بألفاظها ، الساذجة بمعانيها ، كما تصور أنانية الشاعر ودورانه حول نفسه إلى جانب تصويرها لتمرده ورغبته فى الانطلاق والتحرر من كل قيد يفرضه عليه المجتمع .

وإذا كان الشنفرى قد عاش عيشة الفاتك القاتل فإن ذلك

نتيجة لما لاقى فى مجتمعه من عنت وقسوة ، وظلم اجتماعى وفوارق طبقية ، وبعد كل هذا فقد عاش مقاتلا ومات مقاتلا .

وتلك أمنية كل صعلوك انشق عن المجتمع رغبة فى التحرر ، وحباً فى الانطلاق ، فلا عبودية ولا قيود ولا طبقية ولا قهر ولا استبداد .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠

اقرأ

الدكتور علي حسني الخربوطلي

العرب ورسالتهم الإنسانية

العرب
ورسالتهم الإنسانية

الدكتور علي حسني الخربوطلي

العرب ورسالتهم الإنسانية

اقرأ ٢١٢
دار المعارف بمصر

اقرأ ۲۱۲ – أغسطس ۱۹٦۰

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ٥ شارع ماسبيرو – القاهرة ج. ع. م.

٥

١ ـ تطور المجتمعات إلى قوميات

كيف ظهرت المجتمعات ؟

يرى العالم الإنجليزى (أرثر كيث Arthur Keith)أ ننا لا نستطيع أن نفهم الرجل الحديث بما يجول فى قلبه من آمال ، وبما يفزعه من مخاوف ، ما لم ندرس عصور ما قبل التاريخ . فحياة الرجل الذى عاش منذ آلاف السنين ــ بل منذ مئات الآلاف من السنين ــ هى التى تطغى على حياة الرجل الحديث الذى يعيش اليوم .

ويرى (كيث) أيضاً أن القلب والعقل كان كلاهما مسيطراً على تطور الإنسان . وكل مظاهر الإنسانية قد نتجت عن العقل حيناً ، وعن القلب أحياناً . وكان لأحدهما أو كليهما دائماً وزن فى تقدم الإنسان أو تأخره . لكن القلب هو الذى تحكم فى الإنسانية عند نشأتها الأولى ــ فهو الذى كوّن عند كل فريق من النـــاس تعاطفاً فطريًّا خاصًّا ساقهم إلى ما آل إليه أمرهم فى النهاية من التقدم .

لم يوجد الإنسان قط كإنسان فرد ، وإنما وجد كذكر وأنثى . وكانت (الأسرة) أبسط أشكال الوجود الإنسانى ،

وقد جاءت متلائمة مع احتياجات الإنسان ، وضرورة حتمية تفرضها طبيعته التكوينية ، لا يستطيع أن يعيش معتمداً على نفسه فى المراحل الأولى التى تعقب ولادته ، ولابد أن يرعاه ويعنى به والداه طيلة هذه الفترة ، ونتيجة لهاتين الخاصتين — الدوافع الغريزية والحاجة للرعاية — تشكل المجتمع العائلى البسيط كضرورة حتمية تلقائية تفرضها طبيعة الإنسان التكوينية ، وأصبح الاجتماع الإنسانى مغروساً فى نفس الإنسان منذ لحظاته الأولى المبكرة فى الوجود .

إن ظاهرة التعاون بين أفراد الجماعة ، ومنها الجماعة الإنسانية ، يمكن تفسيرها إلى حدما على أساس الغرائز ، وإنك لتجدها بالغة مبلغ الكمال فى النمل والنحل ، الذى لا يمكن بحال من الأحوال أن يقدم على عمل ضار بمصلحة الجماعة ، أو يحيد عن هدف واحد هو التفانى فى خدمة الخلية أو العش .

كانت الأسرة — وما زالت — أقوى التشكيلات الاجتماعية ، بل هى وضع تمليه الغريزة إملاء . إن قيام نظام الأسرة بين أفراد الجنس الإنسانى أمر ضرورى بسبب طول فترة الطفولة ، ولأن أم الأطفال كانت مغلولة اليدين بانصرافها إلى جمع الطعام . ولقد كان هذا الاعتبار وحده باعثاً على وجود الأب بوصفه العنصر الجوهرى فى حياة الأسرة ، سيان فى حالة الإنسان أو الغالبية العظمى من فصائل الطير ، ولابد أن يكون

هذا قد أدىّ إلى توزيع للعمل بمقتضاه انصرف الرجل إلى الصيد ، وانصرفت المرأة إلى الخدمة فى المنزل . ونجد تبعاً لذلك أن دور الانتقال من الأسرة إلى القبيلة الصغيرة كان من الوجهة البيولوجية قائماً على الاعتقاد بأن التعاون شرط أساسى للصيد المنتج ، كما أن تماسك القبيلة منذ العصور الأولى لابد أنه كان وليد التصادم بينها وبين القبائل الأخرى .

كيف ظهر الشعور الاجتماعى ؟

الإنسان حيوان اجتماعى ، وإذا اختلط الناس بعضهم ببعض ، وكونوا مجتمعاً صغيراً أو كبيراً ، طافت بينهم عواطف واحدة تملك على جميع أفراد المجتمع سلوكهم وشعورهم وتفكيرهم ، وفى المجتمع شعور كامن ، يسميه بعض العلماء « التعاطف الفطرى » ويسميه البعض « الشعور الاجتماعى » . وهذا الشعور يتولد من اختلاط الأفراد بعضهم ببعض . ويشبه بعض علماء النفس حياة المجتمعات الإنسانية بحياة بعض أنواع الحيوان التى تؤلف بينها شعوراً فطريا خاصًّا . ويشبه هؤلاء العلماء المجتمعات الإنسانية بسرب الطير أو قطيع الغنم أو خلية النحل . وقد يصل هذا الشعور الاجتماعى إلى أدنى درجاته فى المجتمعات البدائية فلا تختلف عن أسراب الطير أو قطعان الأغنام ، وقد يعلو الشعور الاجتماعى حتى يصبح مذهباً عالميًّا أو فكرة شاملة . وهذا الشعور الاجتماعى هو أساس ما نراه من

اختلاف بين الجماعات ، ومن اختلاف الأمم ، وتباين القوميات .

لم تستطع المجتمعات أن تصل إلى هذا الشعور الاجتماعى الراقى إلا بعد عدة مراحل . حين أصبح للجماعة الراقية وجود مستمر متصل ، وتحقق ذلك حينما أصبح لها نظام حكومى أو سياسى أو اقتصادى أو دينى يتوارثه الأجيال ، وحين شعر أفراد هذا المجتمع بموقفهم من المجتمع نفسه ، فأصبح لدى كل فرد منهم فكرة عن الحياة العامة التى يحياها هذا المجتمع ، وحين أصبح المجتمع على اتصال بسائر المجتمعات حوله . وقد يكون هذا الاتصال كفاحاً ، وقد يكون تفاهماً سلمياً . أحس أن هذا الاتصال ، مهما كان شكله ، يوضح الأفكار العامة التى تسرى بين أفراد المجتمع ، ويبلور المشاعر النفسية التى تحدد معنى المجتمع والأهداف والآمال ، وشعر أفراده بأنهم أجزاء لكل واحد .

وهذه المراحل التى مر بها الشعور الاجتماعى ، جعلت للمجتمع مجموعة من التقاليد والعادات والعقائد . وهذا أدى بدوره إلى وحدة المجتمع التى تتطلب أن يكون لكل فرد من أفراده نفس النظرة إلى الماضى كما تستدعى أن يكون لكل منهم نفس النظرة إلى المستقبل . وهذه المراحل أدت أيضاً إلى انتظام أفراد المجتمع الراقى وطبقاته بحيث يقوم كل فرد وكل

طبقة بوظائف خاصة ، ويوجه كل فرد إلى عمل خاص يحسن القيام به .

ما هى عوامل التماسك الاجتماعى ؟

إن الأداة الأولى للتماسك الاجتماعى هى (الحكومة) . لا جدال فى أنه كانت هناك تقاليد قبلية فرضت طاعتها على الجميع ، ولكن يجب أن نفترض عدم وجود وازع يحفز الناس على العبث بهذه التقاليد ، وكذلك عدم الحاجة إلى نظام يفرض هذه التقاليد فرضاً .

فى العصر الحجرى القديم ، كانت القبيلة تعيش فى فوضى شاملة ، نتيجة سيطرة الغرائز سيطرة تامة على جميع تصرفات الأفراد . أما فى العصر الحجرى الحديث ، فكانت فى القبيلة حكومة وسلطات تستطيع فرض الطاعة والتعاون الإجبارى على نطاق واسع . كل ذلك واضح فى إنتاجهم لأن التماسك الاجتماعى فى شكله المتواضع إبان القبيلة الصغيرة لم يكن ليستطيع بناء الأهرام مثلا . أما عن اتساع رقعة الجماعة ونموها فقد كانت الحرب هى السبب الرئيسى فى هذا النمو . كثيراً ما تقوم الحرب بين قبيلتين ، فيحدث أن إحداهما تستولى على أرض جديدة مما يتيح لها الفرصة لزيادة عددها ، كما قد تتوحد رقعة الجماعة إلى حد يتعذر معه على الأفراد أن يعرف بعضهم بعضاً ،

ويصبح من الضرورى ابتكار أداة يتوصل بها إلى قرارات إجماعية ، وتلك هى الأداة التى تتطور شيئاً فشيئاً حتى تتبلور فى ذلك الشكل الذى نسميه الآن (الحكومة) .

للحكومة ، منذ الماضى البعيد الذى نشأت فيه ، وظيفتان : سلبية وإيجابية . فالوظيفة السلبية هى تحريم استعمال القوة الفردية وحماية الحياة وسن العقوبات وتنفيذها ولكن إلى جانب هذا كان للحكومة هدف إيجابى هو تيسير السبل نحو تحقيق رغبات الأغلبية العظمى فى الأمة ، وقد كان هذا الهدف الإيجابى للحكومة فى كل العصور متصلا بالحرب ، فلو كان فى حد المستطاع قهر عدوّ والاستيلاء على أراضيه لكان فى ذلك منفعة مادية لكل فرد من أفراد الأمة المنتصرة تختلف باختلاف الأفراد . ولكن الذى حدث الآن هو أن تلك الوظائف الإيجابية للحكومة تطورت أو اتسعت إلى حدّ كبير . فنجد أولاها التعليم الذى لا يستهدف الحصول على مؤهلات علمية فقط ، وإنما يستهدف إلى جانب هذا إشعار النفوس بالعزة وتربية العقائد فى نفوس الرعايا . وتأتى بعد ذلك مشروعات صناعية ضخمة ترفع مستوى المعيشة فى المجتمع

كيف تطورت المجتمعات الإنسانية إلى مجتمعات قومية ؟

تطور الاجتماع الإنسانى من تجمعات بشرية غير محددة ، إلى قوميات متميزة . لم يتم ذلك ببساطة أو سرعة وإنما خضع

لتفاعلات عميقة وعوامل عديدة متشابكة امتدت وقتاً طويلا ، ورافقتها عدة أطوار من أشكال الاجتماع الإنسانى . فقد مر الإنسان خلال تاريخه بدور الصيد ، ودور الرعى ، ودور الزراعة وغيرها . وكان يرافق كل دور من هذه الأدوار انتقال فى شكل الاجتماع الإنسانى فمر الإنسان بالعائلة (الأمومية والأبوية) ، والعشيرة ، والقبيلة ، والمجتمع المدنى (City State) والمجتمع الإمبراطورى (الفرسى ، واليونانى ، والرومانى والمجتمع الدينى (الكنيسة) والمجتمع القومى (الدولة القومية) .

هذه الأدوار والتشكيلات ، كانت أولا تعكس تجربة الجماعات البشرية فى البحث عن وضع أفضل لحياتها ، كما كانت ثانياً ذات علاقة وثيقه بإرساء البذور التكوينية الأساسية للروابط القومية ، وذلك تبعاً للوسط الذى يوفره كل منها لحدوث التفاعل والاحتكاك الاجتماعيين بين أفراد الجماعة الواحدة .

كانت التجمعات البشرية الأولى بسيطة ، فلم تكن لها فى بداية الأمر صفة المجتمعات المحددة الثابتة المتميزة عن بعضها البعض ، وإنما كانت مجرد تجمعات مائعة تفتقر إلى عناصر الثبات والاستمرار فضلا عن أن هذه التجمعات البشرية كانت قليلة العدد ، تتوزع توزعاً واسعاً على سطح الأرض ، وينفصل بعضها عن بعض بحدود جغرافية طبيعية كانت بمثابة الحواجز المنيعة التى يصعب تخطيها لبعد المسافات وصعوبة المواصلات فى ذلك الحين .

ثم بدأت بين أفراد كل تجمع آخر عملية احتكاك اجتماعى بسيط ، قامت فى بادئ الأمر على مصلحة العيش المادى المشترك من مأكل وملبس ومأوى وأمن ، واقتصر الطابع العام للتفاعل الاجتماعى فى هذا الطور فى الغالب ، على مدى ما يتطلبه هذا الهدف المشترك من تفاعل وتعاون بين أفراد المجتمع الواحد لتنظيم شئون التجمع ومجابهة ظروف الحياة .

ثم بدأ الاحتكاك الاجتماعى بين أفراد المجتمع ينتقل إلى طور آخر من نوع جديد ، فإن العيش المشترك لمدة طويلة ، ووحدة المشاكل التى كانت تجابه المجتمع ، نقلت عملية التفاعل الاجتماعى من تفاعل مادىّ بسيط تفرضه ضرورة الحصول على حاجات الإنسان المادية ، إلى عملية تفاعل اجتماعى عميق الأثر ، عملية تفاعل كلى ، مادى وروحى ، مصلحى ومعنوى .

بدأ العقل الفردى يصبح عقلا جماعيًّا ، والإحساس الفردى يصبح إحساساً جماعيًّا ، وبدأت تظهر فى المجتمع مقومات إنسانية جديدة ، فنمت إلى جوانب البواعث والأهداف المادية المصلحية التى كانت العامل الأهم فى ربط أفراد التجمع فى الأول ، بواعث وأهداف معنوية تقوم على المشاركات الوجدانية بين أفراد المجتمع . وبعد أن كانت مصلحة المأكل والملبس والمأوى والأمن هى الأساس الأول فى رابطة التجمع ، وهى المقياس الأول الذى يحدد العلائق الاجتماعية بين الأفراد .

رأينا الاحتكاك الجماعى الطويل داخل كل تجمع ، يضيف أسس وروابط أخرى ، كالرغبة فى إرادة العيش المشترك ، ومشاطرة أفراد المجتمع لبعضها البعض . وبدأت وحدة المشاكل التى يجابهها التجمع تنعكس فى نفوس أفراده ، ودبت فى التجمع روح جماعية جديدة كانت تخلق بدورها مفاهيم جماعية جديدة .

ونتيجة المخالطة الطويلة المنتظمة ، وجد لكل تجمع لغة خاصة به ، وعادات وتقاليد ينفرد باتباعها ، وخاض كل تجمع غمار تاريخ واجد وكوحدة مما أوجد لديه تجاربه وخصائصه وآلامه وآماله وثقافته الخاصة ، وبالتالى دوافعه وأهدافه وشخصيته الخاصة .

وهكذا بدأ كل تجمع من هذه التجمعات يكتسب صفة الثبات والتحدد والطابع الخاص المتميز ، وبدأت التجمعات البسيطة العرضية تكتسب صفة الجماعات المحددة الثابتة ذات الطابع المستقل الذى يميزها عن غيرها من الجماعات الأخرى ، مما مهد لقيام المجتمعات البشرية التى تتوفر فيها عوامل الاستقرار . وهكذا انقلبت الجماعات البشرية من مجرد تجمعات مائعة ليس لها أغراض واضحة ، إلى جماعات محددة ذات شخصية ثابتة مستقلة . أى قوميات تقوم على تفاعل عدة روابط مشتركة خاصة فى الجماعة الواحدة ، وأصبحت بذلك أمماً مختلفة متميز كل منها عن الآخر .

٢ ــ القومية : بين الدولة والأمة

ما هى القومية ؟

القومية هى الشخصية الجماعية لأية أمة ، أو هى الواقع التاريخى واللغوى والثقافى الذى يحوى خلاصة جميع التجارب الإنسانية التى خاضتها الجماعة البشرية منذ نشأتها ، إلى أن تبلورت شخصيتها تبلوراً واضحاً مميزاً قام على تفاعل عدة روابط مشتركة خاصة بهذه الأمة .

على هذا الأساس ، نمت كل التجمعات البشرية المنتشرة على سطح الأرض ، وتبلورت من خلال نمو روابطها القومية ، فى قوميات مختلفة ذات شخصيات قومية متميزة تحيا ضمن مجتمعات تنطبق حدودها القومية على حدودها الطبيعية والسياسية ، أى تنتهى حدود كل مجتمع حيث ينتهى أثر الطابع القومى والشخصية القومية لأمة ، ويبتدئ أثر الطابع القومى والشخصية القومية لأمة أخرى بحيث إذا ألقينا نظرة عامة على العالم اليوم وجدناه ينقسم إلى عدة قوميات ، لكل قومية منها روابطها الخاصة وشخصيتها المتميزة .

إن القومية قوة عظيمة الأهمية فى العالم الحديث ، فقد رأينا الكثير من المظاهر القوية التى تدل على قدرة أعضاء الدولة

الواحدة على الشعور والسلوك وكأنها وحدة واحدة . ولا تنحصر القومية فى نطاق الدول الصغيرة المتجانسة التى يتشابه مواطنوها إلى حد كبير ويشتركون تقريباً فى مجموعة متماثلة المصالح ، بل يبدو أن القومية تميز أيضاً الدول الكبرى .

يعرف (أورجانسكى) القومية بأنها شعور قوى بالاتحاد الشخصى مع مجموعة من الناس والأماكن وطرق السلوك التى تؤلف الدولة وأساليب الحياة بداخلها ، ويتحقق ارتباط الفرد العاطفى القوى بالدولة عن طريق تحويل جزء من تلك المواقف والمشاعر التى أوجدها الفرد فى علاقاته بالجماعات الصغيرة التى هو عضو منها ، تحويل هذا الجزء إلى الجماعة الكبرى غير الشخصية المجردة التى يطلق عليها اسم الدولة .

ونتيجة لاتصالات الفرد اليومية تنتابه مشاعر صادقة بالحب والتآلف والإخلاص نحو أسرته وأصدقائه . وبدرجة أقل نحو زملائه فى العمل وجيرانه . والواقع أن هذه المشاعر هى التى تمثل الأساس الذى يقوم عليه ارتباطه بالدولة لأنها تتحول إلى الجماعة الكبرى بطريقة سيكولوجية بحتة .

إن التقارب بين طبيعة إحساسات الفرد نحو أسرته وطبيعة إحساساته نحو دولته واضح . فالأراضى الوطنية هى أرض الوطن ، أو وطن الأب ووطن الأم ، ويتبع نطاق إحساسات الفرد نحو منزله فيشمل الدولة بأكملها . وتختلف طبيعة الحب الذى يشعر به الفرد نحو بلاده وزعمائه السياسيين بين كل دولة

وأخرى . ولكن جدير بنا أن نذكر أن شعوره نحو بلاده يتماثل مع شعوره نحو أسرته .

إن العالم إنما يتكون من مجتمعات قومية ، من أمم متعددة ، يكون كل منها بطبيعته وحدة حيوية متفاعلة ، لها واقعها التاريخي واللغوى والثقافى والنفسى والجغرافى وشكلها الاجتماعى الخاص بها ، ولها دوافعها ومصالحها وأهدافها الخاصة بها . وبكل هذه الأمور المجتمعة ، تتميز الأمم وتستقل بعضها عن بعض . وإن كانت تشترك أحياناً فى بعض هذه الأهداف مع بعض الأمم الأخرى . كما نجد كل أمة من هذه الأمم تقيم أو تناضل لكى تقيم نظاماً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وأخلاقياً خاصاً بها يعبر عن طريقتها ويتلاءم واحتياجاتها .

متى ظهرت القومية ؟ ولماذا ظهرت ؟

إننا لا نعلم بدقة متى ظهرت الروح القومية لأول مرة . وإن كان كثير من العلماء يرون أنها ظاهرة حديثة . فالقومية ، بمعناها الحديث ، لم توجد فى أيام الرومان والإغريق القدماء ، ولم تكن قائمة أيضاً فى العصور الوسطى ، ويمكننا أن نلمس الشعور بالقومية فى بداية العصور الحديثة عندما بدأت الدولة التى تضم أمة تصبح شكلا هاماً من أشكال التنظيم السياسى لأول مرة .

والواقع أن هناك شكاً فى إمكان نجاح الزعماء الذين وحدوا

الدول من الناحية السياسية لو لم يستندوا إلى هذا الشعور . أما اندماج الجماعات الحديثة والشعوب مع الدولة التى ينتمون إليها فهو مسألة حديثة العهد ، فقد يظهر هذا اللون من الشعور أخيراً فى ميدان السياسة العالمية وما زال ينتشر حتى الآن .

والفرد باتصالاته اليومية تنتابه مشاعر صادقة بالحب والتآلف والإخلاص نحو أسرته وأصدقائه . والواقع أن هذه المشاعر وتلك الأحاسيس هى التى تمثل الأساس الذى يقوم على ارتباطه بالدولة لأنها تتحول إلى الجماعة الكبرى بطريقة سيكولوجية بحتة .

ما هى العلاقة بين القومية والدولة ؟

الدولة نطاق معنوى محدّد يضم جماعة كبيرة من الأفراد الذين يشتركون فى بعض الصفات وقد يختلفون فى كثير منها ، إن كل فرد يشترك هو وأفراد هذه الجماعة أو تلك فى بعض الصفات ، فهو يشعر بأنه فرد فى عدة جماعات مختلفة ، ويشعر بولائه لكثير منها وأحياناً يتضارب هذا الولاء . ولا تبلغ عضوية معظم هذه الجماعات القدر الذى تبلغه عضوية الفرد فى الدولة ، فبعضها تكون جماعات أصغر من الدولة أو أكبر منها ، وبعضها يتعدى الحدود القومية .

تقوم الحكومات بأوجه نشاط كثيرة متباينة توطيداً للوحدة داخل الدولة ، وتعمل على إزالة العقبات أمام تحركات الأفراد

والتجارة داخل أراضيها وعلى تحسين وسائل المواصلات الداخلية ، ونشر وتقوية الخصائص المشتركة بين الناس ، مثل اللغة والثقافة ، وهى تحاول القضاء على الخصائص المحلية التى تضعف الوحدة القومية .

يرى (هوبز) أن أساس قيام الدولة أمران : أولهما المصلحة الفردية ، وثانيهما الخوف من تضارب مصالح المجتمع الذى تتألف منه الدولة ، ويرى أن الدولة عليها أن تهتم بالتوفيق بين المصالح المتضاربة وتوفير الأمن للجميع ، وليتم ذلك لابد من أن تجعل السلطة كلها فى يد الحكومة .

أما (روسو) فقد رأى أن هذه الدولة التى يراها هوبز ينقصها الوحدة الخلقية ، ورأى روسو أن الطريق إلى هذه الوحدة الخلقية هو السعى وراء هدف مشترك ، على أن يؤدى هذا الهدف إلى خير جميع الأفراد . ويرى روسو أنه لتكوين مجتمع واحد لابد من توفر شرطين : أولها وجود مصلحة مشتركة بحيث تستحق أن تقدم على المنافع الشخصية ، وثانيهما أن القانون الذى يخضع له المجتمع يكون من وضعه . وخلاصة آراء روسو أن العلاقات بين الفرد والجماعة أساسها شيئان : المصلحة العامة والاشتراك فى تقرير الأمور ، وهذا هو الذى سماه روسو (الوطنية) .

أما (فخته) فكان يرى أن الدولة يجب أن تتدخل فى شئون الأفراد وأن تهتم بالمصالح العامة قبل كل شىء ، وخاصة

فى النواحى الاقتصادية . وكان يرى أن الدولة هى الخير الأمثل للأمة .

يعرف (هكل) الدولة بأنها هى ما ينتج عن الاختبارات التى تجتازها الأمة فى أدوار حياتها ، فإذا فقدت بعض أنظمة الدولة مقدرتها على مجاراة الأمة فى آمالها فقدت حقها فى البقاء .

يعرّف (أورجانسكى) الدولة بأنها : وحدة سياسية ، بل هى أكبر وحدة سياسية لا تعترف بوجود أية وحدة سياسية أخرى تعلوها . والواقع أن أعضاء الدولة الواحدة يمكنهم ، بل إنهم عادة ما يتشابكون فى أكثر من حكومة واحدة وأرض واحدة ، فقد يكون لهم جميعاً اقتصاد مشترك ، ولغة مشتركة ، وثقافة مشتركة ، وأيديولوجية سياسية مشتركة ، وتاريخ مشترك .

ويرى (أورجانسكى) أن الشعور بالاندماج مع الدولة يساعد على تعويض الشعور بالضعف وعدم الطمأنينة الذى يبعثه المجتمع الحديث ، لأنه فى هذا المجال توجد جماعة ينتمى إليها الفرد منذ ولادته حتى وفاته ، وهى جماعة لم يطرأ عليها اختلاف على الرغم من تغير أعضائها ، جماعة عليها أن تقبله بحكم وجوده ، وقليل من الأفراد يأملون فى المجتمع الحديث الذى تسوده المنافسة أن يبلغوا أهدافهم ، ولكن من الممكن أن يتجنب الفرد إلى حدّ ما الفشل إذا أمكنه أن يجد فى نجاح بلاده تعويضاً عاطفيًّا عن فشله . قد يصب الفرد مشاعره

العدائية على الأعداء القوميين ، وقد يشترك فى مواقف وتصرفات محرمة بموافقة المواطنين لها .

ويذهب (ورنر ليفى) إلى أن القوانين الأخلاقية التى تنطبق على الفرد باعتباره فرداً تكون خفيفة الوطأة عليه باعتباره عضواً فى الجماعة القومية . وقد يلام باتباعه لمبدأ محاسبته لنفسه والصواب أو الخطأ ، على حين قد يمتدح إذا فعل ذلك باعتباره عضواً فى مجموعة الأفراد التى تسمى الدولة ، ويسمح هذا المقياس المزدوج للمواطن وسط الجماعة بالتمتع بسلوك ربما لا يكون مسموحاً له باعتباره فرداً . وإذا فصل المواطن نفسه عن الدولة ، فإنه يستطيع أن يوافق بضمير خالص على أعمال قومية ضدّ الدولة الأخرى ، أى ضدّ جماعات الناس ، ولكنه ربما استنكر هذه الأعمال لو صدرت من أحد الأفراد .

ما هى الوطنية ؟ وما هى الأمة ؟ وما علاقتهما بالقومية ؟

القومية فى العرف القديم هى (العصبية) . والحقيقة أن العصبية التى تجمع أفراد كل قبيلة ما هى إلا القومية . ونلاحظ أن أدب الجماعات القديمة التى كانت تعيش على شكل قبائل وعشائر هو أدب قومى عصبي قبلي . والأدب اليونانى القديم والأدب العربى الجاهلى من خير الأمثلة . فقد حفلت الإلياذة بذكر العواطف القومية القبلية . كما أن الأدب الجاهلى يكاد يقتصر على ذكر مفاخر القبيلة وأمجادها .

عرفت القبائل فى نهاية المطاف نوعاً من الاستقرار ، فتركت القبيلة حياة التنقل والترحال وسكنت بقعة من الأرض وارتبطت مصالحها بها ، وبدأ حب المدينة أو القرية أو مجموعة المدن التى أقامت فيها القبيلة . وهذا ما يمكننا أن نسميه (الوطنية) أو الشعور بحب الوطن . وهكذا ارتبطت (القومية) بالمكان ، ولكنها اقتصرت على بقعة محدودة بادئ الأمر هى المدينة . فالمدينة اليونانية ، مثل أسبارطة ، لم تتجاوز منطقة سيادتها إلا بضع مئات من الأميال المربعة ، وفى المشرق العربى القديم حلت عصبية المدينة مكان عصبية القبيلة ، فتعصبت البصرة ضد الكوفة ، وتعصبت الكوفة على دمشق . . وفى أوربا فى العصور الوسطى (١٢٠٠ — ١٥٠٠ م) كانت المدينة وحدة اقتصادية وسياسية مستقلة .

إن (الوطنية) هى حب الوطن ، و (القومية) هى حب الأمة . ولما كان الوطن هو قطعة من الأرض ، والأمة هى جماعة من البشر ، فإن (الوطنية) هى ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف باسم (الوطن) ، و (القومية) هى ارتباط الفرد بجماعة من البشر تعرف باسم (الأمة) . وحب الوطن يتضمن بطبيعته حب المواطنين الذين ينتمون إلى ذلك الوطن ، كما أن حب الأمة يتضمن فى الوقت نفسه حب الأرض التى تعيش عليها تلك الأمة .

لا تزال كلمة (أمة) غامضة فى كثير من وجوه معناها ،

فليس من اليسير تحديدها ، وقد بذل اللغويون جهوداً فى سبيل توضيح معنى اللفظ ، فذكر معجم (لاروس) الفرنسى أن الأمة « مجموعة من الناس ، تسكن أرضاً واحدة ، وترجع إلى أصل واحد ، أو لها مصالح واحدة مشتركة منذ أمد بعيد ، وأخلاقهم متشابهة ، ويتحدثون فى الغالب لغة واحدة » . أما معجم القرن العشرين البريطانى فقال : « الأمة جسم شعب نشأ فى جذع واحد ، ويطلق اللفظ أيضاً على الشعوب التى تسكن فى بقعة واحدة ، وتخضع لحكومة واحدة » .

اختلف المفكرون فى تحديد كلمة (الأمة) باختلاف ظروفهم وأحوالهم فليس من الطبيعى أن يعتبر الأمريكى (العنصر) أصلاً فى تكوين الأمة ، لأن أمته خليط من كل العناصر ، وليس من الطبيعى أن يجعل الإنجليزى (الوطن) فى المقام الأول من مفهوم الأمة ، لأن وطنه أوسع من حدود الجزر البريطانية .

تأثر (سيس) أحد زعماء الفكرة القومية فى فرنسا بمبادئ الثورة والحكم النيابى ، فقال : « إن الأمة تتألف من قوانين مشتركة » . وعرف (رينان) الأمة بقوله : « لا تتكون الأمة بوحدة اللغة أو وحدة الأصل والعنصر ، بل يكوّن الأمة أحداث عظيمة حدثت فى الماضى ، وتطلع إلى المجد فى المستقبل » . ويعرف (دركهيم) الأمة بأنها : « جماعة من البشر تريد الحياة فى ظل قوانين معينة ، وأن تكون دولة سواء

كبيرة أم صغيرة » . أما (شبنغلر) فيقول : « ليست الأمم وحدات لغوية ولا سياسية ولا بيولوجية بل وحدات روحية » . أما فى المعاجم العربية ، فنجد أن مفهوم كلمة (أمة) تقترب من تعريفات رينان وشبنغلر .

إن مدلول الأمة كما نفهمه اليوم لم يكن محدداً عند أجدادنا العرب القدامى ، ففى معاجم اللغة العربية (الأمة) هى الجماعة من الناس ، والجيل ، والقرن ، وأهل الزمان الواحد ، وغير ذلك . وهذه التفاسير كلها لا تنطبق على ما نعرفه عن الأمة فى الوقت الحاضر ، عدا التفسير الأول أى (الجماعة من الناس) ، ولكننا نضيف إليها أنها الجماعة من الناس التى لها لغة واحدة وأدب واحد ، وتقاليد واحدة ومصالح واحدة ، والتى لها مميزات خاصة تميزها عن غيرها .

هل الوطنية هى القومية ؟

كلا ، فهناك فروق كثيرة بين الوطنية والقومية (فالوطنية) هى العاطفة التى تعبر عن ولاء الإنسان لبلده أو قبيلته أو شعبه ، سواء أكان ذلك فى العصور القديمة أم الحديثة ، والولاء نفسه إنما هو نتيجة الاتصال بالعوامل الطبيعية أو الاجتماعية . والوطنية تنظر دائماً إلى الماضى ، وهى لم تقتصر فى يوم من الأيام على جماعة دون الأخرى . أما (القومية) كمذهب سياسى فهى خطة تعنى دائماً بالمستقبل ، وهى تقتصر

على مجموعة من الناس لهم كيان الأمة . ولكل مذهب سياسى قيمة موضوعية خاصة لا شأن لها بشعور الفرد . (فالوطنية) عاطفة ، و (القومية) عاطفة ومثل أعلى فى وقت معاً . وتنطوى كل قومية على شعور وطنى ، ولكن لا تنطوى كل وطنية على شعور قومى .

إذا أردنا أن نلم تماماً بماهية مفهومى (الوطنية) و (القومية) وجب أن نلاحظ علاقة كل منهما بمفهوم ثالث هو مفهوم (الدولة) . والدولة هيئة سياسية يعرفها علماء القانون والاجتماع بقولهم: (جماعة من البشر يعيشون على أرض معينة مشتركة ، مؤلفين هيئة سياسية مستقلة ذات سيادة) .

إن مفهوم (الدولة) هو الخط الواصل بين مفهومى (الوطن) و (الأمة) ولكن هذا الارتباط يختلف باختلاف أدوار التاريخ والظروف :

ا — فهناك أمة تؤلف دولة واحدة مستقلة ، مثل الأمة السويدية الآن ، فتنطبق الوطنية على القومية ، ويكون الوطن (مجموع الأراضى التى تعيش عليها الأمة وتدير سياستها الدولة) .

ب — وقد تؤلف الأمة دولا عديدة كل منها مستقلة تماماً ، مثل الأمة الألمانية قبل اتحادها سنة ١٨٧٠ ولذا فإن القومية تتجاوز حدود هذه الدولة وتسعى لإنشاء دولة واحدة ، ولذا لا تنطبق القومية على الوطنية .

حـ ــ وقد تكون الأمة محرومة من دولة خاصة بها ، وتابعة لدولة أجنبية عنها ، مثل الأمة البلغارية أثناء خضوعها للدولة العثمانية ، وهنا تفرض الدولة الحاكمة (وطنية عامة واسعة النطاق) ، ويقوم الصراع بين الوطنية التى تفرضها الدولة الحاكمة وبين القومية التى يشعر بها أفراد الأمة المحكومة .

د ــ وقد تكون الأمة محرومة من الاستقلال ، وتكون فى الوقت نفسه مجزأة وموزعة بين عدة دول أجنبية عنها ، مثل الأمة البولندية قبيل الحرب العالمية الأولى . وهنا نرى كل دولة حاكمة تحاول فرض وطنيتها ، بينما تسعى القومية إلى توحيد هذه الأجزاء أولا ثم تكوين دولة قومية جديدة ثانياً .

ما مدى العلاقة بين القومية وحق تقرير المصير ؟

يخلط كثير من المفكرين بين نظرة الأقوام إلى حقها فى تقرير المصير ، وبين النظرة المجردة إلى معنى القومية . فالمبدأ النظرى لتقرير المصير (تكوين الدولة) هو أن كل مجموعة من شعب تبلغ المبلغ الملائم لتكوين أمة يحق لها أن تستقل بدولة إذا هى أرادت ذلك . وقد اعتبر ذلك الحق قريناً للديموقراطية ، فجمع الناس ما أطلق عليه (مذهب القومية) . وكان حق تقرير المصير (تكوين الدولة) يعتبر مرادفاً للقومية . وأصبح من المقرر أن « الأمة » أو « القوم » هى الأساس الذى تقوم عليه الدولة . وبقى الأمر على هذا فى نظر الساسة إلى عام١٩١٨ .

ولكن معنى القوم ومعنى الدولة ينطوى على كثير من المعانى التى لم تحدد ، فكان هذا سبباً فى كثير من اللبس والخلط فى ماضى الحوادث وحاضرها ، فالدولة هى وحدة السلطان السياسى ، سواء اعتبرناها أداة الحكم أو المجال الإقليمى الذى تسيطر عليه أداة الحكم . والأمة أو القوم هى جماعة من الناس ، وليس إقليماً من الأرض ولا أداة حكم . فقد يقال عن الأمة إنها أمة طبيعية أو أمة عنصرية . فالدولة قد تنشأ إنشاء وقد ينزع منها جزء ، وقد يقضى عليها بين عشية وضحاها بجرة من قلم فى وثيقة سياسية ترسم على ما يقتضيه القانون الدولى . وأما الأمة ، فإنها تنمو وتزدهر أو تضمحل وتضعف على سنن طبيعية لا أثر فيها لعمل مقصود من أعمال الإنسان .

ما هى أسس القومية ؟

اختلف المفكرون الذين بحثوا موضوع القومية فى تحديد أسس القومية فجعل البعض للظروف الجغرافية بما فيها من شكل الأرض وطبيعتها والمناخ الأثر الأكبر فى تكوين الشخصية القومية لدى الجماعات الإنسانية ، وجعل البعض الآخر لعنصر الإرادة المشتركة فى العيش المشترك وتقرير المصير ، الأثر الأول . بينما أكد البعض أهمية الدين الواحد فى إيجاد الوحدة القومية ، وذهب آخرون إلى محاولة تفسير هذه الوحدة بأسطورة

العنصر الواحد ، كما قال البعض بأن اللغة الواحدة والتاريخ الواحد ، هما الأساسان الأولان فى تكوين القوميات . وقد كانت معظم هذه الآثار متأثرة إلى حد بعيد بالظروف التى كانت تحيط بكل قومية ، ومدى تأثر كل مفكر قومى بظروفه القومية الخاصة .

لكل قومية ظروف نشأتها الخاصة من حيث أهمية بعض الروابط بالنسبة للأخرى ، ولكننا نستطيع أن نقرر أنه لا اللغة وحدها ، ولا التاريخ وحده ، ولا الأرض وحدها ، ولا المصلحة وحدها ، ولا أى عامل آخر بمفرده يمكن أن يكوّن القومية . فهناك قوميات مختلفة متميزة رغم أن الأرض التى تسكن عليها متقاربة أو واحدة من حيث الطبيعة الجغرافية ؟ كما فى السهل الأوربى الكبير ، وهناك قوميات مختلفة رغم أنها تدين بدين واحد ، كما أن هناك عدة أديان ومذاهب فى القوميات الواحدة ، ولا توجد قومية واحدة تدين بدين واحد . وهناك قوميات مختلفة متميزة رغم أنها تتكلم لغة واحدة (أمريكا وبريطانيا) ، وقوميات واحدة تتكلم أكثر من لغة (بلجيكا وسويسرا) ، وقوميات مختلفة متميزة رغم أنها متقاربة جداً فى الثقافة (أمريكا الجنوبية وأسبانيا) ، كما أن إرادة العيش المشترك لا يمكن أن تصلح مقياساً للحكم لأنها تتأثر بدرجة تبلور الوعى القومى عند أفراد القومية الواحدة ، كما تتأثر بعوامل قهرية خارجية وداخلية قد تحرف هذه الإرادة فلا تكون أصلية معبرة عن الواقع

القومى . ولذلك لا نستطيع أن نعتمد رابطة معينة دون أخرى إذا أخذت كل من هذه الروابط بمفردها .

إن القومية هى الواقع التاريخى الاجتماعى الناتج عن تفاعل جميع الروابط السابقة تفاعلا عميقاً مترابطاً ، والشخصية الجماعية التى لصقت بالأمة نتيجة هذا التفاعل ، ولذلك فإن نسبة اختلاط هذه الروابط القومية قد تختلف من أمة لأخرى تبعاً لاختلاف ظروف نشأتها .

ولكن يمكننا أن نذكر أن أسس القومية هى : وحدة اللغة ، والتاريخ ، والثقافة ، والوطن ، والمصالح ، والعادات والتقاليد ، والآمال ، والآلام . إن أية جماعة من البشر ، تتوفر فيها وحدة الروابط السابقة هى قومية واحدة متميزة مستقلة . وينبغى أن نلاحظ أن القومية ليست جمعاً حسابياً جامداً لهذه الروابط ، وإنما هى التفاعل العميق الذى حدث بين الأفراد بالاستناد إلى تلك الروابط وجعلهم وحدة متميزة . ومن الواضح أيضاً ، أن هذه الروابط لم تخلق فجأة فى الأمة ، ولم تعط لها من مصدر خارج عنها ، وإنما هى روابط أوجدتها الأمة خلال التفاعلات العديدة العميقة التى اتخذت مجراها فى حياتها ، وقد أصبحت هذه الروابط الآن ، مظاهر تعبر عن وجود القومية ، وتؤكد وحدتها وتماسكها كما أنها تميزها .

٣ ـ القومية طريق إلى التعاون الدولى

هل تؤدى القومية إلى العنصرية أو الانعزالية أو التعصب ؟

بعد أن استعرضنا فى الفصل الماضى أسس القومية ، يمكننا أن نقول إن القومية لا تقوم على أساس العنصر ، وإن الوحدة القومية لا تعنى أبداً العنصر الواحد ، وإنما تعنى الوحدة اللغوية والتاريخية والجغرافية والثقافية ، ووحدة العادات والتقاليد والمصالح والأهداف . وقد أثبتت الأبحاث العالمية أنه ليس هناك أمة واحدة تنحدر من عنصر واحد خالص ، بل هنا . أمم تتألف من اختلاط أجناس عديدة مختلفة .

قسم بعض العلماء البشر إلى عدة أجناس اعتبروا بعضها أجناساً ممتازة بالفطرة ، وبعضها منحطة بالخلقة ، واتخذ البعض هذه النظرية وسيلة لتبرير النظم الأرستقراطية قائلين : إن من حق الأمم الممتازة بالفطرة ــ بل من واجبها ــ أن تسود على الأمم الأخرى لخير الحضارة ، ولمصلحة الإنسانية .

القومية أساسها الشعور بين أفراد الأمة ، وتلك العنصرية تقوم على سيطرة جماعة واحدة على غيرها من الجماعات التى تعيش معها ، ومن ثم كانت القومية العنصرية خطراً على السلام العالمى ، بينما نجد أن القومية الصحيحة تهيئ أتباعها

للقيام بواجبهم كجماعة وكأمة فى سبيل الحضارة العالمية .

لم يعد مفهوم العنصرية يستعمل فقط للدلالة على النزعة التى تقول بالعنصر الخالص والدم النقى ، وإنما أصبح يقترن بمفهوم التعصب والاستعلاء ، كما اقترنت فكرة الشخصيات القومية المتميزة فى أذهان البعض بمفهوم التعصب والاستعلاء القومى .

إن القومية لا يمكن إلا أن تتركز حول ذاتها ، وإن إحساساتها وانفعالاتها وتطلعاتها ومشاركاتها الإنسانية لا يمكن أن تتعدى حدود أرضها القومية لتشمل آفاق الإنسانية الرحيبة ، وإنها لا تتعدى حدود أرضها القومية لتشمل آفاق الإنسانية الرحيبة ، وأنها حتى حين تتعدى هذه الحدود فلكى تعتدى على القوميات الأخرى وتغتصب حقوقها وتجرح إنسانيتها . وقد تولد عن هذا الانطباع أفكار تقول بأن الشعور القومى سيؤدى إلى الاستعلاء القومى وإلى الحروب ، وبأن العالم سيبقى أبداً يعيش فى خطر الحروب طالما بقى يعيش فى مجتمعات قومية .

وأصحاب هذا الرأى يخلطون بين القومية كواقع للاجتماع البشرى ، وبين النزعة القومية العدوانية ، ويخلطون بين الاتجاهات القومية المتعصبة والمتشربة بالغرور القومى Chauvenism

إن كون العالم ينقسم إلى قوميات مختلفة صنعها وميزها التاريخ الإنسانى الطويل ، لا يعنى مطلقاً التعصب والاستعلاء

القوميين ، ولا يعنى مطلقاً أن هناك قوميات أفضل من غيرها ، وأن هذه الأفضلية تبرر لبعض القوميات استعمار غيرها واستغلالها واغتصاب حقوقها القومية وسلبها حقها فى الحياة الإنسانية الحرة . إن التمييز والاختلاف اللذين نشاهدهما بين قوميات العالم ، ليسا أبداً تمييزاً بمعنى الأفضلية التى تؤدى إلى الغرور القومى والاستعلاء ، ولا اختلافاً فى الحقوق القومية لكل أمة .

إن الحق فى الحياة القومية المتحررة العادلة هو حق لكل قوميات العالم بالتساوى ، ولا يتأثر بكبر القومية أو صغرها أو غناها أو فقرها . ومقياس الحق فى العلاقات الاجتماعية الإنسانية (سياسية كانت أم اقتصادية أم اجتماعية) ، هو بقدر ما يتطابق والحق القومى أولا وأخيراً .

ما هو المذهب الفردى ؟ وما هو المذهب الجماعى ؟

فى المجتمع عنصر فردى ، وعنصر اجتماعى ، والعنصر الأول هو الذى يسمو بمركز الفرد عن الجماعة ، والعنصر الآخر هو الذى يسمو بمركز الجماعة عن الفرد . الأول يقوم على أن لكل إنسان شعوراً من اللذة والألم هو الذى يدفعه أو يمنعه فى حياته السياسية والاجتماعية . فهو يسير وراء اللذة فى نفس الوقت الذى يجتنب فيه الألم . ثم يقوم أيضاً على أن للإنسان عقلا يسترشد به فى حياته الخاصة والعامة ، وأن مثل

هذا العقل يفرق بين الخطأ وبين الصواب ، ويبصر الفرد بعواقب سلوكه فيحول بينه وبين اقتراف الخطأ .

أما مذهب الجماعة فإنه يقوم على أن الجماعة سواء أكانت قبيلة أم دولة أم أمة أم إمبراطورية ، هى التى تتحكم فى سلوك الفرد .

يمثل المذهب الأول : هربرت سبنسر ، وبنتام ، وجون ستيوارت ، فى إنجلترا . ويمثل المذهب الثانى : هيجل فى ألمانيا . وأدى المذهب الأول إلى الإصلاحات التى تمت فى إنجلترا وفى غيرها من البلاد الديموقراطية فى القرن ١٩ ، ولعله كذلك أدى إلى الإصلاحات الاجتماعية التى تدعو إليها الديموقراطية فى هذا القرن . أما المذهب الثانى فقد أدى إلى الوحدة الألمانية فى القرن ١٩ .

ما مدى علاقة المذهب الفردى بالديموقراطية والقومية ؟

اقترن المذهب الفردى بالديموقراطية خلال القرن ١٩ ، واقترنت النظم الديموقراطية بالنظم القومية . فقد كانت القوميات الناشئة طموحة تريد أن تشيع الحكم الديموقراطى بين أفراد الأمة الواحدة كما كانت تريد أن تبلغ الحكم الذاتى فتنفصل عن الدولة القديمة . وكانت الأمم فى كفاحها فى القرن ١٩ تهدف إلى أمرين : أولهما الاستقلال أو الحكم الذاتى ، وثانيهما إقامة حكومة ديموقراطية حرة .

يقوم المذهب الفردى على الإصلاح ، فقد رأى المصلحون أن المجتمع لن ينمو ولن ينشأ حتى يتقدم كل فرد من أفراده وكل مجموعة من مجموعاته ، فالفرد أساس الديموقراطية وهو لا يستطيع أن يبلغ أكثر ما يمكن من النشأة والنمو حتى يدرك قوة فى العقل والجسد . ثم إن الفرد لا يستطيع أن يبلغ أكثر ما يمكنه من الخير إن لم يسكن إلى مورد للرزق يؤمنه مما قد يحيق به من الفاقة ، ويطمئن إليه عند المرض والشيخوخة . ولن يستطيع الفرد أن يدرك أكثر مما يرجى له من الخير حتى يكون له كرامة تحل عنده محل العبودية . وهذه هى أسس الديموقراطية فى القرن ١٩ .

كيف ظهر التعاون بين الجماعات البشرية ؟

رأينا كيف أن ظاهرة التعاون بين أفراد الجماعة ، ومنها الجماعة الإنسانية يمكن تفسيرها إلى حدما على أساس الغرائز ، مثلما هى فى النمل والنحل . وأصبح الإنسان فى جماعات صغيرة يتراوح عددها بين خمسين أو مائة ، وقام تعاون بين هذه الجماعات اتخذ صوراً مختلفة . ولكن حيثما أمكن الاتصال نشب العداء . وطالما كان الإنسان ظاهرة غريبة أو نادرة كان احتكاك الجماعات بعضها ببعض أمراً عرضياً لا أهمية له . لقد كان لكل جماعة رقعة من الأرض ، فلم يكن ليحتدم النزاع إلا عند الحدود . ولكن عندما يتزايد عدد

الأفراد فى الجماعة إلى الحد الذى لم تعد تتسع له رقعة الأرض ، كان ذلك مدعاة لاصطدام بينها وبين الجماعات الأخرى المجاورة . وكان الآباء الأولون فيما يصدر عنهم من أفعال مدفوعين بغريزة آلية تتجلى فى مظهرين : رباط الصداقة بين أفراد القبيلة الواحدة وشعور بالعداء تجاه القبائل الأخرى .

ثم بدأت مرحلة أخرى من التطور ، فإن الحروب التى كانت فى بداية عهدها تستهدف إبادة القبائل المعادية أصبحت بالتدريج حروب غزو واستعمار ، أى أن القبائل المغلوبة على أمرها لم تكن ليقضى عليها بالموت ، وإنما أصبحت تعامل معاملة الأرقاء يحرث أفرادها الأرض ويزرعونها لسادتهم الغزاة . فإذا ما استقرت هذه الظاهرة ألفيت طبقتين فى المجتمع : أولا هما العناصر الأصلية من السكان وهم الأمراء تتمثل فيهم روح الجماعة ، وثانيتهما العناصر التى خضعت واستسلمت لسادتها استسلاماً لا تلبية فيه لداعى الغريزة .

إن الولاء الحديث الذى ندين به للجماعات الكبرى فى وقتنا هذا ما زال يعتمد على تلك الأداة النفسية القديمة التى ابتكرتها القبائل الصغيرة فى الزمن القديم ، والطبيعة الإنسانية المرسلة على سجيتها والتى لم تتأثر بعد بالمدارس والأديان عن طريق الدعاية والتنظيم الاقتصادى .

نستطيع على أساس الغريزة أن نقسم أفراد الإنسان قاطبة إلى أصدقاء وأعداء : أصدقاء تربطنا بهم رابطة أخلاقية هى

التعاون ، وأعداء تربطنا بهم رابطة التنافس ، ولكن هذا التقسيم يعتريه التغيير الدائم ، والذى يحدث هو أن يمقت الرجل منافسه فى العمل أحياناً ، ولكنه لا يلبث أن يشعر نحوه بشعور الإخـــاء إزاء تهـــديد من جانب داخلى أو خطر الغزو الخارجى ، وإذا ما تخطينا حدود الأسرة ، نجد أن العدو الخارجى كان العامل القومى فى تماسك الجماعة ، والواقع أننا نستطيع أن نكره جارنا فى وقت السلم ، لكن لابد أن نتحول إلى محبته فى ساعة الخطر ، وقلما يشعر الناس بحب هؤلاء الذين يجلسون إلى جانبهم فى المركبات العامة ، ولكن يظهر هذا الحب إذا ما أحدقت بهم غارة جوية .

إن الصراع قانون الحياة ، وإن فكرة توحيد البشرية لو كتب لها أن تتحقق لكان لزاماً علينا أن نتدبر طرق الغلبة على هذه الوحشية اللاشعورية البدائية عن طريق تدعيم سلطات القانون أحياناً ثم توجيه الغريزة فى نطاق آخر توجيهاً بريئاً يخرج بها عن وحشيتها .

لقد أودعت فينا كل الغرائز العدوانية جنباً إلى جنب مع غرائز الابتكار والبناء ، ولكن المجتمع يحول بيننا وبين إشباع هذه الغرائز . ثم يتقدم إلينا بألوان أخرى من النشاط فيها أعداء لنا ككرة القدم ، وحلبات المصارعة ، وهى ألوان قلما تكفى لإشباع الغرائز السالفة الذكر .

إن أفراد البشر العاديين لا يستطيعون أن يكونوا سعداء

بلامنافسة بينهم ، ولكن علينا أن نعمل على ألا يتخذ التنافس شكلا ضاراً . لقد كان التنافس فى عصور البشرية الأولى صراعاً يقرر أى الرجلين يجب عليه قتل الآخر وأسرته . والحرب بوصفها لوناً من ألوان التنافس الحديث تتخذ هذا المظهر أيضاً ، ولكن التنافس فى الألعاب الرياضية وفى الأدب والفن ، وكذلك التنافس فى أفق النظام السياسى الدستورى ، يتخذ من الأشكال ما لا ينجم عنه ضرر يذكر ، وهو فى الوقت نفسه إعلاء لا بأس به للغرائز الوحشية فى الكيان البشرى .

إن مشكلة المصلح الاجتماعى لا تنحصر فى البحث عن مسائل الأمن والطمأنينة فقط ، لأن هذه المسائل حتى لو توفرت لن تشبع النفس الإنسانية الإشباع المنشود . ويجب أن نجمع بين مسألتين : أولهما شعور بالأمن إلى الحد الضرورى لبقاء النوع ، وثانيهما الإبقاء على لون من المخاطر والمغامرات والصراع ، يتفق مع الحياة المتمدينة . ولكن يجب أن ندرك أن التوفيق بين الغرائز البشرية الأولى وأوضاع المدنية الحديثة أمر غير ممكن . حقاً أن الإنسان يستطيع أن يكيف طبيعته حسب ظروف بيئته، ولكن لا يمكنه استبعاد غريزة واحدة من الغرائز الرئيسية فى الكيان الإنسانى .

إن الحياة التى تعوزها روح المغامرة قد لا تبعث على القناعة ، ولكن الحياة التى تستحل المغامرة فى أى شكل من

الأشكال أو أىّ صورة من الصور لابد أن تكون قصيرة .

هل تتحول الدولة إلى وحدة سياسية أوسع نطاقاً قد تشمل العالم كله ؟

يجيب (أورجانسكى) على هذا السؤال بقوله : إن القوى التى بعثت الدولة لم تنشأ سريعاً بل استغرقت زمناً طويلا حتى اكتملت ، كما أن تكييف الأفراد الذى جعلهم يقبلون هذه الوحدة الجديدة تتطلب مجهوداً شاقاً . لذلك يتطلب القضاء على الدولة كنظام للحكم ظهور قوى جديدة لا تقل عظمة عن القوة السابقة ويتطلب تكييفاً لا يقل صعوبة عن التكييف السابق . هذا كما أن القومية لا تعتبر قوة عتيقة استهلكت من طول استخدامها ، بل على خلاف ذلك ، فهو تطور جديد نسبياً لم ينشأ فى الكثير من بقاع العالم إلا حديثاً .

من الخطر أن يفكر المرء ويكتب عن الدولة كما لو كانت مجموعة من الناس يفكرون ويتصرفون كفرد واحد ويشتركون فى جميع الآراء التى يعبر عنها قادتهم . ومن الخطأ أيضاً أن نتناول الزعماء القوميين بصفتهم أفراداً لا يمثلون أحداً غير أنفسهم . ففى وسع الزعماء القوميين أن يكلفوا المواطنين فى دولهم بالقيام بكثير من الأعمال ومن بينها شن الحرب . حقاً أن الأفراد وحدهم هم الذين يشكلون السياسة العامة فيعقدون السلم أو يشنون الحرب . ولكن هناك فئة من الزعماء هى التى تتكلم باسم الدولة . كما أن الدولة هى التى تتصارع هى وغيرها من

الدول وليس مجرد تلك الفئة من الزعماء أو مجموعة الأفراد .

إن الفرد عضو فى عدة جماعات مختلفة ، ويشعر بولائه لكثير منها ، وأحياناً يتضارب هذا الولاء . ولا تبلغ عضوية معظم هذه الجماعات القدر الذى تبلغه عضوية الفرد فى الدولة. فبعضها تكون جماعات أصغر من الدولة ، أو أكبر ، وبعضها يتعدى الحدود القومية .

فقد ينتمى الفرد لأسرة ما ، أو إلى جماعة من الأصدقاء أو إلى جماعة تمثل مهنة أو حرفة . وقد ينتمى الفرد أيضاً إلى جماعات أضخم حجماً من دولة ، فهو قد يكون أوربيًّا أو أمريكيًّا . وكثير من الناس فى العالم يعتبرون أفراداً ينتمون « للعالم الحرّ » وجميعنا — سواء أردنا أن يرتبط كل منا بالآخر أو لا — أفراد تنتمى إلى الإنسانية . وهناك جماعات أخرى ينتمى إليها الفرد ، وهى تتعدى الحدود القومية فترب ط بينه وبين بعض الناس فى الدول الأخرى بل تعزله أحياناً عن بنى وطنه . فهذه طبيعة الجماعات الدينية ، والجماعات الطبقية ، والجماعات العنصرية .

هذه الجماعات كلها لا تعارض الدولة . فإن الجماعات الصغيرة تدخل فى الغالب داخل نطاق الدولة بوجه عام . ومن النادر نسبياً أن يجد الفرد أن أسرته أو دائرة أصدقائه أو جماعة عمله تضم أناساً ينتمون إلى جنسية غير جنسيته ؛ والجماعات الكبرى تكاد جميعاً تكون متشابهة ، لا سيما تلك الجماعات

التى تتألف من جماعات من الدول . ولا تعبأ الحكومة الأمريكية مطلقاً إذا اعتبر الأمريكيون أنفسهم أعضاء فى العالم الحرّ ، كما لا تعارض أية حكومة عربية أن يعتبر رعاياها أنفسهم جزءاً من العالم العربى . ولا تبدو هناك صعاب إلا إذا سمح الأفراد بتغليب ولائهم للجماعات ذات النطاق الكبير على ولائهم القومى فى حال نشوب نزاع بين دولتهم ودولة أخرى . غير أنه يبدو أن المصالح القومية ومشاعر الولاء والإخلاص للوطن تتغلب فى معظم اللحظات الحرجة التى تمرّ بها البلاد .

هل القومية هى الطريق إلى التعاون العالمى ؟

من الشروط الأساسية لقيام مجتمع راق هو أن يكون هذا المجتمع على اتصال بسائر المجتمعات حوله . وقد يكون هذا الاتصال كفاحاً ، وقد يكون تفاهماً سلمياً . ولكن ينبغى فى كلا الحالتين أن يتصل كل مجتمع بالمجتمعات المجاورة له . فإن المجتمع الذى يتصل بالمجتمعات الأخرى يتمسك بالكثير من وجهات نظره ، وكلما أمعن المجتمع فى الكفاح أو المتاجرة توضحت الأفكار العامة التى تسرى بين أفراده ، وتبلورت المشاعر النفسية التى تحدد من معنى المجتمع ،والأغراض والآمال التى تحدوه، وشعر أفراده بأنهم أجزاء لكلٍّ واحد .

وإذا تحقق قيام هذا المجتمع الراقى المنشود ، تحقق وجود الشعور الاجتماعى ، وهذا الشعور يؤدى بدوره إلى الوحدة

القومية . وليست الوحدة القومية فى الواقع إلا وحدة الأسرة الفطرية الأولى أو القبيلة الفطرية الأولى ، بعد أن تطورت تطوراً كبيراً فأصبحت مجتمعاً راقياً . فالوحدة الاجتماعية بدأت جماعة فطرية يجمع بين أفرادها شعور واحد ، واستمرت مئات السنين بل آلاف السنين فى بقعة واحدة حتى اشترك أفرادها فى كل المشاعر التى تجول فى خواطرهم . وكانوا مشتركين فى وجهات نظرهم . ثم ألزمتهم أحوال الحياة أن ينظموا أنفسهم بأنفسهم ، فتخصص أفراد منهم فى عمل من الأعمال ، وتخرجت طبقات منهم فى ناحية من النواحى . وكانت كل هذه العوامل متكافئة . تحدث فى نفس الوقت ، وأنتجت فيما بينها أمة أو شعباً .

هذا الشعور الاجتماعى الذى لمسناه فى كل وحدة اجتماعية ، هل ينتظم العالم جميعه دون تفرقة بين أمة وأمة ؟ أو بين شعب وشعب ؟ هل مصير الفروق النفسية بين القوميات إلى الزوال ؟ وهل يستطيع الإنسان أن يتطور من القومية إلى العالمية ؟

إن الإنسان يحب أمته ، تحت تأثير النزعة القومية ، فيشعر نحوها بارتباط عاطفى قوى ، فيعتبر نفسه جزءاً منها ، يفرح ويحزن لها ، ويتمنى قوتها ، ويفخر بأمجادها . هذا ، كما أن الإنسان يحب وطنه — تحت تأثير النزعة الوطنية — فيشعر نحوه بعاطفة قوية ، فيفرح لخير يصيب الوطن ، ويتألم لكارثة تصيبه ، ويضحى بحياته من أجله .

إذا بحثنا عن منشأ هاتين النزعتين ، نجد أن منبع الوطنية حب الوطن ، ومنبع القومية حب الأهل . فالإنسان يشعر بعاطفة شديدة نحو المكان الذى ولد ونشأ فيه ، كما يشعر بعاطفة باطنية نحو أهل هذا المكان ، ونحو جميع الناس الذين عاش معهم فى صباه . فنجد الأطفال دائماً يتعلقون ببيوتهم أو الأحياء التى يسكنوها ، ويشعرون بالغربة إذا ابتعدوا عنها . ويتعلقون بآبائهم وأمهاتهم وجيرانهم ، وينفرون من الغرباء . وهذا الارتباط المعنوى الذى يتولد فى نفوس الأطفال يتوسع بالتدريج فيشمل الحارة والقرية والمدينة وسكان كل منهم ، ويمكن أن تتطور فتشمل العالم أيضاً .

إن تيسير المواصلات عوّد الناس السفر والرحلات ، وقصر المسافات بين الدول والأمم والشعوب ويسر أمر الامتزاج والاختلاط ومهد إلى اندماج البشر ،وأضعف إلى حدٍّ ما روابط الوطنية والقومية .

ليس من الضرورى أن يخرج الإنسان من بلدته أو وطنه أو دولته حتى يمكن أن تتولد فيه (روح عالمية) فإن علاقة الإنسان بالوطن لا تنشأ من تفاعل مادى محسوس ، كما تنشأ علاقته بمسقط رأسه . وكذلك حدود هذا الوطن لا تتعين بالمشاهدة المباشرة ، كما يحدث ذلك فى مسقط الرأس . وذلك لأن الفرد لا يكون قد شاهد ــ عادة ــ إلا قسماً صغيراً من الوطن ، ولا يكون قد عاشر إلا فئة قليلة من أبناء الأمة .

ولذا فإن الروابط التى تربط الفرد بوطنه وأمته ، تنشأ من عوامل فكرية ومعنوية ، أكثر مما تنشأ من عوامل حسية ومادية .

إن ذلك الشعور الاجتماعى ، والشعور الوطنى ، والشعور القومى ، يمكن أن يتشابهوا بين كل البشر إذا تشابهوا فى التربية والثقافة والدراسة ووسائل الحياة . كثيراً ما نسمع بعض الفلاسفة يتحدثون عن الإنسانية العالمية ، فقد درسوا العالم فى تمعن وتدقيق وتمحيص حتى صغرت فى أعينهم الفروق مهما كبرت ، وحتى شعروا فى أغوار نفوسهم بولاء للبيئة العالمية التى أنتجتها دراستهم وثقافتهم . أولئك قوم اتصلوا بالعالم اتصالا وثيقاً ، فأنتج ذلك عندهم نوعاً من الولاء العام .

إذا استطاع الأفراد أن يختطوا سبيلا إلى ذلك الولاء العام كان ذلك كسباً للمثل الأعلى العالمى . لكن البيئة العالمية التى يقوم عليها مثل هذا الولاء عسيرة غاية العسر ، سامية غاية السمو. ولأن يكون الولاء للعالم خالصاً ينبغى أن يتوافق وأنواع الولاء الأخرى التى يكنها الإنسان بين جنبيه . كما أن هذا الولاء للعالم يجب ألا يتنافى مع الولاء للأمة . فكما أن الولاء للأسرة لا يتناقض وولاءنا للوطن ، فيجب كذلك أن نوفق بين الولاء للوطن وبين الولاء للعالم .

هل تتعارض الأهداف القومية مع الأهداف العالمية ؟

لاشك أن الدولة التى تسعى إلى تحقيق أهداف يعتقد شعبها وشعوب الدول الأخرى أنها تعد بمثابة خطوات نحو تحقيق الصالح العام ، تكون قد جنت فوائد عظيمة . فإن الدولة التى تريد أن تقنع الدول الأخرى بأن تحذو حذوها أو بأن تفعل كما ترى يجب أن تحمل تلك الدول على الاعتقاد بأنها تعمل فى سبيل خيرها وخيرهم . ونتيجة ذلك نجد أن جميع الدول تدعى أنها تعمل حقًّا من أجل خير البشرية .

ليس هذا الأمر يسيراً كما يبدو ، لأنه إذا كان على الدولة أن تقنع الدول الأخرى بأن أهدافها تسعى إلى تحقيق المصلحة العامة ، فلابد لها من أن تراعى القيام ببعض الواجبات وأولها أن تؤمن الدولة نفسها بذلك ، لأنه من الصعب جدًّا للمرء أن يحمل الآخرين على الاعتقاد فى أمور لا يؤمن هو نفسه بها . فالصدق والإخلاص هنا أمران ضروريان . فلابد أن تؤمن الجماعة القومية بل وزعماؤها بوجه خاص ، تؤمن إيماناً عميقاً بأن ما تفعله هو فى سبيل الصالح العام .

ولتحقيق ذلك ، يجب على كل جماعة قومية أن تضع لها من المبادئ المثالية ما يستهوى القوميات الأخرى ، مثل : المساواة بين البشر على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وأديانهم . أو شعارات مثل : (الحرية والمساواة والإخاء) أو (من كل حسب طاقته ،

إلى كل حسب طاقته) . حقاً أن بعض الدول تنادى بهذه الشعارات فى الوقت الحاضر لكنها لا تنفذها ، فالولايات المتحدة الأمريكية تنادى بمبدأ (المساواة) لكن الأمريكيين لا يشملون بقولهم هذا الزنوج . كما أن الفرنسيين لم يخطر ببالهم أن يمنحوا الحرية والمساواة والإخاء إلى أهالى مستعمراتهم . إلا أن هذه الحقائق كلها لا تقضى على ما لهذه المبادئ من أنها مثل عليا تحقق البشرية دائماً تقدما نحوها .

ولولا وجود هذه المبادئ والتقاليد الإنسانية ، لكان من المستحيل أن يؤمن أحد بما تظهره دولة ما من حب للغير . ولقد آمنت كل من ألمانيا النازية وإمبراطورية اليابان برسالتيهما، غير أنهما لم توفقا فى حمل الدول الأخرى على الإيمان بمعتقداتهما لأنه لم يكن لدى أى من الدولتين (مثل إنسانية) تصلح للتصدير . فقد كان الألمان حاذقين فى تمزيق اعتزاز البريطانيين بأنفسهم ، بيد أنهم لم يستطيعوا قط أن يحملوا الآخرين على تصديقهم . وتحدث اليابانيون عن خلق مجال يحقق فيه الرخاء الشامل ، وتحدثوا أيضاً عن شعار (آسيا للآسيويين) ولكن لم تنظر إليهم تلك الشعوب التى هزموها على أنهم محررون الشعوب.

ولكن يجب ألا يغيب عن الأذهان أنه حينما يدرك البشر الفائدة التى تتحقق من هذه المبادئ الإنسانية سيعملوا على خلقها . كما أن هذه المبادئ والآراء إنما هى نتيجة تطور ظل عدة قرون ، ولا يمكن أن تخلق بين يوم وليلة .

ناقش (برتراند راسل) إمكان تطور (القومية) إلى (العالمية) فقال : الشعور القومى حقيقة لا يمكن نكرانها ، كما لا يجب تجاهلها فى المجتمعات ، فإنه يقوى ويتمكن ويصير مبعثاً لنضال طويل ، ولا يمكن عندئذ رده إلى حظيرة السلام إلا بتركه حراً طليقاً ما دام غير وحشى . ولكنه ليس فى ذاته من المشاعر المحببة أو الخيرة ، فكل شىء يضيق من التعاطف العام للجنس الإنسانى كله بغيض مقيت . أما الشعور الوطنى فيتسم بعنصر خفى أو واضح من العداء للأجانب . وما كان لهذا الشعور الوطنى أن يوجد فى أمة حرة تمام الحرية من ضغط خارجى عليها بعداء مماثل .

كل إنسان على حق إذا اشتغلت أفكاره بوطنه أكثر من اشتغالها بالأوطان الأخرى ، لأن أعماله أعمق تأثيراً فى أمته منها فى أية أمة أخرى . بيد أنه من الواجب أن تختلف هذه النظرة فى زمن الحرب عنها فى زمن السلم ، ففيما يختص بالمسائل التى تهم الأمم الأخرى كما تهم أمته ، عليه أن يعد الحيز العالمى فوق كل شىء ، وألا يدع عقله محدوداً منطوياً على مطالب الجماعة القومية وعلى مطالب أمته .

إن الثقافة خير ما يثبت إمكان تطور (القومية) إلى (العالمية) ، فلن تكون الثقافة القومية ثقافة أصيلة إلا بمقدار ما تشترك به الأمة من جهد فى تطور الثقافة العالمية . فإذا كان لأمة من الأمم قسط وافر من البحث العلمى الخالص ،

ومن الأدب الرفيع السامى ومن الدين القويم ، ثم إذا كان لها قدرة على تمثيل هذه الثقافة العالمية بمختلف وجوهها ، عدت ثقافة هذه الأمة صادقة أصيلة ، فليس معنى الثقافة القومية أن تكون محدودة بالحـــدود الجغرافية أو بالأصول اللغوية أو بعوامل الجنس والدين ، بل معنى الثقافة القومية أن تخرج الأمة على العالم ببعض هذه الأفكار العامة ، وأن تشترك فعلا فى بناء العالم وتعميره .

هل القومية تؤدى إلى السلام العالمى ؟

السلام هو أحد الأهداف القومية . إن السلام كلمة عامة كثر استخدامها حتى إنها كادت أن تفقد مدلولها . ونحن نعنى بالسلام (انعدام الحرب) . ولكن من المؤكد أن هذا ليس هو المعنى الوحيد الذى يمكن أن نعطيه للسلام ، ولكنه أفضل تعريف يخدم أغراضنا الحالية ، لأن الدول عندما تحلم بالسلام لا تفكر فى وسائل زيادة التفاهم الدولى ، أو فى توطيد مشاعر الإخوة بين البشر ، فإن كل ما تريده تجنب قيام حرب عالمية أخرى .

لقد أصبح السلام — فى القرن العشرين — هدفاً قومياً هاماً أكثر مما كان من قبل . فقد كان الدمار الشامل الذى نجم عن الحربين العالميتين عاملا على ظهور رأى ينادى بأن قيام حرب عالمية ثالثة كفيل بالقضاء على البشرية . إن اختراع الأسلحة

الحديثة الذرية والهيدروجينية والصواريخ الموجهة ، جعل قيام حرب عالمية أمراً فظيعاً لا يجرؤ على الخوض فيه إلا رجل مجنون . إذ أن طبيعة الحرب قد تغيرت تغيراً كبيراً ، وازدادت بذلك أهمية السلام بوصفه هدفاً قومياً .

إن السلام قد أصبح هدفاً فى حدّ ذاته ، يسعى الناس إلى تحقيقه بغض النظر عما قد ينتج عنه من تأثير على الأهداف القومية الأخرى . وقد يكون السلام فى بعض الأحيان مكملا للأهداف القومية الأخرى ، وأحياناً يكون سابقة ضرورية من أجل تحقيق أهداف قومية أخرى . وعندما تكون دولة ما فى حالة تدهور فإن السلام ضرورى لها بوجه عام إذا أرادت أن تحتفظ بما تملكه من قوة وثروة كما أن نزع السلاح أو إتاحة حرية أكبر أمام التجارة أو استعادة مستعمرة بعد فقدانها أو تحقيق وضع من الأوضاع مستقبلا . كل هذه أهداف قومية يعضدها جميع المواطنين . ويبدو ذلك واضحاً فى خلال الأزمات ، فعادة لا يبدى غالبية المواطنين العاديين فى دولة ما فى الغالب اهتماماً كبيراً بالشئون الدولية ، ما لم تكن هناك على الأقل أزمة ما يرون أنه من المحتمل أن تؤثر على مصالحهم المباشرة .

ناقش (برتراند راسل) إمكان إدماج الدول فى (دولة عالمية واحدة) فقال : نلاحظ ظاهرة هى ازدياد رقابة السلطات على الفرد زيادة لم تتح لها فى حدود جماعة ضيقة . ولم يحدث

فى التاريخ الماضى أن كانت هناك دولة كبيرة استطاعت أن تمارس السيطرة المطلقة على رعاياها . وما دامت هذه الأرض محدودة فإن هذا الاتجاه لابد أن ينتهى إلى وجود دولة عالمية واحدة إلا إذا قامت فى سبيله العوائق ، ولكن مثل هذه الدولة لن يوجد من ورائها عدو خاص تخشاه ، فيكون هذا الخوف مدعاة للتماسك بين أعضائها ، وبقاء هذا الخوف من الخطر وكونه الأداة النفسية والفعالة فى أفق الجماعة يجعل هذه الأداة تصبح عديمة الجدوى على فرض تحقيق الوضع الجديد ، وسيتبع هذا أيضاً اختفاء فكرة القومية ، وقيام حكومة عالمية واحدة .

هل من الممكن أن نصل إلى تعاون عالمى مثالى ؟

هل يمكن أن تكون هناك بيئة عالمية ؟ هل يستطيع العربى أو اليابانى أو الأمريكى أن يروا العالم ، بما فيه من أمم وعقائد وتقاليد ، كأنه ملكهم هم أنفسهم ؟ هل يستطيع العربى أن ينظر إلى (برنارد شو) أو (شكسبير) نظرته إلى (الجاحظ) أو (المتنبى) ؟ وهل يستطيع الإنجليزى أن يرى فى ابن رشد أو ابن خلدون مثل ما يجب أن نراه نحن فى (بيكون) أو (هربرت سبنسر) ؟ إن بيئة الفرد الاجتماعية قد لا تقتصر على البيئة المادية التى تحيط به ، بل يمكن أن تكون بيئة عالمية

إنسانية إذا هو نشأ على دراسة العالم أجمع من غير تقيد بهذه البيئة المادية المحدودة .

تحدث (برتراند راسل) عن أهمية التعاون العالمى فقال : لقد تبدت لى أهمية التعاون العالمى خارج محيط السياسة على أثر تجربتى الخاصة . فمنذ أمد قريب ، كنت أشتغل بتدريس علم جديد ، لا يستطيع تدريسه إلا رجال معدودون فى العالم . وكان عملى فى هذا العلم يعتمد على مؤلفات رجل ألمانى وآخر إيطالى ، وكان يفد إلىّ الطلاب من جميع أقطار العالم . من فرنسا وألمانيا والنمسا والروسيا واليونان واليابان والصين والهند وأمريكا . ولم يشعر أحد منا بالاختلاف القومى . كنا نشعر أننا خلاصة الحضارة ، نبنى طريقاً جديداً فى غابة المجهول البكر فكنا نتعاون جميعاً فى الواجب المشترك ، وكانت تبدو الحزازات الدولية والقومية والسياسة تافهة ، عابرة ، باطلة .

وليس معنى ذلك أن يكون التعاون فى العلم المجرد سبباً فى تقدم التعاون العالمى ، فإن المشاكل الاقتصادية والمسائل التى تتعلق بحقوق العمل ، وكل أمل فى الحرية والإنسانية . كل ذلك يتوقف قبل كل شىء على خلق نية عالمية حسنة .

وما دامت تسيطر الكراهية والخوف والشك ، وكل هذه العواطف البغيضة على حياة الأفراد ، فليس لنا أن نرجو تفادى طغيان العنف والقوة . يجب أن يتعلم الإنسان الشعور بالمصالح العامة للجنس البشرى الذى يصبح الكلّ فيه واحد ، بدلا من

المصالح الموهومة التى تنقسم من أجلها الدول . وليس من الضرورى أن نقضى على العادات والتقاليد التى تتميز بها الأمم المختلفة ، فإن هذه الفروق هى التى تجعل مقدور كل أمة أن تضيف لوناً خاصاً إلى تراث المدنية والحضارة .

تسعى الدول القومية إلى تعزيز قواها لصيانة مصالحها بشتى الطرق والوسائل ، ولكن المسئولين عن اتباع تلك السياسة فى بعض الدول الكبرى ينسون أنها قد تضر بمصالح أمم وشعوب ودول . وقد يؤيد الأفراد فى الدول التى تتبع سياسة السيطرة والتسلط والاستعمار سياسات حكوماتهم ويؤيدونها لما تنطوى عليه تلك السياسة فى رأيهم من تحقيق للمصالح الوطنية ، ولكنهم غالباً ما ينسون أو يتناسون ألوان الظلم والهوان التى قد تلحقها السياسة الاستعمارية وأساليب التسلط بالأبرياء الضعفاء من أفراد الشعوب المغلوبة .

إن الكتل البشرية المنتشرة فى هذا العالم الفسيح غير متجانسة ، ولن تكون متجانسة حتى ولا متساوية ، لا فى التكوين ولا فى المظاهر الأخرى كاللغات والألوان والنزعات والعادات . ولكن هذا التباين الكامن فى البيئات والقارات بين الأجناس لا يمنعنا من القول بأن جميع الناس فى كافة أنحاء العالم يتساوون فى الحقوق أمام القانون الإنسانى العام ، ولهم الحق الكامل فى التمتع بالحياة الحرة الطليقة من قيود العبودية . وكل أمة فى هذا المجتمع الواسع لا تتمتع بحق الحياة الغير المستعبدة

لا تستطيع أن تنتظم فى حلقة الأمم الحائزة على تكوين اجتماعى منسجم .

تحدث (برتراند راسل) عن وسائل السلام والتعاون العالمى فقال : إن الدين والأخلاق والمنفعة الاقتصادية ومجرد الإبقاء على الكيان البيولوجى للبشرية أو تتبع أسباب هذا الإبقاء تؤدى إلى التعاون العالمى . ولكن الغرائز القديمة التى توارثناها عن أسلافنا القبليين تهدد هذا التعاون . ولذا فإنه لتحقيق فكرة توحيد البشرية علينا توجيه الغرائز فى نطاق آخر ، وعن طريق تدعيم سلطات القانون .

لابد لنصل إلى (تعاون عالمى) من وجود نظام مستمر ثابت ، ولابد من إيجاد نظم ديموقراطية واشتراكية تكافح الفقر والجهل والمرض ، وتنمى فى نفوس الأجيال الجديدة نوعاً من (الولاء العالمى) ، ونوفق بينه وبين ولائنا للجماعات القومية . ولابد قبل ذلك أن نقضى على أسباب العدوان ، وأن تتنازل القوات الدولية الكبرى عن سياسة الاستعمار والتوسع .

٤ ـ العرب والعالم على مرّ العصور

عاش العرب طوال حياتهم على مر العصور على اتصال مباشر بإخوانهم فى البشرية فى شتى أنحاء العالم وساهموا بنصيب كبير فى تطور الحضارة والمدنية فى شتى ميادينها وعلى اختلاف ألوانها ، وحاولوا دائماً أن يتطوروا من حسن إلى حسن ، فكان للعرب دائماً رسالة عالمية إنسانية .

فى العصر الجاهلى ، قبل ظهور الإسلام ، كان العرب لا تتوحدهم قومية واحدة أو دولة متحدة ، فعاشوا متفرقين فى قبائل كثيرة العدد انتشرت فى شتى أرجاء شبه الجزيرة العربية ، لكل منها تقاليدها ونظمها وأساليب حياتها ، ولكنها حرصت كلها على أن تكون على صلة بالعالم ودوله الكبرى فى ذلك العصر .

ارتبطت جزيرة العرب بالممالك المجاورة بصلات تجارية كثيرة ، وعرفوا كثيراً من الطرق البحرية والبرية . وقامت التجارة فى أول الأمر على أكتاف اليمنيين ، ثم حل محلهم عرب الحجاز منذ القرن السادس الميلادى . فكان الحجازيون يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين ، ثم يبيعونها على حسابهم فى أسواق مصر والشام وفارس ، ولاشك أن هذه العمليات التجارية كانت

تؤدى إلى امتزاج فى الدماء واللغات والحضارات .

كانت الجزيرة العربية تقع بين دولتين عظيمتين ، الدولة الفارسية فى الشرق ، والدولة الرومانية فى الغرب . وقد حاول الفرس والروم أن يخضعوا العرب لحكمهم اتقاء لغزوهم وسلبهم ، ولكن وقفت أمامهم الصحراء العربية القاحلة الموحشة ، فرأى الفرس والروم أن خير وسيلة لاتقاء شرّ العرب أن يساعدوا بعض القبائل المجاورة على أن يستقروا على التخوم يزرعون ويتحضرون ، فيكونون حصناً يمنع غارات البدو ، فتكونت إمارة الحيرة على تخوم الفرس ، وإمارة الغساسنة على تخوم الروم .

أما الرسول فقد عمل على أن يحقق نظرية عالمية الإسلام ، فبدأ بأن حارب العصبية القبلية ، وآخى بين المهاجرين والأنصار ، واعتبر نفسه رسولا لجميع البشر ، وهدف إلى تحطيم الحواجز الجنسية ، فكان يقول دائماً : (بعثت إلى الناس كافة) ، كما خطب فى حجة الوداع فقال (كلكم لآدم وآدم من تراب ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى) ، كما كان يقول : (اسمعوا وأطيعوا وإن تأمّر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة) . وقرّب الرسول إليه كثيراً من العناصر غير العربية التى اعتنقت الإسلام ، مثل سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى . وحينما اضطهد المشركون المسلمين أمرهم الرسول بالهجرة إلى الحبشة . وكتب الرسول إلى ملوك وأمراء الدول والممالك الكبرى المعاصرة له ، مثل كسرى فارس وقيصر

الروم والمقوقس زعيم القبط فى مصر ، ونجاشى الحبشة وغيرهم .
واصطدمت الدولة العربية الإسلامية التى قامت فى عهد الرسول بالدولة الرومانية فى بعض المعارك على الحدود بين الدولتين .

وفى عهد الخلفاء الراشدين استمر العرب على اتصال دائم بالعالم ، وأبرز أشكال هذا الاتصال الفتوحات العربية الإسلامية فى خلافة أبى بكر وعمر بن الخطاب ، فقد قضى العرب المسلمون على الدولة الفارسية ، وانتزعوا بلاد الشام ومصر من الدولة الرومانية . لم يفتح العرب الأمصار ولم يحكموها فحسب ، بل حاولوا آن ينشروا فيها قوميتهم العربية . كما جاهد العرب كثيراً فى الاحتفاظ بقوميتهم ولم يفنوا ذاتيتهم ولا شخصيتهم كما فعلت القبائل الجرمانية حينما استولت على روما ، وكما أضاع المغول شخصيتهم لما تقدموا فى آسيا ، ولكنهم حفظوا قوميتهم وفرضوا دينهم ولغتهم على الممالك والجماعات التى حكموها ، وكان كل هذا بدون ضغط منهم .

ولكن رغم غيرة العرب على قوميتهم العربية ، فإنهم وجدوا أنفسهم منساقين رغماً عنهم إلى الاختلاط والامتزاج بالقوميات الأخرى . ففى الأمصار المفتوحة ، تقبل كثير من الأهالى . من غير العرب الإسلام ، ونزلوا الحواضر العربية ، وامتزجوا بالعرب وأخذ هؤلاء جميعاً يشتركون فى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية الجديدة ، ولم يكن العرب أكثرية إلا فى الجزيرة

العربية نفسها ، أما فى الأمصار المفتوحة فقد كان العنصر الأجنبي يمثل الأغلبية .

شمل الامتزاج جميع نواحى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية والدينية . ولما كان العرب أقل حضارة من كثير من الشعوب الخاضعة لهم ، فقد اقتبسوا منها كثيراً من مظاهر الحضارة ، وخاصة النظم الإدارية . ولكن العرب فرضوا على هذه الاقوام شيئين عظيمين : اللغة والدين ، فقد سادت اللغة العربية وهزمت اللغات الأخرى الأصلية ، وصارت لغة الحكومة والعلم .

يرى البعض أنه لم تكن هناك حضارة عربية ، وإنما كانت هناك حضارة أمم إسلامية ، ويذهبون إلى أن الأمم التى دخلت الإسلام حملت معها حضارتها وثقافتها ، فنشأت من هذه الحضارات والثقافات الحضارة الإسلامية ، وإذا فالحضارة الإسلامية لا يمكن أن تنسب إلى العرب ،إنما يجب أن ترد وتعود إلى هذه الأمم الأجنبية التى خضعت للإسلام .

لم تكن عناصر سكان الأمصار المفتوحة غريبة على العرب الفاتحين ، كما أن فروقهم الدينية لم تقف حائلا فى سبيل تكوين مجتمع سرعان ما تكلم العربية واعتنق الإسلام ، وانضم إلى القومية العربية . فقد كانت الحضارات زمن الفتح العربى متقاربة فى مختلف المواطن ، فالحضارة الإغريقية غلبت الحضارة الرومانية فى القسطنطينية ، وهذه أخذت الكثير من الحضارة

الفارسية لاتصالهما السياسى والحربى ، كما أخذ الفرس عن اليونان من قبل . من المؤكد أن الحضارة العربية الإسلامية كانت فى أول الأمر مزيجاً من الحضارتين الآرامية والعربية ، ولكن هذا لم يستمر بعد امتزاجها بالحضارات اليونانية والرومانية والفارسية وحضارات وسط آسيا .

كان هناك نظامان سياسيان كبيران : أولهما إمبراطورية عربية خلقها العرب ، وصار حكمها وفاقاً للنظم العربية نفسها ، وهذه الإمبراطورية انتهت بسقوط بنى أمية . وثانيهما الإمبراطورية الإسلامية العباسية التى كان العرب فيها جماعة من المسلمين ، والتى حكمها جماعات إسلامية مختلفة منهم العرب .

كانت الدولة الأموية تعتز فى سياستها بالقومية العربية وتعمل من أجلها، فلم يتول القيادة والحكم إلا جماعة من أبناء البيوتات العربية ، وكانت جيوشهم كلها من أصول عربية . وتجلت سياسة الأمويين العربية فى تعصبهم للقومية العربية وصراعهم للقوميات الأخرى . وتجلى هذا الصراع فى عدة نواح : الجزية ، والعطاء ، والخراج ، والآداب ، والعلوم ، والفنون ، والوظائف .

تابع الخلفاء الأمويون سياسة الفتح ، فأرسل معاوية بن أبى سفيان جيوشاً غزت السند وأفريقية كما قام الحجاج فى عهد عبد الملك بن مروان بفتوح فى الأطراف الشرقية للدولة . وفى عهد الوليد بن عبد الملك فتحت السند وبخارى وخوارزم

وسمرقند ، كما فتحت الأندلس . وأدت هذه الفتوحات إلى تعريب لغوى وجنسى وأدى إلى صراع القومية العربية مع قوميات أخرى أجنبية .

كانت الدولة التى أسسها العرب هى الدولة العظمى الوحيدة التى قامت باسم الدين والتى اشتقت منه جميع نظمها ، وأصبح الإسلام هو الرابط بين العناصر المتنافرة التى تمثل قوميات عديدة ، وأصبح الإسلام بالنسبة لهذه العناصر مسألة اقتصادية واجتماعية أكثر منها فكرة دينية .

لعبت اللغة العربية دوراً كبيراً فى مزج القوميات والحضارات والعناصر المختلفة المتنافرة فى الأمصار المفتوحة . فقد أدى استعمال اللغة العربية إلى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافها اندماجاً قوياً فى الحياة القومية التى كان يحياها العنصر العربى الحاكم ، إذ ربطت اللغة العربية جميع البلاد برباط معنوى قوى .

أدى التنافس بين القومية العربية والقومية الفارسية فى العصر الأموى إلى ظهور الشعوبية ، التى بدأت تنادى بمساواة العرب والموالى ثم تطورت فى العصر العباسى ، فصارت تنادى بأن الفرس أرفع درجة من العرب .

فى العصر العباسى ، كانت الدولة على صلات وثيقة بشتى الدول العالمية ، صلات صداقة أو عداء ، أما علاقات الصداقة ، فقد تجلت هذه الصلات بوضوح فى القرن التاسع

الميلادى الذى شهد شخصيتين عظيمتين – يبرزان فى الشئون العالمية : إحداهما شخصية شارلمان فى الغرب، والأخرى شخصية هارون الرشيد فى الشرق . ولقد كان هارون بلا مراء أحسن الرجلين وأكثرهما قوة ويمثل أعلى الثقافتين . ولقد كانت علاقة الصداقة المتبادلة بين هذين المتعاصرين تحركها بطبيعة الحال المصالح الشخصية ، فأما شارلمان فقد كان ينظر إلى هارون كحليف قوى ضدّ خصومه البيزنطيين ، وكذلك كان هارون يرغب فى أن يستغل شارلمان ضدّ منافسيه وأعدائه الخطرين جيران شارلمان وهم الأمويون فى الأندلس الذين نجحوا فى تأسيس دولة قوية زاهرة . ولقد وجدت هذه المشاركة فى العواطف القلبية أحسن تعبير ، كما قال كتاب الغرب، فى تبادل عدد من السفارات والهدايا بين الفريقين .

أما صلات العداء فكانت بين العباسيين والبيزنطيين، فقد استؤنف النزاع الذى استمر أكثر من قرن بين الدولة الإسلامية ، والدولة البيزنطية ، فى عهد المهدى (٧٧٥ – ٧٨٥) الخليفة العباسى الثالث ، وقاد الحملة ابنه وولى عهده هارون الرشيد ، فوصل بها إلى البسفور واضطرت الإمبراطورة إلى الصلح ودفع الجزية حتى إذا تولى هارون الحكم استمر فى الحملات العسكرية على الدولة البيزنطية ، واستولى على بعض مدنها . وفى سنة ٨٠٦ قاد المعتصم جيشاً ضخماً توغل به فى الأراضى البيزنطية واحتل عمورية مسقط رأس الأسرة المالكة .

فى العصر العباسى ، وصلت بغداد إلى درجة عظيمة من الازدهار ، وبخاصة فى خلافة هارون الرشيد ، ولم يكن قد مر على بغداد منذ تأسيسها أكثر من نصف قرن ، ولكنها مع ذلك نمت حتى أصبحت مركزاً عالمياً فى الثروة ، وحازت مكانة دولية رفيعة . لم يكن ينافسها فيها إلا بيزنطة فقط . فلما وصلت الدولة العباسية إلى ذروة مجدها لم يكن لبغداد منافس أو نظير فى كل مدن العالم .

فى سنة ١٢٥٣ وصل هولاكو إلى بغداد فخربها وقتل الخليفة المستعصم ، وقتل كبار الفقهاء ورجال الدولة ، واستولى على التحف والأموال ، وأحرق قبور الخلفاء وألقى بالكتب التى حوت التراث العربى فى نهر دجلة ، حتى قيل إنه أقام بكتب العلم ثلاثة جسور على دجلة .

ومما يدل على عظمة بغداد بالنسبة للعالم فى ذلك الحين ، تلك التحذيرات التى تقدم بها البعض إلى هولاكو التى كانت تنذر بالويل كل من يجترئ على انتهاك حرمة « مدينة السلام » أو إسقاط الخلافة العباسية . ولقد ذكر هولاكو أنه إذا قتل الخليفة فإن نظام العالم أجمع سينهار ، وتختفى الشمس ، ويمتنع المطر ولا تنمو النباتات بعد ذلك .

انحصر الإسلام من ناحية الشرق بهؤلاء المغول المتبربرين رماة النبل والفرسان ، ومن الغرب بالفرسان المدرعين من جنود الصليبيين . فى آخر القرن السابع الهجرى (٦٩٩ هـ) دخل

غازان التترى بلاد الشام فأعمل التخريب والنهب والسلب .

وفى أوائل القرن التاسع (٨٠٣ هـ) خرب تيمورلنك مدينة بغداد وذبح كثيراً من أهلها وخرب دمشق وحلب . وكما تعرض العرب لأخطار المغول ، تعرضوا لأخطار الصليبيين حتى ظهر صلاح الدين الأيوبى ، فبدأ زحفه فى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، وهزم الصليبيين فى حطين ثم طبرية ثم عكا ثم استولى على كثير من مدن الساحل من يافا إلى بيروت ، وتوج نصره بفتح بيت المقدس ، واستمر صلاح الدين يحاربهم حتى وقع الهدنة مع ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا سنة ٥٨٨ هـ .

وكما وقعت القومية العربية فى الشرق فى محنة ، لاقت القومية العربية فى الغرب محنة أخرى ، فقد كان سقوط بلاد الأندلس فى أيدى الإسبان ضربة عنيفة أصابت العروبة : فمن هذه البلاد انبعث نور العرب فى غربى أوربا ، فقد كانت الأندلس معقل القومية العربية فى قارة أوربا طوال ثمانية قرون ، وأدرك الإسبان ذلك فعملوا على إبادة العرب حتى إنهم لم يعفوا النساء والأطفال والشيوخ من القتل .

أباد الإسبان فى الأندلس كل أثر للعرب والقومية العربية ، فخربوا بيوت العرب وقضوا على الكتب العربية ، فقد أمر الكردينال كسيمنس أعدى أعداء الإسلام والعروبة فى سنة ١٥٠١١ بإحراق الكتب العربية والمصاحف المخطوطة فى ميادين غرناطة ثم تولى ديوان التحقيق الدينى إبادة كل أثر للعرب

كما أباد جميع المخطوطات العربية .

وقد قام العرب بنشر الحضارة فى إسبانيا قروناً طويلة ، ومن إسبانيا انتقلت الحضارة العربية إلى ممالك أوربا ، فكان جزاء العرب يوم ضعفت سياستهم ، أن يقتلوا شرّ قتلة ، وتباد آثارهم كل إبادة ، ولم يستفد قطر من أقطار الغرب ما استفادته إسبانيا من العرب ، ولما جلوا عنها نعق فيها غراب الدمار وفقدت صناعتها وزراعتها وعلومها ، وأصبحت إسبانيا بعد فترة من خروج العرب أحط بلاد الغرب . فيقول ستانلى لانبول : إن فضل مسلمى الأندلس يتجلى فى همجية الإسبان وتأخرهم بعد أن خلت أرضهم من الإسلام . وقال لابريولا : لقد جعل العرب من إسبانيا جنة بديعة ، وكانت متأخرة جدا فى زمن القوط ، وجعل العرب إسبانيا أعظم مركز للثقافة الأوربية ، فقضى الفتح الإسبانى على عمل سبعة قرون قضتها إسبانيا فى ظل حضارة العرب .

أقبل الأوربيون على الاغتراف من معين الحضارة الإسلامية فى الأندلس . وها هو مثل يدل على ذلك : كان الإسبان المسيحيون يملأون أجواء أوربا بالمديح والإعجاب بأعمال العرب وشرائعهم ومعاهدهم وحضارتهم ونظمهم والعمران الذين أدخلوه على البلاد الإسبانية . إن أمثال هذه الروايات جعلت الأفئدة والأسماع والأبصار فى ديار الفرنج تتجه إلى الأندلس . أرسل الملك فيليب البافارى إلى الخليفة (هشام الأول) يسأله السماح

له بإيفاد هيئة تشرف على أحوال الأندلس ودراسة نظمها وثقافتها حتى يتمكنوا من اقتباس ما يفيد بلادهم . فوافق الخليفة على هذا الطلب . وأرسل الملك الجرمنى وفداً برئاسة وزيره الأول (ويليمين) الذى سماه الأندلسيون (ولبم الأمين) . ثم أخذ بعض ملوك أوربا ينسجون على منوال الملك البافارى . فأرسل ملك إنجلترا جورج الثانى ابنة أخيه الأميرة (دوبانت) على رأس بعثة تتألف من ١٨ فتاة من بنات الأمراء والأعيان إلى (أشبيليه) يرافقهن رئيس موظفى القصر الملكى .

ثم تلت هذه البعثات وفود أخرى قدمت من فرنسا وإيطاليا والبلاد المنخفضة ، ملأت معاهد غرناطة وأشبيلية ، واقتبست من الحضارة الأندلسية كثيراً من العلوم والآداب والفنون . ولم تكتف أوربا بإرسال مثل هذه البعثات العلمية بل قامت بعض الدول الأوربية فى أواسط القرن التاسع الميلادى وما يليه تستأجر الأساتذة والخبراء العرب لتأسيس المدارس والمعامل وإحياء الصناعات العديدة ونشر لواء العمران والتنظيم فى بلدانها .

إن أعظم جسور نهر التيمس واسمه نهر Heycham أنشأه مهندس عربى وسماه على اسم الخليفة الأندلسى هشام الثانى . إن قباب الكنائس الكبرى فى باقاريا من صنع العرب . إن الأسطول البحرى الهولندى العظيم الذى قهر العمارة الإنجليزية على الشواطئ الإسبانية فى معركة (ليزبونه) عام ١١٥٢ من صنع العرب ، أما قائده فهو (أميرال البحر طارق) . إن

صناعة القمصان فى أوربا عرفها الأوربيون عن العرب ، وما كلمة (Chemise) إلا (قميص) . إن مصانع الأندلس كانت تمد كل الدول الأوربية بمختلف أنواع الأسلحة والورق . إن علوم الطب والصيدلة والجبر والفلك والكيمياء والجغرافية فى أوربا قامت على أسس عربية صميمة .

أدى الفتح العثمانى للبلاد العربية إلى نهاية مرحلة اقتباس الأوربيين من الحضارات العربية والشرقية ، فقد بدأت فى هذه البلاد عهود ظلام وجهل . فقد وضعت الدول العثمانية حاجزاً منيعاً يفصل العالم العربى عن أوربا خوفاً من امتداد أطماع الدول الأوربية إلى هذه الولايات العثمانية . لقد بدأ الاستعمار العثمانى للعالم العربى فى سنة ١٥١٦ ، أى فى القرن السادس ، واستمر إلى سنة ١٩١٤ فى القرن العشرين . وهذه القرون كانت قرون النهضة فى أوربا عرفت فيها الانقلاب الصناعى ، وتطور مبادئ الحكم من الاستبداد إلى الديمقراطية ، وظهرت الدساتير والمجالس النيابية ، وتطور المجتمع الأوربى نتيجة ظهور المبادئ الاجتماعية الجديدة .

ثم بدأ غزو الحضارات الغربية للعالم العربى بقدوم الحملة الفرنسية إلى مصر . وقد جلب الفرنسيون إلى مصر والشام طريقتهم فى المعيشة ، وأسلوبهم فى الحياة ، وحضارتهم الخاصة . واصطدمت هذه الحضارة والمدنية بمدنية السكان الأصليين وطريقتهم فى الحياة . وقد ازداد الخلاف حدة عندما أضاف

الفاتحون إلى حضارتهم جوانب مادية ووسائل الترف . وكان تأثير الأساليب الأوربية على السكان تأثيراً سيئا ، مفسداً للآداب ، ولذا كان من الطبيعى أن يبذل هؤلاء السكان جهدهم لصد تيار هذه الحضارة الأوربية .

شمل صراع العرب للحضارة الأوربية كل مظاهر الحياة السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، بل الدينية . واتخذ هذا الصراع والصدام أشكالا مختلفة متنوعة . أولا رأينا حركات سياسية عديدة تصطبغ دائماً بصبغة دينية . ثانياً شهدنا حركات وطنية ظهرت نتيجة للضغط الأوربى . ثالثا رأينا نمو الصناعة الوطنية ، ثم رابعاً لمسنا المقاومة الوطنية للحكم الأجنبى .

نمت هذه الحركات السياسية والوطنية المختلفة خوف السكان من كل شىء أجنبى ، سواء الأفكار أو الناس ، وخاصة الخوف من الحضارة والثقافة الأوربيتين اللتين تمثلان فى نظرهم المستعمر الأوربى الذى يناضلونه أو يحاربونه . ونتيجة لارتباط الحضارة الأوربية بالحكم الاستعمارى الأوربى المقيت فى أذهان عرب مسلمى شمال أفريقية — مثلا — فقد ولدت هذه الحركات كرها للأجانب عامة وللأوربيين خاصة ، بصرف النظر عن كل ما يمت إلى الحضارة والثقافة الأوربية .

لقد فشلت الحضارة الأوربية فى إقرار السلام وتوطيده ، بل إن تقدم العلوم أدى إلى الحروب لا إلى السلام ، بل إن إفلاس المثل العليا ليس إلا نتيجة منطقية للحضارة الأوربية

القائمة على عبادة المادة . بل إن الحضارة الأوربية ركزت كل جهودها وثمار فكرها فى ناحية واحدة هى (الاستغلال) ، بل إن الاتجاهات الحديثة فى السياسة التى أخذت بها الدول الأوربية للوصول إلى السلام ، إنما هدفها الأسمى هو ضمان بقاء (الاستغلال) وتنظيمه .

٥ – القومية العربية والاتجاهات العالمية

القومية العربية والسلام العالمى :

يرى كثير من المفكرين أن الفروق بين الأمم والشعوب إن هى إلا فروق عارضة سوف تتلاشى بمرور الزمن ، ويرون أن العالم لا بد أن تكون غايته السلام وتعاون القوميات ، بحيث يصبحوا جميعاً أسرة واحدة يجمعها الحب والتعاون ويرفرف عليها السلام العالمى . وحاول هؤلاء المفكرون أن يبنوا نظاماً عاما يشترك فيه الجميع ، لا يفرق بينهم جنس ولا دين ولا لغة ولا ثقافة ولا ثراء ، فيعيش العالم فى سلام دائم تنتظم فيه القوميات وتتعارف فيه الشعوب وتتنازل فيه الدول العظمى عما تدعيه .

أصبح السلام — فى القرن العشرين — هدفاً قومياً هاماً أكثر مما كان من قبل . فقد كان الدمار الشامل الذى نجم عن الحرب العالمية الاولى ، وهو أول صراع هام وقع بين الدول المتقدمة فى الصناعة بمثابة صدمة للعالم ، فساد شعور حينذاك بأن قيام حرب أخرى من هذا النوع كفيل بالقضاء على البشرية .

إن السلام ، أو على الأقل عدم قيام حروب عالمية ، قد أصبح هدفاً فى حدّ ذاته ، يسعى الناس إلى تحقيقه بغض

النظر عما قد ينتج عنه من تأثير على الأهداف القومية الأخرى . وقد يقال إنه لا يوجد شيء أسوأ من ذلك التدمير الشامل الذى قد ينشأ لو اشتبكت الدول الكبرى التى تملك أحدث الأسلحة فى حرب حتى النهاية . ومع أن الكثيرين يعتنقون هذا الرأى ، إلا أنه لا ينال موافقة جماعية والزمن وحده هو الخليق بأن يثبت ما إذا كان هذا الرأى سيتلاشى ، وتواصل حكومات الدول الكبرى أن تنظر إلى الحرب بصفتها إمكانية حقيقية ، وهى تستعد لخوضها وكأنها جزء هام من سياستها ، وحتى الآن لا يعتبر السلام إلا واحداً من أهداف عديدة ، ورغماً من أهميته إلا أنه ليس بالضرورة أسمى هذه الأهداف .

تحول الشعور الاجتماعى إلى روح قومية ، وسوف يأتى اليوم الذى يصبح فيه الشعور الاجتماعى الفطرى شعوراً عالميا . وسوف يأتى اليوم الذى يصبح فيه الولاء القومى جزءاً من ولاء عالمى هام .

إن العالم كوحدة عامة لم يرتق بعد إلى ما ارتقت إليه القوميات . فكل وحدة قومية لها نظام مستمر ينتقل من جيل إلى جيل ، وليس للعالم مثل هذا النظام المستمر . وأفراد الوحدة القومية يمتلئون شعوراً بوجود وحدتهم ، ولكن قليلا منهم من هو إنسانى يشعر بوجود الإنسانية كوحدة عامة . والقوميات تكافح بعضها البعض ، لكن العالم لم يستكشف بعد الرذائل والأمراض التى يجب أن يعمل على كفاحها . وللقوميات أديان وتقاليد

وعادات يدرسها أفرادها ويتعصبون لها ، ولكن لم يدرس تقاليد العالم إلاّ القليل من الفلاسفة والعلماء . والقوميات يسرى بين أفرادها النظام ويحكم أفرادها القانون، ولها قواعد منسقة فيما يتصل بالعمل والبطالة ، ولكن ليس فى العالم نظام عام ، وليس يحكم الأمم قانون واحد . ولذلك نقول إن العمل على تحويل القوميات إلى عالم يسوده القانون والسلام سوف يكون عملا عسيراً شاقا .

ولكن السلام أصبح ضرورة قومية ، فالمواطن عضو فى وحدة بشرية هى الأمة ، والأمة عضو فى وحدة بشرية كبرى هى العالم . والمواطن يحتاج إلى الأمة لحمايته وكفالة سعادته والأمة تحتاج إلى غيرها من أمم العالم لمعونتها ضد العدو الطبيعى والعدو البشرى ولضمان الكفاية الإنتاجية . إن الأمة فى العصر الحديث لا تستطيع أن تصدّ عدوان الطبيعة ، من فيضان أو زلازل أو قحط أو وباء ، فهى فى حاجة إلى تكاتف عدد من الأمم معها حتى تتحاشى خطر هذا العدو أو تصدّه ومن هنا نشأت المؤسسات العالمية لمكافحة الجراد والأوبئة ، والفيضانات وغيرها . وهى لا تستطيع وحدها أن تصدّ هجوم العدو ، فهى فى حاجة إلى التحالف مع سائر الأمم حتى تتحاشى خطر الهجوم .

إن الهدف الذى يستهدفه المجتمع البشرى العالمى الآن قد أصبح واضحاً جلياً ، وهو يتلخص فيما يأتى : « تدعيم السلم العالمى الدائم وتحقيق الرخاء الشامل ، أى رفع مستوى المجتمع

المادى والروحى إلى أعلى الدرجات التى يمكن أن تصل إليها الإنسانية كافة » .

وهذا الهدف على قصره وبساطته ينطوى على معان كثيرة ، ويتطلب أعمالا جبارة وحركات نشيطة فى جميع ميادين الحياة ، إذ أن السلم مثلا لا يتحقق ولن يدوم إلا بنشر وإنماء المحبة والمودة والأخوة العامة بين الناس وبين الأمم والرخاء لا يتحقق ولا يمكن أن يكون شاملا إلا بتوجيه أفراد المجتمع جميعاً إلى أعمال منتجة مفيدة لأنفسهم وللآخرين ، وذلك لكى تكثر وتتضاعف كمية السلام والخدمات حتى تكفى لسد حاجات الجميع ولإشباع رغباتهم . ورفع مستوى المجتمع المادى والروحى معناه إنعاش الحضارة والمدنية وتعميم الثقافة والتعلم بين سائر الطبقات ولجميع أفراد المجتمع ، وتوفير أوسع الأوقات للجميع ليقوموا معاً بهذه الحضارة العظيمة، وهذه المدنية الشاملة لجميع ميادين الحياة .

بين العرب اتجاهات عالمية تحاول تخطى المجتمع القومى العربى للوصول إلى المجتمع العالمى، فجميع البشر يمثلون أسرة إنسانية كبيرة يجب أن تعيش فى مجتمع عالمى واحد كبير . وينادى هؤلاء بأنه حتى نستطيع بناء الوطن العربى ، والتهيؤ لحمل الرسالة الإنسانية ، فإننا محتاجون إلى السلام ، فى أنفسنا وفى بلادنا وفى العالم كله .

إن هذا السلام لن يوجد ما دام هناك معسكران يعدان

للحرب ما استطاعا من عدّة ، ولذلك نستنكر ، نحن أبناء الوطن العربي ، وجود المعسكرين الحاليين وما يقومان به من إنشاء الأحلاف ، وتأليب القوميات بعضها على بعض ، ونحن العرب نأبى أن ننضم إلى أى حلف عسكرى مهما كان نوعه ومذهبه لأننا بذلك نزيد سعير الكراهية المدمرة ، ونقضى على نهضتنا الوطنية الحرّة والعمران البشرى بأجمعه .

إن السلام لن يستتب فى العالم ما دام هناك غزاة واستعمار ، وقد آن للبشرية أن تشفى من مرضها الوبيل هذا ولذلك فإن على العرب أن يعملوا دائماً على إزالة كابوس الاستعمار عن كل بقعة فى العالم ، سواء أكان هذا الغزو الاستعمارى سياسيًّا أو عسكريا أو اقتصاديا أو فكريا ، لأن مجرد وجوده يخلق بؤرة جرثومية تعرّض جسم العالم كله للعدوى والهلاك . وإن العرب الذين عانوا كثيراً من الاستعمار عليهم أن يدافعوا عن حريات الأمم جميعاً وحقها المطلق فى تقرير المصير ، والدفاع عن حقوق الإنسان والقضاء على كل تمييز عنصرى أو جنسى .

ولكن السعى لتحقيق السلام العالمى لا يمكن أن يقوم على أكتاف الوطن العربى وحده ، ولا بد من التعاون مع الأمم الراغبة رغبة صادقة فى السلام . إن الجمهورية العربية المتحدة ، والهند ، ويوغسلافيا ، من أبرز الأمم الداعية إلى السلام وأعمقها إيماناً به ، وأكثرها مضيًّا فى سبيله . وهذه الدول ، وغيرها من الدول المحبة للسلام ، يمكن أن تكون حركة قوية تقف أمام

المعسكرين الدوليين وتفرض عليهما التخلي عن سياستهما الاستعمارية ومطامعهما الدولية . ومن المؤكد أن مؤتمر باندونج الآسيوى الأفريقى كان أعظم دعوة عرفها التاريخ لإقرار السلام .

إن العمل لتحقيق السلام لا يتنافى مع القومية ، فالقومية لا تعنى الانعزالية أو الانكماش فى داخل حدود المجتمع القومى وقطع كل صلة للأمة بالعالم . إن المشاكل الإنسانية ، والظلم ، والحروب ، لا ترجع أبداً إلى الوجود القومى ، بل ترجع فى أسسها إلى الأنظمة السائدة فى المجتمعات القومية ، كما لا ترجع الاتجاهات العنصرية أو الاستعلائية إلى الوجود القومى أيضا ، بل ترجع إلى فقدان الوعى القومى الإنسانى الصحيح . بالإضافة إلى أن القومية هى وجود اجتماعى تاريخى متفاعل ، وليست تراكماً بشريا جامدا ، ينعزل فى حدود صلبة تمنع الاتصال .

القومية العربية والإنسانية :

إن القومية العربية لا تتعارض مع الإنسانية ، فالقومية العربية كوجود اجتماعى تاريخى للأمة العربية لا بد أن تقوم ، ولا بد أن تستند إلى أسس إنسانية عميقة ، يتصل من خلالها الشعب العربى اتصالا صحيحاً طبيعيا بالإنسانية كلها ، وينفعل انفعالا صادقاً بآلامها وآمالها ومشاكلها وأهدافها ، ويترجم هذا الانفعال إلى عمل إيجابى ومواقف عملية .

إن القومية المعوجة تؤدى إلى إنسانية معوجة ، والإنسانية الحقة تبتدئ من القومية الحقة . ولهذا فإن الطريق إلى الإنسانية ، لا يمكن أن تبتدئ إلاّ من الوطن القومى . فالإنسان هو ابن مجتمعه ، والإنسان مهيأ بحكم ارتباطه القومى بمجتمعه وأرضه وتاريخه ولغته وثقافته ، لأن ينفعل بآلام قوميته وآمالها قبل أن ينفعل بآلام وآمال القوميات الأخرى . وهو عن طريق هذا الانفعال القومى أولا ، يصل إلى الانفعال الإنسانى ثانياً . وهنا لم يعمل الإنسان على تحقيق إنسانية المجموع القومى الذى يحيا فيه ويربطه التاريخ به ، لن يستطيع أن يعمل على تحقيق إنسانية الإنسانية جمعاء .

إن القومية ذات المضمون الإنسانى الإيجابى هى الطريق الوحيدة الإيجابية للإنسان ، وهى الطريق الوحيدة للسلام الحقيقى الشريف . لا إنسانية حقة بغير قومية حقة ، ولا قومية حقة بغير محتوى إنسانى عميق . والقومية ليست نزعة ضيقة انعزالية ، فالقوميات الواعية هى وحدات اجتماعية متفاعلة ، تأخذ وتعطى ، وتزيد الحضارة الإنسانية غنى وخصباً وشمولا ، والتجربة الإنسانية عمقا .

وهذه الأسس القومية تفترض أن تفهم القومية العربية على أنها ليست قومية عنصرية استعلائية عدوانية ، وليست قومية انعزالية منكمشة ، وأنها الطريق السليمة للإنسانية السليمة .

إن الفهم الصحيح للقومية العربية كوجود اجتماعى ، لا بد

أن يوصلنا حتما إلى رفض الفكرة العنصرية والجنسية فى تفسير القوميات . لأن أى وجود قومى إنما يقوم على تفاعل عوامل اللغة والتاريخ والثقافة والتقاليد والأهداف وليس على تخيلات وهمية عن الدم والجنس ، وإن الوحدة القومية هى هذه الوحدة الاجتماعية التاريخية العامة ، وليست الدموية العنصرية . فالاتجاه القومى النازى ، قد ابتعد ابتعادا كبيراً عن الفهم العلمى الصحيح للقوميات ونشوئها ، وهو فى الواقع اتجاه يمثل الاختلال فى توازن القومية أكثر مما يمثل أى اتجاه قومى صحيح . والفهم الصحيح للوجود القومى العربى . سيوصلنا حتما إلى رفض الاستغلال والتعصب الذى جاء به الاستعلاء الفاشى الذى يدعو إلى احتقار الفرد وإنكار حقه فى الحياة ما لم يكن من أفراد النخبة الممتازة .

كما أن الفهم الصحيح الواعى للوجود القومى العربى سيوصلنا إلى أنه لا يمكن أن نتوصل إلى مفهوم الأمة الصحيح ، والوحدة القومية الحقيقية ، إلاّ على أساس احترام الإنسان وتقديسه واحترام حقه فى الحياة ، وإلاّ على أساس تحقيق المساواة بين أفراد الأمة الواحدة لا تصنيفهم إلى طبقات تعطى حق الحياة للبعض ، وتعتبر البعض الآخر كميات مهملة . وإلاّ على أساس تحقيق التوازن فى العلاقة بين الفرد والمجتمع . إن هذا الفهم لمعنى الأمة والوحدة الحقيقية ، والقائم على إزالة الاستعلاء فى نطاق المجتمع القومى ، سيهيئ بدوره لإزالة الاستغلاء نحو القوميات الأخرى .

الوطن العربي جزء من العالم ، والقومية العربية لون من التشكل البشري . ووطننا العربي لا يمكن أن يعتزل سائر العالم لأنه جسر بين ثلاث قارات ، وإن قوميتنا لن تستطيع أن تحيا لنفسها ، لأن كل قومية حاولت جعل ذاتها غاية لها كانت تنتحر . ولذا يجب أن نعتبر القومية العربية نفسها فلذة من فلذات المجتمع البشرى ، ومرحلة نحو تحقيق الوحدة العالمية .

إن كل قومية طرحت الرسالة الإنسانية جانبا ، وهى تظن أنها بذلك تحفظ جهودها من أن تتبدد فى التضحية لأجل البشر وأنه يحفظ كيانه من أن يذوب إذا تم الامتزاج فى أخوة شاملة . ولكن كل قومية سارت فى هذا الطريق ، كانت الخاسرة لأنها تخلت عن الرسالة الإنسانية .

ونحن ، أبناء الوطن العربى ، نذكر بفخار أنه فى هذا الوطن ولدت قبل نيف وثلاثة عشر قرناً حركة كانت لها رسالتها الإنسانية الرائعة ، رسالة تؤمن بالخالق العظيم رب العالمين ، وبأن الدعوة إلى سبيله تكون بالحكمة وبالموعظة الحسنة ، وبأن البشر سواسية يبتغون من فضله ويلتحفون برحمته ، فكانت دعوة إلى توحيد الإنسانية فى حقوق واحدة وهداية واحدة وإيمان واحد بإله واحد يتساوى الناس بين يديه ولا يتفاوتون بغير الفضل والصلاح ، ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى .

إن الإنسانية والعالمية لا تدعو إلى الكونية المطلقة (Comop-olitanism) أو اختفاء كل شخصية قومية . فمثل هذه الكونية تؤدى

إلى الخسارة أكثر مما تؤدى إلى النفع العام . فالروح الإنسانية العالمية التى تدعو إليها روح أخرى تضاف إلى حب الوطن وليست شيئاً مأخوذاً منها . وكما أن الشعور بالوطنية لا ينقص من الشعور بحب الأسرة كذلك الروح العالمى الإنسانى لا يجب أن يحرمنا من الشعور بالقومية .

ولكن نوع هذا الحب القومى سيتغير ، فلن تصبح الأشياء التى يشتهيها المرء لقومه هى الأشياء التى يمكن تحصيلها على حساب الآخرين . ولكنها ستكون الأشياء التى تعظم بها البلد وتسمو بالنسبة لتقدم العالم كله . فسيرغب الفرد إذن أن تصبح بلاده عظيمة فى فنون السلام ، وأن تكون عادلة كريمة سامية ، وسيرغب فى أن تساعد البشر جميعاً فى طريقهم إلى عالم من الحرية أفضل ، ومن التعاون العالمى الذى لا يمكن أن نرجو للإنسان سعادة بدونه ، ولن يرغب لدولته الانتصارات العنيفة العابرة فى التملك والسيطرة . وسيرى أن هذه الروح لا تشمل الأخلاق السامية فحسب ، ولكنها تشمل الحكمة الحقة كذلك ، وأنها الطريق الوحيدة التى تسلكها الأمم المتنافرة المتخاصمة فى عبورها إلى حياة يكون النماء فيها ممكنا .

إن الرسالة العربية الإنسانية تنمو مع نمو نضالنا الآن ، وتتبلور من خلال تجاربنا اليومية ، وهى فى جوهرها تعبير عن إنسانية الأمة العربية ، تستهدف إرساء جميع العلاقات الإنسانية على أسس الحق القومى والعدل والمساواة والمنفعة المتبادلة ، وهى

فى جوهرها تعبير عن إيجابية الأمة العربية وبعدها عن التعصب والانعزالية وتوقها للعطاء ، وتعبير عن حيوية الأمة العربية ، لأن هذه الرسالة هى عملية أخذ وعطاء ، تتأثر بالتجربة الإنسانية كما تؤثر بها من خلال تجربتها القومية ، وهى تعبير عن إدراك عميق لمعنى وجود الأمة ومبررات وجودها .

٦ ـ الجامعة العربية والهيئات العالمية

الجامعة العربية وهيئة الأمم المتحدة :

الوطن العربى جزء من العالم ، والقومية العربية لون من التشكل البشرى ، والجامعة العربية هيئة من الهيئات الدولية التى تعمل من أجل السلام . والسلام ليس كلمة تقال أو حلما يداعب الأجفان ، ولكنه عمل متواصل قائم على تقارب أمم الأرض وتفاهمها وتعاونها . ولذلك ستعتبر الأمة العربية نفسها صديقة لسائر الأمم فى العالم ، وتقيم معها علاقات تعاون وتعامل فى كل ميدان : اقتصادى وثقافى واجتماعى . فالتجارة بين الدول يجب أن تكون حرّة متبادلة ، والتعاون الزراعى يجب أن يكون على أكمل وجه بين الدول ؛ وتكون الفرص متاحة لكل دولة حتى تنمى مشاريعها الصناعية وتقيم كيانها الاقتصادى . وتفتح أبواب البلاد كافة أمام وسائل نشر الثقافة وتبادلها ، من كتب وصحافة وسينما وإذاعة . ويتم تبادل البعثات الدراسية والعلمية بين جميع الأقطار ، وتكون المدارس والجامعات فى العالم شبكة متصلة الحلقات ، ويتم تبادل الآراء والتجارب والأفكار فى يسر وحرية ومودّة . أما التقارب الاجتماعى فيكون فى تشجيع السياحة والتزاوج والاختلاط ، بالأشكال التى

تحفظ كرامة الأفراد والمجتمعات .

هذا التقارب والتفاهم والتعاون ينتهى جميعه فى ذروة كبرى ، هى تحقيق الوحدة العالمية بحضارتها الإنسانية . وقد قام البشر بعدة محاولات لتحقيق هذه الوحدة ، فكانت عصبة الأمم المنحلة ، ثم هيئة الأمم المتحدة القائمة ، وكانت الجامعة العربية ، وأخيراً مؤتمر باندونج .

لا شك أن هيئة الأمم المتحدة أكثر تحقيقاً للسلام من عصبة الأمم . فقد جمع ميثاق الأمم المتحدة بين الاتجاه المثالى والتقدير للواقع ، فإنه لا ينظر إلى السلام الدولى كوضع مطلق دائم ، بل يعتبره وضعاً نسبيًّا يجب تدعيمه من وقت لآخر والمحافظة عليه بوسائل مختلفة . أما نظام عصبة الأمم المتحدة السابق فيقوم على أساس قانونى ليس للسياسة فيه المجال الواسع الذى يستحقه . كما أن هيئة الأمم المتحدة أصبحت عالمية أكثر مما كانت عليه عصبة الأمم من ناحية الأهداف والاغراض والأساليب لكل منهما ، إذ كانت الجهود التى بذلتها الدول والقرارات التى اتخذتها والأهداف التى ترمى إليها فى الفترة بين الحربين العالميتين تنحصر فى الدول الغربية ، أما دول الشرقين الأوسط والأقصى فقد أهملت كل الإهمال ، بل قد أصبحت هذه البلدان سبباً للمنازعات الدولية التى أدت إلى نشوب الحرب العالمية الثانية . أما جهود الدول وقراراتها وأهدافها التى بدأت فى تنظيمها منذ نشوب الحرب العالمية الثانية ، فقد روعى فيها

تطبيقها على جميع شعوب العالم كافة بدون تمييز ، وميثاق الأمم المتحدة يشير إلى أن الهيئة لا تقبل إلا الدول المحبة للسلام، أي الدول التي ترى الهيئة أنها على استعداد تام للقيام بالالتزامات المقرّرة في الميثاق .

من واجب الأمة العربية إثبات وجودها في كل منظمة دولية ، بشكل يتيح الاستفادة من الجميع والتعاون مع كل دولة ، ويضمن لها عدم الخضوع لأية قوة، ويحفظها بشخصيتها التي لا تعتمد في بقائها على تقلبات التوازن الدولي ، وإنما تعتمد على وعينا وإرادتنا وقوتنا ، لأن هذه الأشياء الثانية بالنسبة لنا ، هي التي ستقرر مصيرنا .

من واجب العرب عامة ، والجامعة العربية خاصة ، أن يسعوا لجعل هيئة الأمم المتحدة مجمعاً عالميا ، يضم أمم الأرض ، حيث تتبادل الآراء والتجارب في حرية مطلقة من الكبت والنفوذ ، وتتعاون على قدم المساواة في كافة الميادين ، وتتعامل مع بعضها وفقاً للقواعد الأخلاقية ، وتكون الثقة واحترام الحقوق متبادلا بينها . ومن ورائها جميعاً سيقوم رأى عالمي واع خير يسندها ويكلؤها ويوجهها نحو المستقبل المجيد .

أصبح لجامعة الدول العربية شخصية محترمة ، وكلمة مسموعة ، وأصبحت كتلة دولية يحسب حسابها ، وتنطبق عليها المادة (٥٢) من ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، ومن البديهي أن كل تكتل واتحاد يؤدي إلى القوة والمجد .

قامت الجامعة العربية على أساس ألا تقتصر جهودها على الدول التى انضمت إلى عضويتها ، فما زال هناك أقطار عربية ترزح تحت نير الاستعمار وتتطلع إلى التحرر والاستقلال حتى تنضم إلى شقيقاتها العربيات ليعملوا سويًّا من أجل مجد العرب وخير العالم . فمدى نشاط الجامعة العربية يمتد من المحيط الأطلسى غربا إلى الخليج العربى شرقا ، كما يمتد إلى عرب الأمريكتين ، فى الأرجنتين مثلا نحو ٤٠٠ ألف عربى من بينهم من يتولون مناصب كبرى وعضوية المجالس النيابية . وليس هناك ما يمنع من أن تتعاون دول الجامعة العربية مع الدول التى تربطها بها روابط تاريخية وثقافية مثل إيران، وأفغانستان، وتركيا ، واتحاد الدول العربية لم يقم على تعصب عنصرى . كما على الجامعة العربية أن تعمل على كفاح الاستعمار فى كل مكان ، وأن تعمل على تحقيق السلام العالمى ، ومنع قيام حرب عالمية ثالثة تلك التى لا شك أنها ستؤدى إلى هلاك البشرية. وعلى الدول العربية أن توحد أصواتها فى هيئة الأمم المتحدة حتى يصبح صوتا واحدا داويا ، فيفوز الأعضاء الذين يرشحونهم .

كلما زاد تماسك دول الجامعة العربية عظم الخير الذى يعود عليها ، وعليهم أن يعتمدوا على أنفسهم وعلى سواعدهم وعلى إمكانياتهم وحيويتهم ، حتى يصبحوا أقوياء فينتزعوا حقهم انتزاعا . فالاعتماد على العدل الدولى عبث ، إذ لم يزل ميثاق الأطلنطى والنداء بالحريات الأربع وقيام نظام للعالم خير من

عصبة الأمم من القضايا التى يعوزها التطبيق ، وقد رأينا كيف خذلت الهيئات الدولية بعض القضايا العربية . وإن كان هذا لا يمنع العرب من التعاون مع الهيئات الدولية المختلفة .

الجامعة العربية واليونوسكو :

اقترحت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة . المعروفة باسم اليونوسكو . سنة ١٩٤٨ إنشاء مركز ثقافى خاص بالشرقين الأدنى والأوسط . ورأت أن يشمل هذا المركز بلاد الجامعة العربية وتركيا وإيران وأفغانستان،وأن يعمل لضمان تعاون البلاد المذكورة بعضها مع بعض، فى ميدانى التربية والثقافة . بمساعدة اليونسكو .

وقد قدم مشروع هذا المركز إلى جامعة الدول العربية ، ووضع على بساط البحث فى اللجنة الثقافية التابعة للجامعة ، وعارضها بعض الأعضاء وفى مقدمتهم العالم الجليل الأستاذ ساطع الحصرى ، الذى عارضه من الوجهتين العلمية والقومية .

أما من الوجهة العلمية ، فلأن الثقافة لا تتبع التقسيمات الجغرافية — الطبيعية أو السياسية — وأن حدود ما يمكن أن يسمى المناطق الثقافية تختلف عن حدود ما يسمى مناطق جغرافية ، فإنشاء مراكز ثقافية على أسس جغرافية يخالف طبيعة الثقافة مخالفة كلية .

ومما يزيد هذه المخالفة خطورة ، أن المنطقة التى يسمونها الشرق الأدنى والأوسط ،لهى منطقة اصطلاحية خططت حدودها سياسة الدول الغربية ، وفقاً لمصالحها الخاصة ، من غير أن تأخذ بنظر الاعتبار اختلاف سكان أقسامها المختلفة من حيث اللغة والثقافة والمصالح والتقاليد . فإذا أرادت اليونسكو أن تنشئ مراكز فرعية ، يجب عليها أن تفعل ذلك على أساس الخصائص الثقافية ، لا على أساس التقسيمات الجغرافية والسياسية .

أما من الوجهة القومية ، فالثقافة فى البلاد العربية قد تبلبلت إلى أقصى حدود التبلبل ، من جرّاء سيطرة الثقافات الأجنبية المختلفة على مختلف أقطارها ، فهى الآن فى أشد الحاجة إلى لمّ الشعث والتحرر من سيطرة الثقافات الأجنبية ، لكى تكسب شخصية واضحة ، فتصبح عربية عصرية بكل معنى الكلمة . فلا يجوز لنا أبدا . والبلاد العربية فى هذه الحالة من التبلبل الثقافى أن يعود العرب فيسعوا إلى زيادة الاتصال بالثقافة التركية والإيرانية .

يرى الأستاذ ساطع الحصرى ، وهو فى مقدمة المشتغلين بالقضايا العربية ، أن لا يجوز للعرب أبداً أن يوجهوا جهودهم نحو مركز ثقافى لا يشمل إلاّ جزءاً من البلاد العربية ، أو يحشر ثقافة هذا الجزء نفسه مع ثقافات تركيا وإيران ، فيعرقل بذلك نموها نموّا سويا ، ويبعدها عن الطرق المؤدية إلى استكمال وسائل الاستقلال والازدهار .

يجب على العرب أن ينضموا إلى الهيئات الدولية التى تعنى بالعلم والتربية والثقافة ، لكى يرتووا بزلال العلم والمعرفة والثقافة من منابعها الأصلية ، ويجب عليهم أن يسعوا إلى تأليف منظمات علمية وثقافية تشمل جميع البلاد العربية . ولكنه لا يجوز لنا أن نسهم فى تكوين مركز ثقافى يشمل البلاد المعروفة باسم (الشرق الأوسط) ونتجاهل بذلك شخصية عالمنا العربى .

أحالت اللجنة الثقافية التابعة للجامعة العربية هذا المشروع إلى الدول العربية نفسها ، مما أدى إلى إهمال المشروع . وتضايق (جوليان هكسلى) مدير اليونسكو من عدم إقرار المشروع ، فكتب فى التقرير السنوى الذى قدّمه إلى مؤتمر اليونسكو عدة عبارات جارحة وصف فيها المعارضة التى لاقاها المشروع بالمخاتلة ، وبالإقليمية الضيقة القائمة على أساس الثقافة العربية وحدها .

وكتب الأستاذ ساطع الحصرى رسالة طويلة إلى (جوليان هكسلى) يبين له أسباب رفض المشروع ويرد على اتهاماته . ونقتبس بعض فقرات من هذه الرسالة ، فهى تصوّر تماماً موقف العرب من اليونسكو : « إن إحداث أمثال هذه المراكز الإقليمية من الأمور التى يصعب تآلفها مع الروح التى كونت اليونسكو . لماذا نقدم على إحداث « حظائر إقليمية » داخل نطاق اليونسكو ما دمنا ندعو جميع أمم الأرض إلى التعاون والتكاتف فى ميادين العلم والتربية والثقافة ؟ إن العلم بطبيعته

عالمى ، فجميع الأمم تستطيع أن تتعاون فى هذا المضمار ، بدون أى تحفظ كان . ولكن التربية بطبيعتها قومية . وهى تبقى قومية ، حتى عندما تستوحى أعمالها من فكرة التفاهم الإنسانى ، فتتغلغل فى سبيل التعاون الأممى . وذلك لأن الفكرة الأممية ترمى إلى تنوير التربية وتوجيهها ، دون أن تنزع عنها صفتها القومية . ولهذا السبب يستطيع أن نؤكد أن التربية لا تستفيد شيئاً من إحداث منظمة إقليمية متفرعة من منظمة أممية إذا قامت هذه المنظمة الإقليمية على أسس جغرافية لا قومية .

وأما الثقافة فإنها تتألف من عناصر كثيرة ، قسم منها قومى وقسم آخر منها أممى ، ولهذا السبب هى أيضا لا تستفيد شيئاً من إحداث منظمة إقليمية ، تنحشر بين منظمات القومية والمنظمات الأممية . . .

إن الإقدام على إنشاء مراكز إقليمية — فى قلب اليونسكو — مثل المركز المقترح للشرق الأدنى والأوسط ، يكون عملا منافياً لطبيعة الأشياء ولمصالح اليونسكو ، فى وقت واحد . . . . نحن العرب ، انضممنا إلى منظمة اليونسكو ، وهى غير منقسمة إلى حجر متحاجزة، ونتمنى لهذه المنظمة أن تتجنب مغبة الانقسام إلى حجرات إقليمية . ومهما كان الأمر ، فنحن لا نود أن نُحجز فى حجرة خاصة ، ولا سيما فى هذه الحجرة المشهورة التى يسمونها باسم الشرق الأدنى والأوسط . فنحن نريد أن نتعاون

مع جميع أمم العالم – داخل منظمة اليونسكو – بصفتنا عرباً ، لا بصفتنا شرقيين » . . .

الجامعة العربية بين الشرق الأوسط والشرق الأدنى :

اصطلح الجغرافيون على تسمية الإقليم الذى يقع فى الجزء الجنوبى الغربى من قارة آسيا بالشرق الأوسط . ويشتمل هذا الإقليم على الأقطار العربية المختلفة سواء ما يوجد منها فى شبه جزيرة العرب أو فى الأطراف الشمالية لشبه الجزيرة ، كما يشتمل على تركيا ، وعلى الأقطار القائمة فى داخل الهضبة الإيرانية . ويُحد الإقليم من الشمال البحر الأسود وبحر قزوين ، ومن الغرب البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وفى الجنوب بحر العرب وامتداده فى خليج عدن ، وفى الشرق خليج عمان والخليج العربى .

كتب السير ونستون تشرشل فى مذكراته عن الحرب العالمية الأخيرة (فى ٢٦ أغسطس ١٩٤٢) ما يلى : « إن المسائل التى كان يجب حلها الآن ما كانت تتناول أشخاص المناصب العليا فحسب ، بل كانت تشمل كل بناء القيادة فى هذه الساحة الفسيحة من مسرح العمليات الحربية . إنى كنت أشعر على الدوام أن تسمية مصر والمشرق وتركيا باسم الشرق الأوسط Middle East لم تكن من التسميات الموفقة ، فإن هذه البلاد تؤلف الشرق الأدنى ، وإيران والعراق تؤلفان الشرق

الأوسط وبلاد الهند وماليزيا وبورما تؤلف الشرق . وأما الصين واليابان فتؤلفان الشرق الأقصى » .

ولذا رأى تشرشل ضرورة تقسيم قيادة الشرق الأوسط ، التي كانت بالغة التنوع ، وشديدة الميل إلى التوسط ولذلك أصدر مساء ذلك اليوم التعليمات التالية :

« يعاد النظر فى تنظيم قيادة الشرق الأوسط على أساس تقسيمها إلى قيادتين منفصلتين ومستقلتين .

ا ـ قيادة الشرق الأدنى : وتشمل مصر وفلسطين وسوريا على أن يكون مركزها القاهرة .

ب ـ قيادة الشرق الأوسط : شاملة العراق وإيران ، على أن يكون مركزها بغداد » .

هذه هى التقسيمات التى أوجدها تشرشل نتيجة الحاجات الحربية التى تشعر بها الحكومة البريطانية ، فقد جمع تشرشل سوريا وفلسطين ومصر تحت اسم الشرق الأدنى ، ولكنه فصل العراق عن هذه المجموعة وعن سائر البلاد العربية ، وأدخله فى نطاق الشرق الأوسط مع إيران . وكل ذلك ليس بناء على أحوال هذه البلاد نفسها إنما بناء على المساعدة التى تنتظرها منها السياسة البريطانية ، خلال الحرب التى تخوض غمارها .

ولكن ، بعد تسع سنوات من هذه التقسيمات ، فى سنة ١٩٥١ وجه أحد النواب الإنجليز إلى الحكومة السؤال الآتى : ما هى البلاد التى تدخل فى نطاق الشرق الأدنى ، حسب

الاصطلاحات الرسمية ؟ فأجاب وكيل وزارة الخارجية : « إن تعبير الشرق الأدنى الذى لازم السلطة العثمانية يعتبر الآن فى بريطانيا مما فات أوانه فى اللسان الرسمى ، ويستعاض عنه الآن بتعبير الشرق الأوسط . ومجموعة البلاد التى يشار إليها بهذا التعبير تشمل : مصر ، وتركيا ، والعراق ، وإيران ، وسوريا ولبنان، وإسرائيل ، والعربية السعودية ، وإمارات الكويت ، والبحرين ، وقطر ، ومسقط ، ومحمية عدن ، واليمن » . وعندما سأله أحد النواب : « واليونان ؟ » أجابه « اليونان تقع فى مدار البحر الأبيض المتوسط » .

هذا التصريح الرسمى يختلف عن تقسيمات تشرشل ، فقد دعا وكيل وزارة الخارجية البريطانية إلى هجر تعبير الشرق الأدنى وجمع تلك البلاد كلها فى منطقة واحدة ، تسمى الشرق الأوسط .

لماذا تغير رأى الحكومة البريطانية هذا التغير الكبير خلال تسعة أعوام ؟ كان هذا التغير نتيجة تغير مصالح بريطانيا . ففى سنة ١٩٤٢ كانت بريطانيا تحارب مع روسيا ضد ألمانيا . ولكنها فى سنة ١٩٥١ صارت تستعد للقتال إلى جانب ألمانيا ضد روسيا . وفى سنة ١٩٤٢ كانت بريطانيا تحارب فى البلاد الشرقية المذكورة فى جبهتين مختلفتين لهذا السبب رأت أن تقسم القيادة إلى قيادتين مستقلتين ، ولذا عززت فكرة الشرقين الأدنى والأوسط . ولكنها فى سنة ١٩٥١ صارت تضع خططها

الحربية على أساس جبهة واحدة ، فلم تعد ترى لزوما إلى تقسيم البلاد المذكورة إلى منطقتين ، بل رأت أن من مصلحتها اعتبار البلاد المذكورة منطقة واحدة لكي يسهل عليها حشد الجيوش وتموينها وتوجيهها . ولذا هجرت بريطانيا تعبير الشرق الأدنى وعززت مدلول الشرق الأوسط ، حتى جعلته يشمل مصر وإيران، وما بينهما من بلاد ، من البحر الأسود إلى المحيط الهندى ، أى من تركيا إلى اليمن وحضرموت .

وخلاصة القول : إن هذه التقسيمات والتسميات لا تقوم على أساس من التاريخ أو من الجغرافية الطبيعية أو البشرية . إنما هى تقسيمات تتمشى مع سياسة الدول الغربية .

إن خريطة المنطقة التى تسمى (الشرق الأوسط) تشطر العالم العربى شطرين : تترك الشطر العربى منه جانباً فتهمله إهمالا كليًا ، وأما الشطر الشرقى منه فتدخله داخل نطاقها ، إلا أنها تحشره مع طائفة من البلاد غير العربية وتطمس بذلك معالم العالم العربى وتخفى عن الأنظار شخصيته الخاصّة .

ولذلك نستطيع أن نقول إن فكرة الشرق الأوسط عندما تستولى على الأذهان تصرف الأنظار عن الالتفات إلى العالم العربى ، وتعرقل بذلك تبلور مفهوم « العروبة » تبلورا سليما ، وتحول دون تكوين فكرة العالم العربى تكويناً سويا .

الجامعة العربية والدول الشرقية :

كثيراً ما تتناقل الألسن والأقلام هذه الكلمات دون فهم تام لمدلولها ومفاهيمها : الشرق ، الشرقى ، العقلية الشرقية ، الحضارة الشرقية ، العادات الشرقية ، الثقافية الشرقية ، والدول الشرقية . . . إلخ .

إن لكلمة الشرق معنى واضحا وثابتا فى الجغرافيا . ولكن هذا المعنى الجغرافى نفسه من المعانى النسبية التى تتبع مواضع الأمكنة والأشياء . ومع هذا ، فقد اعتاد الناس استعمال هذه الكلمة بمعنى مطلق ، للدلالة على بعض الأقطار المعينة من الكرة الأرضية . وهذا الاستعمال المطلق كثيرا ما يؤدى إلى الالتباس والاختلاف .

اعتاد الأوربيون استعمال كلمة (الشرق) للدلالة على البلاد التى تمتد من تركيا وإيران إلى الصين واليابان . لكنهم صاروا يقسمون هذه البلاد إلى ثلاث مناطق كبيرة ، ويسمونها حسب درجة قربها إلى أوربا إلى : شرق أدنى ، وأوسط ، وأقصى . فيتفقون على أن تركيا مع الشرق العربى من بلاد الشرق الأدنى ، كما يتفقون فى اعتبار الصين واليابان من بلاد الشرق الأقصى ، غير أنهم يختلفون فى تعيين حدود الشرق الأدنى من ناحية الشرق ، وحدود الشرق الأقصى من ناحية الغرب ، كما يختلفون فى تحديد الشرق الأوسط .

فهناك من يقول إن الشرق الأدنى هو الشرق المتصل بالبحر المتوسط ، والشرق الأوسط هو جميع البلاد المطلة على المحيط الهندى ، والشرق الأقصى هو جميع البلاد الآسيوية التى تطل على المحيط الهادى . وهناك من يهجر تعبير الشرق الأدنى فيكتفى بتقسيم الشرق إلى أوسط وأقصى . وبين الذين يذهبون هذا المذهب من يحصر مدلول الشرق الأوسط بمصر وإيران وبالبلاد العربية والتركية التى تمتد بينهما . وهناك من يوسع مدلول الشرق الأوسط ويجعله شاملا لجميع البلاد التى تمتد بين تونس وبورما .

ومهما يكن الرأى فإن هذه التقسيمات والتصنيفات ، لا تستند إلى أسس ثابتة من الجغرافية الطبيعية أو البشرية ، إنما هى تقسيمات اعتبارية ، تسعى إلى تقريرها سياسة الدول الغربية ، حسب ما تقتضيه مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية والاستعمارية .

تعوّد بعض الكتاب والباحثين فى معرض الكلام على الأقطار العربية، سواء أكان الموضوع اجتماعيًّا أو ثقافيًّا أم اقتصاديا أم سياسيا ، أن يخلطوا بين القضية العربية ، وبين ما يسمونه القضية الشرقية . إن قضية العرب قضية عربية وليست قضية شرقية . ولكن — ورغم هذا — تتصل قضية العرب بالشرق ، على اعتبار أن العرب شرقيون ، وعلى اعتبار أنهم كانوا ذوى

شأن ووزن فى هذا الشرق، قروناً طويلة ، فأثروا فيه وتأثروا به . ولا يمنع زوال هذا الشأن استمرار تشابك المصالح وتبادل المنافع وعواطف الود والصداقة الخالصة ، بين الأمة العربية وبين بقية الأمم فى الشرق .

ونحن وإن كنا ندعو إلى الأخذ بعين الاعتبار هذا التشابك فى المصالح والعلاقات بيننا وبين الشرق ، حتى وهذا التشابه بيننا وبين كثير من الأمم الشرقية ، فى الأوضاع القائمة ، فهذا لا يعنى ، ولا يمكن أن يعنى أن تفنى قضية العرب فى القضية الشرقية . وأن هذا الاتصال الذى ذكرناه ، ينبغى أن يفهم منه أنه اتصال لقضية العرب مجتمعة غير مجزأة ، أو للأمة العربية موحدة على اعتبار أنها « كل » لا يتجزأ بالأمم الشرقية ، كل أمة على حدة ، وعلى اعتبار أن كل أمة منها مجتمعة « كل » لا يتجزأ ، ولا يزيد اتصال قضية العرب بقضية أية أمة شرقية عن اتصال قضية أية أمة شرقية بقضية العرب ، أو بأية قضية لأية أمة من أمم الشرق .

وليس من المنطق ولا من الكرامة ، ولا من المصلحة ، أن تذيب الأقطار العربية شخصيتها فى دنيا الشرق ، فينسى كل قطر عربى صفته العربية . ثم إنه يجب ألا ننسى أن قضيتنا تتصل بالدول الغربية سواء فى القارة الأوروبية أو فى الأمريكيتين اتصالا لا يجوز أن نغفله بل نحاول أن نستغله فى تعزيز القومية العربية والجامعة العربية .

حاول بعض أعداء القومية العربية أن يوجدوا روابط سياسية وثقافية مستندة إلى روابط جغرافية ، مثل الرابطة الشرقية ، ورابطة البحر الأبيض المتوسط . إن الجوار وحده لا يكفى لإيجاد رابطة . بل على العكس من ذلك ، قد يؤدى إلى منافسات ومخاصمات . كثيراً ما نشبت الحروب بين أمم متجاورة ما دام لا يربطها رابطة قومية . ولذا فإن الرابطة الشرقية لا تستند إلى أى أساس صحيح . إذ كنا نشاهد فى بعض الظروف ، شيئاً من التعاطف والتآزر بين الدول والأمم التى تسمى عادة باسم (الشرقية) فإن السبب فى ذلك يعود إلى تشابه أحوالها نتيجة لسيطرة الدول المستعمرة عليها ، لا إلى كونها شرقية . ويسجل التاريخ عدداً غير قليل من المخاصمات بين الدول الشرقية نفسها ، كما أننا نجد فى كثير من المناسبات مساعدة ومؤازرة من دول غير شرقية ، أكثر من بعض الدول الشرقية .

الجامعة العربية ورابطة البحر الأبيض المتوسط :

نادى الفرنسيون بفكرة (رابطة البحر الأبيض المتوسط) لإيهام اللبنانيين والسوريين بأنهم أقرب إلى فرنسا من العرب . بعض الكتاب ينسبون إلى البحر الأبيض ثقافة وحضارة خاصة ويبنون على ذلك (نظرية ثقافية) . ولكن كلمتى (ثقافة) و (حضارة) هما من أسماء المعانى التى تدل على مفهومات

ذهنية مجرّدة ، فلا تتحد بحدود مادية ثابتة ، فتكون مطاطة بطبيعتها . وأمثال هذه الكلمات تولد فى الأذهان معانى متباينة .

ولكن يمكننا أن نقول إن مفهوم الحضارة والثقافة متصلان ، إلاّ أن مفهوم الحضارة أوسع نطاقا ، لأن الثقافة تنحصر فى الأمور الذهنية والمعنوية وحدها ، بينما الحضارة تشمل الأمور المادية . وتتمثل الحضارة فى العلوم والصناعات ، بينما تتمثل الثقافة فى اللغات والآداب ، والحضارة قابلة للانتقال من أمة إلى أخرى بسهولة ، وقابلة للانتشار ، بينما الثقافة تبقى خاصة بكل أمة على حدة ، فترتبط بلغة الأمة وأدبها . والأمم تتميز عن بعضها بثقافات خاصة ، وتشترك مع بعضها بحضارات عامة . والثقافة تكون فى حدّ ذاتها قومية ، والحضارة تكون بطبيعتها أممية .

لا توجد ثقافة تسمى (ثقافة البحر الأبيض) ، فالثقافة لا تتبع الروابط الجغرافية أو تتقيد بقيود المسافات . إن مرسيليا وبرشلونة على البحر الأبيض ، ومع ذلك فهما مختلفان فى الثقافة ، فثقافة مرسيليا فرنسية ، وثقافة برشلونة إسبانية . والإسكندرية وجنوة على البحر الأبيض ، ولكل منهما نوع خاص به من الثقافة . كما لا توجد حضارة تسمى (حضارة بحر أبيض) حقا كانت سواحل البحر الأبيض فى عهد من

عهود التاريخ المركز الوحيد للحضارة البشرية ولكن الأمور تغيرت بعد ذلك . فقد انتشرت الحضارة أولا إلى شمال أوربا ثم إلى ما وراء المحيطات ، وأصبحت الحضارة غربية ، ثم صارت أوربية ، ولم يعد للبحر الأبيض ميزة خاصة .

٧ ـ العرب والعالم فى العصر الحاضر

إن الأمة العربية تمر فى لحظات انتقالها التاريخى الحاسم ، انتقالها من الماضى المظلم الذى ورثناه بتفككه وفساده وجموده عن عصور الانحطاط والاستعمار العثمانى الطويل ، الماضى المجزأ المستعمر المغتصب الفاسد الذى يتنافى مع طبيعة الوجود القومى العربى الواحد . الماضى الذى كل ما فيه جمود يمنع التقدم ، وقيود تكبل الانطلاق . وكل ما فيه ظلم يمسخ العدالة وفساد يشوه القيم ويهدد الإمكانيات ، ويجعلنا نعيش عالة على الحضارة الإنسانية . الماضى الذى لا يحقق إنسانية الفرد العربى ولا يمنحه الفرصة لأن يحيا وينتج ويبدع ، ولا يتيح المجال للأمة العربية لأن تحقق مبرر وجودها كأمة حية فى هذا العالم فتنطلق وتعطى .

ثم انتقال إلى المستقبل الذى نريد . المستقبل الموحد المتحرر المشرق الذى يتلاءم وطبيعة الوجود القومى العربى الواحد . المستقبل المتجدد المتطور الذى تسوده العدالة الاجتماعية ، وتوجهه القيم الإنسانية الحقة . المستقبل الذى يوفر للفرد العربى حياة حرة كريمة ، ويظهر إمكانياته العظيمة وطاقاته الكامنة . ذلك المستقبل الذى يتيح للأمة العربية أن تعبر عن معنى وجودها

فى رسالة عربية إيجابية إنسانية ، رسالة تتصل اتصالا صادقاً بقيمة الإنسان أينما كان ، عن طريق اتصالها اتصالا دقيقاً بقيمة الإنسان العربى فى الوطن العربى . ونحن العرب اليوم نعيش فى هذا الانتقال التاريخى الحاسم .

نشهد ، نحن العرب ، اليوم حولنا هذا النزاع الهائل الذى نهتز له أركان المعمورة فى الشرق والغرب ، ونلمس أثر هذا النضال فى أنفسنا إذ قد أخذنا منه بنصيبنا وشاركنا فى تضحياته وآلامه أمم الأرض جميعا . فنحن نتساءل فيما بيننا وبين أنفسنا عما عسى أن يكون معنى هذا النضال ، وعما عسى أن يكون مبعثه الحقيقى ، وعما عسى أن يكون مداه ، وماذا تكون غايته ونتائجه .

ونحن اليوم معشر العرب ننظر إلى الحاضر والمستقبل بقلوب ممتلئة بالتطلع والأمل . فقد مضى علينا زمن طويل كنا فيه نحس أن العالم الغربى يتجه إلى غاياته بغير أن يجعل اعتبارا لغاياتنا ، ويمضى فى تقدمه بغير أن يحفل بما يكون من ذلك التقدم على تقدمنا . ولكنا صحونا أخيراً إلى الحقيقة الواقعة وهى أن ذلك الغرب الذى يحمل لواء المدنية اليوم لم يبلغ من تقدمه موضع السعادة التى كان ينبغى للأمم المتمدنة أن تنشدها ، فبين شعوب الغرب من هم فى حالة سيئة ، وأن دول الأرض لم تستطع أن تبلغ الأمن والسلام بكل ما أوتيت من ثروة ومن علم . فهى مع كل تقدمها لم تستطع أن توفر الخير لكل أفراد

شعوبها ، وما زالت تعانى من الآلام أكثر مما نعانيه ، وما زالت تتطلع إلى الآمال التى لا تزال نتطلع إلى مثلها .

وليست الحروب الأخيرة ، والحرب الباردة الحالية ، إلاّ من الأدلة على حاجة الشعوب فى الشرق والغرب إلى السعادة والسلام . فهل من الممكن أن يحقق البشر هذه السعادة ؟ وهل نظم الحياة تمكنهم من تحقيقها ؟ وهل السيادة السياسية هى هدف الإنسان فى حياته فيضحى بسعادته فى سبيلها ؟ وهل أدى ضعف القيم إلى شقاء الإنسانية ؟ وهل يحقق الإنسان السلام ؟ وهل تحول نظم الدول وعلاقاتها ببعضها دون تحقق هذا السلام المنشود ؟

لقد حاولت الدول الغربية أن تعثر على أكسير السعادة ، سواء كانت سعادة الأفراد أو سعادة المجتمعات ، وحسبت فى بعض الأحيان أنها وجدت هذا الأكسير . فحسبت مرة أنها وجدته فى الحقوق الإنسانية ، وحسبت مرة أخرى أنها وجدته فى تقدم الفن والعلم . ولكنها لم تلبث أن عرفت خطأها عندما رأت أن السعادة لا تزال بعيدة عنها . وهل يترتب على هذا أن تكف الإنسانية عن البحث عن هذا الأكسير أم من واجبها أن تمضى فى سبيلها باحثة عنها لأنه هو أملها ولا حياة لها إذا هى لم تحتفظ به ؟

يتوقف مصير الإنسانية منذ فجر التاريخ على حلّ مشكلة كبرى ، هى السعادة . وكانت المشكلة واحدة فى مختلف

الأجيال ، ولدى جميع الشعوب فطالب البشر فلاسفتهم على مرّ الزمن بتفسير معقول لها ، كما طالبوا زعماءهم وأولى الرأى فيهم بحل موفق للمشكلة المشتركة .

وقد جرّب الإنسان فى بحثه الطويل عن السعادة طريقين : الأولى داخلية ، بوضع حدّ للصراع المضطرم فى نفسه بين القوتين المادية والمعنوية ، اللتين تتكون منهما وحدته كإنسان . والثانية خارجية ، بوضع حدّ للنزاع الخارجى القائم بين نفسه لوحدة إنسانية ، وبين بقية الجنس البشرى بوجه عام . وقد اقتنع الإنسان أن مشكلة الإنسانية الكبرى تكمن فى هاتين المعركتين ، ولكنه لم يتمكن من تحديد الطريق التى يسير فيها ليصل إلى السعادة .

هناك صراع عنيف بين المادة والروح ، وبين الإنسان كوحدة والإنسانية كمجموعة . وإذا عرفنا أننا سنحصل على السعادة ، بانتصار الروح على المادة ، فما زال أمامنا التماس الوسيلة للحصول على النصر وتعزيزه . وإذا ما اعتمدت السعادة على انتصار المجموعة الإنسانية ، فما زال أمامنا تنظيم انتصارها وتأمينه فى وضعه النهائى ، حتى تتحقق السعادة .

إذا نظرنا إلى مشكلة البشر الكبرى ، وجدنا أنها تتعدى حدود البنيان الذاتى للإنسان ، فإذا أنعمنا النظر وجدنا أنها قد نشأت نتيجة لصراع قوتين متعارضتين خارجتين عنه . ولا صلة لهما بما فى داخل الوحدات الأخرى التى تتكون منها

البشرية مجتمعة ، أو بمعنى آخر « المجتمع الإنسانى » .

يتألف المجتمع الإنسانى من اتحاد الوحدات البشرية حتى تصبح هيئة واحدة نُطلق عليها هذا الاسم ، ولا يمكن أن يتم هذا الاتحاد إلا إذا تنازلت كل وحدة على حدة عن بعض حقوقها الذاتية، وضحت ببعض مصالحها حتى تكون جزءا من المجتمع ، مثلها فى ذلك مثل التضحية برأس المال للحصول على ربح معين ، فهى إذا تنازلت وضحت ببعض مصالحها وحقوقها إنما تتنازل على أمل الحصول على ما يفوق ما قدمته فى الأصل من حقوق ومصالح .

أبرز مشاكل العالم فى الوقت الحاضر - كما يرى أورجانسكى - هى « الصراع من أجل تولى زعامة العالم » ، كما أن حركة التصنيع تغير وجه المعمورة فتخلق أمماً جديدة وتغير من طبيعة السياسة الدولية . وهذا التغيير الزاحف اقتصادى اجتماعى فى جذوره ، غير أن تقدمه يتميز ببعض الثورات السياسية . وها هى تلك الدول المستعمرة تنفض عنها أغلال الاستعمار وتحقق حرياتها ويمضى الاستعمار نحو نهايته . كما يتغير توزيع القوى بين الأمم الكبرى فى العالم ، وتقترب الفترة التى كان يسودها حكم الرجل الأبيض من نهايتها .

إننا نعيش بين حقبتين من حقب التاريخ . فقد ولدنا فى عالم وكتب علينا أن نموت فى عالم آخر ، وحياتنا هى الطريق التى تصل بين هذين العالمين ، والتى سنقف فيها بضع سنين

لنتمكن خلالها من أن نشاهد كلا منهما . ونحن نعيش فى وقت يكتنفه الاضطراب والتغير ، فنقضى معظم حياتنا فى حقبة من تلك الحقبة القصيرة لأجل الحقبة التى يمكن للمرء فيها أن يرى الماضى والمستقبل فى إطار واضح ، وأن يفطن إلى الاختلافات بينها . وأن يقتفى أسباب الاختلافات ومبرراتها .

أصبح العالم منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية تتنازعه فلسفتان : فلسفة الرأسمالية ، وهى تتلخص فى إطلاق العنان لحريات الأفراد الاقتصادية . وفلسفة الشيوعية التى ترمى إلى سيطرة الحكومة على وسائل الإنتاج فتختفى بذلك حريات الأفراد وراء جبروت الحكومة .

وبتأثير هاتين الفلسفتين العمليتين تكون فى العالم الآن معسكران عظيمان ، وهما المعسكر الرأسمالى وهو يضم دولا كثيرة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ، والمعسكر الشيوعى ، وهو يضم عدة دول وعلى رأسها روسيا السوفيتية .

وكل من هاتين الفلسفتين أو هذين المعسكرين تعمل وتحاول نشر مبادئها ونفوذها وسيطرتها على سائر أقطار العالم ، وكل منهما لا تستطيع أن تعيش مع الأخرى داخل دولة واحدة ، بل لا يمكن لهما أن تعيشا فى عالم واحد . فما دام كل منهما يرى ويعتبر الآخر عدوا يقف فى طريقه فلا بد من نشوب حرب عالمية ثالثة . وهى إن وقعت كارثة على العالم والمدنية .

لا يمكن أن توجد فى العالم هيئة دولية قوية تستطيع منع

الحرب وتدعيم السلم العالمى الدائم إلا بائتلاف النظريات والمبادئ المختلفة واندماجها فى بعض . ولكن من الصعب — إن لم يكن من المستحيل — أن يحصل الائتلاف بينها ، لتعارض أسس هذه المبادئ وأغراضها وأساليبها .

إن العلة ليست فى وجود هذه المبادئ والنظريات المختلفة فى العالم ، وإنما العلة هى فى وجود فكرة « عالمية النظام » وتخمر هذه الفكرة فى رؤوس بعض القادة والساسة ، فلا يضر المجتمع العالمى ولا الأسرة الدولية أن يطبق فى أمريكا مثلا النظام الرأسمالى، وفى روسيا النظام الشيوعى ، وفى إنجلترا أى نظام اشتراكى تراه مناسباً لها ، وأن يطبق فى سائر الأقطار الإسلامية الشريعة الإسلامية . وهكذا بالنسبة لبقية الدول الأخرى .

نعم إن العالم يتجه إلى الوحدة ، ولكنها ليست وحدة الحكم والإدارة ولا وحدة النظام والنظرية ، وإنما هى وحدة الهدف والغاية . وهى أن يعيش الجميع فى جو مشبع بالمحبة والوئام والإخاء الإنسانى العام ، وغيرها من عناصر السلم العالمى الدائم ، وأن يتمتع الجميع فى الحياة بالعدالة والرفاهية وبالرخاء الشامل للجميع .

فالحكومة العالمية — التى ذاعت فكرة إنشائها فى السنوات الأخيرة — ليس معناها إلغاء الحكومات الحالية وإدماجها جميعاً فى حكومة عالمية واحده موحدة ، وإنما معناها إقامة حكومة فوق الحكومات Superélatiques فالذى يضر ويعكر

صفو علاقات الدول ويؤدى إلى اضطراب أحوال المجتمع البشرى عموما هو استمرار بعض الدول فى استغلال البلدان الأخرى فى استعمارها وامتصاص محاصيلها وثرواتها ، وكل هذا نتيجة من نتائج فكرة « عالمية النظام » .

فالدواء الناجع لهذا الداء الخطير هو وقف فكرة « عالمية النظام » هذه ، وذلك بخلق مجتمع خاص فى كل قطر من أقطار العالم التى تتنازعها هذه الدول الكبرى الاستعمارية . ونعنى بالمجتمع الخاص ، المجتمع الذى لا يمكن أن تؤثر فيه عالمية الشيوعية ، ولا عالمية الرأسمالية . المجتمع الذى يتحقق فيه بفضل نظمه وأوضاعه الاقتصادية الرخاء والرفاهية لجميع أفراده، ويتدعم فيه السلام الاجتماعى والاستقرار السياسى . فيسير هذا المجتمع فى اتجاه واحد مع اتجاه هيئة الأمم المتحدة .

إلى جانب المعسكر الغربى ، والمعسكر الشرقى ، يوجد معسكر ثالث يمكن أن نسميه (معسكر الحياد) ، ومن المعروف أن عددا من دول الكتلة الآسيوية الأفريقية ومن ضمنها الوطن العربى ينتسبون إلى هذا المعسكر ، معسكر الحياد . ومعظم دول هذا المعسكر تجمعهم مصلحة واحدة فى البقاء على الحياد من الصراع الدائر بين المعسكر الغربى والمعسكر الشرقى ، فهل معنى هذا أن دول معسكر الحياد الذى تجمعهم مصلحة واحدة يؤلفون « قومية واحدة » ؟

إنه من الواضح خطأ هذا الرأى ، والسبب فى خطأه واضح

أيضا ، فلا بدّ أن يكون هناك روابط أخرى إلى جانب رابطة المصلحة تشد الجماعات البشرية إلى بعضها البعض وتكوّن منها قوميات مختلفة متميزة .

إن الكفاح المشترك الواحد ، ووحدة الأخطار ، والمصلحة الواحدة فى التكتل ضدّ هذه الأخطار ، لا شك عامل هام فى إيجاد الترابط القومى، ولكننا لا يمكن أبداً أن نقول إن هذه المصلحة هى التى تخلق القومية . ولنتساءل بعد ذلك إذا كانت مصلحة التكتل ضدّ الأخطار ومصلحة الكفاح الموّحد هى التى تخلق القومية ، فمن المفروض إذن ، أن جميع الشعوب التى نالت استقلالها لم تعد تكون قوميات ، لأنها حسب المنطق السابق قد اجتازت مرحلة الكفاح الموحد ، والظروف التى تستلزم ضرورة التكتل والاتحاد ، أى أنه ليس هناك اليوم شىء اسمه قومية هندية، ولا شىء اسمه قومية صينية، ولا شىء اسمه قومية يوغسلافية .

وواضح أيضا خطأ هذا الرأى . إننا لا نستطيع أبداً أن نقول إن القومية الهولندية قد خلقت بفعل نضال الهولنديين ضد إسبانيا ، وإن القومية الإيطالية خلقت نتيجة نضال الإيطاليين ضد النمسا ، أو إن القومية الألمانية خلقت نتيجة نضال الألمان ضدّ النمسا وفرنسا والدنمرك . أو إن القومية العربية قد خلقت نتيجة نضال الحرب ضد بريطانيا وفرنسا وإسرائيل .

إن الذى تولد عن النضال المشترك ضد الأخطار التى

تحيط بالأمم هو نموّ الشعور القومى ، وهو تبلور الروح القومية ، وازدياد الوعى القومى . ولكنه ليس أبداً نشوء القوميات . ونحن لا ننكر هنا أهمية المصلحة الواحدة فى دعم الوحدة القومية لدى أية جماعة ، المصلحة فى العيش المشترك فى مجتمع قومى واحد تتكامل فيه مصالح الأفراد الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لمصلحة المجموع القومى . ولكن يتضح بجلاء من الأمثلة السابقة أن القومية لا يمكن أن تقوم أبداً على عامل المصلحة فقط . وإلا لوجب أن تندمج ثلاثة أرباع قوميات العالم فى قومية واحدة . كما لا يمكن أن تقوم على عامل اللغة فقط ، وإلاّ لوجب أن تكون أمريكا وبريطانيا قومية واحدة ، وأن تكون سويسرا ثلاث قوميات مختلفة ، وأن تكون بلجيكا قوميتين مختلفتين .

إن القومية هى الواقع التاريخى الناشئ عن تفاعل عوامل اللغة والتاريخ والأرض والثقافة والمصالح تفاعلا تاريخيا ، ولا يمكن أن تنشأ عن رابط واحد من هذه الروابط بالنسبة لكل قومية فقد يكون عامل المصلحة هو عامل هام فى إيجادها فى بعض القوميات ، وقد تكون عوامل اللغة والتاريخ والثقافة هى الأهم بكثير فى قوميات أخرى ، كما بالنسبة للقومية العربية ، ولكن الثابت أن هذه الروابط القومية ، لا يمكن أن يخلق منها أى منها بمفرده قومية متميزة .

وكما أن المصلحة السياسية فى التكتل ضد الأخطار ، وفى

الكفاح الموحد لا تخلق القومية العربية ، فكذلك المصلحة الاقتصادية وحدها لا تخلق القومية العربية أبدا .

نحن الآن ، أمام قوتين : قوة الاستعمار الذى ما زالت تمثله إنجلترا وفرنسا وهولندا والروسيا وأمريكا . وبين قوة القومية الجديدة التى تحاول أن تكون استمرارا لكل المثل العليا .

فقد يعتقد الأمريكيون أن العالم منقسم قسمين : قسم شيوعى وقسم ديمقراطى (كما يسمونه) . ولكن المسألة عند العرب والشرقيين ليست كذلك ، فالعالم عنـــدهم ينقسم قسمين : قسم مستعمر يريد أن يستعبد الناس سياسيا واقتصاديا وقسم آخر متحرر يريد أن يكافح الاستعمار فى كافة صوره . وفى هذا الجهاد بين الاستعمار وبين القوة الجديدة ظهرت هذه القومية الجديدة التى نريد أن نقف عندها وقفة أخيرة حتى نتعرف موقفنا نحن فى هذا العالم الجديد .

كتب المؤرخ (هانز كوهن) كتاباً بعنوان (المدنية الغربية فى الشرق الأدنى) يصوّر العلاقات بين أوربا وبين بلاد الشرق الأدنى على أنها مادية من ناحية التجارة والاستغلال الاقتصادى وكان هذا ما تهدف إليه البلاد الأوربية ، ويصوّر هذه العلاقة على أنها ثقافية من ناحية التعلم والتقدم الروحى والتشبع بالمبادئ الدستورية وأصول الحرية التى كان الأوربيون ينادون بها فى بلادهم . وفى هذا كثير من الصواب . ولا عجب أن يتأثر المصريون أو السوريون أو الإيرانيون بمبادئ الحرية حين يرون

بلادهم نهبا للأجانب . ولما كان هناك تناقض فى هذه العلاقة فقد حدثت الثورات التى قامت بها بلاد الشرق الأدنى ضد احتلال بلادهم فإذا كان على بلادهم حكام منهم يعاونون المستعمر أو يعاونهم المستعمر على حكم بلادهم ثار الشعب ضد الحاكم والمستعمر فى وقت واحد ، وكان سلاح الشعب الروحى فى كل ذلك هى تلك المبادئ الديمقراطية والاستقلالية التى تعلموها من الثورة الفرنسية أو الدستور الإنجليزى أو إعلان الاستقلال فى أمريكا . ولا زالت هذه العلاقة ذات الوجهين قائمة اليوم فى صراعنا مع قوات الاستعمار التى تتربص بنا الدوائر .

فى هذه الساعة الحاسمة التى يبدو فيها العالم منقسم إلى معسكرين مشتبكين فى صراع مميت ، يحاول كل منهما جهد طاقته أن يستميل العالم العربى إلى جانبه لسببين رئيسيين : أولهما موقعه الاستراتيجى الذى يحتمل أن يشن منه أى منهما هجومه الماحق أو يبنى فيه وسائل دفاعه . وثانيهما موارده الطبيعية وعلى الأخص البترول أعظم الموارد الطبيعية أهمية فى زمن الحرب أو فى فترة الاستعداد للحرب . وينظر الفرد العربى إلى المعسكرين ولسان حاله يقول : قاتل الله الطرفين .

إن العرب يكرهون الأجانب ليس لأنهم أجانب ، بل بسبب تجاربهم مع هؤلاء الأجانب ، وبسبب خوفهم منهم . وقد كان العرب يسيرون مع دول أوربا على أكثر من طريق

واحد ، كما شوهد خلال الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى فقد تعاونوا مع المسيحيين ضد العثمانيين إخوانهم في الدين : وعلى الرغم من خيبة آمالهم المريرة بالحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى ، وبالرغم من تجربتهم القاسية للإدارة البريطانية والفرنسية الاستعمارية ، فقد انضموا إلى الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ، ولكنهم ما عتموا أن وجدوا الحلفاء يضحون بهم في سبيل العصابات الصهيونية .

كانت سنوات ما بين الحربين ، سنوات نضال شنته العروبة ضد السياسة البريطانية والصهيونية . وكان البريطانيون يملكون القوة المادية والسياسية لفرض خططهم ، وكان الصهيونيون يملكون المهارة في استغلال الجانب العاطفي والإنساني من الرأي العام الغربي . أما العرب فلم يكونوا يملكون غير الحق .

ظن العرب أن الولايات المتحدة الأمريكية قد تكون أكثر إنصافا ، باعتبار أنها كانت حاملة لواء حقوق الإنسان والشعوب ، والمدافعة عن العدالة ، والمنادية بتطبيق المبادئ الأخلاقية في المحادثات والعلاقات الدولية . ولكن العرب سرعان ما شعروا بخيبة الأمل فتحولت مرارة العرب التي كانت موجهة في السابق نحو الإنجليز إلى الولايات المتحدة ، ولقد أصبحت مشكلة فلسطين رمزًا لعدم نضج الغرب ، وبخاصة أمريكا ، وسوء نواياهم جميعا في العلاقات الدولية .

ومما قوى هذا الاعتقاد الطريقة التي عالجت بها دول الغرب

عامة ، والولايات المتحدة الأمريكية خاصة المشكلة الفلسطينية ، فقد أهملت فرض قرارات هيئة الأمم المتحدة المتعلقة بفلسطين بمثل الهمة والحماسة التى فرضت بها قرار الأمم المتحدة حول كوريا . ولم تقم بأية محاولة لتنفيذ قرار التقسيم الأصلى الذى أقرته هيئة الأمم المتحدة ، ولضمان تدويل منطقة القدس ، ولتطبيق القرارات المتعلقة باللاجئين العرب . ولم تبد أى ميل إلى فصل سياستها العربية العامة عن سياستها الإسرائيلية ..

كتب الدكتور نبيه فارس ، اللبنانى الجنسية ، مقالا فى مجلة (لايف) الأمريكية تحدث فيه عن الوسائل التى يمكن للولايات ايتحدة أن تتبعها لتكسب صداقة العرب ، وهى :

أولا : يجب أن توضح الولايات المتحدة لحليفتيها بريطانيا وفرنسا بأنهما يجب ألا يؤملا فى مساعدتها وتأييدها فى سياسات لا تتفق ومبادئ الديموقراطية الأمريكية وتؤدى إلى قمع أمانى العرب القومية .

ثانيا : يجب على الولايات المتحدة الأمريكية أن توالى إسداء المعونة المادية والفنية للشرق الأوسط دون أن تكون هذه المعونة مرتبطة بأية غاية أخرى حتى لا تتخذ طابع مساومة عند قوم عرفوا بحنكتهم التجارية وحذقهم فى المساومة .

ثالثا : يجب على الولايات المتحدة أن تحاول إصلاح سياستها الفلسطينية الخاطئة الخطرة ، وذلك بتطبيق قرارات هيئة الأمم المتحدة حول فلسطين والمتعلقة بحدود إسرائيل وتدويل

منطقة القدس و إعادة اللاجئين العرب إلى وطنهم أو تعويضهم عن أملاكهم . وإذا لم تستطع أن تفعل ذلك فبإمكانها ، على الأقل ، أن تمهد الطريق كل من الحلول مبنى على العدالة والديموقراطية .

وخلاصة القول : ليست الإنسانية أمما وقبائل، أومعسكرات وأحلافاً ، أو هيئات ومنظمات . وليست كلمات وخيالات ، أو نظريات وفلسفات . وليست سيطرة مذهب من المذاهب ، أو غلبة دولة من الدول . وإنما هى وحدة عالمية شاملة ذات حضارة إنسانية جامعة ، تقوم أركانها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعالمية على المواطن العالمى الصالح ، ولخير كل فرد من الشعب العالمى الواحد .

ولا سبيل إلى نشر السلام إلا بإعداد النفوس لقبول الأوضاع الدولية الجديدة التى يجب أن يتجه إليها العالم كافة ، لأن العلاقات بين الشعوب قد أفسدها عدم التفاهم وسوء الظن وضيق الإدراك فى أن الأرض متسعة للجميع ، والجهل بكفاية خيرات الطبيعة ومقدرتها لسد حاجيات الجميع .

ويرجع منشأ ذلك كله إلى ظلام الجهل الذى ساد ولا يزال يسود الآن معظم المجتمعات البشرية فى الشرق والغرب . ومانقصده بالجهل هنا ليس الجهل العادى المعروف فحسب ، بل الجهل العام بإمكان الحياة السليمة للمجتمعات البشرية وبطرق تحقيقه ذلك ، وبأن التماسك والترابط بين الشعوب لا يقوم على الماديات

وحدها ، بل هناك الترابط المعنوى والأدبى والثقافى الذى يقوم على حسن التفاهم وتبادل الثقة والمنافع .

كان أفراد المجتمع فيما مضى ينقسمون إلى ثلاثة أقسام إزاء الحركات الوطنية أو القومية . فريق لا يبالون بها وقد يظاهرونها بأقوالهم لا بأعمالهم وتصرفاتهم . وفريق يعارضونها ويعرقلونها بأعمالهم وتصرفاتهم . وفريق وهم المخلصون يكرسون أموالهم وأوقاتهم وحياتهم لها ويستميتون فيها . وبديهى أن هذا الانقسام بين أفراد مجتمع واحد وضع غير طبيعى . ولكن الحركات الوطنية القومية أصبحت تمس جميع ميادين الحياة وتهم جميع أفراد المجتمع ، وبخاصة وأننا العرب نهدف إلى حركة وطنية قومية واسعة ، تقوم على مبادئ إنسانية عامة تتمشى مع اتجاه الأسرة الدولية ، وتعمل على تحقيق مصالح جميع سكان العالم المشتركة .

وغنى عن البيان آن اشتراك الجميع فى الحركة سيكون فيهم رأيا عاما صحيحا ناضجا وهو أساس تكوين الرأى العالمى الناضج ، وللرأى العام شأن أكبر فى توطيد العلاقات وتدعيمها بين الأفراد وبين الدول .

هذه هى رسالة الوطن العربى فى بعثه الجديد ، وستكون رسالة كل وطن وكل إنسان . ونحن العرب فئة من البشر آمنت برسالتها الإنسانية ، ووجدت لزاماً عليها أن تضع يدها فى أيدى المؤمنين مثلها حتى يسيروا جميعا صفا واحدا فى الموكب الإنسانى العظيم ، فنحن لا نبغى أن نجر أحد وراءنا ، ولا نقبل أن

يجرّنا غيرنا وراءه ، وإنما سنسير جميعا على قدم المساواة .

فوحدة المجتمع البشرى ستقوم على وعى عالمى ، ورغبة عند جميع الأمم ، وتكيف لمقتضياتها ، وتعاون حرّ على تحقيقها ، وتشكيلها على هيئة تعامل كل جماعة من الناس على قدم المساواة ، وتضم كل فرد من البشر . وهذه هى رسالتنا الإنسانية إلى العالم .

فهرس

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع

أغسطس ١٩٦٠ الثمن ٣٠ مليما

اقرأ

مصطفى الشهابي

الألعاب الأولمبية

دار المعارف بمصر

الألعاب الأولمبيّة

مصطفى الشهابى

الألعاب الأولمبية

اقرأ ٢١٣

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢١٣ – سبتمبر ١٩٦٠

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ٥ شارع ماسبيرو – القاهرة ج. ع. م.

فهرست

مقـــدمة

الرياضة البدنية غريزة فى الإنسان تخلق معه عند ولادته ، فالطفل فى مهده عند ما يحرك يديه ورجليه ، أو يقذف بما فى يده أو عند ما يحاول أن يحبو ، وأن يقف على ساقيه ليمشى ، إنما يقوم بعمليات رياضية تناسب سنه المبكرة .

فإذا شب عن الطوق بدأ يجرى ويلعب وحده أو مع أقرانه ألعاباً بسيطة ،

وعند ما يتوجه إلى المدرسة ، يبدأ فى دراسة الألعاب المنتظمة ، وقد تستهويه إحدى اللعبات ، فيوليها اهتمامه ويشغل بها أوقات فراغه ، فينبغ فيها وقد يصير من أبطالها .

الإنسان الأول كان رياضياً رغم أنفه :

وعند ما وجد الإنسان على ظهر الأرض أجبرته الظروف المحيطة به على أن يكون رياضياً ، فحياته وسط الوحوش الكاسرة أرغمته على الجرى وتسلق الأشجار فراراً منها ، واحتاج لصيد بعض الحيوانات ليأكلها ويستفيد بجلودها ووبرها وأصوافها ،

فكان يعدو وراء الضعيف منها كالغزلان أو يرميها بحجر ضخم، ثم صنع الهراوة والحربة والبلطة ، وأخيراً صنع القوس والسهم ، وبذلك تعلم الرماية . أما الأسماك فكان يصيدها بالحربة والشوكة ذات الأسنان ، ثم الخطاف وأخيراً الشبكة ، واحتاج لعبور المجارى المائية فتعلم السباحة .

وكان قانون الغاب هو دستور الحياة فى العصور الأولى ، فالقوى يأكل ويعيش والضعيف يجوع ويموت أو يصرعه غيره طمعاً فيما لديه أو تخلصاً منه ، لذلك اضطر الإنسان إلى الدفاع عن نفسه وعن أسرته بشتى الوسائل ، وبحث عن وسائل الوقاية فوجدها فى العدو ، وفكر فى طرق الدفاع فوجدها فى الملاكمة والمصارعة وغيرها من الطرق التى كانت تناسب تلك العصور .

أثر الحياة الزراعية فى نشوء الرياضة :

ولما اهتدى الإنسان إلى الزراعة اضطر إلى حياة الاستقرار وأنشأ القرى ثم المدن .

وبمضى الأيام شعرت تلك القرى والمدن بحاجتها إلى التعاون وتبادل المنفعة والاتحاد لرد غارات الأعداء ، فتكونت المقاطعات أو الإمارات ثم الدول .

واحتاجت تلك الجماعات إلى ما يرفه عنها عناء أعمالها اليومية ، فكان أبناؤها يقيمون الألعاب الجماعية والحفلات الموسمية فى أيام الحصاد .

وفى تلك الحفلات أقاموا المباريات الرياضية ، التى هذبت ونظمت على مر الأيام .

الرياضة ربيبة الدين :

كانت الحياة البدائية لمختلف الشعوب القديمة تكتنفها الأخطار العديدة ، وقلما جاءت المنية أحد الأفراد فى العصور السحيقة عن طريق الشيخوخة الطبيعية ، بل كان أكثرهم يقضى نحبه بمرض غريب يفتك به ، أو إثر كارثة يصاب بها . ولم يدرك الأنسان البدائى أن الموت ظاهرة طبيعية ، فحار فى تعليل أسبابه .

ورأى فى أحلامه أشخاصاً فارقوا الحياة أمامه ، وربما واراهم التراب بنفسه، فحار فى تلك الظاهرة ، وانتهت حيرته إلى أن لكل كائن حى روحاً ، وأن أرواح الموتى تحلق فى المناطق التى كانت تقيم بها قبل الوفاة ، وأن الأرواح تراقب أعمال الأحياء .

وأثار عجبه ودهشته رؤيته الشمس تشرق وتغرب ، والبرق

يصعق الأحياء ، والريح تهب عاصفة فتسقط الأشجار والثمار ، والأنهار تجرى ، والأشجار تنمو ، والنار تحرق ، إلى غير ذلك.. وانتهى به تفكيره إلى أن وراء كل أولئك قوة تحركها هى الأرواح !

وهكذا وجد الإنسان نفسه فى عالم تسيطر الأرواح على كل شىء فيه ، فأخذ يتقرب إليها ويعبدها جلباً لرضاها أو اتقاء لغضبها . وبالتدريج صارت تلك الأرواح آلهة ، ثم أخذ الكهنة ينسجون حولها الأساطير والقصص الخرافية ، ولقنوها للناس من غير تفسير ، ودفعوهم إلى إقامة حفلات دينية تقرباً لها. وبمضى الأيام أدمجت فى الحفلات الشعبية ، وكان طبيعياً أن يشرف رجال الدين عليها وأن تتخذ صفة القداسة .

وتعددت الأساطير عن الآلهة وأشباه الآلهة ، وكلها تنسب إليهم البطولة والشجاعة والانتصار فى الحروب والفوز فى المسابقات ، مما حبب الرياضة إلى النفوس ، فنهضت الألعاب الرياضية . وأذكت العقائد الدينية تلك النهضة وأسبغت عليها الإجلال والتكريم ، حتى أصبحت العناية بالأجسام واجباً دينياً عند بعض الشعوب كاليونان .

الفصل الأول

الرياضة فى العصور القديمة

ا ـ عند الفراعنة

تدل النقوش الموجودة على الآثار الفرعونية على أن الألعاب الرياضية كانت شائعة بين المصريين جميعاً بمختلف طبقاتهم وأعمارهم ، وأنهم كانوا يمارسونها كجزء من حياتهم اليومية سعياً وراء الصحة ورشاقة الجسم ـ فقد كان السمن مكروها ـ ولذلك كان المصريون أصحاء الأجسام أقوياء البنية لم يعرفوا إلا القليل من الأمراض . ولا شك أن الذين رفعوا تلك الأحجار الضخمة إلى أماكنها الشاهقة فى الأهرام والمعابد كانوا ذوى سواعد حديدية وقوة خارقة . .

وقد وجدت فى مقابر بنى حسن نقوش تثبت أنها كانت تضم رفات « امينمحعت » أمير مقاطعة الوعل ووزير المالية وكبير الكتاب و « مدير الرياضة » فى عهد سنوسرت الثانى أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة (١٩٠٦ ـ ١٨٨٧ ق . م) .

ومن لقب « مدير الرياضة » نستنتج أنه كانت فى مصر فى ذلك العهد رياضة منظمة وملاعب ومنشآت رياضية على نطاق واسع يشرف عليها هذا الأمير .

وفيما يلى بيان الألعاب التى كانوا يمارسونها :

الألعاب المنزلية :

كانت تؤدى إما فى الهواء الطلق خارج المساكن وإما فى أفنية الدور ، وأهمها :

١ ــ ألعاب الكرة : كانت من الألعاب الشائعة بين النساء وفيها تتبادل لاعبتان ثلاث كرات معاً بسرعة أو تقوم الفتاة باللعب بكرات ثلاث على نحو ما يفعل الحواة .

وقد ذكر هوميروس أن اليونانيين أخذوا هذه اللعبة من قدماء المصريين .

٢ ــ لعبة الكؤوس : وهى عبارة عن وضع كرة تحت إحدى أربع كؤوس مقلوبة ، ويراهن أحد اللاعبين زميله على الكأس التى تحتها الكرة .

٣ ــ لعبة الجديد : وهى أن يخفى أحد اللاعبين حصاة أو ماشابهها فى إحدى يديه ، ويخمن لاعب آخر على اليد التى فيها الحصاة.

٤ ـ لعبة الضامة : وكانت معروفة ومنتشرة ، ولكن طريقة لعبها وقتئذ لم تعرف بالضبط .

الألعاب الحلوية :

وكانت تمارس فى مواسم معينة كموسم جمع العنب وصنع الخمور ،وفيها يقوم الشبان بألعاب عديدة ما زال بعضها باقياً إلى اليوم ، مثل لعبة « التحطية » التى يلعبها أطفال الفلاحين .

وهناك لعبة السير على الأكتاف ، وفيها يسير شاب على أربع فوق أكتاف أصحابه ، فإذا ما وصل إلى الأمام بدأ الشاب الأخير فى الصف بالسير فوق أكتاف الآخرين وهكذا .

الصيد :

صيد السمك : وكان من الرياضات المفضلة ، وقد شجع عليه وجود نهر النيل ووفرة المستنقعات والبرك عقب الفيضان وكثرة الأسماك بها . وقد اعتاد سراة مصر القديمة أن يرتدوا للصيد بزة خاصة ويخرجوا له فى قوارب صغيرة مصطحبين معهم أحياناً بعض أفراد أسرتهم وأخذ الخدم .

وكانت طريقة الصيد هى استعمال عصا غليظة مقوسة بطريقة خاصة ، فإذا تراءت للصائد سمكة ضربها بالعصا فأصيبت بالإغماء وطفت على سطح الماء فطعنها بحربة والتقطها .

صيد التمساح : وفى بعض المستنقعات والبرك كان نبات البردى ينمو بكثرة فيهيئ مأوى صالحاً لإقامة الطيور المائية وأفراس النهر والتماسيح ، وقد أقبل سراة مصر القديمة على صيد التماسيح .

الصيد فى الصحراء : فى تلك العصور كانت الصحراء حافلة بالوحوش والطيور ، ولذلك كان الملك ورجال البلاط يخرجون للصيد فيها مصطحبين كلابهم .

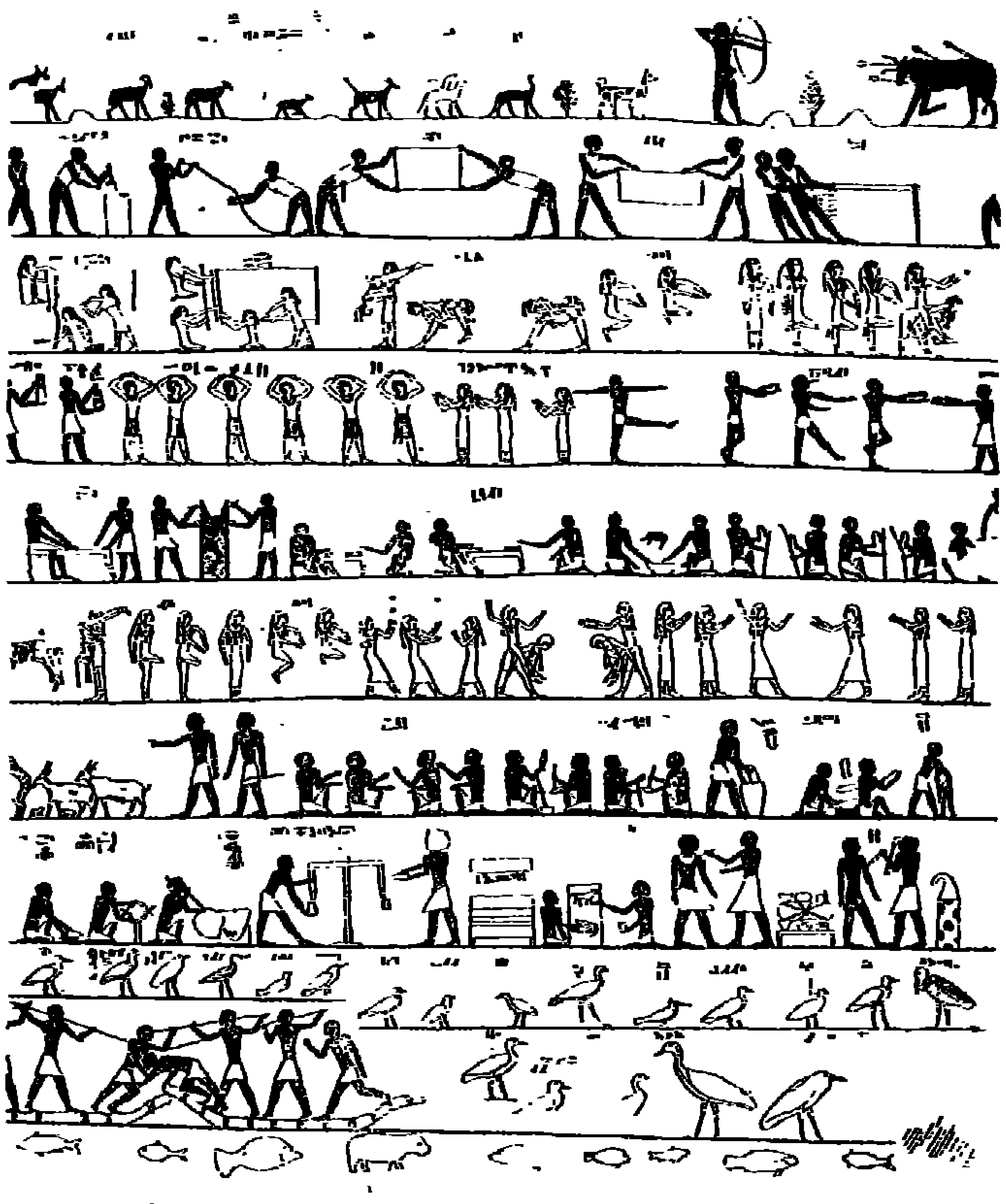
الرقص : كانت تقوم به النساء غالبا لما يحتاجه من رشاقة وكان على أنواع عدة أهمها :

١ ــ الرقص البهلوانى : وكان يتكون من حركات عدة كالقفز وثنى الجسم والوقوف على ساق واحدة .

٢ ــ رقص الباليه : وهو يشابه الباليه الحالى إلى حد كبير ، وفيه ينتظم عدد من الفتيات فى صف واحد ويقمن بحركات رياضية بديعة .

وأولع الفراعنة بهذا الرقص ، حتى إنه لم تكن تقام حفلة دينية أو تمثيلية إلا وكان ركناً أساسياً فيها .

الجمباز : كان أشبه كثيراً بالحركات الجمبازية التى يعملونها بالمدارس الآن ، كمد الذراعين إلى أعلى ثم ثنى إحدى



الرياضة عند الفراعنة كما توضحها النقوش الموجودة فى بنى حسن (المنيا)

الساقين إلى الوراء ، وغير ذلك من التمرينات .

المصارعة : وكانت لها أصول مرعية ، وتوجد بمقابر بنى حسن رسوم مائتين وعشرين حركة تمثلها ، وكان هناك عدد من المدربين المحترفين مهمتهم السهر على تدريب الشبان الرياضيين عليها .

مصارعة الثيران : عرف المصريون القدماء هذا الضرب من الرياضة ، غير أن مصارعيهم لم يستعملوا تلك القطعة الحمراء من القماش التى يلوح بها مصارعو إسبانيا وغيرهم للثور لإهاجته ، ولا السيوف الرفيعة الماضية التى يطعنونه بها فى رقبته حتى يصرعوه ، بل كانوا ينازلون الثور بأيديهم عزلاء من السلاح ، فيقبضون على قرنيه ويلوون عنقه حتى يطرحوه أرضاً .

المبارزة بالعصى : وهذه اللعبة هى التى تطورت إلى المبارزة الأوربية المعروفة اليوم باسم « الشيش » ، وكان يلعبها الرجال والنساء . وأداتها عصا قصيرة ودرع مثبتة بخيوط أو سيوز من الجلد فى ساعد اليد الأخرى لتوقى ضربات الخصم وحماية الأصابع ، كما كان لليد التى تمسك العصا قفاز أو ما شابهه لوقايتها كما فى لعبة الشيش ، وهذه اللعبة لا زالت إلى وقتنا هذا لعبة أبناء الصعيد المفضلة وهوايتهم المستحبة ، ويسمونها « التحطيب » .

السباحة : لا شك أن وجود النيل فى قلب الأراضى المصرية وقيام المدن على شاطئيه ، من الدوافع التى جعلت المصريين يهتمون بالسباحة ويقبلون عليها ويفرضها الآباء على الأبناء ، ويعلمونهم طرق التخلص من التماسيح وأفراس النهر التى كانت تمرح فى مياه النيل .

رفع الأثقال : اصطنع الفراعنة لهذه اللعبة أكياساً يملأونها رملا أو ما يماثله بكمية قليلة ، تزاد تدريجياً ، يرفعها الشخص بيد واحدة إلى ما فوق الرأس أو يطوح بها أو يدور بها حول وسطه ، أو يحمل بكل يد كيساً أو كيسين .

توت عنخ آمون مثال الملك الرياضى :

خصص مستر كارتر مكتشف قبر توت عنخ آمون فصلا عن هذا الملك (وهو أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة — ١٣٥٨ ق . م .) أشاد فيه بحبه للرياضة ، وذكر أنه كان يهوى الصيد ويخرج كل يوم إلى الصحراء والسهول ممتطياً مركبته الملكية تجرها الجياد السريعة ومعه قوسه وسهامه وكلابه ليقضى ساعات طويلة فى مطاردة الحيوانات البرية والوحوش ، فإذا رأى واحداً منها رماه بسهم صائب .

وذكر مستر كارتر أيضاً أن الموظفين كانوا يسيرون على

نهج ملكهم ، إذ كانوا يمارسون الألعاب الرياضية فى الأصيل عند ما تنكسر حدة الشمس وتكون دواوين الحكومة مغلقة .

المهرجانات الرياضية فى عهد الفراعنة :

وقد بلغ من اهتمام المصريين بالرياضة أنهم كانوا يقيمون مهرجانات عامة يجتمع فيها مهرة اللاعبين من أبناء مصر ليتباروا فيها مع الرياضيين من أبناء الدول الصديقة ويمنح فيها الفائز جوائز ثمينة تقديراً لتفوقه وتشجيعاً للآخرين على منافسته ، وهذه المهرجانات يمكن اعتبارها المصدر الذى نقلت عنه الألعاب الأولمبية.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن رمسيس الثالث (١١٩٨ — ١١٦٧ ق . م .) هو أول من أقام تلك المهرجانات التى كانت تقام ابتهاجاً بانتصاراته ، ويدعو إليها حلفاءه الذين ساعدوه فيما قام به من حروب .

وكان اللاعب الفائز فى هذه الحفلات ينحنى للحكام ثم يحيى فرعون مصر الذى كان ينطق حينئذ مخاطبا إياه : « تقدم ، تقدم ، يا خير المحاربين ! »

وفى أوائل صيف سنة ١٩٥٦ زار مصر مستر أفرى برانديج Avery Brandage رئيس اللجنة الأولمبية الدولية ، وطاف

ببعض الآثار المصرية ، وفى طليعتها مقابر بنى حسن ورأى ما بها من رسوم رياضية ، فقال عند عودته : « أغادر مصر وفى حقيبتى أعظم المستندات على سبق المدنية المصرية لكل المدنيات فى ميدان الرياضة »

ولعل ما وقع فيه كثير من المؤرخين من الخطأ فى نسبة فخر ابتكار الألعاب الأولمبية لليونان يرجع إلى ما قام به اليونانيون من دعاية كبيرة لألعابهم ، وإلى أن تلك الألعاب استمرت عندهم عدة قرون ، وصادف ذلك ازدهار المدنية اليونانية فى الوقت الذى كانت فيه مصر تكافح الأشوريين والفرس وغيرهم.

انتقال الألعاب الرياضية المصرية إلى اليونان :

اقتبس اليونان كثيراً من عناصر حضارتهم من دول البحر المتوسط ، ومنها مصر . ولا شك أن من زاروا مصر من اليونانيين لم يكتفوا بما تعلموه فيها من علم وفنون ، بل نقلوا منها إلى بلادهم ما شاهدوه من ألعاب كان يمارسها المصريون فى تلك العصور .

وجاء الرومان — بعد اليونان — فاقتبسوا بعض الألعاب وهذبوا بعضها للتخفيف من خطورتها كالمصارعة المعروفة باسم جريكو رومان أو المصارعة الرومانية .

ولكن قدماء المؤرخين من اليونان أو من الرومان ممن دونوا تاريخ الدورات الأولمبية القديمة نسبوها لليونان وللرومان ، ولم يسجلوا ما لمدنية الفراعنة الرياضية من حق على ألعابهم ودوراتهم وأوضاعها ، غير أن الفراعنة لم يضرهم هذا النكران حتى وهم فى قبورهم ، فها هى آثار بنى حسن وغيرها لا تزال قائمة تشهد برموزها ونقوشها على أن الفراعنة هم أصحاب الفضل الأول على الرياضة وعلى الألعاب الأولمبية .

ب — عند اليونان

اعتقد اليونان أن هناك عدة آلهة يمكن تقسيمها إلى قسمين رئيسيين :

أولا : آلهة موغلة فى القدم وأهمها : كرونس Kronos والد « زيوس » كبير الآلهة ، ويقابله عند الرومان Saturn وهو إله الزراعة والحصاد .

ثانياً : آلهة جبل أوليمبوس Olympus الموجود بين مقاطعة تساليا ومقدونيا ، وهم اثنا عشر أهمهم :

١ — زيوس إله السماء ، ويقابله جوبيتر Jupeter عند الرومان .

٢ — بوزيدون Poseidon إله البحار ، وهو نبتون عند الرومان .

٣ — أپولون إله الموسيقى والشعر . ويقابله أپولو عند الرومان

٤ — أفروديت Aphrodite إلهة الجمال . وهى ڤينوس Venus عند الرومان .

٥ — أريس Ares إله الحرب . ويقابله مارس Mars عند الرومان .

وإلى جانب تلك الآلهة رفع اليونان عدداً من الأبطال إلى مصاف أنصاف الآلهة لقيامهم بأعمال مجيدة مثل هرقل Hercules .

وكانت وسيلة اليونانيين لتكريم آلهتهم هى إقامة التماثيل المختلفة للسجود أمامها والرقص حولها وتقديم القرابين لها ، وإنشاء المعابد التى تضمها .

وفى تلك المعابد أقيمت الحفلات الدينية التى تضمنت بعض التمثيليات والرقص ، ثم تطور الرقص إلى حركات رياضية فمباريات لها قواعد وأصول وأهداف .

وساد الاعتقاد بين الرياضيين بأن انتصاراتهم تقربهم من الآلهة ، وأصبح حضور المباريات الرياضية أمراً مقدساً لدى الجميع ، حتى الفقراء لم يحرموا من رؤيتها إذ خصصت أموال معينة لتمكينهم من مشاهدتها .

ولما اتسعت بلاد اليونان وظهرت فيها طبقات أرستقراطية

تعيش بين جماعات من الرقيق أكثر منها عدداً ، وعند ما كثر أعداء اليونان وتطلب الأمر رد المغيرين بين آن وآخر ، أصبح من الواجب أن يحافظ الشعب على قوته الجسمية ، فقد كانت الحرب فى تلك العصور تعتمد على القوة والمهارة ، وصار من العار على اليونانى أن يكون شاحب الوجه ضئيل الجسم ، وغدا الضعف الجثمانى فى بعض الظروف مبرراً للحرمان من الحقوق الوطنية . بل إن إسپرطة كانت تقتل كل طفل ضعيف الجسم .

لذلك أصبحت الرياضة جزءاً من حياة اليونانى ، فكان يزاول ألعاباً عديدة كالمصارعة والعدو والوثب وقذف الأقراص والكرة والرقص بالأسلحة وسباق المركبات والسباحة والهوكى والملاكمة وغيرها من الألعاب الصحية النافعة .

وكان لكل مدينة يونانية ملعبها الخاص ، وكانت الألعاب التى تقام فيه تهدى إلى الآلهة بعد تقديم الضحايا والقرابين وفقاً للطقوس الدينية المتبعة فى ذلك العهد .

وهكذا أصبح اليونانيون القدماء أكثر الشعوب شغفاً بالرياضة البدنية يعنون بها عناية لم تصل إلى درجتها أمة فى العصر الحاضر .

وكانت الألعاب اليونانية أنواعاً مختلفة : ألعاباً خاصة ،

وألعاباً محلية ، وألعاباً بلدية ، وألعاباً يونانية جامعة .

أما الألعاب الخاصة فهى التى كان يمارسها الأفراد فى أوقات فراغهم ، كالصيد وركوب الخيل والسباحة .

ومن تلك الألعاب الخاصة نشأت الألعاب المحلية التى أقيمت فى مناسبات معينة كالاحتفال بذكرى وفاة بطل كبير ، ثم نشأت بعدئذ الألعاب البلدية التى يمثل فيها المتبارون أماكن أو طوائف مختلفة فى داخل إحدى دول المدن .

وإذ كانت الألعاب الرياضية ضرورية للاستعداد للحرب ، فقد تعددت الجهات والمناسبات التى كانت تقام فيها ، غير أنها أخذت تتركز شيئاً فشيئاً واتخذت صفة الألعاب الجامعة حتى اقتصرت على الألعاب الآتية :

١ ـ الألعاب النيمية Nemean Games وكانت تقام فى نيميا Nemia بولاية آرجوس تكريماً لزيوس ، وقيل لذكرى مصرع أوفيلتيس Opheltes الطفل ، حفيد ليكورجوس ، إثر عضة ثعبان ، وفى رواية أخرى تكريماً لهرقل أحد أنصاف الآلهة لقتله وحشاً هائلا فى الغياض القريبة منها .

٢ ـ الألعاب البيثية : Pythean Games نسبة إلى بيثون Python الثعبان الضخم وتكريماً للإله أپولو الذى قتله قرب معبد أپولو ، وكانت تقام فى دلفى Delphi .

٣ ـــ الألعاب الكورنثية أو البرزخية Corinthianor Games تكريماً لبوزيدون Poseidon إله البحار وكانت تقام فى كورنث .

٤ ـــ الألعاب الأثينية العامة : Panathenaca ، وكانت تقام تكريماً للإلهة أثينا .

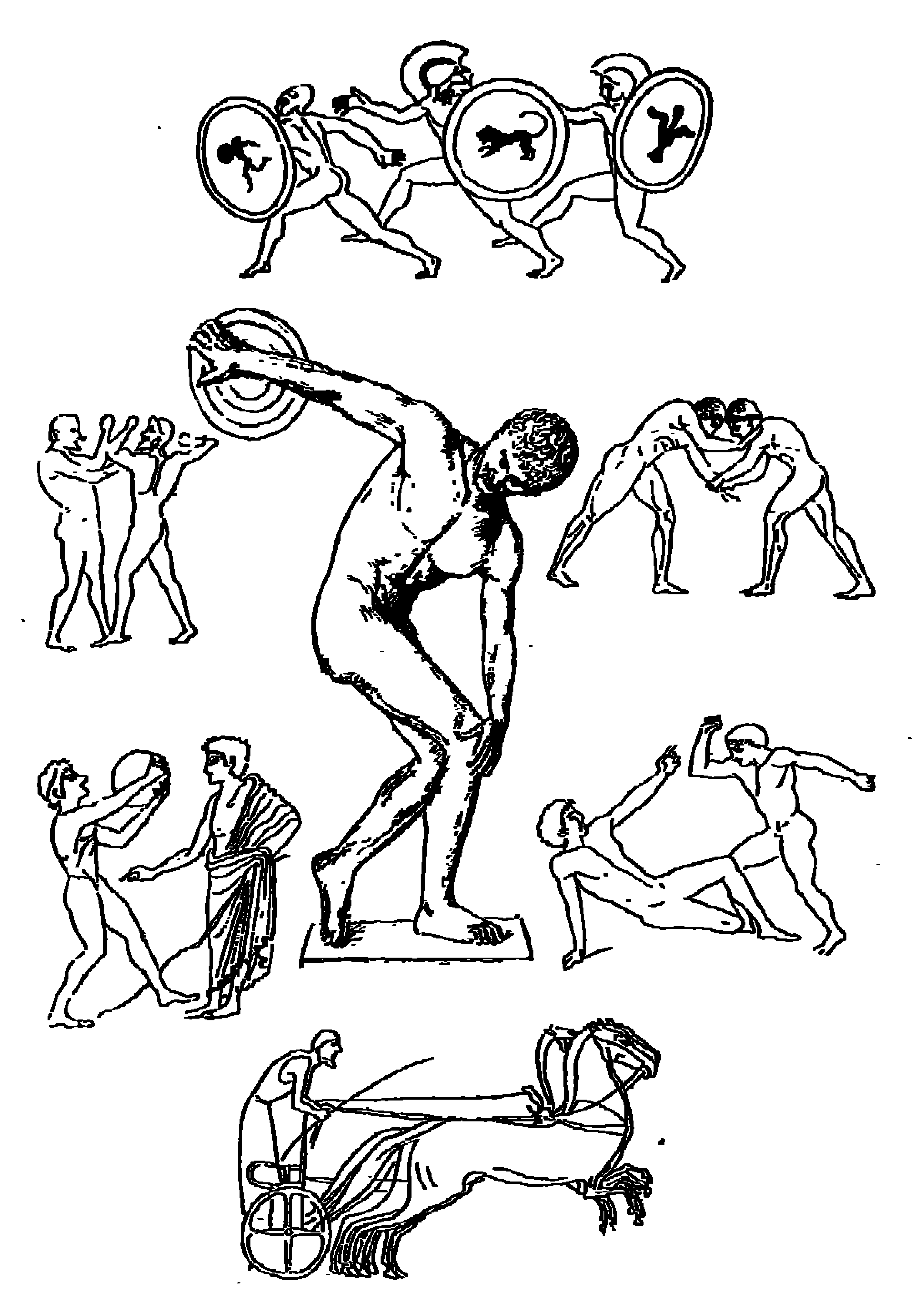
٥ ـــ الألعاب الأوليمبية ، وهى موضوع هذا الكتاب .

وقد كانت المباريات الرياضية فى جميع هذه الألعاب متشابهة ، وهى لا تعدو أن تكون صورة صغيرة للألعاب الأولمبية ، ثم تضاءل شأن الألعاب الأربع الأولى واقتصر اهتمام الشعوب اليونانية على الألعاب الأولمبية .

جـ ـــ عند الرومان

اقتبس الرومان كثيراً من معالم الحضارة اليونانية القديمة ، وأنشأوا الملاعب على غرار الملاعب اليونانية ، وأقاموا مباريات فى العدو والمصارعة والفروسية والمبارزة بالرماح واهتموا بالسباحة ، ومن أكبر المسابح التى بنيت فى روما القديمة مسبح « كاراكلا » الذى كان يتسع لأكثر من ١٦٠٠ سباح ، وعنوا بسباق العربات .

ولكنهم ابتكروا لتسلية أنفسهم « ألعاباً » وحشية ، كالمبارزة بالسيوف بين المحكوم عليهم بالإعدام أو بين العبيد ، ومتى وقع



الألعاب الرياضية عند اليونان

أحد المتبارزين على الأرض طلب الغالب من المتفرجين أن يقرروا مصير المغلوب ، فيصيحون صياحاً وحشياً ويشيرون بإبهامهم إلى الأرض دلالة على أنهم يريدون منه أن يجهز عليه ! وقلما كان المتفرجون يميلون إلى العفو .

وكان الرومان يتلذذون بمشاهدة الدماء تسفك فى تلك الملاعب ، ولذلك كانوا يقدمون المحكوم عليهم بالإعدام للحيوانات المفترسة ، ولما ظهرت المسيحية استشهد عدد كبير من المسيحيين بهذه الطريقة .

ولما أصبحت المسيحية الدين الرسمى للدولة الرومانية أبطلت تلك الطرق الهمجية .

د ـ عند العرب

لم تقف الصحارى المقفرة ولا الجبال العالية دون اتصال العرب بالأمم المجاورة لهم ، فاتصلوا بالفرس والهنود والفراعنة واليونان والرومان ، ونقلوا عنهم ضروباً عديدة من الرياضة ، ومن أهم الألعاب التى عرفها العرب :

الصيد :

بالسهم والقوس ، على الأقدام أو على ظهور الخيل ،

فكانوا يصيدون الأسود والذئاب والثعالب والغزلان والظباء . واستعانوا فى الصيد بالكلاب ، واشتهر من أنواع كلاب الصيد الكلاب« السلوقية » ، نسبة إلى قرية «سلوق» إحدى قرى اليمن .

وأحياناً كانوا يستأنسون الفهود ويستخدمونها فى الصيد ، أو يستخدمون الطيور الجارحة كالباز والصقر والعقاب فى صيد الحمام واليمام وأمثالهما ، ولا يزال هذا الضرب من الصيد مستعملا فى بعض البلاد العربية .

وتزخر كتب السير بالحديث عن ولع الخلفاء العرب بالصيد فى مختلف العصور ، وقد بلغ الصيد ذروته فى مصر فى عهد الفاطميين ، وبلغ من اهتمامهم به أن زينوا بمناظره المختلفة الكثير من آثارهم الخشبية والرخامية والخزفية والمعدنية وغيرها .

الفروسية :

كان الفتى العربى لا يكاد يصل إلى الثامنة حتى يتعلم ركوب الخيل ويتدرب على الفروسية ، وقد اشتهر من فرسان العرب : عنترة بن شداد العبسى وعمرو بن معد يكرب ودريد ابن الصمة وعمرو بن كلثوم .

ولما ظهر الإسلام ازداد الاهتمام بالفروسية ، وللرسول عليه السلام أحاديث كثيرة تحث عليها .

ومن أشهر الفرسان المسلمين أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب وحمزة بن عبد المطلب وخالد بن الوليد وطارق بن زياد.

وقد نقل الأوربيون الفروسية عن العرب حينما اتصلوا بهم فى الأندلس، إذ بهرهم ما امتاز به فرسان العرب من شجاعة وإقدام ومهارة .

وكانت للفروسية آداب ومناهج خاصة يتبعها العرب ، وقد اتبعها وزاد عليها المماليك فى مصر .

ومن الألعاب المتصلة بالفروسية :

١ ــ لعبة « الصولجان » ــ وهى لعبة « البولو » الحالية ــ وقد نقلها العرب عن الفرس ، وكان هارون الرشيد أول خليفة لعبها .

٢ ــ لعبة الجريد ، وقد ظلت سائدة فى سورية حتى عهد قريب .

٣ ــ سباق الخيل ، وقد عرفه العرب منذ الجاهلية ، وكثيراً ما قامت الحروب بين القبائل بسبب تفوق جياد إحداها على جياد الأخرى كحرب داحس والغبراء . وفى عهد الأمويين كان لسباق الخيل شأن عظيم . وقد اهتم العرب بالخيل ، ولا يزال

الجواد العربى مضرب الأمثال فى سرعته ، وأغلب الجياد الإنجليزية المشهورة فى السباقات من سلالة الجياد العربية .

الرمى :

وكان من أحب ضروب الرياضة عند العرب ، يفتخر أبطالهم بحذقه ويتبارون لنيل الغلبة فيه ، فهو وسيلة النصر فى الحرب .

المسابقة على الأقدام :

وقد شملت المشى العادى لمسافات طويلة ، والمشى السريع والعدو . وكان المشاة المحترفون يستخدمون لنقل البريد بين البلاد فى مختلف العصور .

سباق الإبل :

وكان مألوفاً لدى العرب يقيمونه بين إبلهم .

الصراع :

وهو ما يعرف اليوم باسم المصارعة ،

اللبخة :

هى اللعبة التى نعرفها نحن اليوم بالتحطيب لأننا نلعبها بالحطب أو العصا الغليظة (النبوت) ، وقد عرفها العرب باسم « اللبخة » لأنهم كانوا يتخذون عيدانها من شجر اللبخ .

الدحو :

وهو ما يعرف بالجولف اليوم ، وطريقة لعبه هى حفر « أدحية» — أى حفرة — ووضع سارية عليها ، ثم ضرب كرة خشبية أو « جوزة هند » بمدحاة — أى عصا طرفها كالهلال ، من مسافة بعيدة ، فإذا سقطت الكرة فى الحفرة عد ضاربها غالباً .

الربع :

أى حمل الأثقال ، التى كانت عبارة عن أحجار متفاوتة الأوزان . ولا تزال كلمة « الربع » مستعملة حتى الآن .

السباحة :

وعنى العرب المقيمون فى الجهات الساحلية أو على شواطئ الأنهار بالسباحة .

الفصل الثانى

الألعاب الأولمبية القديمة

تاريخها :

يمكن تقسيم الألعاب الأولمبية قسمين :

١ ـ الألعاب الأولمبية القديمة ، وهى تضم نوعين :

(ا) نوعاً قديماً جداً تاريخه غير واضح المعالم .

(ب) نوعاً معروفاً تاريخه ، ويبدأ سنة ٧٧٦ ق . م .

٢ ـ الألعاب الأولمبية الحديثة أو المعاصرة من ١٨٩٦ م .

الألعاب الأولمبية القديمة :

وقد تعددت الآراء فى بداية الألعاب الأولمبية ، غير أن البحوث التاريخية والحفائر التى وجدت فى سهل أولمبيا تثبت أن تلك الألعاب بدأت فى منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

وقد أحاط اليونانيون نشأة تلك الألعاب بأساطير عديدة ، فهذه أسطورة تذهب إلى أن هرقل Hercules[1] البطل اليونانى

---

(١) Hercules أو Heracles وهو أحد أبطال الأساطير اليونانية التى تزعم أنه ابن لزيوس Zeus كبير آلهة أولمبيا . وإلى هرقل تنسب أعمال خارقة منها أنه خنق ثعبانين هائلين وهو بعد طفل فى المهد، ولما كبر قتل عدداً كبيراً من الوحوش المفترسة ، هذا عدا تنظيف الاسطبلات المشار إليها هنا .

المشهور الذى يمثل قوة شباب أمته ، كلفه أحد الملوك بتنظيف اسطبلاته مما بها من أقذار حيوانات تراكمت فيها خلال ثلاثين عاماً ، وأن هرقل قبل القيام بهذه المهمة مشترطاً أن يعطَى عُشر هذه الحيوانات . فوعده الملك بتحقيق طلبه . وحول هرقل مجرى أحد الأنهار على الاسطبلات فاكتسحت مياهه ما بها من قاذورات ، وأتم ذلك كله فى يوم واحد ، ولكن الملك نقض وعده مدعيا أن هرقل أتلف الاسطبلات ، فثار هرقل وأعد جيشاً هاجم الملك وقتله هو وأولاده واستولى على ما بالاسطبلات من حيوانات ، بل واعتلى العرش مكان غريمه .

وفرحا بانتصاره نحر الذبائح للآلهة ، ونظم سباقاً فى العدو بين إخوته (وقيل أولاده) الأربعة سنة ١٢٥٣ ق . م . فى مكان انتصاره وتوج الفائز بأكاليل الغار ، وقرر أن يقام السباق كل أربعة أعوام .

وتروى أسطورة أخرى أن زيوس هو أول من أقام تلك الألعاب احتفالا بانتصاره على أبيه كرونوس عند ما قام بينهما الصراع حول السيادة على الأرض ، وأنه اختار لإقامتها سهل أولمبيا .

وأسطورة ثالثة تقول بأن تلك الألعاب تتصل باسم پيلوپس

ابن الملك تنتالوس Tentalos ملك ليديا ، إذ فر من Pelops مملكة أبيه لقسوته عليه ، وأنه فى خلال جولاته الطويلة وصل إلى بيزا Pisa التى كان يحكمها الملك أينوماوس Oinomaos ، وكانت لذلك الملك ابنة وحيدة فريدة فى الجمال اسمها هيپو داميا Hippodamia تهافت الخطاب على طلب يدها ، ولكن الكهنة تنبأت لهذا الملك بالموت على يد زوج ابنته ، ولذلك رفض تزويج وحيدته .

ولما كان مغرماً بسباق العربات فقد اشترط على من يتقدم لخطبتها أن يركب معها فى عربة ثم يتبعهما أبوها فى عربة أخرى ، فإذا لحقهما فمن حقه أن يطعن طالب الزواج بالرمح فى ظهره ليخر قتيلا جزاء إخفاقه فى هذا الامتحان الرهيب دون أن يقاومه الآخر ، أما إذا تمكن من الفرار بها فإنها تصير زوجة له . وهكذا قتل « أينوماوس » ثلاثة عشر خطيباً .

ولما كان پيلوپس قد أغرم بحب الأميرة فقد لجأ إلى الحيلة ، فرشا سائس عربة الملك ليخلع المسمار الرئيسى لإحدى عجلاتها — وقيل إن الابنة هى التى رشت السائس لأنها عشقت خطيبها — وزيادة فى إغرائه وعده پيلوپس بنصف مملكة أينوماوس .

فلما بدأت المطاردة خرجت عجلة الملك من مكانها وتحطمت العربة وقتل أينوماوس ، وهكذا فاز پيلوپس بعروسه .

ولما طلب السائس من پيلوپس مكافأته ألقى به فى البحر وتربع على عرش پيزا وضم أولمپيا إلى مملكته ووجه اهتمامه للنهوض بالألعاب الأولمپية .

ثم جاء وقت توقفت فيه تلك الألعاب حتى تولى حكم إيليس الملك إيفيتوس Iphitos فى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد ، فلم تمض بضع سنوات على تولى هذا الملك حتى تفشى فى ولايته وباء أهلك كثيراً من أهلها ، فجمع أعيان قومه يستشيرهم فيما يجب عمله ، فأجمع رأيهم على إرسال وفد إلى معبد أپولو بمدينة دلفى لسؤال الكهنة عن سبب غضب الآلهة على ولايتهم وتركها فريسة للوباء ، وما السبيل إلى استرضائها ؟

وذهب الوفد ثم عاد بالجواب التالى : « إن الألعاب الأولمپية قامت فى الأصل لتمجيد الإله الأكبر زيوس ، أما وقد أوقفت فقد حل بكم غضب الآلهة ولا بد أن تعود لترضى الآلهة عنكم . فإذا أعدتموها فلتحرم الحرب أثناءها على جميع الدول والمدن اليونانية » .

بهذا تذرع أمير إيليس لاستعادة تلك الألعاب سنة



بلاد اليونان

٨٨٤ ق . م . وقضى بأن يقام لزيوس حفل كبير فى أولمبيا مرة كل أربع سنوات ، يشترك فيه كل يونانى وتقدم الذبائح وتقرب القرابين ، وتقام الألعاب تمجيداً له ، وأن توقف الحروب فى كل أرض يونانية مدة قبل انعقاده ومدة بعده حتى لا تمنع اليونانيين أفراداً وشعوباً من حضوره ، ومن استباح حرمة تلك الألعاب فعليه لعنة زيوس صاحب ذلك الحفل وراعيه .

وقضى أمير إيليس أن يكون قومه الإيليون قواماً على تلك الألعاب وأن تكون إيليس نفسها حرماً لا يباح فيه قتال ، فإن اعتدت عليها أية مدينة أو دولة صار على باقى الولايات والمدن فرضاً أن يردوا غازيها . وقد احترم اليونانيون أرض إيليس فعلا ، ولذا لم تنشأ فيها قلاع للدفاع عنها .

وهكذا عادت تلك الألعاب إلى الظهور وازدادت العناية بها .

وأول تسجيل تاريخى اعتمده المؤرخون لتلك الألعاب بدأ عام ٧٧٦ ق . م . ، ومن ذلك التاريخ نجد سجلات دقيقة بأسماء الفائزين فى المباريات الأولمبية التالية .

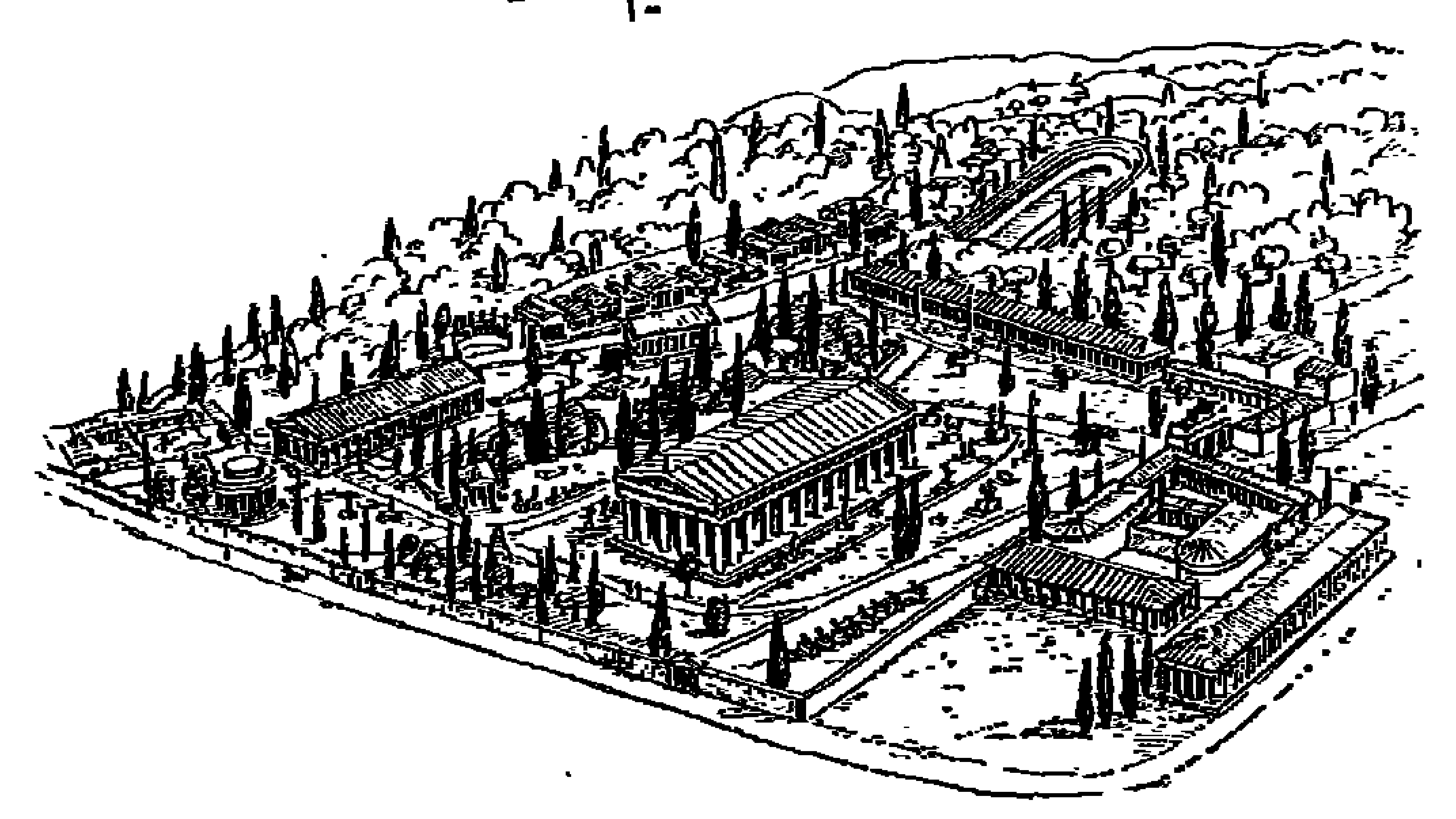
وصار ذلك العام بداية التقويم الأولمبى الذى أرخ به اليونانيون ، فكانوا يقولون إن هذا الحادث مثلا وقع فى العام التالى للأولمبياد العاشر ، وقد استمرت هذه الطريقة فى التأريخ

حتى بعد مولد المسيح بأكثر من قرنين .

ولفظة « الأولمپياد » هى فترة السنوات الأربع الواقعة بين كل دورة وأخرى ، ولا يصح أن تطلق على الدورة نفسها .

مهدها :

فى الجهة الشمالية الغربية من جزيرة الپيلوپونيز (المورة) وعند ملتقى نهر كلاديس Cladeus بنهر ألفيوس Alpheus (ويسمى الآن روفيا) يقع سهل خصيب مترامى الأطراف أسبغت عليه الطبيعة كل ما يحببه إلى النفوس ، إذ تحيط به من ثلاث جهات جبال تكسوها الخضرة الدائمة بحلة نضرة ويحبوه البحر من الجهة الشمالية الغربية بنسيم عليل .



أوليمپيا كما كانت فى أوج مجدها

فى هذا السهل، سهل أولمپيا ، أقيمت الألعاب الأولمپية .
وقد وفق اليونانيون فى اختيار هذا المكان ، إذ أن وجوده فى غرب بلاد اليونان سهل على سكان المستعمرات اليونانية — فى صقلية وفى المدن الإيطالية — القدوم إلى بلاد اليونان . كما أنه يكاد يكون منعزلا ، بعيداً عن مواطن النزاع والصراع ، مما ساعده على الاحتفاظ بمكانته المقدسة .

ولم تكن فى أولمپيا بادىء الأمر مبان دائمة لإيواء المتبارين والمتفرجين ، بل شيدت تلك المبانى تدريجياً بمرور الأيام ، حتى إذا ما بدأ القرن الرابع قبل الميلاد ، كانت أولمپيا مدينة سياحية موسمية مستكملة بجميع وسائل الراحة .

اتساع نطاقها :

وقد اتخذت المباريات فى بادىء الأمر طابعاً محلياً واقتصرت على الإيليين ، ثم لم يمض قرن على بدايتها حتى أصبح يشترك فيها باقى الشعوب اليونانية ، فجاء المتبارون من جزر كريت ورودس وصقلية ، ومن اليونانيين المقيمين فى جنوب إيطاليا وفرنسا ، وآسيا الصغرى ، وشواطىء البحر الأسود ومصر وبرقة .

وقد عنى اليونانيون ببناء ملاعب فى جميع الدول التى

خضعت لحكمهم ، فالإسكندرية كان بها ملعب ظل قائماً حتى الفتح العربى لمصر ومحله الآن الشاطبى وكامب سيزار . ولما أنشأ البطالمة مدينة بطوليميس (بمحافظة سوهاج) ، أقاموا بها الملاعب الرياضية . وقد وجدت تماثيل لبعض ملوك البطالمة فى أولمبيا ، كما اشتركت حظية أحدهم فى سباق العجلات بأولمبيا . وفى سورية أقيمت عدة ملاعب أشهرها فى أنطاكية ، إذ كانت تقام فى ضاحيتها المسماة دفنة مباريات أشبه بالألعاب الأولمبية . أما الألعاب الأولمبية اليونانية بإيليس فقد ظلت قاصرة على اليونانيين . ولما غزا الرومان بلاد اليونان اشترك الرومانيون فيها ، ثم فتحت أبوابها لسائر الشعوب بعد مولد المسيح .

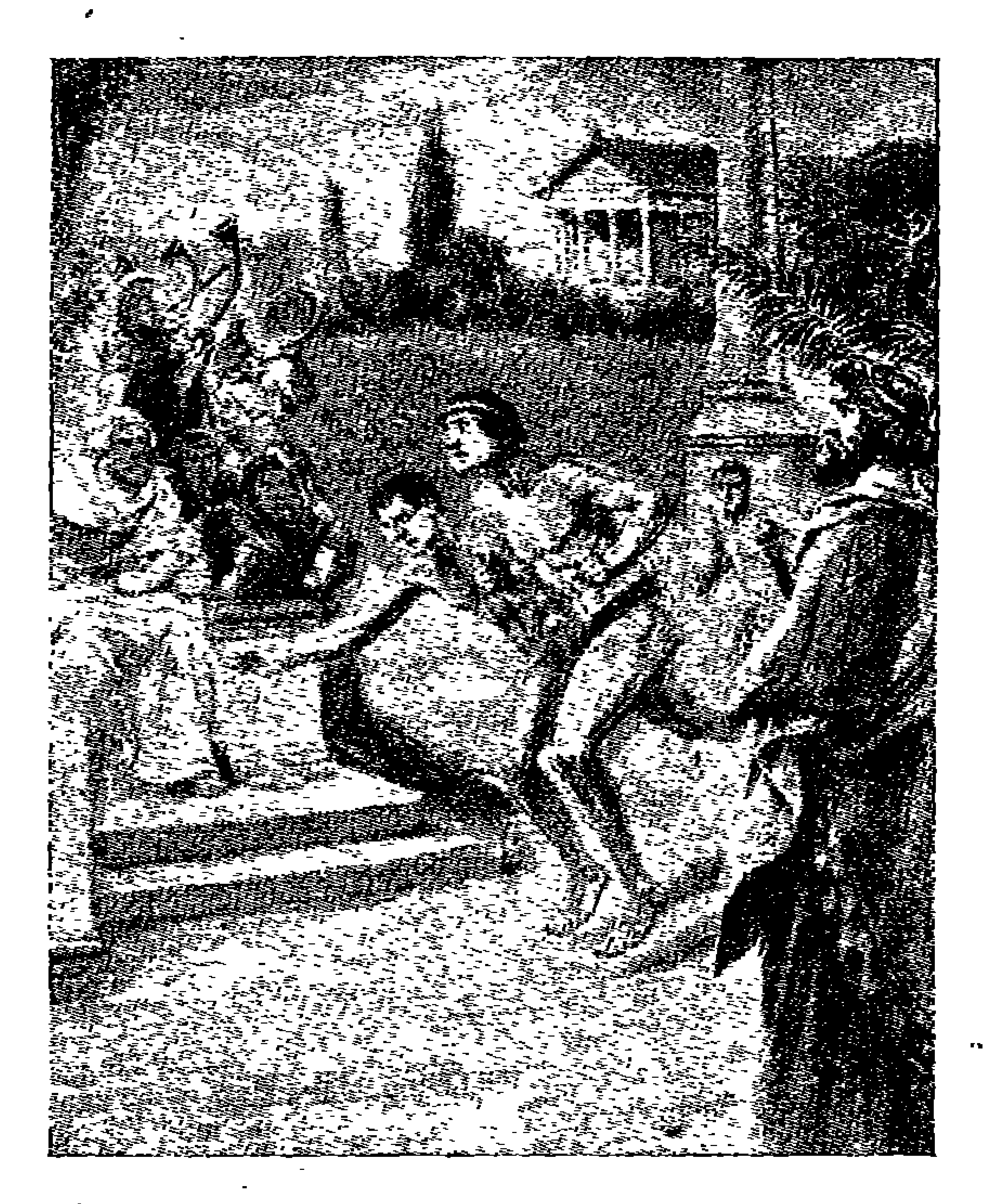
ألعاب دوراتها :

بدأت تلك الدورات بمباريات بسيطة فى العدو ثم أضيفت إليها بالتدريج ألعاب جديدة فى الدورات التالية . وفيما يلى نبذة عن كل منها :

أولا : العدو

اقتصر فى بادىء الأمر على مسافات قصيرة لا تتجاوز مائتى ياردة ، ثم زيدت مسافاته تدريجياً ، وقد ابتكر اليونانيون ما دعوه « السباق المسلح » ، وفيه يلبس العداء خوذة ويحمل

ترساً فى يده اليسرى ، والغرض منه التدرب على الحرب لأن اليونانى كان يدعى إلى الجندية من حين إلى آخر .



وصول عدائين إلى نهاية السباق

وممن خلد ذكرهم من العدائين فيدييديس الذى جرى من أثينا إلى إسبرطة مسافة ١٥٠ ميلا فى يومين ونقل إلى أثينا بشرى النصر فى « ماراثون » التى تبعد عنها أربعة وعشرين ميلا . ولكن

اليونانيين لم يقيموا سباق الماراثون الذى أصبح بين مباريات الألعاب الأولمبية الحديثة .

ثانياً : مباريات البنتاثلون Penta hlon

وكانت تشتمل على :

١ ـ العدو .

٢ ـ القفز بنوعيه : العالى والطويل أو الواسع ، وفيه يمسك اللاعب بكتلتين من الحديد ليكتسب قوة دافعة ، ثم القفز بالزانة . وكان القفز الطويل أكثر الأنواع شيوعاً .

٣ ـ رمى الرمح : وكانت له أهمية فى التدريب العسكرى .

٤ ـ قذف القرص : وهو من المعدن أو الحجر ، يزن نحو اثنى عشر رطلا ، وقد اعتبر اليونان رمى القرص أكبر مجال لإظهار قوة العضلات ، والفائز فيه يعتبر البطل اليونانى النموذجى ، وقد خلد الفنانون اليونانيون قاذفى القرص بما نحتوه لهم من تماثيل رائعة .

٥ ـ المصارعة : وكانت كالمصارعة العادية وفيها كان المتصارعان يقفان وجها لوجه وقد طلى جسماهما بالزيت ، والفائز هو الذى يصرع خصمه ثلاث مرات ، تمس كتفاه فيها الأرض.

وكان يتحتم على من يتقدم لمباريات البنتاثلون أن ينازل

منافسيه فى هذه الألعاب الخمس ، ولا يعد منتصراً إلا من فاز فى ثلاث ألعاب منها على الأقل .

ثالثاً : الملاكمة

وكانت كالملاكمة العادية ، غير أن الملاكمين كانوا يحمون قبضات أيديهم بقفازات مصنوعة من شرائط جلدية ، ثم أضيفت إليها فى عهد الرومان قطع معدنية من النحاس أو الرصاص .

ولم تكن للملاكمة أشواط أو فترات للراحة ، بل كان المتلاكمان يواصلان اللعب حتى يستسلم أحدهما . ولم يتبع اليونان نظام تقسيم المتلاكمين حسب أوزانهم .

رابعاً : البانكريشن Pankration

وعلى مر الزمن ازدادت وحشية اللاعبين ، فجمعوا بين المصارعة والملاكمة فى مباراة جديدة أطلقوا عليها اسم البانكريشن ومعناها « لعبة القوى مجتمعة » ، وكان يسمح فيها بكل شىء حتى الركل فى البطن ، ولكن حرم العض وفقء العين . وبلغ من وحشية هذه اللعبة أن أحد المتبارين بقر بأظافره الطويلة القوية بطن غريمه وانتزع أمعاءه !

خامساً : سباق الخيل المسرجة

وقد أقبل عليه ذوو اليسار ممن حالت طبيعة تركيب أجسامهم دون البراعة فى المباريات الأخرى .

وأبيح للنساء والرجال التقدم بخيولهم ، لأن الجائزة كانت تعطى لصاحب الجواد ، وقد أقيمت تماثيل للجياد الفائزة ، وقد ساعد هذا السباق على إنتاج سلالات ممتازة من الجياد .

سادساً : سباق العربات

اقتصر هذا السباق على العربات الخفيفة ذات الجوادين ، ثم أدخلت العربات ذات الأربعة خيول . وهو من المباريات التى استثارت حماس المتفرجين ولكنه كان أخطرها جميعاً ، ولذا كان الفائز فى هذا السباق ينال أعظم التقدير والإجلال .

وكان من دواعى الفخر أن تفوز جياد عربة سباق فى دورات أوليمپية متتالية ، وقد نالت هذا الفخر جياد أحد الإسپرطيين ولهذا دفنها فى مقبرة بجوار مقبرة أسرته .

ولم يقبل على سباق الخيل إلا الأغنياء ، وذلك لأن تدريب الخيل وتزيين العربات والخيل ونقلها إلى أولمپيا كان يتطلب نفقات كثيرة ، ولهذا كان اشتراك أحد الأغنياء بأكثر من عربة سباق إحدى المفاجآت التى يكثر الحديث بشأنها .



عربة سباق

سابعاً : مباريات الصبيان

ونظمت مباريات مستقلة للصغار تشمل الألعاب التى سبق ذكرها ولكن بصورة لا ترهقهم وتتناسب مع أعمارهم .

ولم تعرف – للأسف – الأرقام القياسية التى بلغها المتسابقون فى مختلف المباريات .

ولم تكن هناك ألعاب يشترك فيها فريق ضد فريق آخر ، كما هو الحال فى بعض الألعاب اليوم ككرة القدم أو كرة السلة .

شروط الاشتراك فيها :

لما كانت للألعاب الأولمبية صبغة دينية ، فقد اشترط أن يكون المشتركون فيها :

١ ــ من أصل يونانى من ناحية الأب والأم ، إذ كان اليونانيون يعتبرون من عداهم من الأمم « برابرة » .

٢ ــ من الشخصيات الكاملة من جميع الوجوه : جسم قوى وعقل راجح وخلق كريم .

٣ ــ أن يكونوا قد أتموا تدريبهم على الوجه الكامل .

٤ ــ أن يقوموا بتدريب خاص فى أولمبيا نفسها .

الاستعداد لإقامتها :

وقد جرت العادة بأن يعهد بالإشراف على إقامة الألعاب الأولمبية إلى هيئة عليا من كبار رجالات إيليس ، ويقوم هؤلاء باختيار عشرة محكمين يمثل كل منهم ولاية من الولايات اليونانية ، وكانت لهؤلاء المحكمين ملابس خاصة ، ويقيمون فى خيام خاصة لونها أبيض .

فإذا بدأ الربيع أرسلت الهيئة العليا الرسل والمنادين يطوفون بالبلاد ليذيعوا موعد الدورة القادمة وليعلنوا بدء الهدنة المقدسة ، أى إيقاف القتال ، فى جميع أرجاء العالم اليونانى ويدعوا الناس

إلى الاشتراك فيها . فتبادر كل مدينة إلى عقد اختبارات عدة لتستبعد بها غير اللائقين ، ويعجل من يقع عليهم الاختيار إلى الانتقال إلى أولمبيا لاختبارهم مرة أخرى للتأكد من لياقتهم الجسمانية وكفايتهم الرياضية .

ثم يبدأ التدريب الصارم مدة تستغرق نحو عشرة أشهر صباحاً ومساء على أيدى مدربين محترفين فى خيام قريبة من الملاعب ، حيث تقدم أطعمة خاصة . وكان النوم فى الهواء الطلق والاستحمام اليومى — مهما كان الجو — من الأسس الهامة فى التدريب . وكان المدربون الرسميون بمعهد إيليس هم الذين يصرحون للرياضيين بعد انتهاء فترة التدريب على الوجه الكامل ، بالاشتراك فى المباريات ، كما كانوا هم الذين يعلنون أسماء الفائزين .

وعندما يقترب موعد إقامة المباريات تمتلىء الطرق الموصلة إلى أولمبيا بعشرات الألوف من الرجال والصبيان الآتين من كل فج ، الفقراء منهم راجلين والأغنياء على صهوات الجياد ، يتبع كل جماعة عبيدهم حاملين الطعام والخيام والسرر — ذلك لأنه لم تكن هناك إلا مبان قليلة تصلح للإقامة — ويضربون خيامهم بالقرب من ساحة الألعاب .

وكان الزائر يجد بينهم التجار يعرضون بضائعهم من خمر وفاكهة وخيل وتماثيل ، والبهلوانات والحواة يقدمون ألعابهم الجذابة ، والشعراء ينشدون هذه الجموع ما أبدعته قرائحهم ، والمؤلفين يتلون أروع ما سطرته أقلامهم ، والفنانين يعرضون أبدع ما رسموه أو نحتوه ، ويندس بين هؤلاء جميعاً جماعات من المتسولين تقاطروا لاستجداء عطف هذه الجماهير الغفيرة التي كان يجاوز عددها الأربعين ألفاً .

برنامج دوراتها :

ظلت الألعاب الأولمبية مدة طويلة تقام خلال يوم واحد ، هو يوم اكتمال القمر بدراً لأول مرة عقب الانقلاب الصيفي ، أي في أواخر يوليو أو أوائل أغسطس .

وحدث في دورة عام ٤٧٢ ق . م أن استغرقت السباقات عدة ساعات ، ولم تنته إلا بعد انقضاء شطر من الليل ، ولهذا زيد عدد أيام تلك الألعاب إلى ثلاثة أيام ثم إلى خمسة أيام : يومين قبل تمام البدر ، ويوم البدر ، ويومين بعد تمامه .

اليوم الأول : وفيه يجتمع المتبارون ومعهم مدربوهم وأهلوهم فيتوجهون لزيارة معبد زيوس ، حيث يقسم كل منهم أنه من دم يوناني صميم ، وأنه لم يرتكب إثماً ، وأنه تدرب التدريب

المطلوب ، وأنه لن يستخدم الغش أو الخداع فى المباريات ، وأن أقرباءه سيمتنعون عن أية مناورة تؤدى إلى انتصاره بغير وجه حق ، كما يقسم على احترام القرارات التى يصدرها المحكمون .

ثم يتقدم المحكمون بعد ذلك ليقسموا على التزام النزاهة والعدالة فى أحكامهم ، ثم يصلى الجميع لزيوس راجين أن يشد أزرهم ويسدد خطاهم .. وهكذا ينقضى اليوم الأول .

اليوم الثانى : يبكر المتفرجون إلى أماكنهم ، وعند شروق الشمس تصدح الموسيقى ويسير موكب المتبارين وفى طليعته المحكمون وقد وقف أصدقاء المتبارين وأقاربهم على جانبى الطريق يهتفون ويدعون لهم بالنصر . فإذا وصلوا إلى الملعب وقف كل فريق فى المكان الذى أعد له ثم تدوى الأبواق معلنة بداية الألعاب ، ويجرى المنادون إلى حيث يقف المتبارون فينادون على كل منهم فيخرج من الصفوف ليراه المتفرجون ، فيعلن المنادون اسمه واسم أبيه وبلده ثم يسألون الجمهور عما إذا كان بينهم من يطعن فى نسبه أو خلقه ، فإذا لم يتقدم أحد أذن له بالاشتراك . ثم تبدأ المباريات ، فإذا ما انتهت أية مباراة دوى البوق ثانية فينصت المتفرجون ليسمعوا أحد المحكمين يعلن اسم الفائز ويسلمه غصنا من سعف النخيل ليحمله فى يده ويضع على رأسه إكليلا من الغار .

وفى هذا اليوم تعقد مباريات الفتيان الذين لا تزيد أعمارهم على العشرين .

اليوم الثالث : تبدأ مباريات الرجال فى الوثب والمصارعة والملاكمة والعدو .

اليوم الرابع : يعقد سباق العربات ، ثم سباق الخيل ، ثم مباراة البنتاثلون (الألعاب الخماسية) ويليها سباق الدروع



عداء يونانى قديم يحمل شعلة

الحديدية (خوذة وسيفان،ودرع ورمح) . ويختتم اليوم بسباق المشاعل ، وهو مشابه لسباق التتابع المعروف لدينا الآن .

اليوم الخامس : خصص لتوزيع الجوائز ، فيتقدم الفائزون ليضع المحكمون على رأس كل منهم إكليلا من أغصان الزيتون ويعلن المنادى أسماءهم وأسماء مدنهم . وبعد أن يتكامل عددهم يسيرون فى موكب إلى معبد زيوس حيث يقدمون القرابين ويؤدون صلوات الشكر على ما نالوه من فوز .

وبعدئذ تقام لهم حفلة تكريم كبرى فى دار الحكومة يتخللها عزف الموسيقى ويتبارى الخطباء والشعراء فى مدحهم وتمجيدهم ، ويقضون بقية اليوم فى لهو وسرور ، ثم يعودون إلى مدنهم .

ولم يكن يحدث فى الألعاب غش أو خروج عن القوانين المعروفة إلا نادراً ، وذلك أن المحكمين كانوا يمسكون فى أيديهم بسياط أو بعصى مدببة الأطراف يخزون بها كل لاعب يحاول الخداع أو الغش ، كما أن ما كان يفرض على المخادعين من غرامات وما يلحقهم من مهانة كان يردعهم عن الأقدام على مثل هذا العمل .

اشتراك النساء فيها :

على الرغم مما بلغته الألعاب الرياضية من مكانة سامية لدى

اليونان ، فقد ظلت المرأة اليونانية فى شبه عزلة عن المجتمعات لا تسلية لها بالمنزل سوى لعب الكرة ، ذلك لأن اليونانيين كانوا يؤمنون بأن الزوجة الكاملة هى التى تنصرف لتدبير منزلها .

لذلك ظلت الألعاب الأولمبية مقصورة على الرجال ، ولم يكن يجوز للنساء الاشتراك فيها بأنفسهن ، غير أنه سمح لهن بإدخال عرباتهن وخيولهن فى السباق . ولم يسمح لهن كذلك بمشاهدة الألعاب إطلاقاً ، وذلك لإبعادهن عن مناظر القسوة والوحشية التى كانت تتجلى فى ألعاب المصارعة والملاكمة ، وليس بسبب تجرد المتسابقين من ملابسهم ، لأن العرى لم يكن أمراً مستنكراً عند اليونان — واستثنيت من ذلك كاهنة ديميتر Demeter — وكان الإعدام عقوبة من تتحدى هذا التحريم . وقد دفعت الرغبة فى رؤية تلك المباريات بعض النسوة إلى تسلق الأشجار العالية القريبة من ميدان الألعاب ، فكان الإعدام جزاء من ضبطت منهن .

ويقال إن سيدة تدعى فيرينيس Pherenice غامرت بحياتها فى سبيل مشاهدة إحدى الدورات ، ذلك أنها بعد وفاة زوجها وجهت كل همها إلى تدريب ابنها بيزيدورس Peisidorous حتى جعلت منه بطلا ، فلما حان موعد الدورة ت أن

تكتحل عيناها برؤيته فى حلبة السباق . فارتدت ملابس رجل واصطحبته زاعمة أنها الرجل الذى قام بتدريبه ، وبذلك احتلت مكانها بين المتفرجين .

وظفر ابنها بالبطولة فى الملاكمة ، فانتابتها نشوة من الفرح فقفزت من فوق الحواجز لتعانقه وتمطره بقبلاتها ، ولكنها سقطت فى الخندق المحيط بالملعب وانكشف أمرها وسيقت إلى المحكمة ، وهناك دافعت عن نفسها بأنها أم تحب ولدها وتود أن تراه وهو يتسنم ذروة المجد . وتوقع الحاضرون الحكم عليها بالاعدام بإلقائها من فوق صخرة شاهقة الارتفاع كما تقضى التقاليد ، ولكن هذا الحكم لم يصدر فقد ظهر أنها ابنة ملاكم عظيم فاز فى دورة سابقة .

ثم تقرر بعدئذ أن تقام مباريات أولمپية خاصة للنساء فى عيد هيرا ، مما جعل البعض يعتقد أنهن كن يساهمن فى المباريات الأولمپية منذ نشأتها . وكانت مباريات النساء قاصرة على العدو لمسافة قصيرة ، تكافأ الفائزات فيها بتتويجهن بالأكاليل وبتقديم رسومهن إلى هيرا راعية السباق ،وكان موعد تلك المباريات هو شهر سبتمبر ، بعد مباريات الرجال .

تكريم الفائزين فيها :

كان التصريح لشخص بالاشتراك فى الألعاب الأولمپية

أعظم مراتب التقدير ، وكان الفائز فى تلك الألعاب ينال كأساً فضية محلاة بالنقوش والرسوم الجميلة التى تصور الألعاب الرياضية ، ثم استبدلت الكؤوس بأكاليل من أغصان الزيتون البرى .

وكان الفائزون يتوجهون إلى مكان توزيع الجوائز فى أردية موشاة بخيوط ذهبية وفضية ، يصحبهم مندوبو مدنهم .

وكانت الأكاليل توضع أمام المحكمين على منصدة من العاج المذهب ، وعند انتهاء كل مباراة ، يتقدم الفائز إلى المحكمين فيتوجونه بأحدها ، وهنا يهتف له المتفرجون .

وكثيراً ما أقيمت لبعض المبرزين فى المسابقات تماثيل فى أولمبيا نفسها ، تنحت من الرخام وتصور الفائز وهو عار ، ويقوم بصنعها أشهر المثالين أمثال فيدياس Pheidias .

فإذا ما عاد البطل إلى بلده ، فتحت له ثغرة فى سورها تكريماً له ، حتى يستطيع أن يدخلها راكباً عربة تجرها أربعة جياد . وقيل إن المقصود من تلك الثغرة هو الإشارة إلى أن المدينة التى أنجبت هذا البطل لم تعد تخاف أى اعتداء عليها طالما بقى بطلها على قيد الحياة .

وكان أول تكريم للفائز فى موطنه هو استقباله استقبال الغزاة الفاتحين ، ثم اصطحابه إلى أكبر معابد المدينة ليقدم

قرابين الشكر ، وبعدئذ يدعى إلى احتفال لتكريمه حيث يتبارى الخطباء والشعراء فى مدحه وتمجيده ، ثم تقدم له الهدايا والجوائز السنية من العبيد والخيل والثياب والنقود .

وأهم الامتيازات الأخرى التى كان ينالها الفائز هى إعفاؤه من الضرائب ، وإعطاؤه منزلا جميلا يسكنه ، وتقديم الطعام له طول حياته . وكان من حقه أن يقيم لنفسه تمثالا فى أى مكان يختاره داخل بلدته ،وإذا احتاج إلى مساعدة مادية قدمها له أثرياؤها . وكان بعض المدن يعين البطل الفائز قائداً للجيش ، وفى البعض الآخر كان للبطل حق الجلوس إلى جانب الملك فى الاجتماعات العامة .

وكان لقب «فائز فى الألعاب الأولمپية» ، أسمى الألقاب وأعلاها ، يحفظ لحامله مكان الشرف فى كل مكان يتوجه إليه أو حفل يحضره ، ويعطيه حق الصدارة فى المجتمعات ، إذ كان يسبق حاكم المدينة أو الإقليم .

وفى طليعة الشعراء الذين عنوا بتمجيد أبطال الألعاب الأولمپية الشاعر پندار Pindar (٥٢٢ — ٤٤٨ ق . م .) الذى خصص أكثر شعره لتمجيد الأبطال ، وكانت قصائده تغنيها جماعات من الغلمان فى الموكب الذى يخرج لاستقبال الأبطال .

وكانت المراسم الدينية تقام للأبطال بعد مماتهم ، وأقيمت المعابد فوق قبور بعضهم .

أثرها :

لما انتظم انعقاد مباريات الألعاب الأولمبية بصورة جعلتها ظاهرة من مظاهر الحياة اليونانية ، أحدثت هذه المباريات أكبر الأثر فى حياة اليونانيين السياسية والاجتماعية والفنية والأدبية .

فمن الناحية السياسية، بثت تلك الألعاب حب الوطن والتضحية فى نفوس اليونانيين ، ونشرت الشعور بالتآخى والمودة بين المدن والولايات ، وساعدت على اتصال اليونانيين من سكان المستعمرات ببلاد اليونان ، ووطدت شعور الولاء بين اليونانيين المغتربين وبين موطنهم الأصلى وصارت بالنسبة لهم بمثابة اجتماع يضم أبناء الأسرة الواحدة المتفرقة على مائدة واحدة فى مواعيد محددة ، وكانت أشبه بمؤتمر سياسى كبير تتلى فيه الاتفاقيات التى أبرمت بين الولايات اليونانية حتى تصبح معروفة للجميع . وقد أدى كل ذلك إلى توحيد شعور الشعب اليونانى فى الأزمات فاستطاع أن يصمد للغزوات التى كان ينكب بها بين آن وآخر ، بل أن يسود شطراً كبيراً من حوض البحر المتوسط عدة قرون .

ومن الناحية الاجتماعية ، غرست تلك الألعاب روح المساواة

بين أفراد الشعب اليونانى وهذبت من عاداتهم وقومت نواحى عدة من أخلاقهم لما كان يكتنفها من قيود صارمة ، وأذكت فى نفوسهم روح الهمة والنشاط وازدراء المخاوف واحتقار الترف وبغض الكسل . وكانت موسماً لتبادل الأنباء والآراء فى شتى الموضوعات . وقدمت لليونانيين فرصاً نادرة أصلحوا فيها من شئونهم ، لأن فترة انعقادها كان محرماً فيها القتال . وساعدت على تقدم التجارة وما صحبها من رخاء كان يعم البلاد ، لأن منطقة انعقادها كانت تتحول إلى سوق تجارية ، وكانت أيام الانعقاد وما قبلها وما بعدها أشبه بموسم سياحى .

ونهضت الألعاب الأولمپية بالفنون على مختلف أنواعها ، فقدمت للمثالين فرصاً واسعة لدراسة جسم الإنسان فى جميع أشكاله وأوضاعه ، فتعددت أنواع التماثيل وكثر المثالون واتخذوا من الدورة الأولمپية سوقاً يعرضون فيها أعمالهم ليشتريها هواة اقتناء التحف الفنية ، وبذلك نهض فن النحت . كذلك تأثرت الفنون الأخرى — من رسم وموسيقى وغناء وتمثيل — بالألعاب الأولمپية ، فازدهرت . والواقع أن الفن والألعاب الرياضية كانا متصلين ببعضهما اتصالا وثيقاً فى اليونان القديمة .

ومن الناحية الجسمية ساعدت هذه الألعاب على تكوين أجيال كاملة الصحة متناسقة الأجسام ، وقدمت لليونان شباناً من خيرة الجنود دافعوا عن استقلال بلادهم مدة طويلة .

وقدمت الألعاب الأولمپية فرصاً ذهبية للأدباء والشعراء والمؤرخين ، يتلون فيها على أسماع الجموع الحاشدة ثمار قرائحهم ويتبارون فى إظهار نبوغهم ، وكان الخطباء يخطبون المجتمعين فى الموضوعات الهامة التى يرغبون فى وقوف اليونانيين عليها .

وأخيراً وليس آخراً فإن التاريخ نفسه مدين للألعاب الأولمپية ، وذلك لأن أهم طريقة لحساب السنين فى كتب التاريخ اليونانى القديم كانت التأريخ بالألعاب الأولمپية .

نهايتها :

ظلت الألعاب الأولمپية تقام حتى ولو كانت البلاد فى حالة حرب مع عدو خارجى .

ولكن مستوى تلك الألعاب هبط ، إذ أصبح هم أكثر اللاعبين هو الحصول على المزايا المادية التى تقترن بالنصر ، وزاد هبوطها بعد وقوع بلاد اليونان تحت حكم الرومان ، إذ فقد اليونانيون شخصيتهم ، وتولى الرومان الاشراف على تلك الألعاب وصار اليونانيون مجرد مشتركين فى المباريات .

ثم تسربت الفوضى إلى تلك الألعاب ، واتهم اليونانيون مستعمريهم الرومان بأن رياضييهم محترفون لا هواة ، اتخذوا بطولتهم وسيلة للتجارة والكسب ، إذ كانوا يطوفون بالبلاد ويتقبلون ما يهدى إليهم من مال أو هدايا نظير قيامهم بعرض الألعاب التى مهروا فيها ، وأنكر الرومان هذا الاتهام واستمروا

فى الاشتراك فى تلك الألعاب غير مكترثين لاحتجاج الرياضيين اليونان وطلبهم إبعاد المحترفين عنها مما أدى إلى اشتداد الخلاف بين الفريقين . وكان شيشرون Cicero الخطيب الرومانى المشهور يمقت تلك الألعاب ويعتبرها طيشا يونانيا ، إذ استكثر أن ينال الفائز فيها من المجد ما لا يناله قائد حربى فاز فى معركة طاحنة.

وفى إحدى الدورات ثار الرومان على احتجاجات اليونانيين واتهامهم إياهم بالاحتراف ، وأشعلوا النار فى المساكن التى أقام بها اللاعبون اليونانيون ودمروا كل ما أمكنهم تدميره فى الملعب . وإزاء ذلك قرر الإمبراطور ثيودوسيوس أن تلك الألعاب أصبحت مصدر إزعاج لروما ، وأنها نوع من الهمجية المبتذلة تصرف الشباب على النواحى الدينية ، هذا عدا ما كان يصحبها من طقوس وشعائر لا تقرها المسيحية التى أصبحت الديانة الرسمية لروما ، ولذلك أمر بإبطالها سنة ٣٩٤ م وهدم أهم مبانى أوليمپيا .

وفى القرن السادس الميلادى حدث زلزال دمر ما بقى من الملعب ، وبتعاقب الأيام توارت أطلاله تحت التراب .

وفى سنة ١٨٢٩ قام بعض علماء الآثار الفرنسيين بحفائر فى أولمپيا ونقلوا مجموعة من التماثيل التى عثروا عليها إلى باريس .

ثم قام بعض علماء الآثار الألمان سنة ١٨٧٥ بحفائر فيها وأزالوا ما تراكم على آثارها من أتربة وكشفوا عن أساسات المبانى ، وأصبح فى مقدور من يزور أولمبيا اليوم أن يشاهد موقع وتفاصيل كل مبنى ، وأقيم فيها متحف يحوى كثيراً من الآثار والتماثيل التى وجدت بها .

الفصل الثالث

الألعاب الأولمبية الحديثة

إحياء الألعاب الأولمبية :

كان جاتز موتز Guts Muths (١٧٥٩ — ١٨٣٩ م) رائد النهضة الرياضية التى قامت فى ألمانيا فى القرن التاسع عشر، أول من فكر فى إحياء الألعاب الأولمبية، فقد أعجب بتاريخ اليونان الرياضى وبالأخص الألعاب الأولمبية ، فدعا إلى إحيائها ولكنه لم يجد آذاناً صاغية .

ثم اقتفى دعوته إرنست كورتس Earnest Curtuis الألمانى وأخذ يدعو لإحيائها ، فتحمس الكثيرون لفكرته وبدأوا يدرسون الطريقة المثلى لذلك دون أن يصلوا إلى نتيجة .

وبعد عامين تبنى هذا الموضوع إيڤانجيليس زاپاس Evangellis Zappas اليونانى وتبرع بمبلغ طيب أمكن به إقامة أول ألعاب هيلينية عامة Pan Hellenic فى أثينا سنة ١٨٥٩ ، اقتصرت على اليونانيين وشهدها ٢٠,٠٠٠ متفرج ولكن لم تكن لها قيمة رياضية لعدم توفر النظام بها ، ورغم ذلك فقد لفتت

الأنظار إليها خارج بلاد اليونان بفضل ما كتبته الصحف عنها، ثم جددت تلك الألعاب فى سنة ١٨٧٠ ، ١٨٧٥ ، ١٨٨٨ ، ١٨٨٩ واشترك فى تنظيمها بعض الألمان .

وعلى إثر هزيمة فرنسا أمام پروسيا (ألمانيا) سنة ١٨٧٠ فكر البارون الفرنسى پيير دى كوبرتان Pierre de Coubertin فى إنهاض عزائم مواطنيه ورفع روحهم المعنوية ، عن طريق التربية الرياضية،فسعى لدى وزير المعارف الفرنسية وظفر بتأييده ، وبدأت فى المدارس والمعاهد والجامعات الفرنسية روح اهتمام كبير بالألعاب الرياضية .

ثم اجتهد فى التقريب بين النوادى والجمعيات الرياضية فى فرنسا ، حتى نجح فى تكوين الاتحاد الرياضى الفرنسى سنة ١٨٨٧ ، وبعدئذ عمل على إيجاد صلات بين تلك الهيئات وبين مثيلاتها فى الدول الأخرى . ولما كان العلماء الألمان قد كشفوا عن تاريخ الألعاب الأولمپية يومئذ ، فقد خطر للبارون أن يجمع بين النظم الرياضية الحديثة والنظم اليونانية القديمة ، وتطرق من هذا إلى التفكير فى تنظيم أعياد رياضية دولية لتوطيد الصداقة بين الدول .

وأخذ يلقى المحاضرات ويعقد المؤتمرات لتنفيذ فكرته ، حتى وفق إلى عقد مؤتمر فى پاريس سنة ١٨٩٤ تقرر فيه أن تقام مباريات رياضية كل أربعة أعوام ، على نظام المباريات

اليونانيةالقديمة ، تشترك فيها جميع الأمم .

وتكونت لتنفيذ هذا القرار لجنة دولية جعلت فى مقدمة أغراضها ضمان إقامة المباريات بانتظام والعمل على إبلاغ نظامها حد الكمال ، لتتفق مع ماضيها العظيم ومع الروح السامى الذى يملأ قلوب مجدديها ،وأن تكون فى مقدمةقواعدها اقتصار الاشتراك فيها على الهواة .

أما القواعد الفنية للألعاب فترك وضعها للاتحادات الدولية لكل نوع من أنواع الرياضة .

وكان كوبرتان يميل إلى إقامة أول دورة فى پاريس فى العام الأول من القرن العشرين ، ولكن مندوب اليونان طلب فى شجاعة — أن تقام تلك الألعاب فى سنة ١٨٩٦ وأن تكون اليونان أول بلد تقام فيه اعترافاً لما كان لها من مجد غابر ، فوافق المؤتمر على طلبه .

وقابل اليونانيون هذا الاتجاه بالشكر ، وتعهدوا بتذليل كل عقبةقد تحول دون إقامتها ببلادهم ،وألفوا أول لجنة أولمپية يونانية .

ولعدم صلاحية أولمپيا لإقامة تلك الألعاب فقد وقع الاختيار على أثينا ،وتكفل « أڤيروف » اليونانى — الذى كان يشتغل بالتجارة فى الإسكندرية — بإنشاء ملعب جديد بأثينا يتسع لنحو ٧٠ ألف متفرج ،وجاء هذا الملعب مثلا من روائع البساطة والفن ، ولا يزال فريداً فى طرازه البديع .



البارون بيير دى كوبرتان

البارون بيير دى كوبرتان :

ولد فى پاريس فى أول يناير ١٨٦٣ ، وتعلم فى مدارس الجزويت والمدارس الإنجليزية ، ثم اشتغل بالتدريس وتخصص فى التربية وعلم النفس والتاريخ واهتم بالرياضة البدنية . ووجه اهتمامه إلى السعى لإقامة مباريات دولية ، فاستطاع إقامة مباراة فى كرة القدم بين فرنسا وإنجلترا سنة ١٨٩١ ، وكان نجاح تلك المباراة واغتباط شباب الدولتين بما قام بينهما من صداقة أكبر حافز له على التفكير فى توسيع ذلك الميدان حتى تسود المحبة بين دول العالم جميعاً .

واتجه تفكيره إلى إحياء الألعاب الأولمپية ، فصادف صعوبات عدة تمكن من التغلب عليها ، واستطاع عقد عدة مؤتمرات لبحث هذا الموضوع انتهت بالنجاح ، إذ عقدت أول دورة أولمپية سنة ١٨٩٦ .

وأخذ بعد ذلك التاريخ يواصل جهوده فى سبيل استمرار تلك الألعاب ، وظل رئيساً للجنة الأولمپية حتى سنة ١٩٢٥ ، ولما أقعدته السن عن العمل انتخبته اللجنة رئيس شرف لها مدى الحياة . وكان ينادى دائماً بأنه ليس من المهم للرياضى أن يفوز ، ولكن المهم أن يشترك فى الألعاب الأولمپية .

وقد أسلم الروح فى ٢ سبتمبر ١٩٣٦ بعد أن أوصى بدفن قلبه فى قرية أولمپيا ، وتكريماً لذكراه دعيت أرملته لتكون ضيفة

الشرف على اللجنة الأولمپية الإيطالية فاعتذرت بسبب حالتها الصحية . وفى أول ديسمبر ١٩٥٩ احتفل بوضع لوحة تذكارية على باب إحدى القاعات فى جامعة السوربون بپاريس تخليداً لذكراه . وقد كتب على اللوحة : « هنا . وفى عام ١٨٩٤ ، وافق مندوبو بلدان العالم على مشروع البارون دى كوبرتان ببعث الألعاب الأولمپية » .

مبادءها الأساسية :

١ — تقام الدورات الأولمپية مرة كل أربع سنوات تحسب ابتداء من أول دورة عقدت سنة ١٨٩٦ ، بصرف النظر عما إذا كانت إحداها قد عقدت أم لا .

٢ — تشرف اللجنة الأولمپية الدولية على الدورات الأولمپية والألعاب الأولمپبة الشتوية .

٣ — يعهد بإقامة الدورات الأولمپية للمدن لا للدول التى تتبعها واختيار المدينة من حق اللجنة الأولمپية الدولية .

ويقدم طلب الانعقاد من محافظ المدينة أو الهيئة المشرفة عليها للجنة الأولمپية الأهلية التى ترفعه إلى اللجنة الأولمپية الدولية بعد التأكد من توافر الإمكانيات اللازمة .

٤ — لا يشترك فى تلك الدورات إلا الهواة ، وهم يشتركون فيها على قدم المساواة ، دون تمييز بسبب الجنس أو الدين أو المذهب السياسى أو الاجتماعى .

٥ — لايجوز أن يمثل لاعب دولة غير الدولة التى يحمل جنسيتها .
٦ — إن المباريات هى بين الأفراد لا بين الدول .
٧ — جميع الأرباح التى تدرها الدورة الأولمپية ، بعد خصم كل النفقات ، تقدم إلى اللجنة الأولمپية الأهلية بالدولة التى أقيمت فيها لإنفاقها فى النهوض بالحركة الأولمپية فى تلك الدولة ونشر الوعى الرياضى بين أبنائها .

شعارها :

وشعار الألعاب الأولمپية هو الكلمات الثلاث الآتية :

Citius, Altius, Fortius

أى : الإقدام ، والنبل ، والقوة .
وهو شعار قديم لا يعرف مصدره على وجه التحقيق .

اللجنة الأوليمبية الدولية :

وتشرف على الدورات . الأولمپية الدولية لجنة خاصة تسمى اللجنة الأولمپية الدولية . وعمل هذه اللجنة هو إقامة الألعاب الأولمپية بطريقة منظمة ، والنهوض بها حتى تحقق الأهداف التى تقام من أجلها .

وأول لجنة أولمپية دولية تكونت ، قام بانتخاب أعضائها البارون كوبرتان نفسه عام ١٨٩٤ ، ومن ذلك التاريخ وهى تقوم بانتخاب أعضائها بنفسها من الدول التى توجد بها لجان أولمپية أهلية ، بشرط ألا يزيد عدد أعضاء كل دولة عن عضوين .

وكان عدد الدول التى تكون تلك اللجنة هو ١٢ دولة ، وقد بلغ عددها اليوم ٩٧ دولة .

وهى هيئة دائمة مقرها مدينة لوزان فى سويسرا ، ولها مجلس تنفيذى من بضعة أعضاء، يسيرون دفة هذه الألعاب بالتعاون مع مندوبى الاتحادات الدولية المختلفة لجميع الألعاب التى يشملها برنامج الألعاب الأولمبية .

واللجنة الأولمبية الدولية تمثل أجناس العالم جميعاً على اختلاف نزعاتهم ، وهى بعيدة عن عصبية الدين أو السياسة أو العنصرية ، لا تخضع لتأثير أمة معينة ، ولا تقاليد لها سوى المثل العليا الأخلاقية والقوانين الرياضية ، وهى فى برامجها تساير المدنية والتطور ، وهدفها تنمية روح الاجتماع والتعاون لمصلحة البشرية وإدراك المثل العليا .

اللجان الأولمبية الأهلية :

توجد اليوم فى أغلب الدول لجان أولمبية أهلية تشرف على التربية الرياضية بها كما تشرف على الدورة الأولمبية التى تقام فيها.

ومن واجب اللجنة الأهلية أن تختار مكاناً لإقامة « القرية الأولمبية» لسكنى المتسابقين ، ويفضل أن تكون على مقربة من الملاعب ، إلا المسابقات المائية التى يمكن إقامتها فى أى مكان آخر مناسب ، وعدا الألعاب الشتوية التى تقام فى دولة تتوفر بها

جميع مطالب تلك الألعاب .

وتحتاج اللجنة الأهلية فى تنظيم إقامة الدورة إلى عدد كبير من الإداريين قد يتجاوز المئات .

وليست عملية التنظيم مسألة ترتيب أسماء أو تحديد مواعيد، وإنما هى أوسع من ذلك بكثير، إذ تشمل تدبير أماكن السكنى المفروشة وتوفير الطعام بأسعار مناسبة وإخطار اللجنة الدولية بهذه الأسعار ، وعليها أيضاً أن تعمل على تخفيض أجور انتقال المتبارين الذين يرغبون فى القيام بجولات داخل حدود الدولة التى تقام فيها الدورة .

وقد لاحظت اللجنة الأولمبية الدولية أن حكومات بعض البلاد تتدخل فى شئون اللجان الأولمبية الأهلية وتقوم بتوجيهها توجيهاً خاصاً، مما يتنافى مع قوانين اللجنة الأولمبية الدولية وسمو تقاليدها . ولذلك وضعت قانوناً خاصاً بتكوين اللجان الأولمبية الأهلية يحول دون تدخل الحكومات فى أعمالها .

مبارياتها :

يضم برنامج الألعاب الأولمبية الحديثة عدة مباريات أهمها :

١ ـ ألعاب القوى (عدو لمسافات مختلفة من ٦٠ ـ ١٠,٠٠٠ متر ، ثم سباق الماراثون ٤٢,١٩٥ متراً، وسباق الحواجز والمشى والوثب العالى والطويل بالزانة وقذف القرص والرمح والمطرقة والمسابقة العشرية ـ الديكاثلون).

٢ — التجديف الفردى والزوجى والرباعى والثمانى .
٣ — كرة السلة .
٤ — الملاكمة للأوزان المختلفة .
٥ — الزوارق الصغيرة .
٦ — الدراجات (المضمار والطريق) .
٧ — الفروسية .
٨ — السلاح (الفلوريه والإيبيه والسابر) .
٩ — كرة القدم .
١٠ — الجمباز (العقلة والمتوازى وحصان الحلق وحصان الوثب) .
١١ — الهوكى .
١٢ — المصارعة الرومانية والمصارعة الحرة للأوزان المختلفة .
١٣ — السباحة (الحرة والغطس) .
١٤ — الخماسى الحديث (پنتاثلون) .
١٥ — رفع الأثقال للأوزان المختلفة .
١٦ — الرماية (بالمسدس والبندقية) .
١٧ — كرة الماء .
١٨ — اليخوت .
١٩ — الفنون .

وقد ألغيت بعض الألعاب من الدورات الأخيرة ، كعدو الخمسة أميال و ٢٠٠ متر حواجز والوثب الطويل وقوفاً وغيرها من ألعاب القوى .

وألغى كذلك رمى القرص باليدين ورمى الرمح باليدين وبعض المسابقات فى الدراجات والجولف .

وفى الجمباز ألغيت مسابقات الفرق فى الحركات السويدية.

ويضيق المقام عن ذكر كل ما ألغى من مسابقات .

مباريات الفنون :

اقتصرت المباريات الأولمبية القديمة فى بادىء الأمر على الألعاب الرياضية ، غير أنها لم تلبث أن أفسحت صدرها للفنون والآداب كوسيلة لربط القوة الجثمانية بالروح التى تسيرها ، وباعتبارها من أسباب السمو بالتفكير والخيال ، فأتاحت فرصة ذهبية للشعراء والكتاب والأدباء والفلاسفة والرسامين والنحاتين والموسيقيين لتقديم ما تجود به مواهبهم ؛ وبذلك كانت عاملا على تقدم هذه النواحى .

وممن حظوا بالمساهمة فى تلك المباريات هيرودوت « أبو التاريخ » الذى تلا أجزاء من كتاباته عن أثينا سنة ٤٤٤ ق . م . ونال هذا الشرف ، غير هيرودوت ، عدد كبير من عمالقة الأدب اليونانى أمثال الشاعر پندار Pindar ويوريپيدس Eurepedis وديموسثنيس Demosthenes وديوچينيس وغيرهم ، ومن الفنانين مثل فيدياس Pheidias

وانتهز رجال السياسة فرصة إقامة الألعاب الأولمبية فكانوا يخطبون المجتمعين فى المسائل السياسية لينيروا أذهانهم

ويتقربوا إليهم، وقد أوجدت جائزة خاصة لرجال السياسة واشترط فى منحها أن تكون النزاهة والشرف من صفات من يرشح نفسه للفوز بها .

وفى الألعاب الأولمپية الحديثة نص فى القانون الأساسى على إقامة مباريات فى الفنون تضم العمارة والموسيقى والنحت والأدب والتصوير ، والشرط الوحيد فيها أن تكون لها علاقة بالرياضة . فالعمارة يجب أن تتناول تخطيط المدن وتصميم الملاعب والأندية والمدرجات ، والنحت يدور حول إبراز قوة الأجسام وإظهار عضلاتها ونواحى الجمال فيها وعمل المداليات الرياضية التذكارية ، والآداب تشمل الأغانى والشعر والقصص وهكذا .

وقد بدأت أول مسابقة فى هذا الميدان سنة ١٩١٢ ، وفيما يلى بعض الموضوعات التى قدمت وفازت فى الدورات التالية حتى اليوم :

فى العمارة :

تصميم ملعب رياضى حديث ، تصميم معهد رياضى ، تصميم ملعب للانزلاق .

فى الأدب :

أنشودة رياضية ، أوليمپياد أنفرس ، الألعاب الأولمپية ، أنشودة لاعبى السلاح ، آلهة أولمپيا سيمفونية البطل ، البطل الأولمبى .

في الموسيقى :

نشيد النصر الرياضي ، أنشودة أولمبية ، أغاني الجبال .

في التصوير :

ألعاب الشتاء ، لاعب كرة القدم ، دراسة رياضية ، السباحة ، المتزلقون ، الفارس الأحمر ، الرجبي ، رامى السهم ، راكب الحصان .

في النحت :

جواد أمريكي ، الانزلاق ، الصياد ، رامى القرص الفنلندي ، نحو الأولمبياد ، ميداليات أولمبية ، الملاكم ، رياضي يستريح ، عوليس Ulysses .

الألعاب الأولمبية الشتوية :

كان نجاح الألعاب الأولمبية التي تعقد صيفاً ، مشجعاً على التفكير في إقامة دورة ألعاب شتوية .

وهي تعقد عادة في المناطق التي يتوفر فيها الجليد الطبيعي ، فإذا تعذر أقيمت ملاعب يغطيها الثلج الصناعي .

ولذلك لا تظفر بإقامتها عادة إلا الدول الشمالية ، كما أنها تقام دائماً في فصل الشتاء . ولهذه الألعاب تقاليد خاصة اقتبس أغلبها من الألعاب الصيفية .

ويشمل برنامج تلك الألعاب :

العربات الزاحفة Bobsled ، الهياكل Skeleton ،

الانزلاق الوضعي Fi ure Skating ، الانزلاق السريع SpeedSkating،

الانزلاق على الثلج Skiing ، القفز على الثلج Skiing Jump،

سباق الانعراج Curling

وقد بدأت هذه الألعاب فى سنة ١٩٢٤ وظلت تعقد حتى اليوم . وها هى سنوات وأماكن الانعقاد السابقة :

١ — سنة ١٩٢٤ : شاموني Chamonix — فرنسا .

٢ — سنة ١٩٢٨ : سان موريتز — سويسرا .

٣ — سنة ١٩٣٢ : بحيرة بلاسيد — الولايات المتحدة .

٤ — سنة ١٩٣٦ : جارميش بارتنكرشن — النرويج .

٥ — سنة ١٩٤٨ : سان موريتز — سويسرا .

٦ — سنة ١٩٥٢ : أوسلو — النرويج .

٧ — سنة ١٩٥٦ : كورتينا دامبيزو — إيطاليا .

٨ — سنة ١٩٦٠ وادى سكو — الولايات المتحدة .

وقد اشتركت فى الدورة الأخيرة التى أقيمت فى المدة بين ٢٦ يناير و ٥ فبراير سنة ١٩٦٠ خمس وثلاثون دولة .

العلم الأولمبى :

وللألعاب الأولمبية علم خاص يسمى « العلم الأولمبى » ، يرفع فى ساحة الألعاب إلى جانب أعلام الدول المشتركة فى المباريات . ويظل مرفوعاً طول الدورة : منذ بدايتها حتى يومها

الأخير . كما يرفع أثناء إقامة مباريات التصفية فى عدة دول وبعض الألعاب ككرة القدم .

وهو يتكون من رقعة بيضاء عليها خمس حلقات ملونة ومتداخلة ، إشارة إلى التضامن والقوة المشتركة فى سبيل السلام . وألوان الحلقات بالترتيب من اليسار إلى اليمين هى : الأزرق ، والأصفر ، والأسود ، والأخضر ، والأحمر . وهى تمثل القارات الخمس : فالحلقة الزرقاء تمثل أوربا ، والصفراء آسيا ، والسوداء إفريقيا ، والخضراء أستراليا ، والحمراء أمريكا . وبالإضافة إلى ذلك فليس هناك دولة إلا ويدخل لون أو أكثر من هذه الألوان فى علمها الوطنى .

وصاحب فكرة هذا العلم هو البارون دى كوبرتان ، وقد عرض فكرته على اللجنة الأولمبية الدولية سنة ١٩١٤ فوافقت عليها ، وقامت الحكومة البلچيكية بصناعة علم فاخر رفع فى دورة سنة ١٩٢٠ التى أقيمت بمدينة أنفرس ، ثم أهدته فى نهاية الدورة للجنة الأولمبية البلچيكية وأصبح منذ ذلك التاريخ العلم الدولى .

وفى آخر أيام الدورة الأولمبية ينزل هذا العلم عن ساريته فى احتفال مهيب ، ثم يسلم إلى محافظ أو عمدة المدينة التى أقيمت بها الدورة ليحتفظ به ، حتى إذا اقترب موعد الدورة التالية سلمه إلى رئيس اللجنة الدولية ، ليسلمه إلى محافظ المدينة التى ستقام بها هذه الدورة .

وقد بقى العلم الأوليمبي محفوظاً فى خزانة أحد البنوك ببرلين عقب دورة سنة ١٩٣٦ ، حتى استولى عليه الحلفاء فى سنة ١٩٤٥ عقب دخولهم تلك المدينة .

الشعلة الأولمبية :

بدأ استعمال الشعلة الأولمبية لأول مرة فى الدورة الحادية عشرة التى أقيمت فى برلين سنة ١٩٣٦ ، وذلك استكمالا لبعض المظاهر الرياضية اليونانية القديمة . فقد ثبت أن سباق الشعلة كان معروفاً لدى اليونان .



الاحتفال بالشعلة فى أوليمبيا

وقد وضع لهذه الشعلة تقليد خاص يقضى بأن تقوم فتاة يونانية رياضية بإشعال غصن زيتون جاف، وذلك بتجميع أشعة الشمس عليه بواسطة مرآة مقعرة فوق أنقاض معبد زيوس بأولمپيا، ومن هذا الغصن يشعل مصباح يونانى قديم يحمله شاب رياضى يونانى. ثم يسير موكب من الفتيات والفتيان وأمامهن حامل الغصن المشتعل والجميع يرددون أناشيد يونانية قديمة حتى يتوسطوا أطلال معبد آخر دفن فيه قلب البارون كوبرتان، وهناك يتقدم أول عداء فيشعل منه شعلته ويبدأ عدوه، وعلى مسافة بضعة كيلو مترات ينتظره عداء آخر يحمل شعلة أخرى يشعلها من شعلته، وهكذا حتى تصل الشعلة إلى ملعب أثينا حيث أقيمت أول دورة حديثة، ومنه تسير الشعلة ثانية إلى الدولة التى ستقام بها الدورة الأولمپية.

ويختلف عدد العدائين تبعاً للمسافة من أوليمپيا إلى مقر الدورة.

وقد يتطلب الحال نقلها بالطائرة، كما حدث عند إقامة دورة ملبورن بأستراليا.

وقد تنقل الشعلة عبر البحر، كما حدث فى دورة سنة ١٩٤٨ التى عقدت بلندن.

وهذه الشعلة ترمز إلى الرابطة القوية التى تصل الروح الأولمپية الحديثة بالمثل العليا التى كان الإغريق القدماء ينشدونها، وإلى رغبة البشر فى مواصلة السير قدماً نحو الرقى والتقدم.

ومن هذه الشعلة توقد نيران الشعلة الدائمة بالملعب الذى تقام فيه الدورة . وتظل مشتعلة طوال أيام الدورة ، رجاء أن يرفرف لواء السلام على العالم طوال العام الأولمبى .

ولكل عداء شعلته الخاصة به يشعلها من شعلة زميله الذى سبقه فى العدو .

وقد اشعلت الشعلة الأولمبية لدورة روما فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ١٢ أغسطس سنة ١٩٦٠ بأولمبيا . ثم حملها العداءون بالتتابع حتى أثينا . ومنها إلى أحد الموانى وهناك حملتها سفينة التدريب البحرية الإيطالية « أمريجو فسبوتشى » إلى ميناء سرقوسة بصقلية . ومن صقلية إلى الساحل الإيطالى . ويعود العداءون لحملها بالتتابع حتى تصل روما فى الموعد المحدد لبدء الدورة . ويبلغ عدد من سيتبادلون حملها ٨١٠ عداء .

والشعلة الدائمة التى تقام فى الملعب الرئيسى للدورة تصنع لها قاعدة من الاسمنت المسلح يبلغ ارتفاعها نحو أربعة أمتار . وتختار لها مادة عديمة الدخان والرائحة حتى لا تحمل الرياح منها إلى المتفرجين ما يضايقهم .

النشيد الأولمبى :

جرت العادة أن تقوم كل دولة بوضع نشيد أولمبى بلغتها فى الدورة التى تعقد فيها . وأول نشيد أولمبى ألقى فى الدورة الأولى بأثينا سنة ١٨٩٦ اقتبس عن أنشودة رياضية قديمة ،

وظلت معانيه تتردد في الأناشيد التى ألفت للدورات التالية .

وقد وضع الشاعر الإيطالى سيجفريد وترويلو Sigfrido Troilo النشيد التالى لدورة روما :

إلى إله أولمپيا

أنت تتلألأ كصورة صافية من نسج الخيال للجمال الخالد ،
أنت رب الحق وراعيه ،
اهبط من سمائك إلى عالمنا يا صاحب الروح التليد .

* * *

أنت درع للعدائين والمصارعين وسند لقاذفى الأقراص ،
تحميهم بذراعيك وتشملهم برعايتك ،
وتتوجهم بالغار الأخضر إذ يحرزون النصر .
أشرق على الدنيا نورا جديدا ، فإليك تتسابق الشعوب ،
كأنها تهرول إلى معبد أشرقت عليه الشمس ،
البحار والجبال والمحيطات تمجدك ،
أيها النجم العتيد ، يا روح إله أولمبيا .

حفلات الافتتاح والختام :

وفى يوم الافتتاح يحضر رئيس الدولة التى تقام فيها الدورة إلى الملعب الرئيسى ويتجه إلى منصة الشرف فتعزف الموسيقى نشيد الدولة ، وبعدئذ ترتفع أعلام الدول المشتركة على أبواب الملعب .

ويبدأ موكب العرض ، فتأتى اليونان فى المقدمة لأنها مهد

الألعاب القديمة ، وتأتى الدولة مقر الدورة فى المؤخرة بصفتها صاحبة مكان الانعقاد ، ويتقدم فريق كل دولة حاملا علمها وخلفه النساء فالرجال . وكلما مر علم أمام رئيس الدولة حياه حامله بإحناء العلم ، ثم تصطف فرق اللاعبين أمام منصة رئيس الدولة ويعلن افتتاح الدورة .

وهنا يرتفع العلم الأولمبى ، حتى إذا وصل إلى قمة السارية أطلق سرب من الحمام الزاجل وفى ساق كل حمامة شريط العلم الأولمبى ، ثم تأخذ الموسيقى فى العزف وتطلق المدافع .

ويصل حامل الشعلة الأولمبية فيتجه نحو الشعلة الدائمة فيوقدها وتظل مشتعلة ، ويتقدم حملة الأعلام فيقفون فى شكل نصف دائرة ، وأثناء ذلك تنحنى الأعلام . ثم تخرج الفرق الدولية بنفس الترتيب الذى دخلت به ، ويغادر رئيس الدولة مكانه وبذلك ينتهى حفل الافتتاح .

وفى المساء تقام بعض الحفلات ، وفى الأيام التالية ، تقام المباريات المختلفة صباحا ومساء .

وتختتم الدورة باجتماع الفرق الأولمبية أمام منصة الشرف ، ثم توزع الجوائز من ميداليات وشهادات شرف على الفائزين ويعلن ترتيب الدول . ثم يقف رئيس اللجنة الأولمبية الدولية فيشكر رئيس وشعب الدولة صاحبة الدورة ، ويعلن انتهاء الدورة ويذكر اسم الدولة التى ستقام فيها الدورة التالية .

وفى نهاية الاحتفال تطفأ الشعلة الأولمبية .

الدورات الأولمبية الحديثة

الدورة الأولى : سنة ١٨٩٦ بأثينا — اليونان

وللتاريخ نسجل برنامج هذه الدورة الذى اشتمل على المباريات الآتية :

١ — ألعاب القوى . ٢ — الجمباز .
٣ — السلاح . ٤ — المصارعة .
٥ — الرماية. ٦ — اليخوت .
٧ — التجديف . ٨ — السباحة .
٩ — الدراجات . ١٠ — الفروسية .
١١ — التنس .

ومما يجدر بالذكر أن اليونانيين كانوا يتطلعون للفوز فى كثير من الألعاب ، وقد تحقق أملهم إذ فاز فى سباق الماراثون عداء يونانى يسمى سپيروس — أحد سعاة البريد بقرية على مقربة من أثينا .

الدورة الثانية : سنة ١٩٠٠ بپاريس — فرنسا

أقيمت بپاريس تكريما لكوبرتان الفرنسى باعث الألعاب الأولمپية فى العصر الحديث ، ولكن المعرض العالمى الذى أقيم بها فى نفس الوقت أثر على الاهتمام بها إلى حد كبير .

الدورة الثالثة : سنة ١٩٠٤ فى سنت لويس — الولايات المتحدة الأمريكية

لم تشترك فيها كثير من الدول ، وذلك لما يتطلبه الوصول إلى أمريكا والإقامة فيها من تكاليف باهظة ، كما أن اللجنة الأولمبية الأمريكية لم تقم بدعاية كافية لها .

دورة أثينا الخاصة :

أقامت أثينا دورة أولمبية فى صيف سنة ١٩٠٦ ، ولكن اللجنة الأولمبية الدولية لم تعترف بها كدورة رسمية .

الدورة الرابعة : سنة ١٩٠٨ فى لندن — إنجلترا

كانت هذه الدورة أكثر نجاحا من سابقاتها ، نظرا لانتشار الوعى الأولمبي فى العالم .

الدورة الخامسة : سنة ١٩١٢ باستكهلم — السويد

تعتبر هذه الدورة أول دورة نجحت من ناحية التنظيم والإدارة ، وكان نجاحها هذا مثلا طيبا دعم الألعاب الأولمبية . والسبب فى ذلك أن السويديين نشطوا للنهوض بالتربية الرياضية فى بلادهم لإدراكهم أهميتها ، ولذلك بذلوا كل جهدهم لنجاح دورتهم .

وفى هذه الدورة تمسك المشرفون عليها بتطبيق مبدأ الهواية ،

ولذلك سحبت من أحد الفائزين الأمريكيين الميداليات التى منحها عندما ثبت أنه محترف ؛ وفيها اشتركت النساء لأول مرة .

الدورة السادسة : سنة ١٩١٦ ببرلين — ألمانيا

لم تعقد بسبب الحرب العالمية الأولى .

الدورة السابعة : سنة ١٩٢٠ فى أنفرس (أنتورب) — بلچيكا

عقدت عقب إتمام الصلح إثر الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) ، ولم تشترك فيها الدول التى هزمها الحلفاء فى تلك الحرب .

الدورة الثامنة : سنة ١٩٢٤ بپاريس — فرنسا

وفيها وصل عدد الدول المشتركة إلى ٤٤ دولة ، وبلغ عدد المتبارين ٣٠٩٢ ، وهو رقم كبير بالنسبة لتلك الأيام .

وفى الألعاب الشتوية التى أقيمت لأول مرة ، أعجب المتفرجون بالسباح چونى ويسمولر الذى اشتهر فيما بعد بتمثيل دور طرزان على الشاشة الفضية .

الدورة التاسعة : سنة ١٩٢٨ بأمستردام — هولندا

اشتركت ألمانيا فى هذه الدورة ، وازداد عدد النساء اللائى اشتركن فيها ، كما ساهمن فى عدة ألعاب .

وممن برزن فى الألعاب الشتوية (الانزلاق) سونيا هينى

النرويجية ، وقد أهلتها بطولتها هى أيضا لكى تكون نجما لامعا من نجوم السينما ، فظهرت فى عدة أفلام استعرضت فيها براعتها فى هذه اللعبة .

الدورة العاشرة : سنة ١٩٣٢ بلوس أنجاوس ــ الولايات المتحدة الأمريكية

وفيها تجلى الروح الرياضى عندما صفق المتفرجون جميعا لبطلين من الزنوج الأمريكيين فازا فى ألعاب القوى .

الدورة الحادية عشرة : سنة ١٩٣٦ ببرلين ــ ألمانيا

بذل الألمان جهدا فائقا فى تنظيم هذه الدورة ، ولذلك يعتبرها الرياضيون أعظم دورة أولمپية شهدها العالم .

الدورة الثانية عشرة : سنة ١٩٤٠ بطوكيو ــ اليابان

كان مقررا أن تعقد فى طوكيو ثم نشبت الحرب بين اليابان والصين فرؤى عقدها فى فنلندا ، ولكنها لم تعقد فى فنلندا أيضا بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية .

الدورة الثالثة عشرة : سنة ١٩٤ بلندن ــ إنجلترا

لم تعقد بسبب الحرب العالمية الثانية .

الدورة الرابعة عشرة : سنة ١٩٤٨ بلندن — إنجلترا

عنى الإنجليز بهذه الدورة لأنها كانت أول دورة تعقد بعد الحرب العالمية الثانية .

وفى تلك الدورة ظهر تفوق النساء فى كثير من المباريات.

الدورة الخامسة عشرة : سنة ١٩٥٢ فى هلسنكى — فنلندا

اشترك فيها الاتحاد السوفييتى ، وظهرت فيها أرقام عالمية قياسية .

ومن أطرف ما حدث فيها أن أحد الفرنسيين شاهد ابنه يفوز ببطولة فى السباحة . فلم يتمالك شعوره وألقى بنفسه فى الماء وهو مرتد ملابسه كلها وقبعته على رأسه وسيجارته فى فمه ، ليقبل ابنه قبلة الإعزاز والإعجاب .

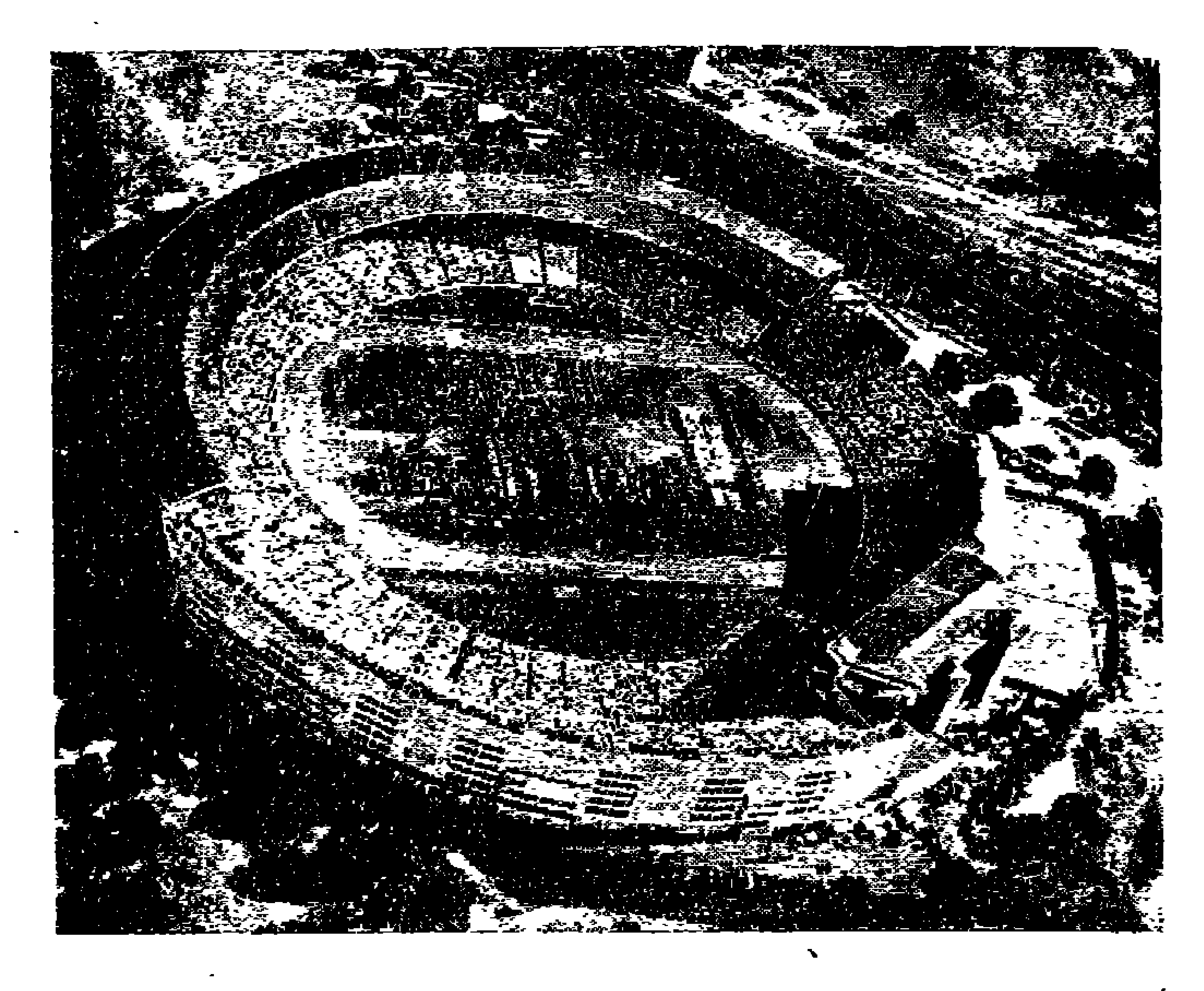
الدورة السادسة عشرة : سنة ١٩٥٦ فى ملبورن — أستراليا

لم يكن الإقبال على تلك الدورة مماثلا للدورات السابقة ، بسبب كثرة تكاليف الانتقال لأستراليا ، ولم تشترك مصر فيها للأسباب التى ذكرناها فى موضوع « مصر والألعاب الأولمپية » .

الدورة السابعة عشرة : سنة ١٩٦٠ فى روما — إيطاليا

وسيرد الكلام عنها بالتفصيل .

وفيما يلى جدول يبين الدورات وسنواتها وأماكن إقامتها . وعدد الدول المشتركة فيها وعدد المتسابقين والدورات التى اشتركت فيها الجمهورية العربية المتحدة .



حفل افتتاح دورة ملبورن

الدورة	السنة	مكان الانعقاد	عدد الدول المشتركة	عدد المتسابقين	عدد المتسابقين المصريين	ملاحظات
الأولى	١٨٩٦	أثينا (اليونان)	١٣	٢٨٥	—	
الثانية	١٩٠٠	باريس (فرنسا)	٢٠	١٠٦٦	—	
الثالثة	١٩٠٤	سنت لويس (أمريكا)	١٠	٤٩٦	—	
الرابعة	١٩٠٨	لندن (إنجلترا)	٢٢	٢٠٥٩	—	
الخامسة	١٩١٢	ستوكهلم (السويد)	٢٨	٣٠٩٢	١	
السادسة	١٩١٦	برلين (ألمانيا)	—	—	ألغيت بسبب	الحرب العالمية الأولى
السابعة	١٩٢٠	أنفرس (بلجيكا)	٢٩	٢٦٠٦	٢٦	
الثامنة	١٩٢٤	پاريس (فرنسا)	٤٤	٣٠٩٢	٣٩	
التاسعة	١٩٢٨	أمستردام (هولندا)	٤٦	٣٠١٥	٤٨	
العاشرة	١٩٣٢	لوس انجلوس(أمريكا)	٣٨	١٤٠٨	— ٦٩	لم تشترك فيها مصر
الحادية عشرة	١٩٣٦	برلين (ألمانيا)	٤٩	٤٠٩٦	٦٧	
الثانية عشرة	١٩٤٠	طوكيو (اليابان)	—	—	ألغيت بسبب	الحرب العالمية الثانية
الثالثة عشرة	١٩٤٤	هلسنكى (فنلندة)	—	—	» »	» » »
الرابعة عشرة	١٩٤٨	لندن(إنجلترا)	٥٩	٤٤٦٨	١٢٣	
الخامسة عشرة	١٩٥٢	هلسنكى (فنلندة)	٦٩	٤٩٢٥	١٦٨	
السادسة عشرة	١٩٥٦	ملبورن (أستراليا)	٦٠	٣٧٨٢	—	لم تشترك فيها مصر
السابعة عشرة	١٩٦٠	روما (إيطاليا)	٨٧	٧٥٠٠	١٤٧	

النساء والألعاب الأولمبية الحديثة

عرفنا مما سبق أن النساء حرمن من الاشتراك فى الألعاب الأولمبية القديمة، غير أن القائمين بأمر الألعاب الحديثة أباحوا لهن الاشتراك فيها .

ولكن النساء لم يتقدمن للمباريات إلا فى دورة سنة ١٩١٢، إذ اشتركت فانى دوراك Fanny Durak فى سباحة السيدات وفازت بالبطولة مما أثار الإعجاب، فكان ذلك حافزا للجنس اللطيف على التقدم فى المباريات الأخرى، ولذلك نجد فى الدورات التالية أسماء بطلات عديدات فى ألعاب القوى وفى السلاح والجمباز والتنس، وكذلك فى بعض الألعاب الشتوية .

الفصل الرابع

دورة روما

من ٢٥ أغسطس إلى ١١ سبتمبر سنة ١٩٦٠

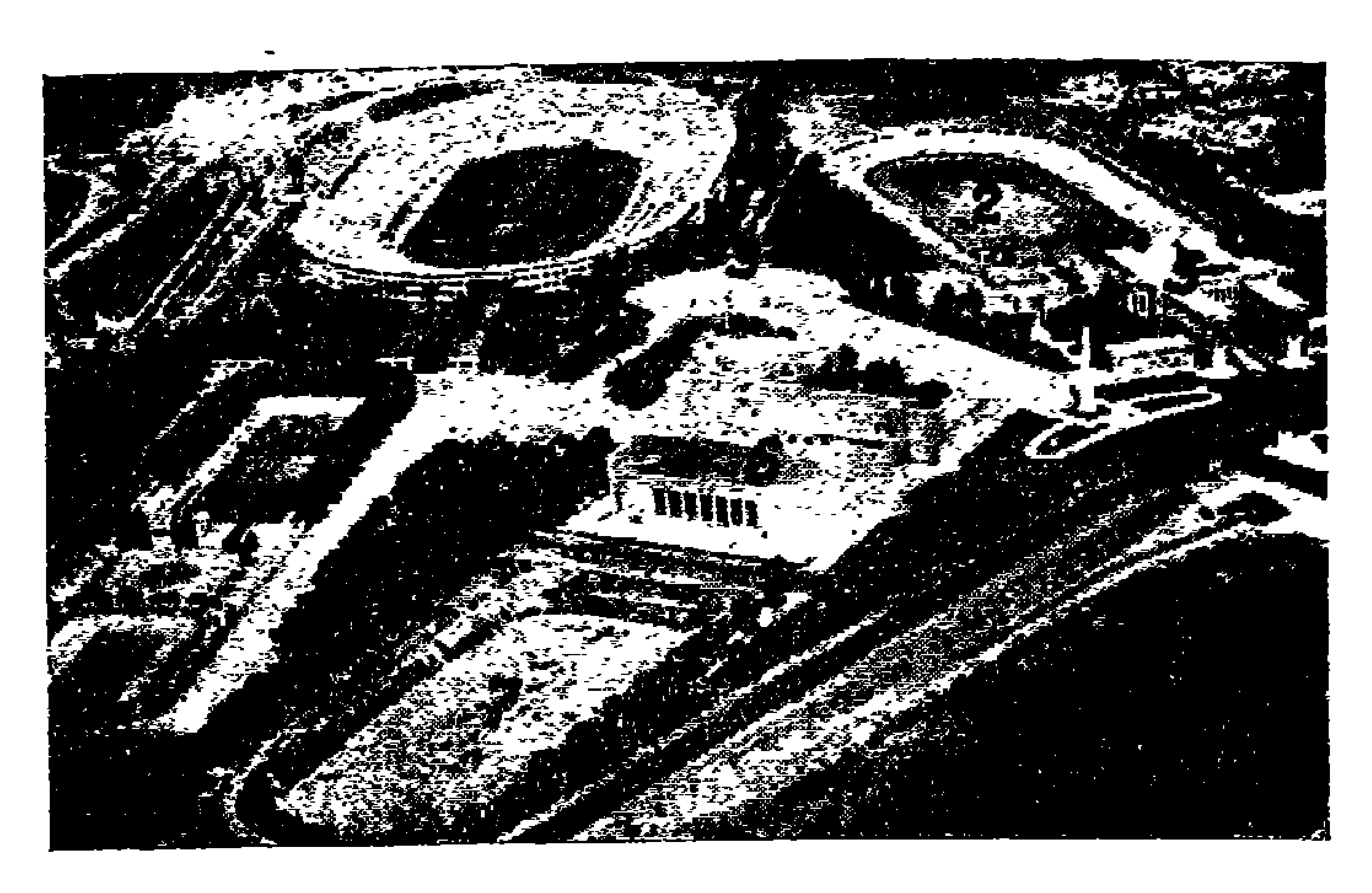
تعتبر دورة روما الدورة رقم ٣١١ منذ بدأت الألعاب الأولمبية القديمة، والدورة رقم ١٧ بالنسبة للدورات الحديثة وقد تقرر إقامتها بروما فى سنة ١٩٥٥ . ومنذ ذلك التاريخ أخذت إيطاليا فى الإعداد لها .

وفيما يلى بيان بما قامت به إيطاليا من أجل دورتها :

المدينة الرياضية : (فورو ايتاليكو)

تعتبر تلك المدينة من أعظم وأفخم المدن الرياضية فى العالم . وهى تقع فى أجمل بقعة بروما ، تحف بها الأشجار والغابات . كما أنها قريبة من قلب المدينة ، ووسائل الوصول إليها سهلة ومتوفرة ، فضلا عن أنها تضم جميع المنشآت المختلفة التى تفى بحاجة الألعاب الأولمبية .

وهى تحتوى على ملعب كبير يتسع لمائة ألف متفرج، وملاعب أخرى عديدة لمختلف الألعاب والسباقات، وأعدت بحيرة فى إحدى الضواحى لسباق القوارب، وعلى طول الطريق



أهم ملاعب روما وفيها يظهر الملعب الأولمبي (١)

من روما إلى المدينة الرياضية أنشئت محطات للطائرات لكى يركبها من يرغب من المتفرجين والزائرين فى مشاهدة المدينة الأولمبية من الجو .

القرية الأولمبية :

ينتظر أن يبلغ عدد من ستستضيفهم روما أثناء الدورة الأولمبية نحو مائتى ألف شخص ، ولذلك حولت الأقسام الداخلية بالمدارس والجامعات إلى فنادق ، وأقيمت كذلك قرية خاصة تتكون من عدة فيلات تضم ١٥٠٠ شقة ليقيم فيها اللاعبون والإداريون خلال الدورة .

وقد أحيطت القرية بسور وجعل لها ثلاثة مداخل ، وزودت بالمياه والمجارى والكهربا ورصفت شوارعها . كما أقيمت عشرات الملاعب على مقربة منها ، لإعطاء كل فريق فرصة التدريب قبل المباريات .

وقد تكلف إعداد القرية نحو أربعة ملايين جنيه ، وستؤجر مساكنها بعد انتهاء الدورة للإيطاليين .

وقد زودت القرية بعشرة مطاعم يمكنها تقديم أطعمة لنحو ٣٠٠٠ شخص فى مواعيد لا تتعارض مع المواعيد المقررة للألعاب . وتشرف على إدارة تلك المطاعم مدرسة الفنادق الإيطالية وبعض المتطوعين ، وقد ضم إلى الطهاة الإيطاليين طهاة من بعض الدول لطهو ما يطلبه لاعبوها من أصناف خاصة بهم . وتشمل قوائم الطعام التى ستقدم فى مختلف الوجبات أصنافا عديدة ، كما كلف عشرات الأطباء بالإشراف على الطعام حرصا على صحة المتبارين .

وعهد بالإشراف الرئيسى على القرية لممثلى اليونان وإيطاليا واليابان ، وذلك تكريما لليونان مهد الألعاب الأولمپية ، ولإيطاليا مقر الدورة الحالية ، ولليابان حيث ستعقد دورة سنة ١٩٦٤ ، إشارة إلى الرغبة فى استمرار انعقاد تلك الألعاب .

أما عدد الموظفين المساعدين فيبلغ نحو ٢٠٠٠ موظف .

وقد افتتحت القرية فى ٢٦ يوليو لاستقبال وفود المتبارين .

إعلان النتائج والأنباء والصور :

وقد اتخذت الإجراءات الكفيلة بتجميع كل النتائج والأنباء من جميع الملاعب فى مركز واحد ، ثم إعلانها بطريقة منتظمة بواسطة الإذاعة ثم نشرها بالصحف . وقد أقامت ستين دولة أجهزة لإذاعة الأنباء بانتظام ، وأعدت لوحتان كبيرتان (١٦×٧ متر) لإعلان النتائج بالأنوار الكهربية ، واحتكرت إحدى شركات التلفزيون إذاعة المباريات مقابل مبلغ ٢٩٠ ألف جنيه .

طوابع البريد والبطاقات التذكارية :

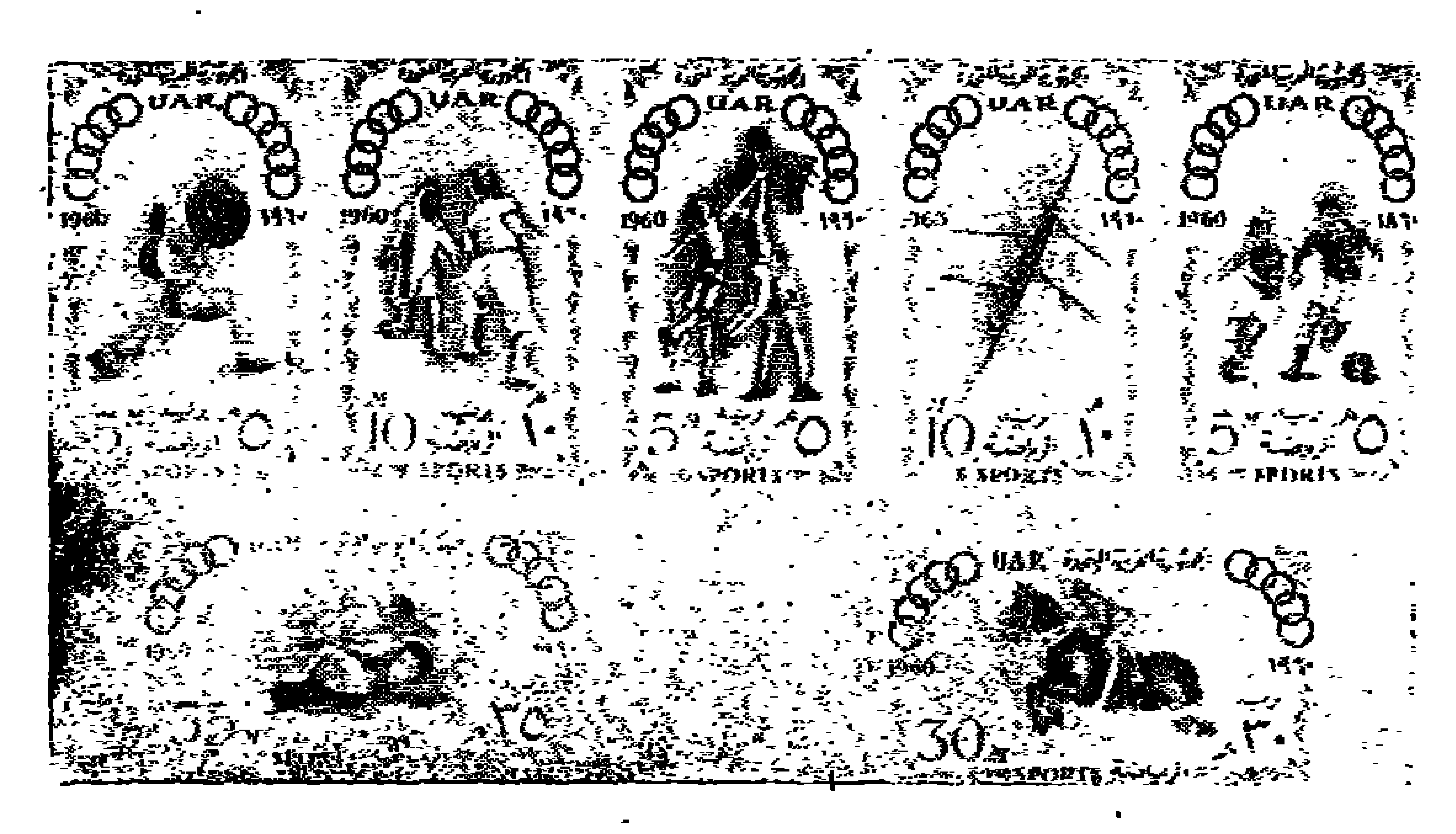
وقد أصدرت الحكومة الإيطالية عدة طوابع بريد تذكارية لهذه الدورة ، كما قامت دول أخرى من ناحيتها بإصدار طوابع مماثلة ، وطبعت بطاقات تحمل مناظر الألعاب الأولمبية القديمة ، وقد ساهمت الجمهورية العربية المتحدة وأصدرت بهذه المناسبة مجموعة طوابع تذكارية .

البطاقة الشخصية للدورة :

وستصرف لأعضاء اللجنة الأولمبية الدولية واللجان الأولمبية الأهلية والمتبارين والصحفيين بطاقات شخصية تقوم مقام جوازات الجنسية ، وتبيح لحامليها حق ركوب وسائل الانتقال التى ستخصص للمتبارين مجانا وكذا دخول المتاحف والمعارض .

برنامج دورة روما :

وقد استقر الرأى على أن يضم البرنامج الألعاب الآتية :



الطوابع التذكارية التى أصدرتها الجمهورية العربية المتحدة

١ — ألعاب القوى
٢ — التجديف
٣ — كرة السلة
٤ — الملاكمة
٥ — الزوارق الصغيرة
٦ — الدراجات
٧ — الفروسية
٨ — السلاح
٩ — كرة القدم
١٠ — الجمباز
١١ — الهوكى
١٢ — المصارعة
١٣ — السباحة
١٤ — الخماسى الحديث (پنتاثلون)

١٥ — رفع الأثقال ١٦ — الرماية
١٧ — كرة الماء ١٨ — اليخوت

وقد قررت اللجنة الأولمبية الإيطالية أن يكون الحد الأقصى لمجموع أفراد الفرق الرياضية لأى دولة فى دورة روما هو ٣٠٦ من الرجال و ٦٦ من النساء .

إيرادات الدورة :

يبنى الشعب الإيطالى آمالا واسعة على تلك الدورة فى انتظار ملايين الجنيهات التى ستدرها عليهم . ولذلك لم يبخلوا فى الإنفاق عليها ، وقد بلغ ما أنفق عليها نحو ٣٢ مليون جنيه .

الدول العربية والدورة :

وسيشترك فى تلك الدورة من الدول العربية — عدا الجمهورية العربية المتحدة — السودان ، ولبنان ، والمغرب ، وتونس ، والعراق .

حكام من العرب :

بلغ عدد الحكام الذين وقع عليهم الاختيار ٨٢٤ شخصا ، منهم ٢٥٠ من غير الإيطاليين، منهم ١١ من الجمهورية العربية المتحدة .

معرض الصور الفوتوغرافية الرياضية :

وأقيم كذلك معرض للصور الفوتوغرافية التى تتصل بالنواحى الرياضية ، وقد اشترك فيه أفراد من نحو أربعين دولة ، وموعد افتتاحه من أواخر يولية حتى آخر أغسطس سنة ١٩٦٠ .

معرض الرياضة فى التاريخ والفن :

وقد أقيم بهذه المناسبة معرض للرياضة فى التاريخ والفن ، وسيضم مجموعة طيبة من التحف المتناثرة فى شتى المتاحف الإيطالية ، كما سترسم أو تصور أو تصنع نماذج للتحف التى لا يمكن نقلها أو التى توجد فى دول أجنبية .

وستضم تلك المعروضات صورا من الألعاب الرياضية عند قدماء المصريين .

وإلى جانب ذلك سيخصص قسم يشمل الكتب التى تتناول النواحى الرياضية سواء من الناحية التاريخية أو الفنية .

التأمين على حياة المتبارين :

وقد عقدت اللجنة الأولمبية الإيطالية اتفاقا مع إحدى شركات التأمين للتأمين على حياة المتبارين والصحفيين .

الميداليات التذكارية وميداليات الفائزين :

قام بعمل الميدالية التذكارية المثال الإيطالى رامبليو جريكو، على أحد وجهيها فتاة تجرى حاملة شعلة أولمبية والحلقات المتشابكة رمز الألعاب الأولمبية ، وعلى الوجه الآخر نسور تحلق فى سماء استاد روما إشارة إلى الانتصارات التى سينالها بعض المتبارين وصدى ذلك فى العالم .

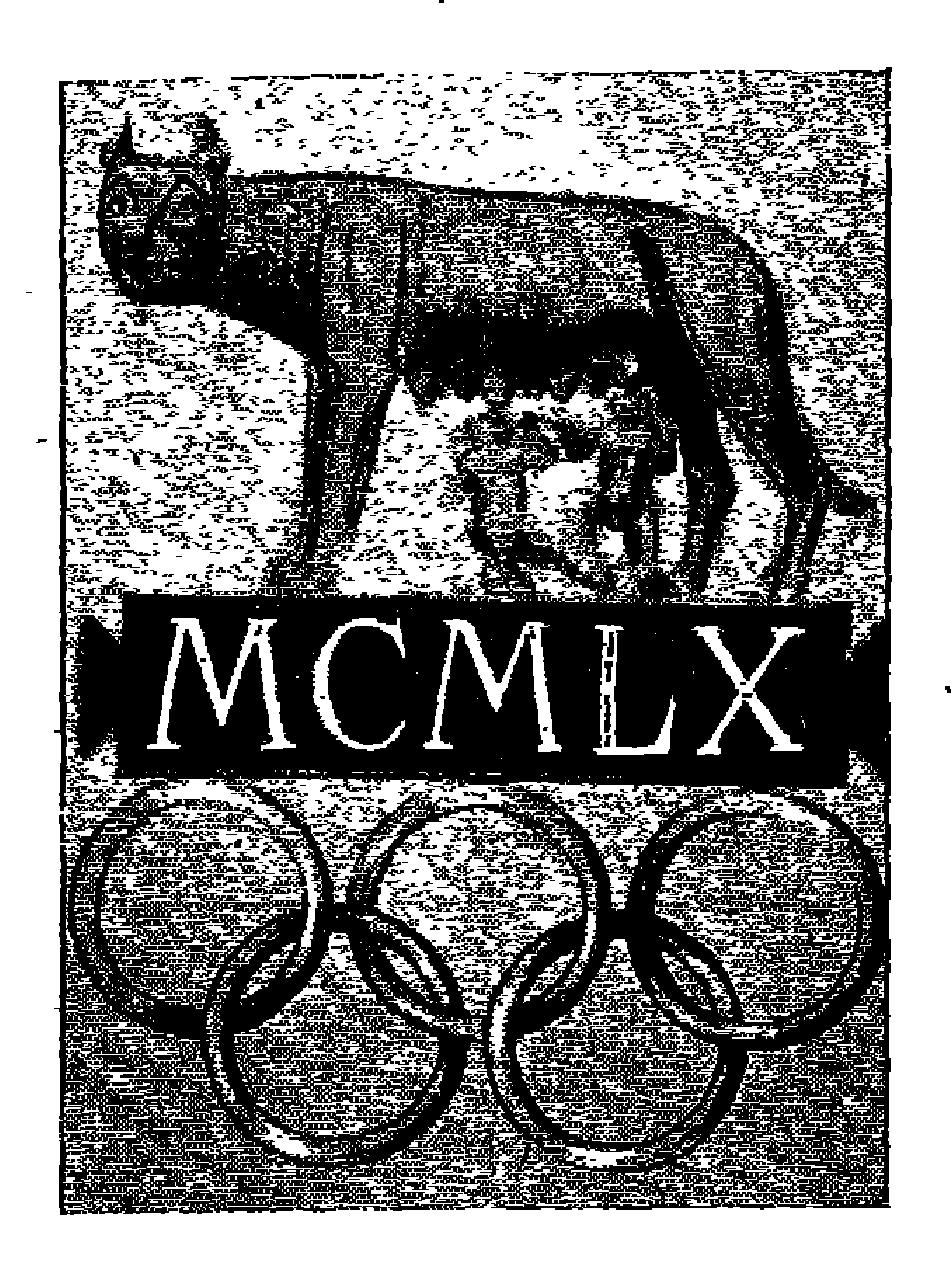
أما الميدالية التى ستمنح للفائزين فهى من تصميم فنان إيطالى خر ، وسبق أن سُكَّت فى الدورات السابقة ابتداء من دورة سنة ١٩٣٢ .

وميداليات الفائزين ذهبية وفضية وبرونزية . وقد خصص لكل مباراة عدد معين من كل منها .

شعار الدورة :

اتخذت روما الذئبة التى ترضع طفلين شعارا لها وهو شعار قديم استعمله الرومان ، يرمز إلى أسطورة قديمة فحواها أن أحد أمراء المدن قتل شقيقه ملك تلك المدينة، كما قتل زوجته واغتصب العرش لنفسه ورمى « رومولس» و «ريموس» طفلى أخيه فى نهر التيبر ، فحملهما التيار حتى ألقى بهما على أحد شاطئيه،

وهناك وجدتهما ذئبة، فلما رأتهما تحركت فيها عاطفة الأمومة ، فحملتهما إلى جحرها وأرضعتهما حتى كبرا واستطاعا الخروج خارج الجحر ، فرآهما أحد الرعاة وتبناهما وتولى تربيتهما حتى كبرا . وشاءت العدالة الإلهية أن ينتقما من عمهما ويقتلاه ، ثم فكرا فى



شعار دورة روما

إنشاء مدينة ولكنهما اختلفا على البقعة التى تقام عليها فتقاتلا ، وصرع رومولس أخاه وبنى مدينة جديدة أطلق عليها اسماً أخذه من اسمه، وهكذا نشأت روما .

ذلك هو الشعار الذى استعملته روما لدورتها الأولمبية وتظهر تحته « ١٩٦٠ » بالأرقام الرومانية ثم الحلقات الأولمبية الخمس .

الفصل الخامس

الجمهورية العربية المتحدة والألعاب الأولمبية

اللجنة الأولمبية العربية :

تكونت هذه اللجنة فى سنة ١٩١٠ باسم اللجنة الأولمبية المصرية ، وقد ظلت قائمة حتى سنة ١٩٣٤ثم أعيد تكوينها .

ولما قامت الجمهورية العربية المتحدة أدمجت اللجنة الأولمبية المصرية واللجنة الأولمبية السورية فى لجنة أولمبية عربية موحدة .

ورئيس اللجنة الأولمبية العربية هو السيد حسين الشافعى .

مصر والدورات الأولمبية السابقة :

لم يكن لمصر أى نشاط دولى فى ميادين الرياضة حتى سنة ١٩١٠ ، ففى ذلك العام تأسست بالإسكندرية أول لجنة أولمبية مصرية ، واختير مسيو أنجيلو بولاناكى مندوبا للجنة الأولمبية الدولية فى مصر ، وقررت اللجنة المصرية الاشتراك فى الدورة الأولمبية الخامسة التى أقيمت فى استكهولم سنة ١٩١٢. ولم يكن اشتراك مصر فى تلك الدورة اشتراكا فعليا ، وإنما كان رمزيا بقصد استرعاء اهتمام المصريين بالدورات الأولمبية ، ولذلك

اشتركت مصر بلاعب واحد هو « أحمد حسنين » الذى كان فى ذلك الوقت طالبا بانجلترا وأحد أبطال الشيش يومئذ ، ولكنه خرج من التصفية الأولى فى فردى الشيش وكذلك فى سيف المبارزة . وأخذت مصر بعدئذ تستعد للدورة السادسة فى برلين سنة ١٩١٦ ، ولكن تلك الدورة لم تقم بسبب الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ – ١٩١٨ .

وفى سنة ١٩٢٠ كان الوعى الرياضى قد ازداد بين أبناء مصر ، وزاد عدد اللاعبين فى كافة الألعاب حتى أصبح من الممكن أن تشترك مصر فى ألعاب كثيرة ، وفعلا اشتركت فى الدورة السابعة التى انعقدت فى تلك السنة فى ألعاب كرة القدم ، وألعاب القوى ، والجمباز ، والسلاح ، ورفع الأثقال ، غير أن الفرق المصرية لم تنل فوزا يذكر .

وفى دورة باريس سنة ١٩٢٤ اشتركت مصر فى ألعاب القوى والملاكمة والدراجات والسلاح وكرة القدم والمصارعة الرومانية ورفع الأثقال ومسابقة الفنون . وقد فاز فى رفع الأثقال الرباع حامد سامى بدبلوم شرف فى وزن المتوسط ، وإبراهيم مصطفى بدبلوم شرف أيضاً فى المصارعة ؛ وهكذا بدأت مصر تشق طريقها بخطوات واسعة

نحو الفوز . وفى كرة القدم أدهشت مصر العالم بفوزها على المجر التى كانت يومئذ من أقوى دول العالم فى هذه اللعبة ، ولكن فريق السويد تغلب على فريق مصر وفازت مصر بدبلوم شرف ، وكان بين حكام كرة القدم مصرى هو الأستاذ يوسف محمد .

وفى سنة ١٩٢٨ زادت الفرق المشتركة فى الدورة الأولمبية بأمستردام ، وفى هذه الدورة أثبتت مصر جدارتها وتقدمها ، إذ فازت بميداليتين ذهبيتين فى وزن خفيف الثقيل فى المصارعة الرومانية وفى وزن خفيف الثقيل فى رفع الأثقال أحرزهما إبراهيم مصطفى والسيد محمد نصير ، هذا فضلا عن ميدالية فضية وأخرى برونزية فى الغطس من السلم الثابت والمتحرك نالهما فريد سميكة ، كما وصل فريق كرة القدم إلى الدور قبل النهائى حيث حصل على المركز الرابع ؛ وقد اشترك السيد ميشيل هرمن فى هيئة التحكيم لألعاب القوى .

وفى سنة ١٩٣٢ لم تشترك مصر فى الدورة الأولمبية العاشرة التى أقيمت فى لوس أنجلوس بالولايات المتحدة ، وذلك بسبب الوضع الذى اعتبرته مصر مجحفا بحقها فى التمثيل الأولمبى إذ لم تمثل فى اللجنة الأولمبية الدولية ، وقد صحح هذا الوضع سنة ١٩٣٤ ، إذ عين مصرى عضوا بها ومندوبا لها فى مصر .

وفى الدورة الأوليمبية الحادية عشرة التى أقيمت فى برلين سنة ١٩٣٦ استعدت مصر استعدادا طيبا ، وشجعها على ذلك النتائج الطيبة التى حصلت عليها فى دورة أمستردام فاشتركت فرق الملاكمة وكرة السلة ، وفازت مصر بميداليتين ذهبيتين فى رفع الأثقال فى وزن خفيف الثقيل ووزن المتوسط نالهما محمد مصباح وخضر التونى ، وبميدالية فضية وميداليتين لوزن الريشة نالها صالح سليمان ، وميداليتين برونزيتين لوزن الريشة وخفيف الثقيل أيضا نالهما إبراهيم شمس ووصيف إبراهيم ، ونال دبلومات شرف : إبراهيم عرابى فى المصارعة ومختار حسين وإبراهيم سعود فى رفع الأثقال . وفى هذه الدورة نال أبطال الحديد المصريون إعجاب العالم برفعاتهم الفريدة التى لم تعرف فى الدورات الأوليمبية السابقة ، كما أن أبطال الألعاب الأخرى أمكنهم أن يثبتوا كفاءتهم وإن لم يفوزوا بالمراتب الأولى أو الثانية .

وفى سنة ١٩٤٨ اشتركت مصر فى دورة لندن فى الألعاب الآتية : ألعاب القوى ، الملاكمة ، السلاح ، كرة القدم ، الجمباز ، التجديف ، السباحة والغطس وكرة الماء ، رفع الأثقال ، المصارعة الحرة والرومانية ، وكرة السلة .

وفازت مصر فى هذه الدورة بميداليتين ذهبيتين وميداليتين فضيتين فى رفع الأثقال وفى المصارعة، نالها محمود فياض وإبراهيم شمس وعطية محمد ومحمود حسن، ونال إبراهيم عرابى ميدالية برونزية فى وزن خفيف الثقيل فى المصارعة، ونال دبلومات شرف خضر التونى وحنفى مصطفى فى رفع الأثقال وسعد حافظ والسيد قنديل فى المصارعة ، ورغم اشتراك مصر فى كرة الماء لأول مرة فإن فريقنا وصل إلى الدور قبل النهائى ، وكان ترتيبه السابع بين فرق العالم .

وفى سنة ١٩٥٢ وصل اللاعبون المصريون إلى الأدوار التى قبل النهائية فى ألعاب كثيرة ، وأمكن تحقيق القصد من الاشتراك فى الدورة وهو اطلاع أكبر عدد من لاعبى مصر على آخر ما وصل إليه مستوى العالم الرياضى فى كافة الألعاب ، أما أهم النتائج التى حصلت عليها مصر فهى الميدالية البرونزية فى وزن الريشة للمصارعة الرومانية وقد نالها عبد العال راشد ، أما فى ألعاب القوى فقد ضرب فريق مصر الرقم القياسى فى سباق ٤×١٠٠ متر . ونال دبلومات شرف كل من إسماعيل رجب ومحمد إبراهيم صالح وسعيد خليفة جودة وكمال محجوب وعبدالقادر التونى فى رفع الأثقال ، ومحمود فوزى فى المصارعة ، ومحمود يونس فى

المسابقة الفردية لسلاح الشيش ، كما نال دبلوم الشرف فريق سلاح الشيش .

ولم تشترك مصر فى دورة ملبورن بأستراليا سنة ١٩٥٦ لتفرغ أسودها للدفاع عن عرينهم ضد الحرب المسعورة التى شنتها على مصر بعض الدول الاستعمارية إثر تأميم قناة السويس ، تلك الحرب التى انتهت بالهزيمة المخزية للمعتدين الغادرين مما لا يزال عالقا بالأذهان ، ولكن مصر اشتركت فى مسابقة الفروسية الأولمبية التى أقيمت باستوكهلم فى شهر يونية وفازت بالمركز التاسع فى الترتيب الفردى فى جائزة الشعوب لقفز السدود .

الجمهورية العربية المتحدة ودورة روما :

أعدت الجمهورية العربية المتحدة عدتها للاشتراك فى دورة روما ، وتقدم للاشتراك فيها ثمانون لاعبا نرجو أن يكون الفوز حليفهم .

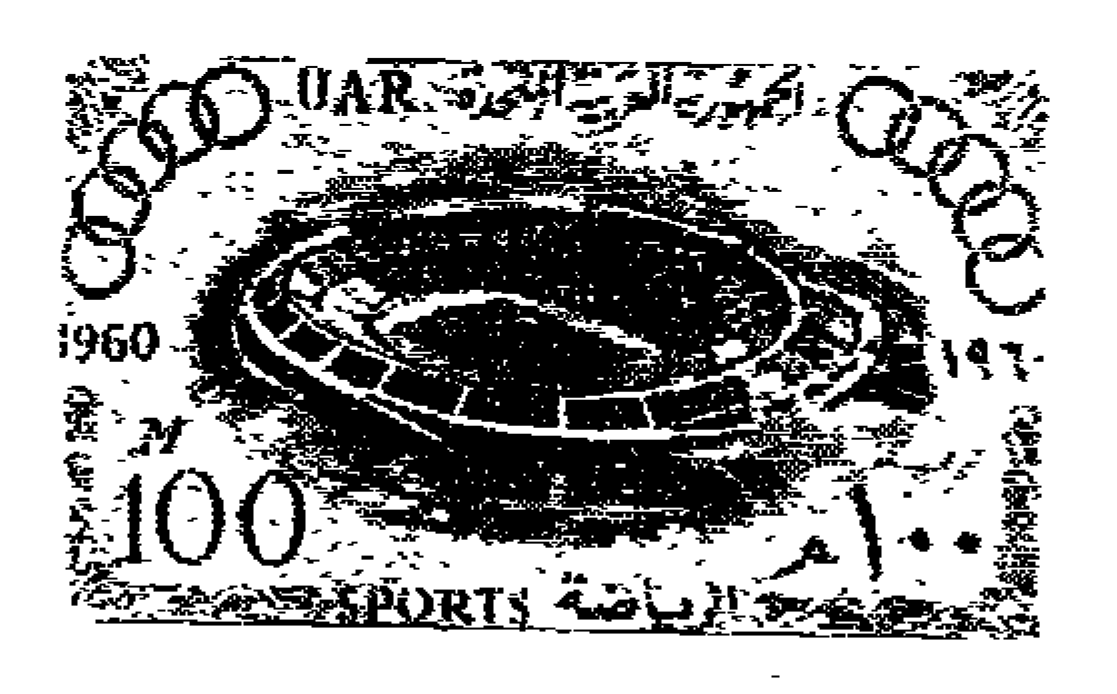
وفيما يلى الألعاب التى سيشترك فيها أبطالنا وعدد المشتركين فى كل منها :

كرة القدم	١٨	لاعباً	الملاكمة	٤	لاعباً
الفروسية	٤	»	كرة الماء	١١	»
ألعاب القوى	٣	»	السلاح	٦	»
السباحة والغطس	٤	»	التجديف	١١	»

رفع الأثقال ٧ لاعباً	الجمباز ٦ لاعباً
الرماية ٣ »	المصارعة ٤ »

* * *

وبعد فقد نهضت التربية الرياضية نهضة عظيمة فى عهد الثورة المباركة ويضيق المقام عن حصر كل ما عمل ويعمل فى هذا الميدان وقد توجت هذه الجهود الموفقة : ببناء الاستاد الرياضى الكبير بمدينة نصر بالقاهرة والذى ينتظر أن تقام فيه الدورة الأولمبية التاسعة عشر سنة ١٩٦٨ .



طابع تذكارى لافتتاح إستاد القاهرة

ويلقى الرياضيون العرب كل تقدير وإجلال وأكبر مثال لتكريم الثورة للرياضيين أن الرئيس جمال عبد الناصر أرسل سيارته لنقل أبطال المانش يوم عادوا إلى القاهرة فائزين ولما

ذهبوا إلى القصر الجمهوري استقبلهم سيادته هو والوزراء مرحبين ومهنئين .

لنقارن هذا بما حدث منذ نحو ثلاثين عاماً عند ما عاد البطل السيد نصير إلى القاهرة بعد فوزه بالميدالية الذهبية فى الدورة الأولمبية سنة ١٩٢٨ .

لم يكن فى استقباله بمحطة العاصمة أحد وفى اليوم التالى ذهب إلى المصلحة التى يعمل بها فسأله رئيسه :

ــ كنت فين ياسى سيد ؟

فذكر له السيد نصير أنه كان يمثل مصر فى الألعاب الأولمبية وأنه فاز بالبطولة فكان رد رئيسه :

ــ إنت مش هتبطل لعب وتلتفت لشغلك أحسن

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠

التربية البدنية

لم تعد التربية البدنية مجرد هواية تمارس على هامش الحياة وتملأ أوقات الفراغ بل أصبحت ضرورة من ضرورياتها وركناً هاماً من أركانها .

وقد عرف لها المربون العصريون حقها فأولوها اهتمامهم وجعلوا منها مادة تدرس فى المدارس والمعاهد وخصصوا بها جزءاً من اليوم الدراسى وحثوا الشباب والناشئة على الإقبال عليها ومزاولتها . فقد أدرك الناس أن تربية العقول وتربية الأبدان أمران متلازمان لا غنى لأحدهما عن الآخر وأنهما الشرط الأساسى والدعامة الركينة لقيام المجتمعات القوية الصالحة ، والأمم العظيمة الناهضة .

وقد عنيت دار المعارف بأن تقدم إلى قرائها مجموعة خاصة بالتربية البدنية موفرة بذلك سبل الوصول إلى الصحة التى تمكنهم من تغذية عقولهم بما تقدم إليهم من ألوان العلم والفكر والأدب .

● وقد ظهر من هذه المجموعة :

كن قوياً

للأستاذ إسكندر قرالى ١١٢ صفحة الثمن ١٥ قرشاً

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع

سبتمبر ١٩٦٠ الثمن ٣٠ مليماً

اقرأ

الدكتور جورج وهبه العفى

عصر التليفزيون

دار المعارف بمصر

عَصْرُ التليفزيون

الدكتور جورج وهبه العفي

عصر التليفزيون

اقرأ ٢١٤

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢١٤ – أكتوبر ١٩٦٠

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ٥ شارع ماسبيرو – القاهرة ج. ع. م.

عصر التلفزيون

بدأ عصر التلفزيون فى بلادنا . . . وربما كنت أحد السعداء الذين أتيح لهم شراؤه فى الصفقات الأولى . أو لعلك فى انتظار دورك بفارغ الصبر إذا كنت من سكان البلاد البعيدة عن القاهرة . ولقد صار اقتناء التلفزيون ميسوراً بفضل تلك التسهيلات فى تقسيط الثمن ، ومحطات التقوية وإقامة شبكة كاملة تغطى جميع أجزاء الجمهورية العربية المتحدة سوف تتيح للمواطنين مشاهدة معجزة التلفزيون .

أليس التلفزيون معجزة حقاً ؟

إن هذا الاختراع يمثل أعواماً طويلة من الصبر والبحث والدراسة ، ولكل جزء صغير من التلفزيون قصته الخاصة ، التى كشف عنها علماء كافحوا وقاموا بالتجارب الكثيرة التى كان نصيب بعضها الإخفاق ، فإذا بها سلم يقودهم إلى النجاح .

أصبح التلفزيون اليوم حدثاً اجتماعياً له خطورته فى عالمنا الحاضر . إنه يطوف بنا فى كل مكان : فى المدينة الكبيرة ،

والقرية الصغيرة ؛ على سواحل البحار ، وفى وسط الصحارى ، حيث الكفاح والجهاد من أجل الحياة ، حياتك أنت .

كثير من الرجال والأبطال المجهولين يعملون على رفاهيتك المستقبلة و رفاهية الوطن العزيز . إنهم يتركون الأرض المملوءة بالخير والرفاهية وأنواع الراحة سعياً وراء البحث عن الثروات المخبوءة وسط الصحارى . تشاهدهم كيف يحولون الرمال الصفراء إلى تربة سوداء خصبة ، ويخرجون من باطنها — الذى لم يكن يدل إلا على الموت والفقر والجوع — ماءً عذباً يبعث الحياة والخصب .

إن هذه الحياة الجديدة سوف تهز كياننا هزاً ، فيعرف شبابنا أن المستقبل مفتوح أمامه على مصراعيه كى يعيش حياة كريمة هو جدير بها .

تستطيع أيها القارئ الكريم وأنت جالس فى إحدى غرف منزلك أن تشاهد البرامج الموسيقية والتمثيلية والمحاضرات والدراسات العلمية والثقافية والمباريات الرياضية والمهرجانات والحفلات والأعياد الشعبية . ترى أمامك على شاشة التلفزيون الأضواء والزينات ، وصور هذه الوجوه المستبشرة المتهللة التى امتلأت بها فى أعياد الثورة شوارع القاهرة والميادين والمتنزهات ، وذخرت بجموعهم ضفاف النيل . وترى تلك الاستعراضات الرائعة الضخمة . ترى قائد ثورتنا وباعث نهضتنا يوجه حديثه إلينا فى كلمات تنبض بالحياة ، وكأنه يتحدث إلينا عن قرب ، وهو فى

الحقيقة أقرب ما يكون إلى قلوبنا .

لقد كان للتلفزيون أثر عميق فى حياة الشعوب : جمع أفراد الأسرة حول شاشة التلفزيون فشعروا بدفء الحياة المنزلية ، بعد أن كان الكثيرون يقضون سهراتهم فى المقاهى والملاهى أو تبادل الزيارات .

وقامت حرب عوان بين التلفزيون والسينما . إن السينما لن تموت إذا ارتقت بمستوى الأفلام إلى حد يدعو إلى تحمل عناء الوصول إليها وشراء التذاكر ، وإلا فلن يغادر الواحد منا بيته ، ولن يكلف نفسه نفقات إضافية فى استطاعته توفيرها . وكذلك المسرح .

فهل فى استطاعة التلفزيون أن يغرى بالبقاء فى المنزل لمشاهدته ؟ نعم ، إذا كانت البرامج قد أعدت بطريقة مشوّقة ، ينتظرها الجميع ويتمتعون بمتابعتها ، حتى لو كانت تعالج موضوعات اجتماعية أو تاريخية أو علمية ، فإن الجمهور سيتقبلها من أجل ثقافته بسرور وشغف إذا قُدّمت له بطريقة خفيفة مسلية . إن عصر التلفزيون فى جمهوريتنا العربية المتحدة قد بدأ منذ أسابيع ، وأمامه مستقبل رائع عظيم ، فسوف يسهم فى تقدم جميع أوجه الحياة الاجتماعية والثقافية والعلمية والفنية والصناعية والزراعية ، وسوف يتيح لعدد كبير من شبابنا أعمالا فنية

لا حصر لها ، وذلك فى صناعة العدد الهائل من الأجهزة الألكترونية وغيرها اللازمة للتلفزيون . ولقد بدأت المصانع عندنا تعمل منذ ٢٣ يولية الماضى لإعداد هذه الأجهزة والآلات ، بتجميع القطع المستوردة ، ثم لا تلبث أن تصنع كل تلك القطع من خامات بلادنا ، وبأيد عربية صميمة .

قصة التلفزيون

كان لنظريات مكسويل وقيام هيرتز بإثبات صحتها بواسطة التجارب العملية الفضل الأكبر فى قيام علم جديد له تطبيقات هائلة أحدثت ثورة عميقة فى عصرنا الحاضر . ومن أعظم تلك النتائج العلمية العملية : الراديو والرادار والتلفزيون . لم يكن الطريق سهلاً معبداً ، بل إن عشرات وعشرات من العلماء تتابعوا فى البحوث الشاقة المختلفة ووقفوا حياتهم وجهودهم على البحث والتجربة ، ولم يبالوا بالعقبات التى اعترضتهم ، فتخطوها بالصبر والعناد .

فى عام ١٨٧٣ نشر مكسويل العالم الرياضى الكبير كتابه « دراسات فى الكهربا والمغناطيسية » ، فأذهل العالم بعبقريته وذكائه الخارق .

ولد جيمس كلارك مكسويل فى « أدنبرة » ، فى اليوم الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٨٣١ ، وكان أبوه محامياً يعيش فى بسطة من العيش ، وماتت أمه وهو فى الثامنة من عمره . وكان مكسويل منذ طفولته طُلَعة مشغوفاً بمعرفة كل شىء . كان لا يقنع بالرؤية ، بل كان يسأل دائماً : « ما الفائدة من هذا الشىء ؟ » . ولحسن حظه كان أبوه محباً للعلوم البحتة والتطبيقية ، فأدخل ابنه جامعة أدنبرة عندما بلغ السادسة عشرة . وأظهر جيمس خلال السنوات الثلاثة التى قضاها بها تفوقاً خاصاً فى دراسة الضوء . ثم التحق بعد ذلك بجامعة « كمبردج » حيث كان « فاراداى » لا يزال يجرى بحوثه ، فوجد ماكسويل نظريةِ الكهربا المغناطيسية مادة لدراسته . وكانت ثورة علمية حقيقية ، إذ كشف بعد دراساته الطويلة وتحليلاته لنظريات أستاذيه « أمپير » و « فاراداى » أن التغييرات الدورية التى تحدث فى الحقل المغناطيسى يجب أن تتولد فيها موجات كهربية تنتشر بنفس الصورة التى تنتشر بها الموجات على صفحة الماء إذا ما ألقينا فيه بحجر . وبما أن التغييرات فى الحقل الكهربى تولد حقلا مغناطيسيا ، فلا بد إذن من أن موجات مغناطيسية تصحب الموجات الكهربية وتكون عمودية عليها .

وباجتماع الموجتين نحصل على الموجة الكهرمغناطيسية .

ووجد ماكسويل أيضاً أن سرعة هذه الموجة تعادل سرعة الضوء ، أى ٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر فى الثانية . وهذا يعنى بدوره أن الضوء عبارة عن موجات كهرمغناطيسية .

كان العلماء معجبين بماكسويل وبآرائه السحرية ، ولكنهم عارضوه بشدة ، بل حاربوا نظرياته . وبالرغم من أن نظريته نشرت على العالم فى سنة ١٨٦٤ فإنهم لم يعترفوا بها إلا فى عام ١٨٧٢ . ومن الغريب أن أحدا لم يفكر فى إجراء تجارب عملية لإثباتها حتى من بين تلاميذ ماكسويل نفسه فى معهد بحوث « كاڤندش » بعد إنشائه وتعيينه مديراً له وأستاذاً للطبيعة التجريبية به . كان الفضل فى ذلك للعالم «هلمهولتز » الذى اقترح على أحد تلاميذه النوابغ ، هو « هنريش هيرتز » ، إجراء مثل تلك التجارب ، فقد يأتى بنتائج ذات فائدة .

ومات كل من مكسويل وفاراداى قبل أن يكشف هيرتز عن وجود الموجات الكهرمغناطيسية . وكانت وفاة جيمس مكسويل فى الخامس من نوفمبر عام ١٨٧٩ .

ذكر « هيرتز » عندما اقترح عليه أستاذه « هلمهولتز » إجراء التجارب على نظرية مكسويل — أن « جوزيف هنرى » و « هلمهولتز» كانا قد اكتشفا قبل ذلك بنحو ثلاثين عاماً أن ذبذبات سريعة متتالية تحدث عند تفريغ جهاز ليدن

وفى خلال تجاربه الشاقة المستمرة لاحظ أنه عند إفراغ أحد الملفين فى جهاز ليدن يحدث تأثير فى الملف الآخر البعيد عنه .

عجب لذلك وأعاد التجربة فعرف أن هذا التأثير لن يكون إلا إذا كان هناك فراغ صغير بين طرفى الملف الأول ، وأن هذا التأثير يحدث حتى لو زدنا المسافة بين الملفين . وقام بتكرارها فجعل الفراغ فى الملف الثانى . وكان له نفس التأثير ، أى أن شرارة كهربية صغيرة قفزت من أحد الملفين إلى الآخر . لم يقتنع بهذا النجاح العظيم ، بل بقى فى معمله يغير من المسافات ومن ظروف التجارب حتى أعلن بعد ذلك بنحو عام كامل ، أى فى سنة ١٨٨٧ صدق نظريات مكسويل . لقد كشف هيرتز عن الموجات المعروفة باسمه . وهى الموجات اللاسلكية . واستطاع أن يجرى على موجاته الجديدة جميع التجارب التى تجرى على موجات الضوء ، كالانعكاس والانكسار والتداخل والاستقطاب . وأصبحت بعد ذلك نظريات مكسويل حقائق ثابتة معترفاً بها من الجميع .

ولد هنريش رودلف هيرتز فى هامبورج بألمانيا فى الثانى والعشرين من فبراير سنة ١٨٥٧ . وعندما بلغ العشرين من عمره ذهب إلى ميونيخ لدراسة الهندسة ، ولكنه لم يلبث أن اكتشف ميوله الشديدة إلى الدراسات النظرية للعلوم ، فتحول

إلى دراسة الطبيعة التجريبية تلميذاً لهلمهولتز فى جامعة برلين ، ثم مساعداً له .

ومن الطريف أن نعرف أن هيرتز بعد كشفه عن الموجات الكهرمغناطيسية لم يكن ليلقى أية أهمية لما يكون وراءها من فوائد عملية واقتصادية عظيمة . فالتطبيقات الصناعية والأرباح المادية لم يكن ليلقى إليها أهمية كبيرة .

وفى عام ١٨٨٩ كاد يكون الكاشف الأول للأشعة المجهولة بدلا من رونتجن . وقصة ذلك أنه كان قد عين أستاذاً للطبيعة فى جامعة « بون » الألمانية ، وفى أثناء تجاربه الكثيرة على التفريغ الكهربى خلال الأنابيب المفرغة ، كأنابيب كروكس ، لاحظ شعاعاً ضئيلا عند أحد طرفى الأنبوبة ، ولكنه لم يوجه إليه اهتماماً . ومات هيرتز فى اليوم الأول من يناير من عام ١٨٩٤ ، وهو فى السابعة والثلاثين من عمره . وكان قد قضى ما بقى من حياته القصيرة فى الكشف عما خفى من خواص الكهربا ، وبذلك مهد لنظرية النسبية ببحوثه ونظريته عن الكهربا الديناميكية للأجسام المتحركة ونظرية الكوانتا « الكم » التى كشف عنها ماكس پلانك .

وجاء بعد هذين العالمين كثيرون من المخترعين يعملون على تطبيق هذه النظريات والكشوف . فظهر فى فرنسا العالم إدوارد

برانلى (١٨٤٤ — ١٩٤٠) الذى استعمل برادة الحديد بدلا من جهاز هيرتز الرنان .

وفى روسيا اخترع ألكسندر پوپوف (١٨٥٩ — ١٩٠٥) الجهاز الهوائى لالتقاط الموجات الهيرتزية (اللاسلكية) على مسافة عشرات الكيلومترات . ولذلك يعتبر فى روسيا أول مخترع للجهاز اللاسلكى المستقبل . ففى شهر مايو من عام ١٨٩٥ شرح پوپوف جهازه لالتقاط الموجات اللاسلكية أمام معهد العلوم الفيزيائية فى جامعة « سان بترسبرج » ، وكان قد تنبأ بأن الإنسان إذا استطاع عمل تغييرات كهربية شبيهة بالتفريغ الكهربى للسحب فإنه سيتمكن من إرسال الإشارات اللاسلكية عبر الفضاء إلى مسافات بعيدة . ونجح فى سنة ١٨٩٦ من إرسال أول إشارة لاسلكية .

وفى عام ١٨٩٩ كلفته الحكومة الروسية إقامة مواصلات لاسلكية بين إحدى السفن المشرفة على الغرق وجزيرة جوجلاند لتسهيل عملية الإنقاذ ، وقد نجح فى ذلك پوپوف مع مساعده ريبكن .

وينسب لماركونى (١٨٧٤ — ١٩٣٧)أكبر الفضل فى نجاح اللاسلكى ، لإدراكه فائدة موجات هيرتز للنقل عبر الفضاء، ففى عام ١٨٩٤ كان ماركونى يدرس تلك الموجات اللاسلكية واستعمال الهوائى فى جامعة بولونيا الإيطالية تلميذاً للأستاذ العالم

« ريجى » الذى كان يتحدث إلى تلاميذه — ومن بينهم « جوجليلمو ماركونى » — عن هيرتز وموجاته ويصور لهم فى تجارب رائعة كيف ترسل الأمواج وكيف تلتقط ، مما زاد فى حماسة ماركونى ، فأخذ يدرس تلك الأمواج ويجرى عليها الأبحاث حتى صار — وهو فى العشرين من عمره — يجرى تجارب ما كانت تجول بخيال هيرتز وماكسويل ولا أستاذه « ريجى » نفسه . إنه يستطيع إطلاق الأمواج ووقفها حسب إرادته ، وإنه يرسل الأمواج طويلة أو قصيرة . ويتنبأ لهذه الأمواج بأنها سوف تستطيع الكشف عن مواضع الطائرات وتسهل إسقاطها ، وهو ما تحقق فعلا فى الكشف عن الرادار خلال الحرب العالمية الثانية ، ثم تنبأ أيضاً باستعمال الموجات فى أغراض طبية وفى إدارة المصانع والإضاءة .

وقام ماركونى فى سنة ١٨٩٦ فى إنجلترا بنقل أول إشارات لاسلكية استقبلها من مسافة عشرة كيلومترات بواسطة جهاز مورس ، وحصل فى نفس تلك السنة على أول براءة اختراع ، وذلك فى الثانى من يونية .

وفى سنة ١٨٩٩ أرسل أول رسالة لاسلكية من إنجلترا إلى إدوارد برانلى فى فرنسا يعبر له عن شكره وتقديره له . وفى الثانى عشر من شهر ديسمبر سنة ١٩٠١ كان ماركونى فى الأرض الجديدة منحنياً على جهازه اللاسلكى ، وهو يسائل نفسه :

« ترى هل تصل الإشارات المرسلة من أوربا عابرة المحيط الأطلنطى ؟ » ، وعلى بُعد ثلاثة آلاف من الكيلومترات كان يقوم على جهاز الإرسال فى إنجلترا عالم آخر وأستاذ للكهربا اسمه « أمبروز فلمنج » (١٨٤٩ – ١٩٤٥) ، وقد أرسل فلمنج إشارات حرف (S) عبر المحيط ، وكان يفكر فى نفسه ويقول : « لماذا لا نرسل بدلا من الرموز مثل حرف (S) بعض الكلمات التى ينطق بها الإنسان ؟ »

ليس ذلك من الميسور بطريقة موجات هيرتز لأن ذبذباتها تحدث فى اتجاهين متضادين . فإذا توصل إلى طريقة تجعل التيارات الكهربية لا تتذبذب إلا فى اتجاه واحد ، كان له ما يريد . واقترح عمل صمام لا يسمح بمرور التيار إلا فى اتجاه واحد فقط .

وتذكر فلمنج فجأة ، وكأنّ وحياً هبط عليه من السماء ما كان قد درسه قبل ذلك بخمسة عشر عاماً عن تأثير « إديسون » . ويتلخص تأثير إديسون فى آلة مولدة للكهربا تبعث تياراً فى سلك معدنى موضوع فى أنبوبة مفرغة الهواء ، فيسخن السلك ، وبذلك يقوم بدور المهبط ، ويطرد بعيداً عنه الألكترونات التى تحررت من السلك ، فتكوّن فيما بينها شيئاً يشبه السحاب المتراكم .

راودت فلمنج فكرة وضع لوحة معدنية مشحونة بالكهربا

الموجبة أمام هذا السحاب المتراكم ؛ ولما كانت الألكترونات سالبة الشحنة فإنها تنجذب نحو اللوحة ؛ وكلما تحررت الألكترونات من السلك الساخن انجذبت إلى اللوحة المعدنية ، وبذلك يسرى تيار كهربى بين السلك واللوحة المثبتين بالطبع فى الأنبوبة المفرغة الهواء .

هذا السلك وهذه اللوحة المعدنية هما قطبان كهربيان للأنبوبة التى اخترعها فلمنج وسميت باسمه : « صمام فلمنج الثنائى » ، والتى لا تسمح بمرور التيار إلا فى اتجاه واحد ، وهو الحلم الذى أراد تحقيقه لنقل الكلام والموسيقى بواسطة الموجات اللاسلكية عبر الفضاء ؛ وقد سجل اختراعه فى عام ١٩٠٤ .

لى دو فورست :

فى عام ١٩٠٤ والأعوام التالية كان « لى دو فورست » يعمل مهندساً ومديراً لشركة لاسلكية صغيرة فى الولايات المتحدة ، ويقوم فى الوقت نفسه بأبحاث خاصة باللاسلكى . وكان صمام فلمنج قد ذاع وانتشر استعماله ، ولكن لى دو فورست كان يرى فيه نقصاً واضحاً جديراً بالبحث . كان صمام فلمنج لا يفيد إلا إمرار التيار ووقفه فقط . فما أروعه من حلم جميل إذا أتيح له اختراع صمام مرن يستطيع إمرار تيار ضعيف أو قوى حسب الحاجة إليه مما يزيد فى فائدته وأوجه استعماله ،

ونجح فعلا دوفورست عام ١٩٠٧ فى الكشف عن الصمام الثلاثى . والقطب الثالث الذى أضافه إلى اللوحة المعدنية ، والسلك الموجود فى صمام فلمنج الثنائى ، يمكن شحنهما بكهربا مختلفة الشدة والنوع ، فعندما تكون شحنتها سالبة تطرد الألكترونات المتحررة من السلك بعيداً عنها ، فلا يكاد الكثير منها يصل إلى اللوحة المعدنية . أما إذا شحنت بكهربا موجبة فإنها تجذبها إليها وتزيد من سرعة مرور الألكترونات ، فتزداد شدة التيار الكهربى المار فى صمام دوفورست الثلاثى . وبعد أن كانت الموجات التى ترسل عن طريق صمام فلمنج الثنائى تصل — عن طريق الهوائى إلى المستقبل على مسافة مئات وآلاف الكيلومترات — ضعيفة لا تكاد تسمع ، إذا بها تصل قوية واضحة بصمام دو فورست الجديد .

الكشف عن التأثير الكهرضوئى

موظف صغير يقوم فى عام ١٩٠٥ بالإشراف على مكتب براءات الاختراع فى برن عاصمة سويسرا — هذا هو أينشتين .

كان فى السادسة والعشرين من عمره عندما تخرج فى پولتكنيك زوريخ ، معهد من أعظم معاهد العالم للعلوم

التطبيقية . وبالرغم من ذلك لم يعثر على عمل فى التدريس . كان متزوجاً من إحدى زميلاته الطالبات ، وأصبح لهما طفلان . ولكن حياته العائلية ، ووظيفته ، ومن يحيط به من الزملاء ، لم يكن كل ذلك ليمنعه من أن يعيش فى عزلة فكرية تامة . كان هناك حاجز منيع بينه وبين العالم ، وكان ذلك من حسن حظ العالم ، إذ خرج إليه بنظريات ثورية جديدة كان لها أثرها العميق فى انقلابات علمية خالدة فى تاريخ الإنسانية والعلم . كان أينشتين يدرس ما تركه هيرتز قبل عشرين عاماً من بحوث أبرزت إلى الوجود أهميتها البالغة نظريات ماكس پلانك وتجارب لينارد . وكان هنريش هيرتز قد لاحظ فى عام ١٨٨٧ ما يحدث عندما تصطدم حزمة من الضوء بتيار كهربى إذ تزداد شدة التيار . لم يكن هيرتز ولا زملاؤه من العلماء يعرفون سر هذه الزيادة . وبقى الأمر سراً حتى كشف « ج . ج . تومسون » عن الألكترون عام ١٨٩٥ ، وعرف كيف تتحرر الألكترونات من السلك إذا سلط عليه ضوء ، كما يحدث أيضاً فى حالة تسخينه .

كانت النظرية التى خرج بها ماكس پلانك إلى العالم ، والتى دعت أينشتين إلى دراسة نظريات هيرتز من جديد : الكوانتا (الكم) ، وهى أن الطاقة التى كانت تعتبر من قبل شيئاً غير مادى هى فى اعتبار پلانك جسيمات مادية تنتشر فى

مجموعات صغيرة . وأخذ أينشتين يفكر فى عزلته : « ولنفرض كذلك أن الضوء ينتشر أيضاً فى مجموعات صغيرة اسمها الفوتونات ! أى أننا عندما نضىء جسماً معدنياً نقذفه بفوتونات ؛ وهذا هو سبب تحرر ألكترونات من الجسم المعدنى » .

ارتكز أينشتين على هذه الفروض وجعلها أساساً لقوانين التأثير الكهرضوئى ، وصور ذلك بالطريقة التالية :

توضع لوحتان صغيرتان الواحدة بقرب الأخرى ، وتوصلان بمولد كهربى . لن يحدث مرور تيار كهربى لأنه لا توجد دائرة مغلقة تسمح بمرور التيار . فإذا سلطنا ضوءاً على إحدى اللوحتين فقط تغلق الدائرة ويمر تيار كهربى ، كما يثبت لنا ذلك جهاز الجلفانومتر . وإذا ازدادت شدة الضوء ازدادت شدة التيار الكهربى تبعاً لذلك ، بشرط أن يكون الضوء من نفس النوع ، وليكن فوق البنفسجى مثلا . وإذا جعلنا اللون الأحمر بدلا من اللون فوق البنفسجى بدون أن نغير من شدة التيار الكهربى الموصل للوحتين ، فماذا نرى ؟ تقل شدة التيار المارّ بين اللوحتين إلى أن ينعدم تماماً .

ويمكن إدخال لفظى ألكترونات وفوتونات على هذه التجارب .

ونشر أينشتين قوانينه ونظرياته المشهورة فى عام ١٩٠٥ . وفى نفس الوقت تقريباً نجح عالمان ألمانيان هما « جوليوس

أستر » و « هانز جيتل » في صنع خلية كهرضوئية ، وكان ذلك محض مصادفة . وتشبه الخلية الكهرضوئية الأنبوبة الألكترونية ، فهي أنبوبة مفرغة من الهواء ، لها لوحة معدنية تمثل المهبط ، وسلك من التونجستين يمثل القطب الموجب . وتتصل اللوحة المعدنية بالقطب السالب لمولد كهربي ، ويتصل المصعد بالقطب الموجب له . واللوحة المعدنية مغطاة بطبقة من معدن قلوى مثل السيزيوم تسقط عليها حزمات من الضوء ، فتتحول الطاقة الضوئية عند وصولها إلى اللوحة إلى تيار كهربي . والخلية الكهرضوئية (العين السحرية) حساسة إلى حد كبير جداً لتحويل الضوء إلى كهربا ، فهي تحول مثلا في جهاز المستقبل التلفزيوني ما يصل إلى اثني عشر مليوناً من تغييرات شدة الضوء في الثانية . أي أن حساسيتها تبلغ حداً يفوق حد التصور لأضواء ضئيلة جداً إلى درجة لا يمكن الشعور بها إلا للعين البشرية وجهاز التصوير ، فالعين البشرية تستطيع في الليالي الصافية السماء رؤية شمعة على بعد عشرة كيلومترات . وأذكر أنني خلال الحرب العالمية الماضية كنت عائداً إلى الوطن على ظهر باخرة تعبر المحيط ، وكانوا يمنعون المسافرين إشعال السجاير فوق سطح الباخرة في الليل خوفاً من أن تلمحها إحدى غواصات أو طائرات الفريقين المتحاربين . وقد أمكن الحصول

بجهاز التصوير الذى فى مرصد پالومار على صورة لكوكب يبعد عنا ثلاثين ألف كيلومتر !

نقل الصور الثابتة « البلينو »

نرى كثيراً من الصور المنقولة بواسطة اللاسلكى فى الصحف وقد كتب تحتها : « صورة نقلت بالبلينو » وهى كلمة مشتقة من اسم صاحبها المخترع « إدوارد بيلان » . والفرق بين البلينو والتلفزيون هو أن الأول ينقل الصور كما هى تماماً كصورة شخصية عظيمة أو اجتماع تاريخى هام ، وذلك بطريق اللاسلكى أما التلفزيون فهو ينقل إليك منظراً متحركاً لإنسان يتحدث فتراه كما تستمع إليه ، أو ترى سباقاً أو مباراة رياضية أو حفلا كبيراً ، وتراقب كل ما يجرى فيه تماماً كأنك وسط المتفرجين. ويعتبر نقل الصور بالبلينو الخطوة التى أدت إلى اختراع التلفزيون ، فأساسها الخلية الكهرضوئية والصمام الثلاثى . ولإرسال صورة من مدينة إلى أخرى تبعد عنها مئات بل آلاف الكيلومترات تلف الصورة فى جهاز الإرسال حول أسطوانة ، ويسلط عليها ضوء قوى يوضع أمام الأسطوانة التى تدور حول نفسها . وفى الوقت نفسه تتحرك أثناء دورانها على محور الأسطوانة ، وبذلك تمر جميع أجزاء الصورة فى أثناء دورانها حول الأسطوانة أمام

الخلية الكهرضوئية ، فتنبعث من الخلية نبضات كهربية تتغير شدتها باختلاف شدة الضوء المنبعث من الصورة . ثم تكبر الإشارات الصغيرة التى سجلت حتى يمكن إرسالها بواسطة التليفون ، ومنذ عام ١٩٤٨ نقلت بواسطة اللاسلكى إلى جهاز الاستقبال الموجود فى دار الصحيفة؛ وجهاز الاستقبال مكون من أسطوانة وخلية كهرضوئية تشبه تماماً أجهزة الإرسال ، ولكنها تدور فى اتجاه عكسى ، والورقة التى تغطى الأسطوانة هنا بيضاء حتى تسجل عليها نقط الصورة التى تبدو نقطاً خفيفة أو ثقيلة كما فى الصورة الأصلية ، فإذا نظرنا إليها بواسطة عدسة مكبرة ، وأحياناً بالعين المجردة ، رأينا النقط التى تتكون منها الصورة فإذا نظرنا إليها من بُعد اختفت النقط وظهرت صورة كاملة حقيقية .

موجات وموجات

كان الاستعمال الوحيد للإرسال اللاسلكى — بعد نجاح ماركونى الرائع فى إرسال الإشارات اللاسلكية — هو إنقاذ البواخر فى عرض البحار . لقد أنقذت تلك الموجات اللاسلكية سبعمائة وعشرة من الركاب عندما تصادمت الباخرة الأمريكية

« الجمهورية » بالباخرة الإيطالية « فلوريدا » فى عام ١٩٠٩ بسبب انتشار الضباب ؛ ثم تلك الكارثة المشهورة التى حدثت بعد ذلك بثلاثة أعوام للباخرة « تيتانيك » . لقد ظلت ساعات طوالا ترسل إشارات طلب النجدة « S.O.S » وهى تغرق ، ولسوء الحظ لم تصل إليها بواخر الإنقاذ إلا بعد أن غطتها المياه وغرق معها ثلاثة آلاف راكب . . .

وكانت الإشارات اللاسلكية إلى جانب ذلك تقوم بإرسال التلغرافات اللاسلكية والتنبؤات الجوية .

ويؤثر عن العالم الكبير « تسلا » أنه قال فى أوائل هذا القرن — أى قبل حادثى الباخرتين بأعوام قليلة — : « ليس ببعيد ذلك اليوم الذى سوف تتاح فيه الاتصالات اللاسلكية لمسافات بعيدة جداً . فإذا كان لى صديق فى الطرف الآخر من العالم فسوف يكون فى استطاعتى التحدث معه بواسطة التليفون اللاسلكى . . . » ولم يكن التليفون اللاسلكى قد ظهر بعد ، فكان الناس ، بل كثير من العلماء أنفسهم ، يتهمونه بالخبل والجنون . وبعد خمسة أعوام فقط تحققت نبوءة تسلا حين اخترع لى دوفورست صمامه الثلاثى الخالد الذى حقق معجزة التحدث باللاسلكى !

ما هى موجات اللاسلكى التى كانت تنقل إشارات الإنقاذ ثم المراسلات التلغرافية دون سلك، وأخيراً التحدث باللاسلكى ؟ إنها الموجات الكهرمغناطيسية التى عرفنا قصتها من قبل والتى كشف عنها هنريش هيرتز .

ومنذ ذلك التاريخ حتى الآن ازداد عدد الموجات اللاسلكية وأنواعها إلى حد-أترك لك أيها القارئ العزيز تقديره بنفسك.

طول الموجة	طبيعة الموجة
١٠ كيلومترات	الموجات الطويلة
١٠٠٠ متر إلى ١٠٠ متر	الموجات المتوسطة
١٠٠ متر إلى ١٠ متر	الموجات القصيرة
١ متر إلى ١ سنتيمتر	الموجات القصيرة جداً
٠٠٠٤ و ٠	طيف النور الذى تبصره العين
٠٠٠٨ و ٠	الأشعة تحت الحمراء
٠٠٠٠٢ و ٠	الأشعة فوق البنفسجية
٠٠٠٠٠٠١ و ٠	أشعة رونتجن

ويمكن تحويل الموجات الطويلة إلى معدل التردد . كما فى الجدول الآتى :

طول الموجة	طبيعة الموجة	التردد
١٠ ك . م .	الموجات الطويلة	٣٠٠٠٠ (٣٠ كيلوسيكل)
١٠٠٠ متر (١ك .م.	الموجات المتوسطة	٣٠٠٠٠٠(٣٠٠كيلوسيكل)
١٠٠ متر	الحد بين الموجات المتوسطة والقصيرة	٣٠٠٠٠٠٠(٣٠٠٠كيلوسيكل)
١٠ متر	الموجات القصيرة	٣٠ مليون(٣٠ميجاسيكل)
١ متر	موجات قصيرة جداً	٣٠٠ مليون (٣٠٠ ميجاسيكل)
١ سنتيمتر	موجات قصيرة جداً	٣٠٠٠٠ مليون ٣٠٠٠٠ميجاسيكل

كان المشتغلون باللاسلكي يظنون فى أول الأمر أن الموجات اللاسلكية كلما كانت أطول أمكن الوصول بها إلى مسافات أبعد . إذ أن الموجات القصيرة التى تقترب من موجات الضوء توقفها الحواجز وتمتصها الأرض لاستدارتها . وهذه وإن كانت حقيقة معروفة إلا أنهم لم يكونوا قد عرفوا بعد خصائص الموجة القصيرة . إن الموجات الطويلة كلما ازدادت طولا احتاجت إلى مولدات للكهربا قد تصل إلى حجم يشبه حجم المولد الذى يضىء مدينة صغيرة . كما أن الهوائى الواحد لا يكفيه ، بل يحتاج إلى عشرات الأعمدة الهوائية التى يبلغ ارتفاع كل منها مائتين وخمسين متراً

وقد أقام كثير من الهواة محطات لاسلكية لاستقبالهم الخاص ، فرأت الحكومات المختلفة فى أوربا وأمريكا أن فى ذلك انتهاكاً لحرمة سرية الرسائل اللاسلكية وأن لها وحدها الحق

فى القيام بهذا العمل. وإذ كانت تعتقد أن الموجات التى تقل عن مائتى متر لا فائدة لها مطلقاً فى الإذاعة اللاسلكية سمحت للهواة بأن يعملوا عليها فقط . وبدأ الهواة تجاربهم وهم يكافحون للحصول على أبعد المسافات . فأصبحت مئات الكيلو مترات ثم الآلاف .

وفى اليوم السادس والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٢٣ نجح أحد هؤلاء الهواة وهو « ليون دولوا » فى التحدث من نيس فى جنوب فرنسا مع زميلين له من الهواة فى الولايات المتحدة الأمريكية . وأدرك الأمريكيون حينذاك أن تلك الموجات القصيرة أكثر وضوحاً وشدة من تلك التى ترسلها أقوى المحطات الأوربية بمولداتها الهائلة وأعمدتها الهوائية الشاهقة .

كانت موجة من الدهشة والذهول ! . . . إذ كيف تستطيع موجات قصيرة لا تحتاج إلى أكثر من بضع عشرات من الكيلووات من الكهربا يقوم بها جماعة من الهواة لم ينالوا من التعليم الفنى أى قسط ، أن تتفوق على محطاتهم الهائلة ؟

كيف كان ذلك ؟

كتب « أوليفر هيفسيد » فى عام ١٩٠٢ فى الموسوعة البريطانية مقالاً ذكر فيه : « من المحتمل وجود طبقة موصلة للكهربا فى طبقات الجو العليا ، فإذا كان هذا صحيحاً فإن جزءاً من الموجات على الأقل تقف عند تلك الطبقة المشحونة

بالكهربا . وتبقى هكذا منحصرة بين سطح البحر وبين هذه الطبقة » .

كتب هذا المقال بعد عام تقريباً من نجاح تجربة ماركونى فى إرسال إشاراته اللاسلكية من پولدهو إلى الأرض الجديدة . وكان أوليڤر هيڤسيد (١٨٥٠ — ١٩٢٥) أحد العلماء الذين اعتزلوا العالم الخارجي واعتكف فى مدينته الصغيرة « توركيه » ، وكان قد قضى شطراً كبيراً من حياته من قبل يعمل مع « هويتستون » مؤسس التلغراف فى إنجلترا . وفى نفس العام الذى كتب فيه هيڤسيد مقاله (عام ١٩٠٢) قال العالم الطبيعى الأمريكى « آرثر أدوين كينيلى» (١٨٦١ — ١٩٣٩) : إن هناك طبقة فى الجو تنعكس منها الموجات . وبقيت الآراء النظرية لكل من هيفسيد وكينيلى دون تطبيق عملى حتى تحقق ذلك على يدى السير « إدوارد إپلتون » (المولود فى سنة ١٨٩٢) ، وذلك فى اليوم الحادى عشر من ديسمبر عام ١٩٢٤ .

كان إپلتون أحد العلماء البارزين الذين عملوا مع ج . ج . تومسون فى معامل بحوث كاڤندش . وفى عام ١٩٤٧ حصل على جائزة « نوبل » ، وعين أستاذاً بجامعة لندن . كانت أولى النتائج التى حصل عليها من تجاربه أن هناك فعلا طبقة عاكسة للموجات ، قدر ارتفاعها عن سطح البحر بنحو مائة من الكيلومترات ، وأنها لا تسمح مطلقاً للموجات القصيرة بالمرور

منها ؛ ويليها فى ذلك الموجات المتوسطة ثم الموجات الطويلة . وعندما أرسل موجاته التى تتراوح بين عشرة أمتار وخمسين متراً كشف عن طبقة جديدة تبعد عن الأرض بحوالى مائة وتسعين كيلو متراً .

وبعد ثلاثين سنة من التجارب والبحث المستمر تبين أن هنالك ثلاث طبقات عاكسة : الأولى منها تبعد مسافة سبعين كيلومتراً ، والثانية تبعد مائة وعشرين ، والثالثة تروح بين مائتين وخمسين وثلثمائة كيلومتر .

وتكون هذه الطبقات الثلاثة ما نسميه « اليونوسفير » ، وهى مشحونة بالألكترونات . وتنعكس الموجات الطويلة عند الطبقة الأولى من اليونوسفير التى تبعد سبعين كيلومتراً فقط . وتنعكس الموجات المتوسطة عند الطبقة الثانية ، والموجات القصيرة عند الطبقة الثالثة والأخيرة .

ويلاحظ أن الموجات القصيرة فى أثناء النهار قد لا تسير مئات الكيلومترات . أما فى الليل ففى استطاعتها الوصول إلى أقصى المسافات . وتفسير ذلك أن هذه الطبقات تشحنها الأشعة فوق البنفسجية أثناء النهار بالألكترونات المتحررة على حين تكون فى الليل بطيئة جداً ، و بذلك تكون درجة شحنها الكهربى أقل منها كثيراً فى النهار . وهذا هو السبب الذى من أجله يسهل الحصول على إذاعات الموجات الطويلة والمتوسطة أثناء النهار بسهولة أكثر منها فى الليل .

الأنبوبة الألكترونية

فى عام ١٨٩٥ كشف ج . ج . . تومسون عن الألكترون بواسطة أنبوبة كروكس . كان العلماء فى ذلك الوقت يجرون تجاربهم على هذه الأنبوبة الزجاجية المفرغة الهواء التى اخترعها كروكس ، وقد تعلموا وشاهدوا الكثير من الظواهر الجديدة الرائعة بفضلها . ومن بين تلك الأشياء الشعاع الألكترونى ، وهو تلك الإشعاعات السالبة الشحنة التى تصدر عن القطب السالب لأنبوبة كروكس وتسير فى خط مستقيم ، فكان من السهل عليهم الكشف عن تلك الإشعاعات الألكترونية فى النقطة التى يصطدم فيها بزجاج الأنبوبة . فبطلاء تلك النقطة بمادة فوسفورية كانوا يشاهدون عندها بقعة مضيئة صغيرة .

عرفوا كذلك بالتجربة أن الشعاع الألكترونى (الكاثودى) ينحرف إذا قربنا منه مادة ممغنطة ، وأن انحرافاً مماثلا يحدث بتأثير لوحات معدنية مشحونة بالكهربا ، وأن الألكترونات الموجودة فى تلك الإشعاعات تنجذب إليها إذا كانت موجبة الكهربا .

وفى عام ١٨٩٧ رأى العالم الفيزيائى الألمانى « فرديناند براون » بفطنته وذكائه أن يستفيد من تلك التجارب ومما اكتشف

لعلماء فى أثناء تجاربهم من خواص جديدة . فصنع أنبوبة ألكترونية بحيث يكون الشعاع الألكترونى دقيقاً جداً ، وذلك بواسطة جهاز حاجز خاص. ، فيستطيع تغيير اتجاهها بحيث تكون أفقية أو رأسية بفضل ملفات للانحراف . وقد سميت تلك الأنبوبة الألكترونية الخاصة باسم « أنبوبة براون » ، ثم أدخلت عليها تحسينات كثيرة حتى وصلنا إلى المذبذب الكاثودى المستعمل فى الأجهزة التلفزيونية فى الوقت الحاضر .

وكان من أهم التحسينات ما أدخله عالم فيزيائى ألمانى آخر اسمه « آرثر ڤنيلت » فى عام ١٩٠٥ ، وهو عبارة عن أسطوانة يمكن ضبط مقدار شحنتها السالبة . وهى فى تلك تشبه الشبكة فى الأنبوبة الألكترونية العادية .

واقترح العالمان دوزنج الروسى وكامبل سوينتون الإنجليزى فى حوالى عام ١٩١١ استعمال الأنبوبة الألكترونية فى الأجهزة التلفزيونية ، وإن كانت فى ذلك الوقت ينقصها كثير من الدقة والسرعة ، ثم أدخل عليها كثير من التحسينات بفضل طرق التفريغ التى أدخلها عليها « لانجميور » فى ١٩١٦ و « هيكمان » فى سنة ١٩٣٠ . ثم ذلك الكشف العظيم فى عام ١٩٣٢ ، وهو العدسات الألكترونية . فأصبح فى الإمكان توجيه الإشعاعات الألكترونية بمثل الدقة والسهولة التى نوجه بها

الإشعاعات الضوئية . وصنعت عدسات ألكترونية لتركيز الموجات الألكترونية أو انكسارها ، وأتيح كذلك استعمال هذه العدسات نفسها كأجهزة للانحراف الكهرستاتيكى والكهرمغنيطى ، فتؤثر على الألكترونات بمثابة المغناطيس ، وهى ما سميت بملفات الانحراف .

التلفزيون

نقل الصور المتحركة

الفرق بين التلفزيون ونقل الصور بواسطة البلينو هو أن هذا الأخير ينقل صورة واحدة بواسطة اللاسلكى . أما التلفزيون فهو وإن كان ينقل أيضاً على موجات من اللاسلكى غاية فى القصر ، إلا أنها تكون بمعدل ثلاثين صورة فى الثانية ، كما هى الحال فى التلفزيون فى جمهوريتنا العربية المتحدة وفى أمريكا ، وهى تختلف عن ذلك فى عدد الصور فى التلفزيون الفرنسى والألمانى والإنجليزى . وهذا العدد من الصور الذى يمر بسرعة ثلاثين صورة مثلا فى الثانية يجعلها تبدو كأنها متحركة ، وهذا ما يقال عنه : خداع البصر ، أو هو على الأصح أحد نوعى خداع البصر ، إذ أن العين تخدع فى التلفزيون فى أمرين : إذا مرت سيارة أمامنا مثلا ونحن جالسون فى شرفة منزلنا ، فإن صورة هذه

السيارة أو الإشعاعات التى تصل إلى عدسة العين ثم تذهب إلى الشبكية لتكون عليها صورة السيارة فى اللحظة التى مرت بها ، تبقى هذه الصورة على الشبكية فترة قصيرة من الوقت بعد مرور السيارة . وتتوقف هذه الفترة التى لا تزيد على جزء صغير جداً من الثانية على شدة لمعان السيارة أو كمية الضوء ، فكلما كانت كبيرة زادت فترة بقائها على شبكية العين . وتسمى هذه الظاهرة بدوام الإبصار . والنوع الثانى من خداع الإبصار هو ظاهرة تقسيم كل صورة أو منظر إلى نقط صغيرة ؛ فإن صفحة صغيرة — ولتكن مثلا صفحة من هذا الكتاب ، مكونة من كلمات ، والكلمات مكونة من حروف ، ويكوّن كل عدد منها سطراً من السطور الكثيرة التى تملأ الصفحة — إذا نظرنا إليها عن قرب استطعنا تمييز كل الحروف والكلمات والسطور . أما إذا أبعدناها عن أعيننا إلى مسافة معينة فإننا نراها تصبح جميعها كتلة سوداء ، وكذلك الصورة ، فإننا إذا نظرنا إليها بمجهر مكبر تكبيراً كافياً رأينا أنها مكونة من نقط بعضها إلى جانب بعض تكون سطوراً . فالتلفزيون ينقل المرئيات بعد تقسيمها إلى نقط صغيرة ينقلها نقطة نقطة ثم سطراً سطراً ثم يعيد تركيبها من جديد على شاشة مستقبل التلفزيون تماماً كما هو فى المنظر الذى التقطته كاميرات التصوير التلفزيونية بنفس الترتيب . وتختلف شدة إضاءة نقط الصورة باختلاف شدة إضاءة المنظر الأصلى .

جون بيرد :

فى الرابع والعشرين من يونية سنة ١٩٤٦ مات « جون بيرد »، بعد أسبوع واحد من ذلك الحفل التاريخى الرائع الذى افتتح به التلفزيون البريطانى أول حفل لإذاعة برنامج تلفزيونى فى قصر ألكسندرا بلندن . ويعود إلى بيرد أكبر الفضل فى الكشف عن التلفزيون والعمل على إدخال التحسينات عليه . ولولا ظروف الحرب العالمية الماضية لما تأخر ثمانية أعوام كاملة عن الانتشار ، ليس فى إنجلترا وحدها بل فى العالم أجمع .

إن قصة حياته كانت مأساة محزنة . . . لقد قضى أكبر شطر من حياته مريضاً معتزلاً العمل فى قرية هاستنجز ، ولكنه كافح المرض ، وكافح اليأس ، وكافح الفقر ، وتحايل عليه فى كثير من الأحيان حتى استطاع أن يخترع جهاز التلفزيون فى عام ١٩٢٣ بفضل علب وصناديق وأدوات قديمة لم يزد ثمنها جميعاً عن خمسة وأربعين قرشاً ! ورماه البعض بالجنون .

إن قصته مليئة بالبطولة والصبر ، وحب العلم، والأمل الذى كان يملأ عليه حياته ، بالرغم من سوء حظه الذى لازمه بسبب

المرض ، فقضى وهو فى الثامنة والخمسين .

ومن ذكريات بيرد عن تلك الحقبة من حياته قوله: « بدأ شغفى بالتلفزيون بعد أن تركت دراساتى التكنيكية فى جامعة جلاسجو ، واضطررت للسفر إلى هاستنجز للاستشفاء من مرض ألم بى ، وجعلت من غرفتى الصغيرة معملا أجرى فيه التجارب للتسلية ، وكانت تلك التجارب هى الخطوات الأولى فى سبيل تحقيق حلمى الرائع الجميل . ثم انتقلت إلى لندن مستمرًّا فى إجراء التجارب إلى أن نجحت فى نقل صور الأشخاص أنفسهم لا صورهم الفوتوغرافية . وهذا هو الفرق بين التلفزيون ونقل الصور بواسطة التلغراف والتليفون . كنت فى أول الأمر أقوم بتجاربى من التلفزيون المرسل إلى التلفزيون المستقبل — على مسافة قصيرة — فى نفس المنزل . ثم نجحت فى يناير من عام ١٩٢٦ فى عرض تجاربى التلفزيونية على عدد من العلماء ورجال الحكومة البارزين . وعرضت صور أشخاص كانت تبدو فيها شدة الضوء وضعفه ووضوح التفاصيل فى دقة عجيبة . لم يكن الطريق أمامى ممهداً ولا مفروشاً بالأزهار والورود . كانت العقبات تقف فى طريقى كالجبال ، والفقر يمنعنى الحصول على ما أحتاج إليه لتجاربى . وكنت أوفر كل مليم

لشراء الأجزاء الصغيرة اللازمة لتركيب الأجهزة . كنت أطلب أحياناً ممن يجلس أمام التلفزيون المرسل أن يدخن سيجارة . وفى أحد الأيام وأنا أجرب استعمال الأشعة تحت الحمراء — بدلا من الضوء الطبيعى — لاحظت ظهور الرجل والسيجارة فى فمه ، ولكننى لم أر أثراً للدخان . دهشت لذلك ، وقمت بعمل تجارب أخرى فيما بعد على دخان صناعى ، فلاحظت أن الدخان لا يظهر إذا كان الضوء المستعمل هو الأشعة تحت الحمراء . أدركت الفائدة الكبيرة لهذه الأشعة من قدرتها على اختراق الضباب وما سوف يجنيه الطيران والملاحة البحرية من فوائد عظيمة » .

ومذكراته طويلة مليئة بأمثلة أخرى كثيرة على بحوثه العلمية وتجاربه المثيرة فى كل الميادين المحيطة بعالم التلفزيون، وتشهد كذلك بكفاحه المرير ضد المرض وضد الفقر ، لا لشىء إلا من أجل العلم !

واستعمل الخلية الكهرضوئية لمسح نقط الصورة ، وأفاد من أسطوانة « نيكو » وبها ثقوب صفت فى خطوط دائرية على هيئة حلزونية ، فعندما تدور الأسطوانة بسرعة كبيرة جداً (على الأقل عشر دورات فى الثانية) . تمر جميع ثقوب

الأسطوانة أمام الصورة بارتفاعات مختلفة . وبذلك تقوم بمسحها من أحد أطرافها إلى الطرف الآخر . وقد وضعت الخلية الكهرضوئية وراء الأسطوانة ، وتصل إليها الإشعاعات الصغيرة من ثقوب أسطوانة نپكو هذه . وبذلك تتحول الأشعة الضوئية إلى نبضات كهربية فى الخلية ، فترسل هذه النبضات بدورها على موجات اللاسلكى القصيرة جداً ، ويلتقطها أخيراً المذبذب الكاثودى (الألكترونى) فى المستقبل، ليحولها من جديد من نبضات كهربية إلى نبضات ضوئية، لتظهر على شاشة طليت بمادة فوسفورية أو فلورسنتية لتظهر عليها الصورة واضحة جلية .

وقد أعد بيرد جهازه بطريقة يمكن بها تحليل الصورة إلى ثلاثين خطاً فقط ، وهى الآن فى التلفزيون الحديث فى إنجلترا ٤٠٥ من الخطوط ، وفى الجمهورية العربية المتحدة ٦٢٥ خطا ، وفى فرنسا ٨١٩ خطا وهكذا . وكان جهازه يقوم بمسح اثنتى عشرة صورة فى الثانية ، وهو الآن يمسح ثلاثين صورة فى الثانية فى أجهزة الإرسال والاستقبال العربية . لذلك كانت الصور التى كان يرسلها بيرد تصل إلى الشاشة قليلة الوضوح تكاد تكون مبهمة . ثم زاد عدد السطور إلى ستين ثم إلى مائة وعشرين خطا . ولكنها لم تصل إلى حد مقنع من الوضوح .

الإيكونوسكوب

مضت أعوام كثيرة حاول فيها العلماء العثور على جهاز ألكترونى يقوم مقام العين بمسح أجزاء الصورة فى دقة ووضوح تتيح للتلفزيون أن يقفز إلى الأمام خطوات مضاعفة بقدر ما أضاعت عليه سنين الحرب من تأخير . وكان السيلنيوم — وهو العنصر الحساس للضوء ، والذى كشف عنه « ماى » سنة١٨٧٣ ، إذ لاحظ أن الأشعة الضوئيةعندما تسقط علىجهاز التلغراف الذى يعمل عليه تتحول إلى نبضات كهربية — كان أول المواد التى أجرى عليها العلماء بحوثهم . ثم عرفوا أن لغيره من العناصر القلوية مثل السيزيوم والباريوم والسترنشيوم نفس خاصية السيلنيوم فى تحويل الضوء إلى كهربا ، ووجدوا لمادة السيزيوم مزايا أفضل من غيرها من تلك المعادن ، فصنعوا منها الخلايا الكهرضوئية ، وجعل منها العلماء أساس بحوثهم وتجاربهم للوصول إلى أجهزة ألكترونية تقارب حساسية العين فى التقاط الصور ومسحها . ومن أبرز هؤلاء العلماء وأسبقهم فى هذا



زوريكين مخترع الايكونوسكوب

الميدان « زوريكين » العالم الروسى المولد . أمضى شطراً من دراساته الجامعية فيها ، ثم عمل فى معاملها مع أستاذه الكبير روزنج ، يبحثان معاً عن الجهاز الألكترونى المنشود ، ثم تتلمذ فى باريس فى كلية فرنسا على العالم « پول لانجڤان » لإجراء تجارب على أشعة رونتجن . ثم سافر إلى أمريكا بعد أن خدم فى جيش بلاده فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، والتحق بمصانع شركة «R.C.A» الأمريكية بالقسم الألكترونى فيها ، وهى الشركة التى قامت بإنشاء محطات الإرسال التلفزيونية فى جمهوريتنا العربية المتحدة وشاركت فى المصانع التى بدأت فى

إخراج أجهزة الاستقبال التلفزيونية فى بلادنا .

وفى عام ١٩٣٣ حصل زوريكين على براءة اختراعه الإيكونوسكوب ، وهو أول جهاز ألكترونى حقق ذلك الحلم البديع الرائع .

والإيكونوسكوب الذى اخترعه زوريكين — ومن بعده صور أخرى له ، أدخل عليه كثير من التحسينات يعود الفضل الأكبر فى اختراعها إلى زوريكين وزملائه من علماء شركة R.C.A — هو صمام الكاميرا وأهم جزء فيها ، فهى — كما ترى فيما بعد — تلتقط المناظر بواسطة العدسات ، ثم تتحول من خلايا ضوئية إلى كهربية فى نفس هذا الجهاز . ويتكون الإيكونوسكوب من أنبوبة زجاجية مفرغة من الهواء على شكل الغليون ، جزؤها الأمامى مكون من عدسات لاقطة ، وتمر الأشعة الضوئية الآتية من المنظر المراد نقله بالتلفزيون فى العدسات لتتركز فوق لوح مستطيل من الميكا ملتصق به من الناحية المقابلة للعدسات مئات الألوف من حبيبات الفضة الرقيقة لا يمكن رؤيتها منفصلة عن بعضها إلا بالميكروسكوب . وهى مغطاة بطبقة رقيقة جداً من مادة أكسيد السيزيوم ، فتجعلها حساسة جداً للضوء . ويغطى الوجه الثانى للوحة الميكا لوحة

رقيقة ثالثة من المعدن كثيراً ما تكون من مادة الألومنيوم . وتصبح كل من نقط حبيبات الفضة والسيزيوم مكثفاً للكهربا أو خلية كهرضوئية . هذه اللوحة المكونة من الميكا والمعدن معاً تسمى الموزايك. ويعتبر إعداد حبيبات الفضة والسيزيوم من أدق العمليات التى تجرى فى غرف خاصة خالية من الغبار . لذلك أعدت لها طرق خاصة للتهوية والتنقية ، ويرتدى العمال الذين يقومون بصناعتها ثياباً وأغطية للوجه وقفازات خاصة . كما يجب أن يكونوا على درجة كبيرة جداً من المهارة كالجراحين . لأن أقل خطأ فى وضع الحبيبات أو نقاوتها يعرض الجزء المحيط بها للتلف. وتظهر على الصورة المستقبلة فى التلفزيون كبقع سوداء . تعتبر كل من الحبيبات خلية كهرضوئية مستقلة فكلما كانت الأشعة الساقطة عليها من الصورة أو المنظر تلفزته قوية كان عدد الألكترونات التى تتحرر من الخلية كبيراً ، والعكس كذلك صحيح ، فإذا كان جزء الصورة معتماً فهو لا يؤثر على الخلايا المقابلة له فتتناسب كمية الألكترونات المتحررة مع شدة إضاءة أجزاء الصورة المختلفة ، وبذلك تتحول الصورة من إشعاعات ضوئية إلى إشعاعات ألكترونية أو صورة ألكترونية . ومن أهم أجزاء إيكونوسكوب زوريكين الأنبوبة

الألكترونية أو المدفع الألكترونى ، ويكوّن عنق الإيكونوسكوب وهو الذى يرسل بشعاعات ألكترونية رفيعة تسير بسرعة كبيرة جداً لمسح الصورة بمعدل ثلاثين صورة فى الثانية . ولا يزيد سمك الشعاع عن مليّمتر تقريباً . وإذ يعتبر هذا الشعاع لا كتلة له تقريباً فمن السهولة بمكان تحريكه وتوجيهه بواسطة قوة مؤثرة مثل قوى الانحراف ، وهى عبارة عن ملفات الانحراف موضوعة على الجزء الخارجى من الأنبوبة الكاثودية (المدفع الألكترونى) ، فيمكن أن تتحرك لتمسح مئات الألوف من النقط التى تقسم إليها الصورة ، ثم تعود بها إلى ما يقابلها من مئات الآلاف من حبيبات الفضة المغطاة بالسيزيوم لتحولها — كما رأينا — إلى نبضات كهربية يمكن إرسالها بدورها عن طريق الهوائى إلى أجهزة الاستقبال فى المنازل . وهنا تعود لتتحول ثانية—داخل أجهزة ألكترونية شبيهة إلى حد ما بالمرسل—من نبضات كهربية إلى أشعة ضوئية، كما كانت فى المنظر الأصلى .

إيكونوسكوب فارنسورث :

فى عام ١٩٢٧ حصل فارنسورث على صورة تكاد تكون

معتمة من الإيكونوسكوب الذى قضى أربعة أعوام متتالية منذ كان طالباً فى المدارس الثانوية يجرى التجارب المستمرة عليه . ويطلق على جهازه اسم « مقسِّم الصورة » ، وهو يختلف عن إيكونوسكوب زوريكين بعدم وجود مدفع ألكترونى به .

ولد « فيلو فارنسورث » فى التاسع عشر من شهر أغسطس سنة ١٩٠٦ . ومنذ بلوغه الثانية عشرة من عمره شغف بالألكترونات ودراستها ، وأدرك أن التلفزيون لن يتحقق له الذيوع والانتشار إلا على أسس ألكترونية . وقد استطاع وهو فى العشرين من عمره إقناع اثنين من رجال الأعمال أن يقيما له معملا فى هوليود ، ثم فى سان فرنسيسكو لم يلبث أن تحول إلى شركة من أكبر شركات صناعة الأجهزة التلفزيونية فى أمريكا .

الأورتيكون

كانوا يعيبون على إيكونوسكوب زوريكين عدم وجود الأنبوبة الألكترونية فى نفس مستوى لوحة الموزايك المغطاة بحبيبات الفضة — سيزيوم ، مما كان يسبب تحرر ألكترونات

ثانوية تؤثر على شحنات الخلايا الكهرضوئية قبل أن تؤدى عملها ، وبذلك تحدث اضطراباً فى مسح الصورة ، فتظهر مشوهة على شاشة الاستقبال . لذلك عكف زوريكين على جهازه ليقوم بإدخال التحسينات عليه ، إلى أن سجل جهازاً جديداً فى عام ١٩٣٩ ، وهو الأورتيكون ، فجعل المدفع الألكترونى فى نفس مستوى الموزايك ، ثم عمل على إبطاء سرعة الشعاع الألكترونى الماسح حتى يتجنب الألكترونات الثانوية .

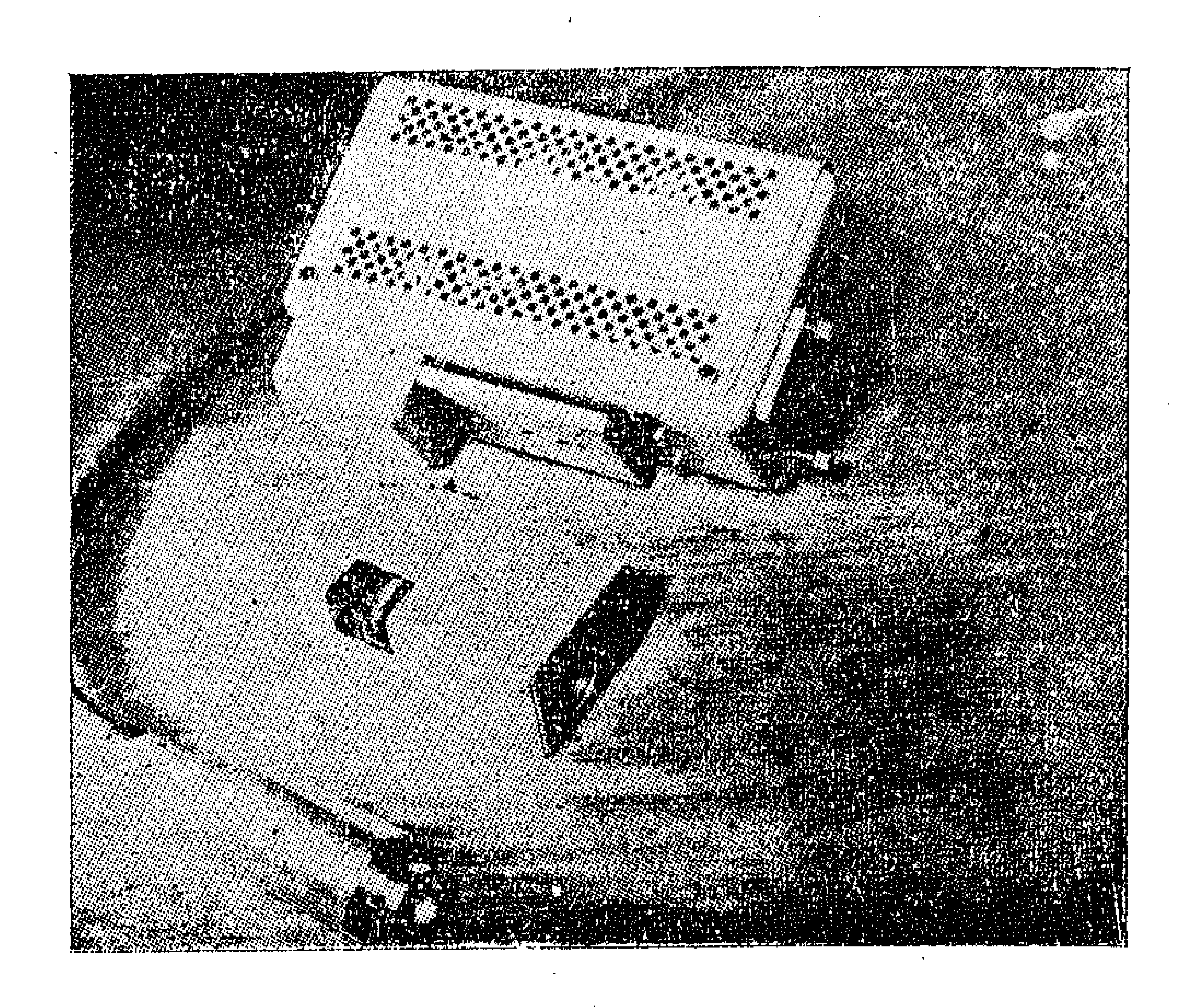
الأورتيكون — صورة :

وفى ٢٤ يناير سنة ١٩٤٦ أعلن زوريكين فى الجمعية الأمريكية للاسلكى ولادة نوع جديد من الإيكونوسكوب ، وذلك بمعاونة ثلاثة من زملائه علماء شركة R.C.A وهم روز وفيمار ولو . وقد أسموه الأورتيكون — صورة ، ويمتاز بحساسيته الفائقة ، ففى الإمكان التقاط صور فى ضوء ضعيف جداً . كما أن حجمه صغير إذا قورن بالإيكونوسكوب العادى . وقد قوبل هذا الاختراع بفرح عظيم من الشركات التلفزيونية والقائمين بالعمل فيها . إذ أنها أراحتهم من حرارة الإضاءة الشديدة التى

كانوا يحتاجون إليها فى أوقات التقاط المناظر التلفزيونية ، وهى عادة ساعات كاملة ، فيعملون بمختلف طرق التبريد على تخفيف وطأة تلك الحرارة المضنية ، وأصبح من الميسور حمل آلة صغيرة ونقلها إلى أى مكان وفى أى وقت من النهار أو الليل ، والتقاط المناظر ثم إرسالها إلى الأستوديوهات لإذاعة ما يرون صلاحيته على الفور . وأهم ما فى الأورتيكون —صورة هو تكوين صورة ألكترونية داخل الآلة يقوم بمسحها الشعاع الألكترونى بدلا من مسح الموزايك ، وبذلك أمكن التقاط مناظر دون حاجة إلا إلى أقل القليل من الضوء .

الفيديكون

أحدث أنواع الإيكونوسكوب ، وهو مثل الأورتيكون—صورة فى بطء الشعاع الألكترونى الماسح ، ولكن حجمه أصغر منه كثيراً ، فيبلغ طول الڤيديكون ستّ بوصات وعرضه بوصة واحدة ، لذلك يستعمل كثيراً فى التلفزيون الصناعى ، وكذلك فى التقاط مناظر الحفلات والمباريات وغيرها ، وذلك لصغره البالغ وسهولة نقله . وهناك جهاز آخر أصغر من الڤيديكون



الفيديكون

ذو حساسية للأشعة تحت الحمراء التى لا ترى بالعين ، استعمله الجنود خلال الحرب الماضية لرؤية مواقع الأعداء فى الظلام ، واسم هذا الجهاز الصغير « سنيبرسكوب » يمكن وضعه على جبهة الطيار فيعاونه على الرؤية خلال ما يعترض طريقه أحياناً من ضباب كثيف . ويقوم الآن رجال الشرطة باستعماله كثيراً فى أثناء حراساتهم الليلية .

مسح الصورة

خطا التلفزيون خطوات واسعة إلى الأمام بفضل الأنواع المختلفة من الإيكونوسكوب التى اخترعها زوريكين وفارنسورث وغيرهم من العلماء . فقد أمكن بها تقسيم الصورة أو المنظر إلى نقط صغيرة تتكون منها سطور يمكن مسحها بالشعاع الألكترونى الذى تتحكم ملفات الانحراف فى حركاته الأفقية والرأسية . فعندما يسرى التيار الكهربى فى ملفات الانحراف المثبتة حول رقبة الإيكونوسكوب يحدث مجال مغناطيسى يؤثر على الشعاع الألكترونى الماسح . ويرمز للملفات التى تحدث الانحراف الأفقى للشعاع بعلامة (X) والتى تحدث الانحراف الرأسى بعلامة (Y) . وقد أمكن بواسطة الإيكونوسكوب تحويل الأشعة الضوئية إلى نبضات كهربية يمكن إرسالها على موجات قصيرة جداً إلى جهاز المستقبل . ويمسح الشعاع الألكترونى الصورة سطراً بعد سطر ، فهو يبدأ بالخط الأول من اليسار إلى اليمين ، ثم ينقطع الشعاع الألكترونى لحظة تسمى النقطة المعتمة

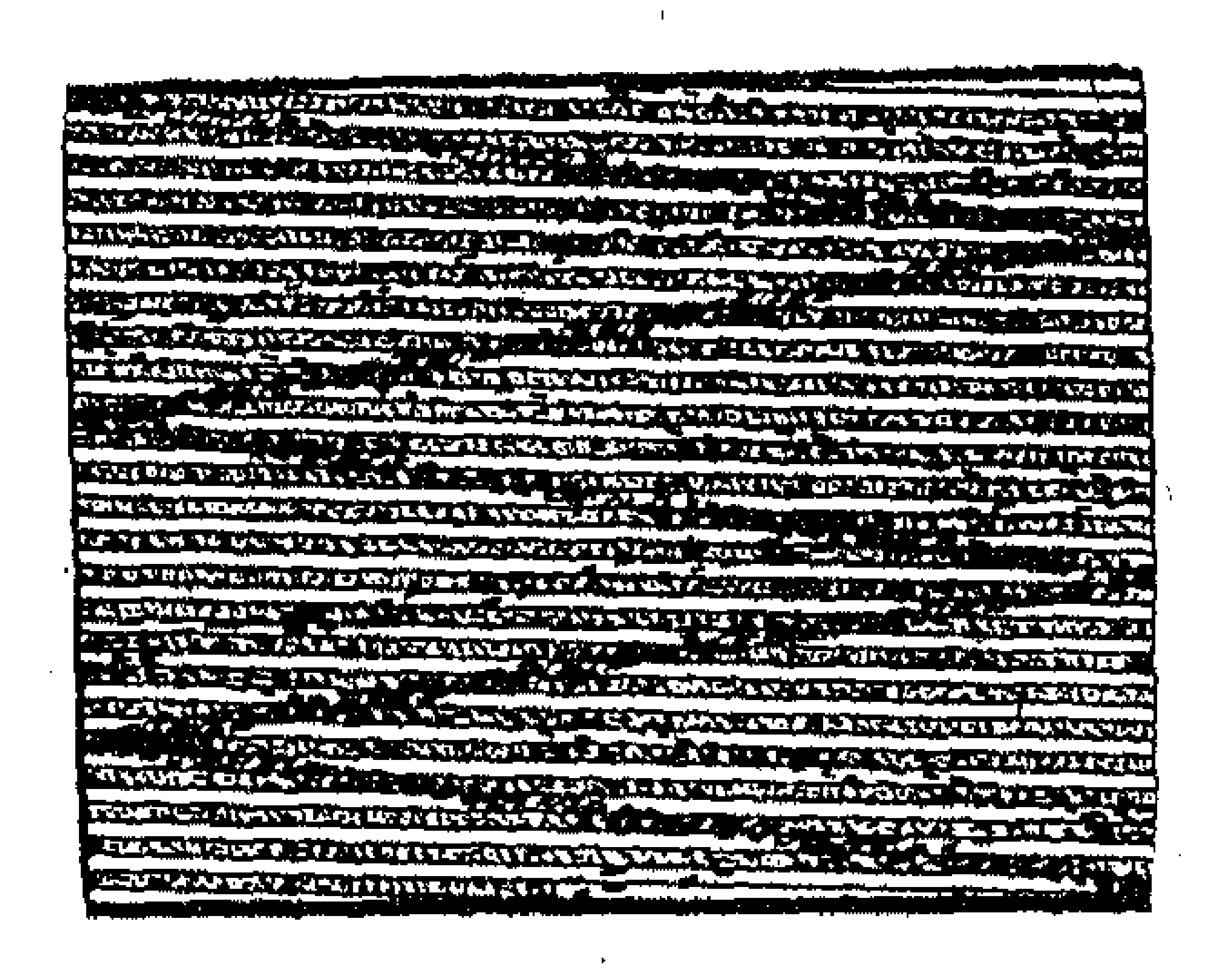
(Blanking) ، ثم يعود ثانية بسرعة كبيرة إلى الطرف الأيسر من الصورة عند أول السطر الثانى وهو أسفل السطر الأول بقليل ، وبعد مسحه تكرر هذه العملية حتى يصل إلى نهاية الصورة ، ثم ينقطع الشعاع الألكترونى لحظة كما ينقطع عند نهاية كل سطر ، ليحدث نقطة معتمة ، ويبدأ يمسح الصورة التى تليها . ويحدث كل ذلك بسرعة كبيرة جداً ، إذ أن مسح الصورة الواحدة يتم فى جزء من ثلاثين من الثانية ، أى أن الشعاع الألكترونى يمسح ثلاثين صورة فى الثانية . يقوم الشعاع الألكترونى إذن بحركة أفقية من اليسار إلى اليمين لمسح كل خطوط الصورة ، وبحركة رأسية لينتقل من الخط إلى الذى يليه مباشرة .

فعندما يتم مسح جميع أجزاء الصورة يكون الشعاع الألكترونى فى أسفل نقطة بأقصى يمين الصورة ، فيتحرك بأقصى سرعة إلى الركن العلوى فى أقصى اليسار من الصورة ليبدأ مسح الصورة التالية ، وهكذا حتى يمكن مسح ثلاثين صورة فى الثانية فلا تستطيع العين ملاحظة هذا العدد من الصور المتتالية ، بل تبدو كأنها صورة واحدة متحركة .

المسح البينى :

إن عملية نقل الصور مجزأة إلى نقط صغيرة ما كانت لتتم دون خاصية دوام الإبصار التى للعين . وكان قد قام بدراستها وإجراء التجارب عليها منذ نحو مائة وخمسين عاماً العالم البلجيكى « جوزيف پلاتو » الذى فقد بصره من جراء إطالة النظر إلى ضوء الشمس ليدرس كيف تستطيع شبكية العين الاحتفاظ بضوء الشمس فترة من الوقت .

وعرفنا من تجاربه ومن تجارب غيره من العلماء أن المدة التى تحتفظ بها الشبكية بالضوء أو بمعنى آخر بالأشعة الضوئية



المسح البينى

الصادرة من جسم ما أو من صورة ما ، تتوقف على شدة ضوء هذا المصدر ومدة النظر إليه . وعندما نمسح الصورة يلاحظ ظهور وميض على الشاشة يجعل الصورة مضطربة غير واضحة ، وذلك لوجود مساحات بيضاء بين السطور تحتفظ بها شبكية العين . لذلك اقترح العالم « بارتيليمى » فى سنة ١٩٣٥ طريقة جديدة للمسح اسمها « المسح البينى » ، وهى أن يمسح الشعاع الألكترونى السطر الأول ثم السطر الثالث ثم الخامس وبقية الأعداد الفردية حتى السطر ٦٢٥ ، ويعود من جديد إلى أعلى الصورة ليبدأ عند السطر رقم ٢ ثم ٤ ثم ٦ ويستمر فى مسح الخطوط الزوجية حتى يصل إلى السطر ٦٢٤. إن الشعاع الألكترونى يمسح فى هذه الحالة ستين صورة فى الثانية ، وهى فى الحقيقة ليست صورة كاملة بل نصف صورة فقط . ويمكننا أن نقول إن الشعاع الألكترونى فى كل من حالتى مسح السطور الفردية والزوجية يمسح ثلثمائة وأثنى عشر سطراً ونصف سطر فى جزء من ستين من الثانية .

النبضات التوافقية : Synchronization

من أهم شروط نجاح النقل التلفزيونى أن يتم نقل كل أجزاء الصورة ومسحها فى نفس الوقت وبنفس السرعة وفى نفس الاتجاه فى كل من الجهازين المرسل والمستقبل ، أى فى جهاز الكاميرا على لوحة الموزايك — فى الإيكونوسكوب — وعلى شاشة جهاز المستقبل فى المنزل . ولكى تكون الصورة واحدة فى كل من الجهازين يجب أن تكون كل نقط الصورة فى نفس الموضع فى كل من الإيكونوسكوب وشاشة المستقبل . لذلك يجب أيضاً أن تكون بداية ونهاية مسح كل سطر فى نفس الوقت فى كل من الجهازين . لذلك يرسل جهاز خاص نبضات منظمة قصيرة جداً ، وهى نبضات رأسية وأخرى أفقية ثم نبضات ثالثة معتمة بين كل سطر وآخر للفصل بينهما وكذلك بين كل صورة وأخرى .

الكاميرا

جهاز التقاط المناظر التلفزيونية

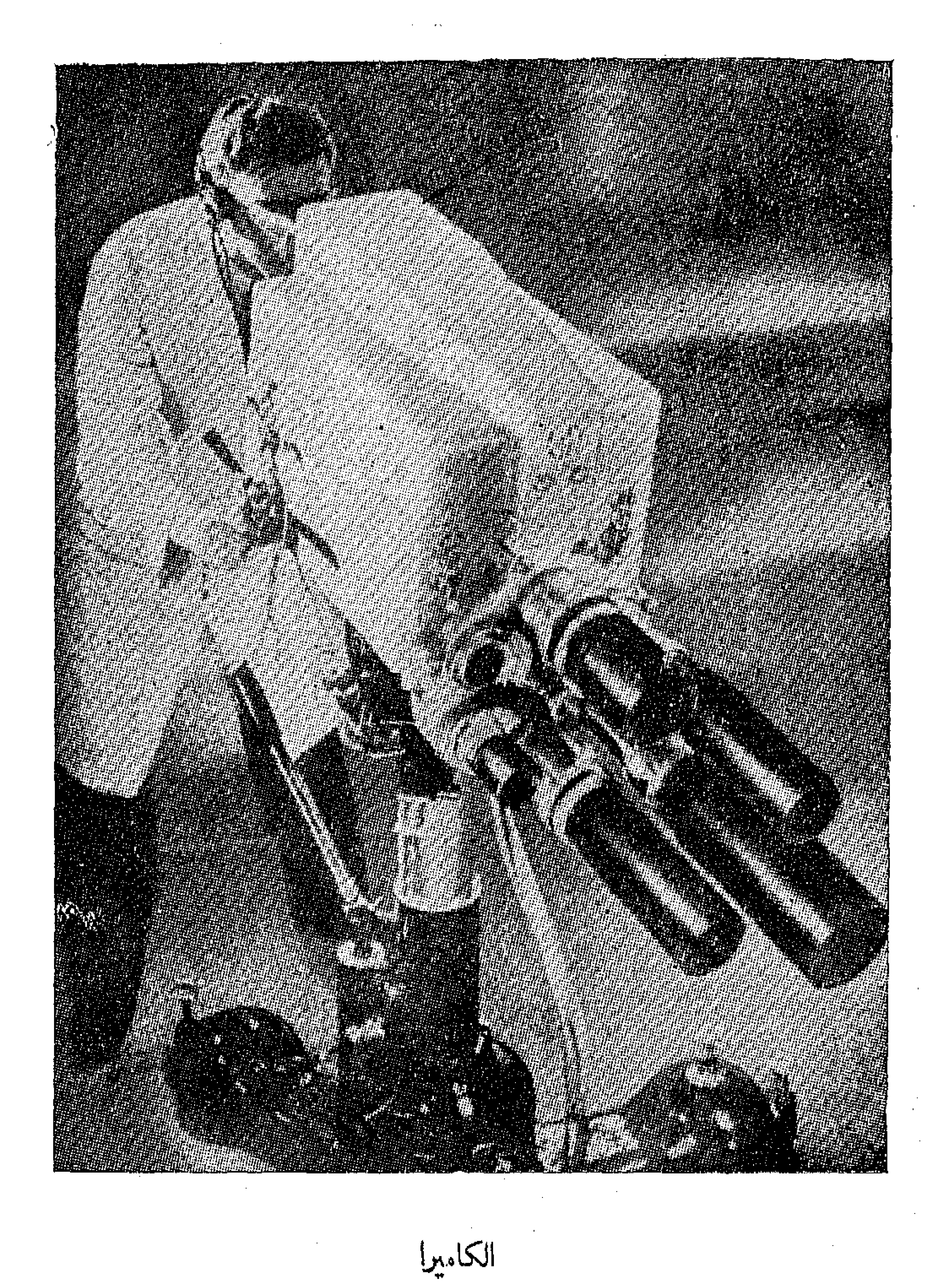
عرفنا كل شيء عن أهم جزء فى الكاميرا وهو الإيكونوسكوب وكيف تنتقل الصورة إلى الموزايك المكون من خلايا كهرضوئية تنقل أجزاء الصورة فى مئات الألوف من النقط .

وعندما تسقط الأشعة الضوئية على الخلايا الكهرضوئية (العيون السحرية) تتحول إلى نبضات كهربية يمكن إرسالها إلى الجهاز المرسل بعد توضيحها وتكبيرها ثم إرسالها عن طريق الهوائى إلى الجهاز المستقبل حيث يمكن مشاهدة صورة المنظر فى لحظة التقاطه تقريباً بواسطة الكاميرا . وتكون الكاميرا عادة مثبتة فوق عربة صغيرة يمكن نقلها من مكان إلى آخر بسرعة . كما أن الكاميرا يمكن تحريكها وتوجيهها بواسطة أذرع متحركة إلى أسفل أو إلى أعلى وإلى اليمين أو إلى الشمال . وكذلك عدسات التقاط المناظر فى الكاميرا يمكن تحريكها لضبط المناظر .

ولنفرض أننا نريد إرسال رواية تمثيلية : لذلك توضع

إحدى الكاميرات إلى يمين الأستوديو والثانية إلى شماله وثالثة في الوسط . وكثيراً ما توجد كاميرا رابعة لالتقاط تفاصيل بعض أجزاء المناظر لتوضيحها مثل تعبيرات وجوه بعض الممثلين . هذه الكاميرات الأربعة تعمل خلال فترة التمثيل ، والمصورون على اتصال دائم بواسطة سماعات تليفونية بالمخرجين والمهندسين لتلقي التعليمات لضبط الصورة أو الاتجاه بها اتجاها فنياً خاصاً .

والصور التي تلتقط ترسل إلى غرف المراقبة حيث مدير الإخراج والمخرجين ، وتظهر أمامهم على لوحات تلفزيونية ، فيختار منها مدير الإخراج الصور التي يراها مناسبة للعرض فيضغط على أزرار معينة لترسل تلك الصور — وهي من كاميرات مختلفة — إلى المرسل فالهواء فالمستقبل . والمدير والمخرجون على اتصال دائم بواسطة السماعات التليفونية بالمهندسين والمصورين والممثلين يوجهون إليهم تعليماتهم وإرشاداتهم . وهم يضعون أحياناً أفلاماً مسجلة بين هذه المناظر لتملأ الفراغ بين منظرين مختلفين ، أو عند تغيير الديكور أو الأستوديو ، أو لمنظر مناسب لأحد الأدوار ، فيخيل للرائي أنها تكون منظراً



الكاميرا

واحداً مع أنها مكونة من قطعتين : الفيلم المسجل والمنظر المرسل في نفس اللحظة .

كيف يحدث ذلك كله ؟

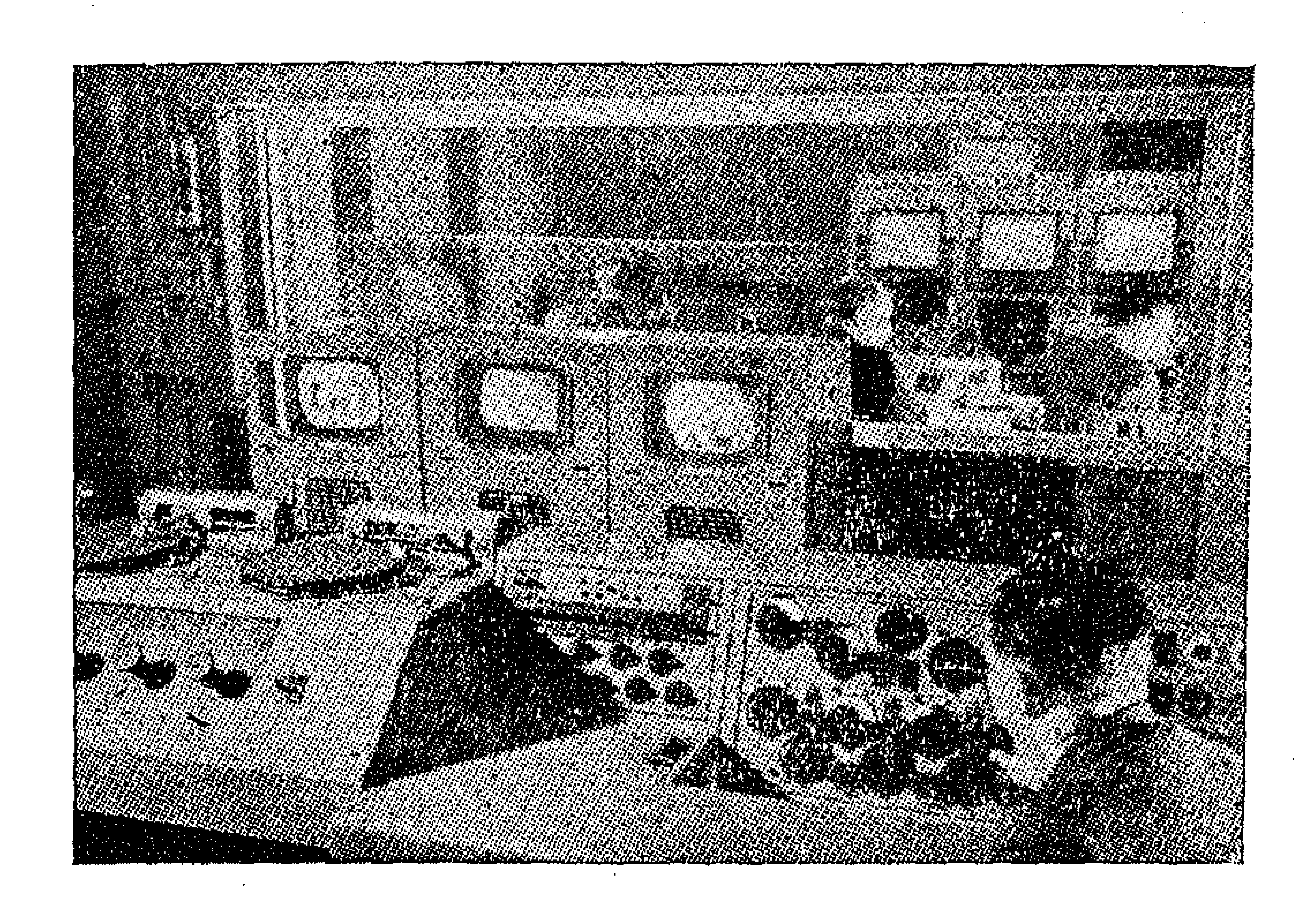
يحدث بأن تكون كاميرات إرسال الأفلام المسجلة إلى جانب الكاميرات التي تلتقط المناظر ، ويقوم المهندسون بإشراف المخرج بتنظيم سير العمل كله ، بحيث يكون ذلك في تسلسل لا يشعر به المتفرج ، فيخيل إليه أن هذه المناظر متتابعة وليست مزيجاً من الصور المرسلة من كاميرات مختلفة ومن أفلام سينمائية مسجلة .

وقد اخترعت منذ أقل من عامين كاميرا تجمع بين التصوير التلفزيوني والسينمائي ، ويؤخذ الشريط السينمائي من الكاميرا وتطبع الصور ثم تقص وتلصق من جديد تلك الصور التي يختارها المخرج لتعرض بطريقة (التليسينما) إلى جانب المناظر التلفزيونية العادية .

في الأستديو

يبدو أستديو التلفزيون شبيهاً بأستديو السينما ، ولكنه في الحقيقة يفترق عنه كثيراً . إذ أن الأفلام السينمائية تؤخذ في لقطات صغيرة وفي وقت قصير : بضع دقائق ؛ أما في التلفزيون

فقد يستمر العرض ساعة أو أكثر دون توقف ، فالأضواء والمناظر الخارجية لا تتغير ، وإذا احتاج الأمر إلى تغيير المنظر مؤقتاً فهناك فى الأستوديو ثلاثة أو أربعة ديكورات أو أكثر معدة للاستعمال من حيث الإضاءة والتقاط الأصوات بواسطة أجهزة صغيرة مخبأة داخل قطع الأثاث بطريقة تلتقط بها الأصوات دون أن ترى بواسطة كاميرا الصور . وهناك جهاز لاقط للصوت على هيئة قضيب طويل موضوع بالقرب من سقف الأستوديو ، ويمكن من أجزائه المختلفة التقاط الموسيقى والأصوات. وينتقل الممثلون من أستوديو إلى آخر خلال لحظة قصيرة يمكن فى أثنائها عرض منظر فيلم مسجل حتى لا يشعر المتفرج بلحظة انقطاع ، وربما يعودون مرة أخرى إلى المنظر الأول الذى بقى دون تغيير فيما يختص بالصوت والضوء ومناظر الديكور . لذلك تحتاج المناظر التلفزيونية إلى عناية أكبر وفترة أطول للتحضير من الأفلام السينمائية ، إذ يضطر الممثلون إلى حفظ جميع أدوارهم كلها دفعة واحدة لأن المناظر التلفزيونية تتتابع من غير انقطاع ، فيجب إعداد جميع فصول الرواية



غرفة المراقبة

مرة واحدة ، كما يجب ضبط الأضواء وميكروفونات التقاط الأصوات والموسيقى .

وتضاء المناظر إضاءة قوية كي يمكن نقلها واضحة المعالم بما فيها من أضواء وظلال ، فتعدّ المصابيح بطريقة يسهل تحريكها فى أى اتجاه أو تركيزها على منظر معين لإبرازه ، ولذلك يقوم مهندسو الإضاءة بعمل شبكة معلقة فى سقف الأستوديو على بعد مترين منه حتى يحققوا تلك الشروط ،

وتوضع مصابيح الإضاءة بين القضبان الخفيفة التى يمكن تحريكها بسهولة وهى المكونة للشبكة المعدنية . ومن عيوب هذه الطريقة ما تكلفه من نفقات باهظة لإعدادها وما تحتاج إليه من تقوية دعائم السقف لاحتمال ثقل الشبكة المعدنية المعلقة .
ومن حسن الحظ أن الأستوديوهات لم تعد تستعمل كثيراً الكاميرات القديمة ذات الإيكونوسكوب التى كانت تحتاج دائماً إلى ضوء قوي يرهق الموجودين فى الأستوديو من ممثلين ومخرجين ومهندسين ، وكان ذلك يحتاج إلى أجهزة لتكييف الهواء وتبريد الأجهزة تبريداً مستمراً .

إن اختراع « الأورتيكون صورة » و « الڤيديكون » قد أراحهم من عناء الإضاءة الشديدة ، لأن الأجهزة الحديثة لا تحتاج إلى أكثر من ضوء النهار العادى ، بل فى استطاعتها التقاط المناظر فى الظلام على نور شمعة خافتة الضوء .

وبالقرب من أستوديو التقاط المناظر تعد الديكورات التى يصممها الفنانون ويعدها عمال فنيون يقومون بأعمال النجارة وتركيب الألواح المعدنية المصنوعة من اللدائن وأعمال الميكانيكا والطلاء ، ثم ترسل إلى داخل الأستوديو لتركيب أجزائها المختلفة ، فإذا انتهى المنظر أعيد فكها ووضعت فى مخازن لحين الاحتياج

إليها أو إلى أجزائها لعمل منظر آخر منها .

ويشرف المدير ومهندس الإضاءة ومهندس إعداد المناظر على رسوم المناظر الخارجية وقطع الأثاث ، وهم يراعون فى ذلك حجم الأستوديو وطريقة وضعها بحيث تلتقط الكاميرا صورها وصور الممثلين فى أوضاع مختلفة واضحة . هذه المناظر والصور والأثاث والأستار والملابس المختلفة الألوان والأشكال التى تناسب أدواراً خاصة — توضع بعد أداء عملها فى مخازن خاصة وفى أماكن معينة يمكن الانتفاع بها فى أدوار مماثلة أو عند إعادة المناظر ، كما تحفظ فى المكتبات — إلى جانب الكتب والصحف والمجلات الخاصة بالتلفزيون — مجموعات الأفلام المسجلة والسينمائية .

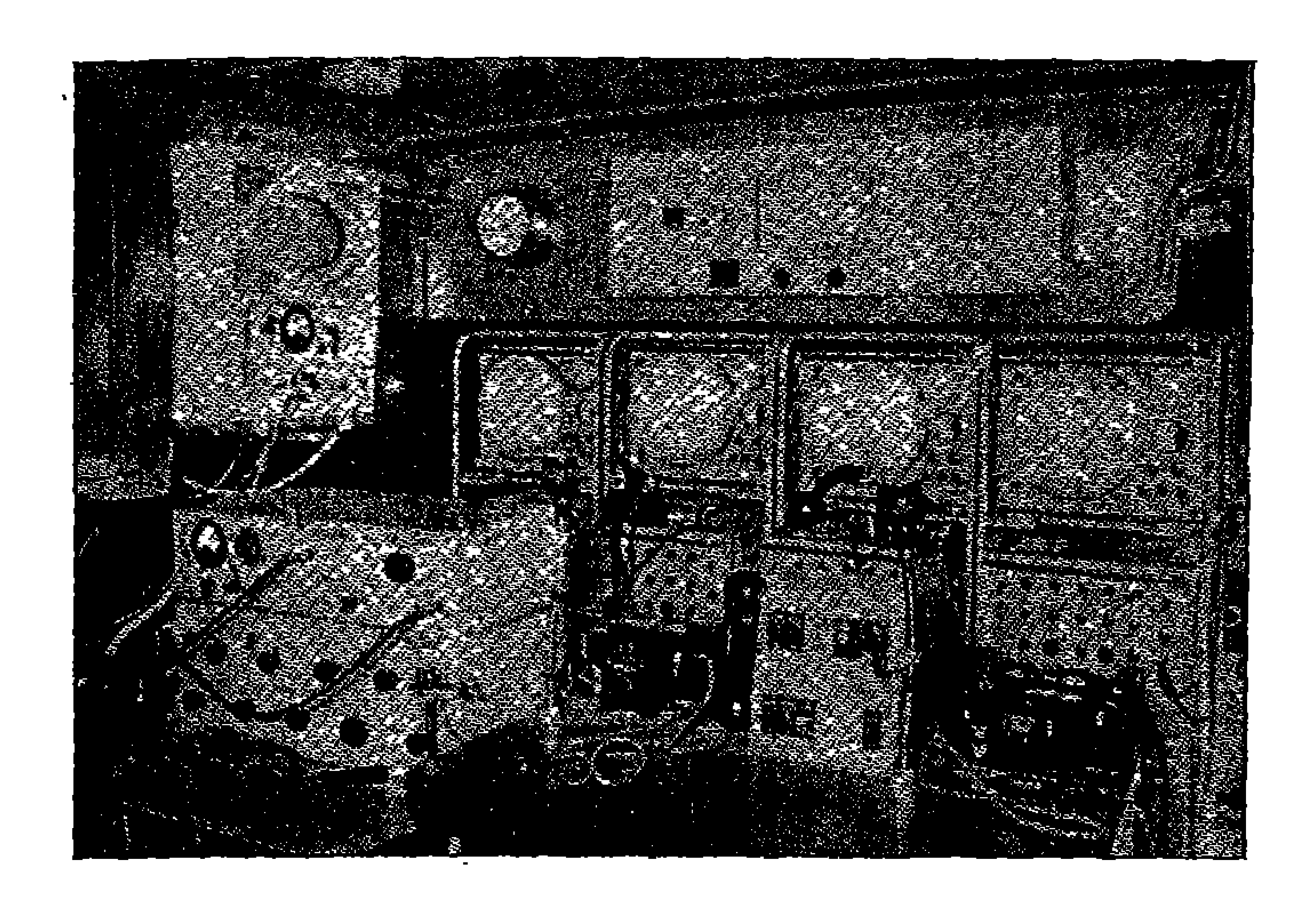
التقاط المناظر خارج الأستوديو

يعتبر التقاط المناظر الخارجية ذا أهمية كبيرة من ناحية التسلية والتثقيف والتعليم إذ ينقل إلى شاشة التلفزيون المنزلية مناظر الحفلات الوطنية والأعياد الدينية والشعبية وحفلات الرياضة والسباق والسباحة ، كما ينقل من المصانع والمتاحف والمعامل والمستشفيات صوراً نابضة بالحياة يشاهد فيها المرء

وهو فى داره تلك الآثار القديمة من تماثيل وأدوات ونقوش تركها أجدادنا القدامى ، وتقص علينا طرفاً من تاريخهم وما كانوا عليه من تقدم ومدنية فى تلك العصور .

وعلى لوحة التلفزيون نشاهد العمليات الجراحية يقوم بها كبار أساتذة الجراحة ، كما يشاهدها الأطباء وطلبة الطب ، ثم نشاهد العمليات الكيميائية فى المعامل والمختبرات فنرى عمليات تحويل البترول إلى بنزين ومواد كيميائية يمكن منها صناعة عدد لا حصر له من الأدوات والمواد المفيدة فى حياتنا اليومية وفى مصانع الحديد والصلب والأسمدة وصناعة الورق وتنقية المعادن .

هذه بعض الصور التى يمكننا أن نراها ونتتبعها فى شوق على لوحة التلفزيون ونحن جالسون إلى جواره فى المنزل . وسيكون لهذه الناحية التعليمية نتائج رائعة سريعة ، ليس فقط بالنسبة إلى طلاب الجامعات والمدارس والمعاهد ، بل سيكون التلفزيون نفسه جامعة لتثقيف الشعب ، وسيكون له أكبر الأثر فى مستقبل حياتنا .



داخل سيارة التقاط المناظر الخارجية

إذاعة الأفلام السينمائية :

Télécinema

يعتمد التلفزيون إلى حدّ كبير على الأفلام المسجلة للإذاعة التلفزيونية اعتماد الإذاعة اللاسلكية على الأسطوانات ولا يقصر استعمال الفيلم على ملء الفراغ فى برامج التلفزيون ، بل إنه مصدر كبير للأخبار ، وللروايات التمثيلية والحفلات وما تسجله

الكاميرات من أوجه نشاطنا العلمى والثقافى والصناعى والزراعى والسياحى والتجارى . إنه يقدم لنا كل هذا فى أفلام صورتها بعثات خاصة جابت البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، بل إنها تسافر أحياناً إلى أقطار بعيدة تسجل لنا ما تراه جديراً بالتسجيل . وهى تصور لنا صحارينا الشاسعة وقد امتدت رمالها الصفراء وأرضها القاحلة التى لا ماء فيها ولا حياة إلا فى قليل من الواحات المتناثرة هنا وهناك . ثم ينتقل بك إلى مديرية التحرير والوادى الجديد ويريك ما تستطيعه إرادة الإنسان من التغلب على قسوة الطبيعة والحياة : هذه آبار ، وهذه ترع ، وتلك طرق مرصوفة تسير فيها سيارات النقل الكبيرة تحمل منها وإليها عناصر القوة والعمل والنشاط .

وهناك أفلام أخرى عن ثرواتنا البترولية والمعدنية فى الصحراء ، مما يبشرنا بخير عظيم وبولادة مدن جديدة ومصانع وآمال كبار !

وذلك فيلم عن قناة السويس التى عادت إلى أصحابها بفضل إيمان الثورة بحقنا فيها ، وهؤلاء هم شباب الجمهورية يقومون — فى مشروع ناصر — بتوسيعها وتعميقها . ثم هذا الشباب نفسه

فى مكان آخر يغرس الغابات ويبنى ويعمر وقد خلع عنه رداء الماضى . وهذه صور تسجلها الأفلام للسد العالى وكهربة خزان أسوان ومنخفض القطارة وغيرها من المشاريع التى هى فى طريقها للتنفيذ لتحقيق تصنيع البلاد وزيادة الرقعة الزراعية فيها .

وتنقلنا أيضاً إلى شبه جزيرة سيناء وعلى سواحل البحرين الأبيض والأحمر لنتعرف على جميع أجزاء جمهوريتنا العربية شمالها وجنوبها وما يبذل فيها من جهود ترفع هامتنا وتقوى عزائمنا .

وقد تفيد الأفلام التى تسجل لمناظر خارجية فى أن تكون ديكورات لروايات تمثيلية يعمل المخرجون فى الأستوديو بوسائلهم الخاصة على إظهارها بطريقة يخيل للمتفرجين أنها مأخوذة للتو فى نفس المكان ، وإن كانت قد سجلت قبل ذلك بفترة من الزمن ، لما فى ذلك من الاقتصاد فى النفقات ، إذ يمكن استعمالها ديكوراً فى مناسبات أخرى ، أو لأن هذه المناظر يصعب الحصول عليها وقت إذاعة المناظر ، لبعدها عن مركز الإذاعة التلفزيونية .

وقد تُعرَض فى بعض الأحيان أفلامٌ سجلت للتلفزيون

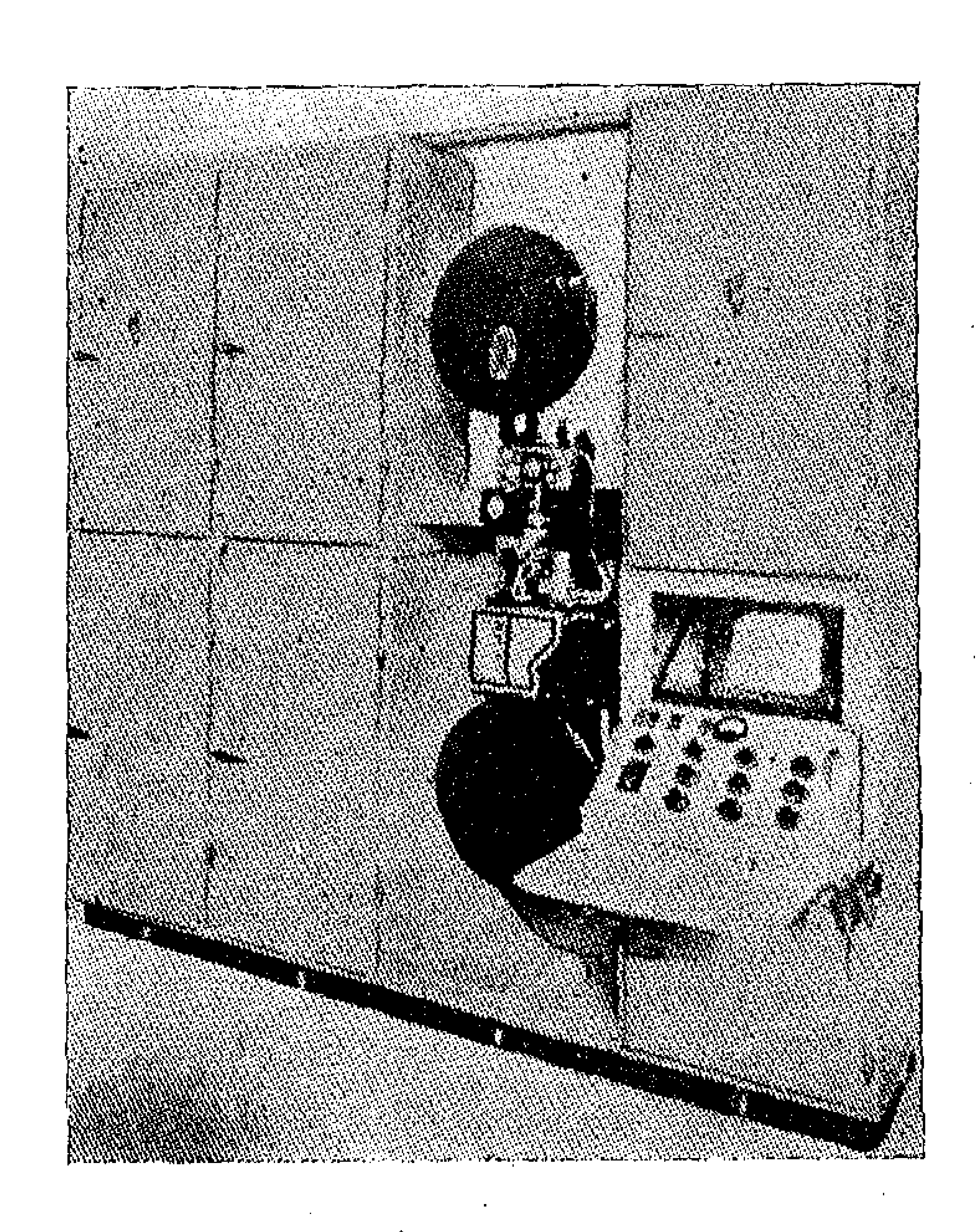
رغبة فى الاقتصاد أيضاً ، إذ أن الساعة الواحدة من الإذاعة المرئية تعنى ساعات طويلة من الإعداد ونفقات باهظة ، ولكن الفيلم المسجل يمكن عرضه مرات كثيرة ، وقد يعرض أيضاً فى دور السينما ، ولذلك يعمل المشرفون على الإخراج التلفزيونى على خفض نفقات البرامج التلفزيونية حتى لا يضطر إلى زيادة رسوم الإذاعة التلفزيونية أو زيادة الإعلانات إلى درجة يسأمها المتفرج أو الإقلال من ساعات الإذاعة المرئية .

وليس من السهل إذاعة هذه الأفلام المسجلة ، وإذاعة الأفلام السينمائية وقت عرضها فى دور السينما ، أو فى أوقات أخرى ، فالحقيقة أن ذلك يحتاج إلى كثير من العناء والبحث للوصول إلى أجهزة يمكن بها تحقيق نقل الأفلام إلى شاشة التلفزيون .

تعرض الأفلام السينمائية بمعدل أربع وعشرين صورة فى الثانية ، وهى تمر فى بكرة إلى أن تصل إلى نافذة مربعة أمامها مصدر قوى للضوء ؛ فتقف الصورة الواحدة من الفيلم $\frac{١}{٣٦٠}$ من الثانية ، وهى الفترة التى تظهر فيها على الشاشة السينمائية ، ثم تأتى الصورة التى تليها بعد $\frac{١}{٧٢}$ من الثانية من اختفائها . أما فى التلفزيون فالصور تعرض بمعدل ثلاثين صورة فى الثانية على

الشاشة التلفزيونية حتى تبدو متحركة ، ولذلك يجب أن تعدل الأفلام بطريقة يمكن تعجيلها لتتحرك بسرعة ثلاثين صورة فى الثانية .

استعملت لذلك طريقة تتلخص فى إمرار الصور أمام كاميرا الفيديكون، فتقوم بمسح صور الفيلم بالطريقة العادية



جهاز التيليسينما

ثم ترسلها إلى المستقبل .

وهنالك طريقة أخرى اسمها « النقطة الطائرة » ، وهى أن تمسح صور الفيلم بواسطة نقطة مضيئة ، هى رأس الشعاع الألكترونى المنبعث من الأنبوبة الألكترونية ، ثم تعكس بواسطة جهاز من المرايا ، ومن ثم ترسل إلى الخلية الكهرضوئية . وتعتبر هذه الطريقة الثانية أحسن من الأولى إلا أنها معقدة وليس من السهل ضبطها ، كما أن نفقاتها كثيرة .

التسجيل المغناطيسى التلفزيونى

Video Tape

يعتبر التسجيل المغناطيسى للأصوات والمرئيات من أحدث وأهم الكشوف فى عالم التلفزيون إلى جانب قلة نفقاته ، وهو تحسين لأجهزة التسجيل الصوتى المغناطيسى (الماجنتوفون) .

والجهاز الجديد أفاد كثيراً فى توفير الوقت والنفقات التى يحتاج إليها التقاط الأفلام السينمائية وطبعها ثم تسجيل الصوت وتنظيمهما بطريقة يمكن بها سماع الصوت إلى جانب رؤية

الصور على الشاشة ، ثم إعدادها للعرض التلفزيونى .

ظهر هذا الاختراع الجليل الشأن فى أمريكا فى شهر أبريل من عام ١٩٥٦ ، وهو تسجيل مغناطيسى للمناظر والأصوات تتحول إلى نبضات كهربية يمكن أن تعود ثانية فى الإذاعة التلفزيونية إلى نفس المناظر والأصوات الأصلية فى وضوح ، فلا يستطيع المتفرج أن يميز بين الصور والأصوات المرسلة بواسطة التلفزيون مباشرة ، وتلك التى سجلت من قبل على الجهاز المغناطيسى . ويمر الفيلم المغناطيسى أمام المنظر المراد تسجيله بسرعة ستة وثلاثين سنتمتراً فى الثانية ، وتدور أربعة رؤوس ألكترونية حول الأسطوانة بسرعة مائتين وأربعين دورة فى الثانية . هذا الفيلم المغناطيسى المصنوع من اللدائن وضعت داخل مادته عند صناعته حبيبات صغيرة جداً من أكسيد الحديد المغناطيسى ، فهذه الحبيبات تصبح ممغنطة بإمرار تيار كهربى عند تسجيل الصورة والصوت . وعند إعادة الأصوات والصور المسجلة عليها يقوم هذا الشريط الممغنط بإحداث تيار كهربى عندما يمر على الرؤوس المستقبلة الحساسة التى سبق ذكرها . ولكى نحصل على تسجيل جيد للتلفزيون يجب أن تكون الحبيبات المغناطيسية دقيقة جداً ، وأن تكون سرعة

مرور هذا الشريط المسجل كبيرة . وقد تزاد الرؤوس الحساسة إلى ستة أو أكثر لزيادة دقة التسجيل . واستعمل هذا الجهاز المغناطيسى لتسجيل الأفلام السينمائية لعرضها من جديد فى التلفزيون . ويتنبأ بعض المشتغلين بالتلفزيون أن الوقت الذى نستطيع فيه الحصول على جهاز تلفزيونى فى المنزل نسجل به ما يروقنا ، ونعيد عرضه فى أى وقت نريد — ليس بعيداً ، ولكنه فى غير متناول اليد حالياً لارتفاع ثمنه إلى حدّ خيالى أولا ، ولأنه ليس من السهل تحقيقه فى الأجهزة التلفزيونية الحالية .

وهناك طريقة أخرى جديدة كشف عنها الدكتور « وليام جلين » فى معامل أبحاث شركة « جنرال ألكتريك الأمريكية » ، فقد وضع على الشريط العادى للتسجيل طبقة دقيقة جداً من إحدى اللدائن التى تلين بالحرارة ، وتكفى هنا درجة حرارة غير مرتفعة . فإذا مررنا عليه شعاعاً ألكترونياً من أحد الأنابيب الكاثودية التى فى مستقبل التلفزيون ، فسوف يشحن هذا السطح بالكهربا ، وتكون كمية الألكترونات متناسبة مع شدة الشعاع الألكترونى الساقط على سطح الشريط ، فإذا مررنا الشريط الذى شحن بكمية من الكهربا على سطحه أمام مصدر للحرارة تكفى شدته لكى تلين الطبقة الرقيقة من المادة الموضوعة على

الشريط ، ثم وضعنا سطحاً آخر مشحوناً بكهربا موجبة ، فإن قوى جاذبة تظهر بين الكهربا السالبة على الشريط والكهربا الموجبة على السطح الجديد ، ويسبب ذلك حدوث انخفاضات على سطح المادة التي على الشريط ، تكون متناسبة مع الشحنة الموجودة فى كل نقطة منها . وأخيراً نمرر هذا الشريط على منطقة خفضت درجة حرارتها إلى درجة تتجمد فيها المادة ، لتثبيت تلك الانخفاضات التي حدثت فوق سطح المادة عندما لانت بالحرارة . هذه التغييرات فى سطح المادة تقابل الحبيبات المغناطيسية فى جهاز المسجل المغناطيسى التلفزيونى ، ولكنها أكثر عدداً وأكثر حساسية ووضوحاً . ويدرسون الآن هذه الطريقة لاستعمالها فى التلفزيون الملون للحصول على صور أكثر وضوحاً.

ولهذه الطريقة — كما للتسجيل المغناطيسى — أهمية كبيرة للتلفزيون ومستقبله ، فبالإضافة إلى سهولة تسجيل المناظر التلفزيونية وما يصاحبها من أحاديث وأغان وموسيقى ، يتجهون بأبحاثهم إلى استعمالها فى إنشاء محطات تلفزيونية فرعية ، فتسجل برامج المحطة الرئيسية عليها ، ثم ترسل إلى المحطات الفرعية لتذاع منها فى نفس الوقت ، وبذلك تتسع الشبكة التلفزيونية ليس فقط بإنشاء محطات التقوية كى تصل إذاعاتها إلى أبعد مسافة ممكنة ، بل بإنشاء المحطات الفرعية فى الأجزاء النائية من البلاد ،

فتذيع لسكانها ولسكان المناطق المحيطة بها التى كان من الصعب عليهم التمتع ببرامج المحطة الرئيسية . وقد أدخلت الإذاعة التلفزيونية الإنجليزية (B.B.C.) طريقة تسجيل ألكترونية يقوم جهازان فيها بتسجيل الصورة ويقوم جهاز ثالث لتسجيل الصوت .



التسجيل المغنأطيسى التليفزيونى

محطات الإرسال والهوائى

لا يوجد فرق بين محطات الإرسال اللاسلكى والتلفزيون إلا فيما يختص بمكبر المرئيات ، وهو الذى يقوم بتكبير النبضات الكهربية للصورة قبل إرسالها إلى الهوائى . ونجد فيها كذلك النبضات المنظمة لكل من النبضات المرسلة من الأستوديو وتلك التى تصل إلى المستقبل ، ثم النبضات المعتمة التى فى كل من المرسل والمستقبل فى نهاية كل خط وكل صورة عند مسحها . وتحمل النبضات الكهربية الخاصة بالصوت والصورة على موجات لاسلكية قصيرة جداً ، وهى لذلك عالية التردد ، تسمى الموجات الحاملة .

والهوائى يوضع دائماً فى أعلى مكان : فوق قمة جبل أو ناطحة سحاب ، ولذلك نرى هوائى الإذاعة التلفزيونية ، فى جمهوريتنا العربية المتحدة ، فوق جبل المقطم وهو أعلى نقطة فى القاهرة ، وذلك لأن الموجات القصيرة جداً التى ترسل عليها موجات الصوت والضوء التلفزيونية لا يمكن أن تسير قريبة من الأرض ، إذ تمتصها جدران المبانى والمصانع والأماكن المرتفعة .

يجب إذاً أن تكون فى أعلى مكان حتى تسير إلى أبعد نقطة ممكنة ، وهى تكون عادة فى حدود ستين ميلا دائريا .

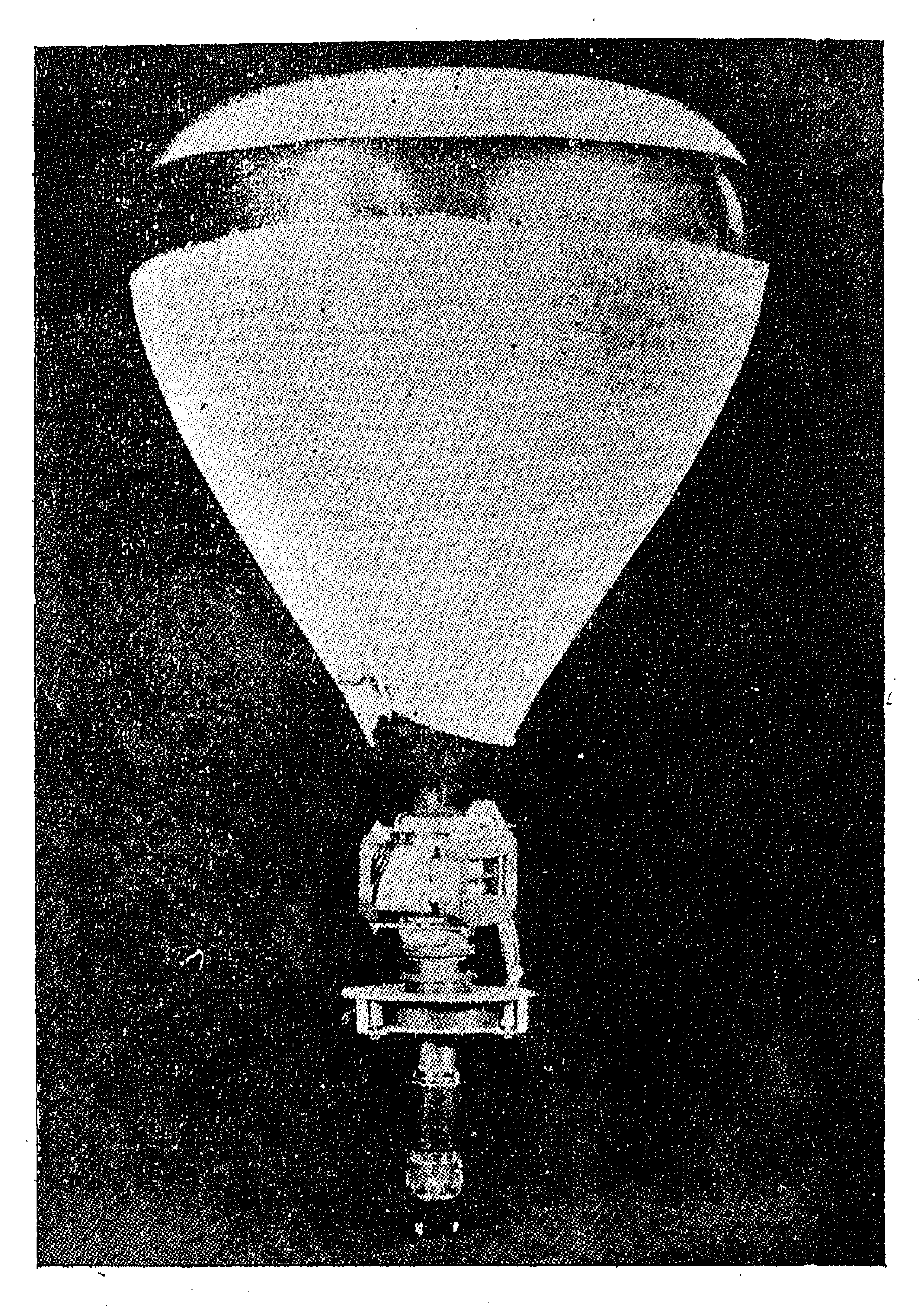
ويتكون الهوائى من قضيبين موصلين وضع أحدهما على امتداد الآخر ، فيظن أنهما قضيب واحد ، و يسمى الهوائى ذا القطبين أو المزدوج ، ويطلق عليه أحياناً اسم هوائى هيرتز ، أو هوائى نصف الموجة ، لأن مجموع طوله يتكون من القضيبين المتساويين ، وطول موجة كل منهما ربع موجة . ويكون الهوائى أفقياً أو رأسياً تبعاً لما يراد منه ، فالأفقى لاتجاه خاص معين ، أما الرأسى فلكى تكون الموجات موزعة بانتظام حول الهوائى . وتقام محطات تقوية تلتقط الموجات وتقويها لإرسالها مسافات أخرى ، وهكذا يمكن إذاعتها إلى مسافات كبيرة .

وترسل النبضات الكهربية ، التى هى إشارات المرئيات المرسلة ، من محطة الإرسال التلفزيونى إلى الهوائى ، بواسطة مجموعات من الأسلاك (Coaxial cable) لتوصيل الإشارات دون أن تفقد جزءاً منها فى الطريق . أما إذا كانت المسافة بعيدة فترسل الإشارات بواسطة اللاسلكى .

جهاز استقبال التلفزيون

فلنقتف أثر الموجات حاملة النبضات الكهربية للصوت والصور وهى فى طريقها من الهوائى المرسل إلى الهوائى المستقبل فوق أسطح منازل القاهرة وضواحيها ، وهو مثل الهوائى المرسل مكون من قضيبين ، يلتقط موجات كل من الصوت والصور ، ثم يقوم الكشاف (Detector) بفصل موجتيهما وتوجيه كل موجة إلى الأجهزة الخاصة بها فى المستقبل .

يوضع جهاز المستقبل عادة فى غرفة فسيحة تجتمع فيها الأسرة على مقاعد مريحة ، وقد عاد الزوج من عمله ، وانتهت الزوجة من أعمالها ، أو تركتها مؤقتاً ؛ أما الأبناء الصغار فقد أتيح لهم مشاهدة برامجهم من قبل ليستطيعوا النوم مبكرين كعادتهم . وأما الكبار فيفضلون التلفزيون طبعاً على أنواع التسلية الأخرى . وسوف يكون للتلفزيون على مرّ الأيام أثر كبير فى جمع شمل الأسر ، فيشعرون بدفء الحياة العائلية بعد أن كان التزوار والجلوس على المقاهى وارتياد دور اللهو والسهر خارج المنازل قد تفشى فى كثير من الأسر .



الأنبوبة الكاثوديه وتظهر الشاشة وكذلك المدفع الألكترونى
وحولها ملفات الانحراف

وأول ما يقابلك من جهاز الاستقبال هو ذلك اللوح الزجاجى الأبيض المحدب الذى تعرض عليه الصور كأنه شاشة السينما . هذه الشاشة إذا نظرت إليها جيداً عن قرب رأيت ٦٢٥ خطاً تماماً كما فى لوحة الموزاييك فى الإيكونوسكوب عند التقاط المناظر .

وقد غطيت الشاشة بمادة مفسفرة أو مفلورة حتى تتوهج عند مسحها بالشعاع الألكترونى فتظهر عليها الصورة واضحة . وتقوم الشاشة التلفزيونية باستقبال ثلاثين صورة فى الثانية ، فتظهر كأنها صور متحركة لتتابعها بطريقة لا تدركها العين . وكان « فنيلت » أول من قام بطلاء الشاشة بمادة مفسفرة . والشاشة تكون مفلورة (fluorescent) أى أن المادة التى طليت بها تتيح للصور أن تظهر بوضوح ، فإذا أطفأنا التلفزيون انتهى الوميض وأصبح لون الشاشة أبيض عادياً . أما الشاشة المفسفرة فيبقى الوميض عليها لحظة ما . وعندما يكون طلاء الشاشة بلاتينو سيانور البوتاسيوم يكون لونها أزرق بنفسجياً . أما الشاشة العادية فطلاؤها عادة من كبريتيت الزنك والفضة ولونها أبيض ، ويصير لونها أزرق فاتحاً إذا كان الطلاء من سليكات الزنك مع تونجستات الكادميوم . وتعطى فوسفات

الزنك لوناً أحمر برتقالياً ، وتونجستات الكادميوم وحدها تعطى لوناً أخضر مائلاً إلى الزرقة ، فى حين نحصل على اللون الأحمر بواسطة سليكات المنجنيز .

ويعرف القارئ طبعاً أن الشاشة ليست كل ما فى الجهاز كما هى الحال فى السينما ، بل إن الواجهة الأمامية للجهاز الموضوع فى الصندوق الخاص به ، وهو يتكون من أنبوبة ألكترونية تشبه إلى حد ما الأنبوبة الألكترونية التى فى صمام الكاميرا ، ويقوم الشعاع الألكترونى هنا بمسح شاشة المستقبل فى نفس اللحظة وفى نفس النقطة بواسطة النبضات المنظمة والنبضات المعتمة . ويقوم جهاز التوافق (synchronization) بنقل الإشارات الضوئية كما هى ، فالمعتمة أى السوداء فى الصورة تنتقل معتمة ، والشديدة اللمعان كذلك ، وكل درجات الإضاءة القوية والضعيفة .

ويتوقف وضوح الصورة على عدد الخطوط ، فكلما كان عددها كبيراً كانت الصورة أوضح . وهى فى التلفزيون العربى ٦٢٥ خطاً . وهى تعطى صورة واضحة جيدة .

وكلما كانت الشاشة كبيرة كان لذلك تأثير أكبر على وضوح الصورة ، فالشاشة التى طولها ١٤ بوصة أقل وضوحاً

من التى طولها ١٧ بوصة ، وهذه أقل من الشاشة التى طولها ٢١ بوصة أو ٢٤ بوصة وهكذا . . . وليس من السهل أن تكون مساحة الشاشة كبيرة ، فكلما ازدادت مساحتها كان الضغط على الأنبوبة الكاثودية (المفرغة من الهواء) كبيراً وهو عشرة أطنان على كل متر مربع . وبذلك ندرك سبب ارتفاع أثمانها كلما ازدادت أحجامها لما يلاقونه من صعوبات فى سبيل صناعتها . ونلاحظ أيضاً أن حجم الشاشة إذا كان كبيراً اقتضى أن يكون حجم الغرفة التى توضع فيها كبيراً . فالمسافة بين الشاشة والجالسين تزداد بازدياد مساحة الشاشة .

هوائى المستقبل :

يراعى جيداً عزل الهوائى ، وأن يوضع فوق السطح مرتفعاً ما أمكن على قطعة من خشب الغاب حتى يستطيع التقاط الموجات القصيرة جداً (الموجات الضوئية) .

وهوائى المستقبل كهوائى المرسل يتكون من قضيبين من النحاس أو غيره من المعادن الجيدة التوصيل ، على أن يكون أحدهما معزولاً عن الآخر عزلاً تاماً بواسطة عازل أسطوانى من اللدائن عادة . ويوصل بين الهوائى والمستقبل موصلان أحدهما معزول عن الآخر أيضاً . وهما موضوعان داخل أنبوبة من البلاستيك ويجب أن لا يكون الهوائى بالقرب

من أجسام معدنية أو الهياكل المعدنية فى العمارات الشاهقة فإن ذلك يسبب انعكاس بعض الموجات الحاملة فتصل إلى المستقبل بعد الأولى بقليل فيخيل للرائى أنه يرى صوراً مزدوجة .

فمن أهم الأشياء التى يجب أن يلاحظها القائم بتركيب الهوائى وضعه بطريقة تجنبه انعكاس الموجات القصيرة . وقد يشترك سكان العمارات الكبيرة أو الفيلات الصغيرة المتلاصقة فى جهاز هوائى واحد .

ويراعى فى ذلك القواعد الفنية حيث أن الاستقبال يختلف من نقطة لأخرى . كذلك قد تؤثر بعض أجهزة الاستقبال المختلفة على بعضها الآخر . فيوضع جهاز للتكبير بين الهوائى وأجهزة الاستقبال ، وبواسطة هذه الطريقة يمكن تركيب هوائى واحد لعدة أجهزة استقبال تلفزيونية .

ضبط جهاز المستقبل وإعداده :

يجب قبل كل شىء العمل على وضع التلفزيون فى مكان جيد ، فهناك أماكن لا تصلح لوضعه ، كأن تكون واجهته — أى لوحة التلفزيون أو الشاشة — أمام النافذة أو بالقرب من

الأبواب فيضطر الداخل أو الخارج إلى المرور أمام الشاشة . وكذلك يجب عدم وضعه فى أحد الأركان وحوله صفوف المقاعد، فى ذلك إقلاق لراحة الجالسين .

إن أفضل الأماكن لوضع الجهاز هو قرب النافذة ، فيمكن مشاهدته فى الضوء العادى دون الحاجة إلى إغلاق النافذة وإسدال الستر كما فى السينما ، وهذا بفضل الأجهزة التلفزيونية الحديثة التى تحتوى على أنابيب مغطاة بالألومنيوم ومرشحات معتمة.

والآن ، وقد وضعنا كلاً من الجهاز والهوائى فى أحسن مكان له ، علينا أن نعرف كيفية ضبطه ، وبخاصة للمرة الأولى .

من أهم الأشياء أن لا نحاول تشغيل الجهاز يوم تركيبه ، بل يجب فى كثير من الصبر والأناة أن نضبطه تبعاً لما هو موجود فى النشرة المرفقة بالجهاز . ويا حبذا لو قام بهذا العمل أحد المتخصصين فيه ، فالجهاز ملىء بالأدوات الدقيقة جدا القابلة للكسر ، وهى مرتفعة الثمن ، وقد لا نجد بعض قطع الغيار فى أول الأمر ، فيتوقف الجهاز نتيجة تسرع أو محاولة القيام بتركيب أحد الأسلاك أو إدارة أحد الأزرار دون التأكد منها .

ولنتحقق جيداً من أن الأنابيب والصمامات سليمة وكاملة ، وأنها مثبتة جيداً ، فى موضعها وأن جميع الموصلات الصغيرة والكبيرة فى أمكنتها . كما يجب تجربتها لضمان عدم تلف أى جزء منها فى أثناء نقله أو تركيبه . ومن أهم ما تجب معرفته عدم لمس الأجزاء الداخلية بالجهاز التلفزيون إذا لم تكن لدينا خبرة دقيقة ، وإلا عرضناه للتلف ، كما ذكرت ، وعرضنا أنفسنا لأخطار التيار الكهربى .

جهاز للتلفزيون والراديو معاً

فكر كثير من العلماء فى جمع الإذاعة اللاسلكية والمرئية فى جهاز واحد ، فكلاهما للإذاعة والتسلية ، ويا حبذا لو أمكن جمعهما معاً ! وقد أجريت تجارب كثيرة منذ عشرات السنين ولكنها كانت عاجزة حقاً عن القيام بمهمتها على وجه مرض ، غير أن إدخال التردد المعدل جعل فى الإمكان الإذاعة اللاسلكية على موجات عالية التردد جداً ، وصار من السهل إعداد مثل هذا الجهاز المزدوج ، وإن كانوا يعتبرون ذلك أمراً كمالياً

لا تزال تكاليفه أكثر كثيراً من مجموع ثمن جهازى اللاسلكى والتلفزيون معاً . إن كل ما أمكن توفيره من الجهازين عند ضمهما بعضهما إلى بعض هو الميكروفون ، ومكبر موجات تردد الصوت ، والدولاب الخارجى للمذياع ؛ إذ أنها جميعاً موجودة فى التلفزيون . ويقابل ذلك صعوبات عملية هائلة ، فإن موجات مسح الصورة والنبضات المنظّمة والمعتمة وموجات الصوت تتداخل بشكل يجب معه استعمال واحد من الاثنين : إما التلفزيون وإما اللاسلكى . وما زالت هذه الأجهزة فى دور التجربة ، وما زالت أجهزتها غاية فى التعقيد ، وهى تبعاً لذلك أكثر تعرضاً للتلف السريع .

الشاشة الكبيرة

انتشرت دور الإذاعة التلفزيونية فى ألمانيا وفرنسا والولايات المتحدة منذ الأيام الأولى لها ، وقد لاقت نجاحاً كبيراً ، وكان الدخول إليها مقابل أجر ، وأخذت تعرض كثيراً من البرامج التلفزيونية فى كثير من قاعات السينما التى كادت تغلق أبوابها

نتيجة لمنافسة التلفزيون . وكذلك قامت بعض الأستوديوهات التى لم تستطع الوقوف أمام تلك المنافسة بعمل أفلام صغيرة خاصة بالإعلانات التجارية فى التلفزيون ونجحت ، وتأسست شركات كبيرة لعمل مئات الألوف من أفلام الدعاية والإعلان ، وقامت شركات تلفزيونية كبيرة مثل « فيليبس » بتجربة شاشة تليفزيونية كبيرة عرضها حوالى ستين سنتيمتراً ، وهذه الشاشة تكون عادة معلقة على الحائط وأمامها جهاز الكاثود العادى ، وبه ما يسمى « منظار شميدت» ، وهو مرآة دائرية وعدسة ذات شكل خاص ، محدبة فى الوسط ومقعرة عند الجانبين ؛ ويمتاز منظار شميدت (Schmidt) بأن إضاءته تبلغ سبعة أضعاف أقوى الإضاءات العادية .

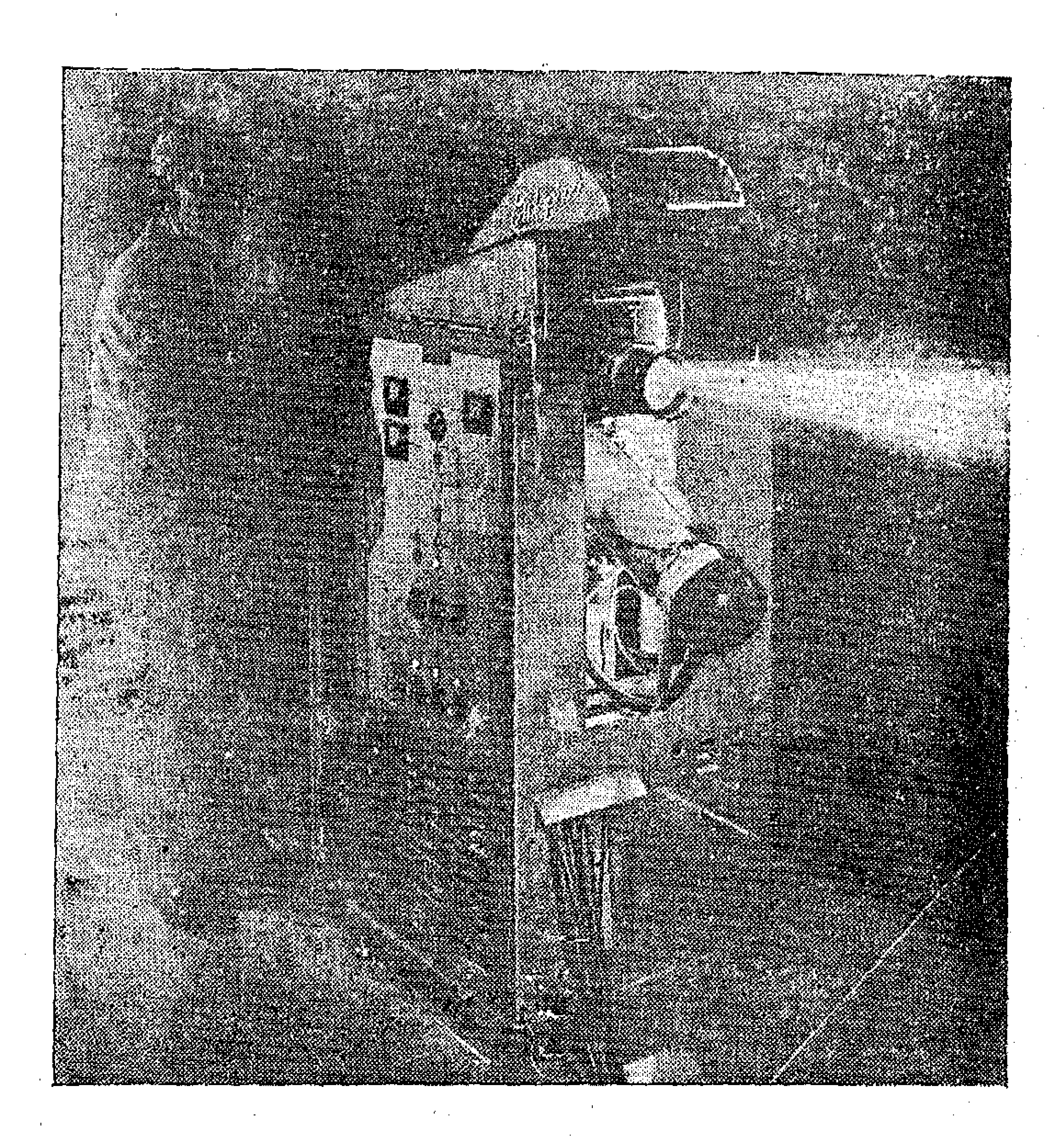
وهناك طرق أخرى ، مثل طريقة « سكوفونى » (Seophony) التى لا تستعمل الأنابيب الألكترونية بل أجهزة المسح الميكانيكية العتيقة . وبالرغم من ذلك استطاعت أن تحصل على نوع من التقدم فى تحقيق حلم الشاشة التلفزيونية الكبيرة .

وطريقة شركة « سينتل » (Cinte) التى حصلت على صور كاملة بحجم الشاشة السينمائية .

ثم طريقة « سكياترون » ، وهى تعمل كالتلفزيون

العادى ، ولكنها تفترق عنه بوجود طبقة من مادة تغطى اللوحة التلفزيونية ، فإذا سقط عليها مصدر ضوء قوى فإنه ينعكس ثانية . وتختلف شدته باختلاف وضوح نقط الصورة على اللوحة وضعفها ، أى باختلاف النقط السوداء والبيضاء المكونة للصورة . وتركز هذه الأشعة الضوئية المنعكسة بواسطة مجموعة من العدسات لتكبير الصورة التى تسقط بعد ذلك على الشاشة الكبيرة .

وظهرت طريقة جديدة أثبتت أنها ستوطد أقدامها ، وهى لاتحقق فقط حلم الشاشة الكبيرة بل الصورة الملونة أيضاً . والإيدوفور (Eidophore) هو الاسم المسجل للجهاز الجديد الذى قام الدكتور « فريتز فيشر » عضو معهد التكنولوجيا السويسرى فى زوريخ باختراعه . وظل الدكتور فيشر يعمل على تحسين جهازه منذ عام ١٩٣٩ حتى وفاته سنة ١٩٤٧ . وتولت شركة الدكتور إدجار جريتنر تحقيقه عملياً بالتعاون مع شركة سيبا الكيميائية ، وهو عبارة عن جهاز مستقبل به مجاميع خاصة من المرايا والعدسات تنعكس عليها أولا أشعة معدلة من مصدر ضوء قوىّ ، وتمر بعد ذلك خلال طبقة دقيقة من الزيت إلى مرآة مقعرة ، ثم تنعكس على الشاشة أخيراً . والأشعة التى



الإيدوفور

تمر خلال طبقة الزيت تجعل درجة الإضاءة تتغير بشكل يجعل الصورة تظهر على الشاشة باللونين الأبيض والأسود أو بالألوان الطبيعية . ويتوقف سرّ نجاح الإيدوفور على نقطة الزيت وطريقة وضعها على المرآة وكيف يمكن إزالتها من على المرآة بواسطة مضخة ماصة ، ثم استبدالها بنقطة جديدة . وتوجد لوحة معدنية صغيرة بالقرب من سطح المرآة لتحول دون أن يزيد سمك طبقة الزيت على عُشر المليمتر .

وفى خلال أعياد الثورة الماضية تحقق حلم الشاشة الكبيرة ، إذ عرضت البرامج التلفزيونية فى ميدان التحرير بالقاهرة بواسطة جهاز تليفزيونى أعدته شركة فيليبس ، وكانت واضحة وضوحاً رائعاً ونجحت نجاحاً كبيراً ، إذ أتيح لعدد عظيم من الجماهير متابعة حفل افتتاح مجلس الأمة ، ومشاهدة السيد الرئيس جمال عبد الناصر وضيفه الرئيس السودانى الفريق إبراهيم عبود، وضيوفنا الكرام الأعزاء ، كما أتيح لهم رؤية الدكتور محمد عبد القادر حاتم يلقى كلمته مفتتحاً البرامج التلفزيونية الإخبارية والثقافية والتمثيلية والغنائية الموسيقية .

محطات التقوية

تحدد أمكنة محطات التقوية بعناية فائقة لمعرفة ما يحيط بها من أماكن قد تعوق إرسال الموجات ، فيوضع للتجربة فى المكان المراد إقامة محطة فيه جهاز مرسل صغير ترسل منه إشارات مستمرة للمرئيات والصوت على الموجة ذات التردد المعروف المطلوب الإرسال عليه ، فى حين تقوم سيارات مجهزة بمعدات القياس بالتجول فى أنحاء المنطقة المراد الوصول إليها لتحدد وضوح الإشارات ، وهو ما يسمى فى عالم التلفزيون بتحديد المجال ، ولتساعد على تقدير ارتفاع الأعمدة الحاملة لأجهزة الهوائى . ومن حسن حظنا أن جو بلادنا معتدل وأن التقلبات الجوية به قليلة ، وهذا يعمل على زيادة وضوح الإرسال .

وتتكون محطة التقوية من جهاز للاستقبال من محطة التقوية السابقة لها ، ومن جهاز للإرسال والهوائى . وكثيراً ما تقوم أجهزة خاصة بتشغيل المحطة أوتوماتيكياً دون حاجة إلى وجود مشرفين دائمين عليها ، بل يقوم مهندسون من وقت إلى آخر بفحصها والتأكد من سلامة أجهزتها . وسوف ترتفع أعمدة محطات التقوية

فى جميع أنحاء الجمهورية العربية تدريجياً . فى مثل هذه الأيام من العام المقبل سوف يتاح لمناطق جديدة أن تستمتع بالتلفزيون . وفى العام الذى يليه سوف يتم ربط جميع أجزاء الجمهورية من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب .

ومما هو جدير بالذكر أن أحد مهندسينا العرب النوابغ قد كشف عن ظاهرة جديدة رائعة ، وهى إمكان الاستفادة من الموجات الضوئية المتوسطة ، فإذا اصطدمت بمنطقة التأين ارتدت ثانية وأمكن التقاطها من مسافات بعيدة قد تكون آلاف الأميال . وتجرى بحوث وتجارب فى المعهد القومى للبحوث لتحويل هذا الكشف العظيم من عالم النظريات إلى عالم التحقيق العملى ، فيتوافر للجمهورية العربية المتحدة بذلك أمران : أولهما إمكان التقاط إذاعات جميع أقطار العالم ، وإمكان إذاعة البرامج التلفزيونية العربية بحيث يمكن التقاطها فى جميع أنحاء العالم العربى وفى قارتى إفريقية وآسيا اللتين تربطنا بهما مصالح حيوية مشتركة . وثانيهما عدم التوسع فى إقامة محطات التقوية التلفزيونية ، إذ سوف يغنى هذا الكشف عن محطات التقوية للإرسال .

إن عالم التلفزيون عالم جديد بكشوفه واحتمالاته ، والمجال عظيم أمام مهندسينا وعلمائنا حتى يحققوا فى عصر الثورة عصراً تلفزيونياً ثورياً جديراً بها .

الإعلانات فى التلفزيون

والتلفزيون كثير النفقات ، إذ يكلف برنامج اليوم الواحد بضعة ألوف من الجنيهات ، ولذلك لن تغطى الاشتراكات — مهما زاد عدد المشتركين — نفقات الإذاعة التلفزيونية . ولهذا كانت الإعلانات من أهم الموارد التى لجأت إليها جميع البلاد. وأقبلت المحال التجارية على الإعلان عن بضائعها حين شاهدت التأثير السحرى للإعلان التلفزيونى فى تضاعف عدد عملائها ، فهى تقدم لهم بضاعتها بطرق مغرية يشاهدها المتفرج وسط برامج فكاهية أو كاريكاتورية أو قصصية ، وتشرح لهم مزاياها وكيفية عملها .

وتتغير هذه البرامج كثيراً ، لأن الإعلان التلفزيونى لا يلبث أن يسأمه المتفرج ، وليس مثل الإعلانات المتكررة

فى الراديو والصحف والمجلات . لذلك تكونت شركات خاصة لعمل أفلام للدعاية والإعلان التجارى ، ونجحت فى أمريكا نجاحاً منقطع النظير ؛ فشركة « سار » مثلا تزيد عدد أفلامها التجارية على الألف فى العام الواحد ، وقد ظل ممثلوها أكثر من أسبوع يعملون تحت الماء لإخراج فيلم لا يستغرق أكثر من دقيقة واحدة على الشاشة !

وشركة الأفلام التجارية « ترانسفيلم » اضطرت إلى عمل سحاب صناعى من الثلج المجفف فى منظر للإعلان عن أحذية السيدات لم يستغرق أكثر من نصف دقيقة ، وارتدى عدد كبير من فتيات عرض الأزياء هذا النوع من الأحذية وأخذن يتجولن فوق دراجات ولا يظهر منهن سوى الأحذية وعجل الدراجات ، أما بقية أجسامهن فيغطيها السحاب الصناعى الأبيض ! وتعمل الشركات على التفنن فى عرض أشياء مسلية ومضحكة ، ولكنها ذات تأثير قوى على مشاهدى التلفزيون ، فإذا بأرقام البيع تقفز مما يشجع التجار على الإكثار من الإعلان . وقد يشترك عدد من التجار فى إعلان واحد ، أو يستعمل الفيلم لإعلانات مختلفة .

التلفزيون الصناعى

والدوائر التلفزيونية المغلقة

فى فيلم « العصر الحديث » لشارلى شابلن نرى نبوّات عن مخترعات أيامنا الحاضرة ، فإذا بمدير المصنع يضغط على أحد الأزرار فيظهر على شاشة تلفزيونية على مكتبه كل ما يدور فى جوانب المصنع !

لقد أصبح خيالُ الأمس حقيقةً اليوم بفضل التلفزيون الصناعى الذى يطلق عليه اسم التلفزيون ذى السلك أو ذى الدائرة المغلقة . وفى هذا النوع من التلفزيون يحل الاتصال السلكى محل الموجات الهرتزية (اللاسلكية) بين الجهاز المرسل والمستقبل ، وقد يكون ذلك بواسطة الأسلاك المكونة من مجموعتين موضوعتين داخل غلاف (Co-axial cable) .

أليس من الغريب أن يأتى التلفزيون ذو السلك بعد التلفزيون اللاسلكى ، فى حين أننا نجد التليفون العادى يسبق اللاسلكى بكثير . لقد كانت التجربة الأولى التى أجراها « رايس » على التليفون فى عام ١٨٦٠ ، وجاء نجاح « برانلى »

فى تحقيق التلغراف اللاسلكى بعد ذلك بثلاثين عاماً .

والآن وقد دخل التلفزيون بيوتنا فسوف يمضى بعض الوقت حتى نرى الدوائر المغلقة للتلفزيون ، وإن كنا نأمل أن تكون تلك الفترة قصيرة جداً لما للتلفزيون من أهمية كبيرة فى وجوه الصناعة المختلفة . وقد عرفت أمريكا فى سنة ١٩٥٢ بداية التليفون الرائى ، فيستطيع المتحدثان أن يرى كل منهما صورة الآخر على شاشة أمامه .

لقد كان لتطور كاميرات الالتقاط من جهة الحساسية ووضوح الصورة أكبر الأثر فى تحقيق التليفزيون الصناعى ، وأهم أجزائه كاميرا الڤيديكون الصغيرة الحجم وجهاز توليد الكهربا والمذبذب الكاثودى (المستقبل) . ولا يزيد ثقل مجموع هذه الثلاثة على ستين كيلو جراماً ، وتستهلك مائتين وخمسين واط ، كما أنها لا تحتوى إلا على خمس عشرة أنبوبة ألكترونية . وكان الغرض الأول من التلفزيون الصناعى استعماله فى الصناعة ، ووجدت له فعلا تطبيقات كثيرة . ففى المصانع يجلس المهندس فى غرفته يراقب من لوحاته التلفزيونية كل ما يحدث فى أرجاء المصنع ، فيلاحظ ما تسجله المقاييس المختلفة . والعمليات الصناعية فى أفران صهر المعادن ، وحركة

الآلات وما قد يصيبها من عطب مفاجئ ، فيوقف الآلات حتى يمكن إصلاحها على الفور . ويشاهد العمال فى أماكنهم وهم يقومون بأعمالهم على خير وجه . وفى استطاعته أن يفحص عن بعد إنتاج المصنع ومراقبة عمليات الشحن والتصدير ، وخروج العمال ودخولهم . وكان التلفزيون أكبر عون فى مراقبة المصانع ذات الإنتاج الخطر ، وفى الوقاية من المواد الكيميائية السامة ، وفى المصانع الذرية أو محطات قذف الصواريخ والأقمار الصناعية ، ويكون ذلك من محطات على مسافة بعيدة عنها .

وفى الإمكان تزويد كاميرات الفيديكون الصغيرة بأجهزة يمكن التحكم فيها عن بعد ، فتستطيع عدساتها التجول فى مواضع لم يكن من السهل الوصول إليها .

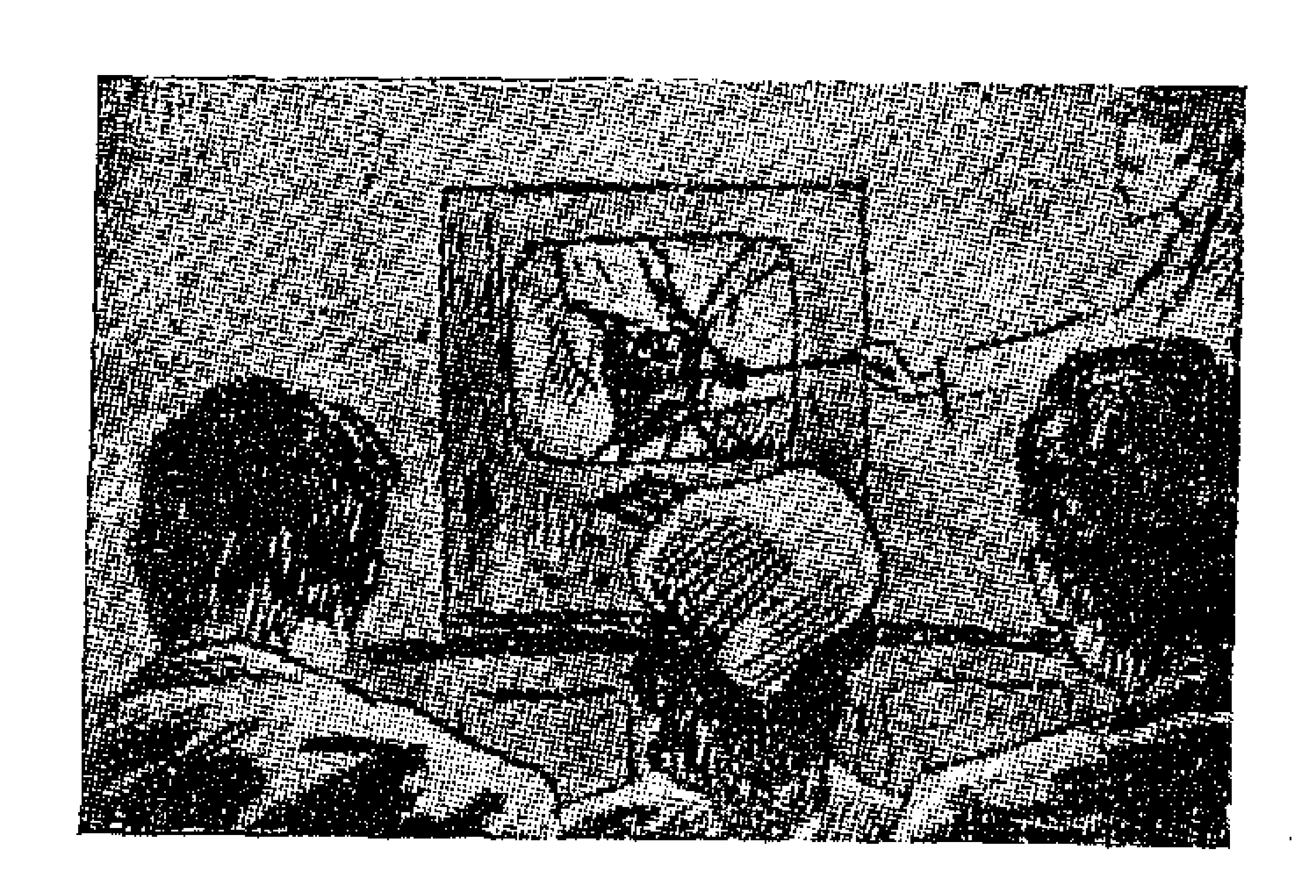
وقد أتاح التلفزيون ذو الدائرة المغلقة لرجال الشرطة مراقبة سرعة السيارات بواسطة عدد من الكاميرات توضع فى أماكن مختلفة من الطريق ، وتزود هذه الكاميرات بالأشعة تحت الحمراء لتستطيع حراسة البنوك والمتاحف والمحال التجارية فتكشف عن وجود أى دخيل مهما كان الظلام حالكاً ، ثم يدق ناقوس الأنذار . وقد زوّد عدد كبير من قاعات

الدراسة بالتلفزيون ذى الدائرة المغلقة ، وبذلك يتابع الطلبة المحاضرات والتجارب المعملية أو مشاهدة المتاحف والمعارض . وكثيراً ما يشاهد الأطباء وطلبة الطب العمليات الجراحية الخطيرة والنادرة على شاشة التلفزيون . فيشاهدون جميع تفاصيلها بدقة ووضوح وكأنهم فى غرفة العمليات نفسها . ويلجأ لهذه الطريقة المراقبون والمخرجون فى أستوديوهات التلفزيون لمشاهدة المناظر التمثيلية وإدخال ما يرون من تعديلات قبل إرسالها إلى أجهزة التلفزيون فى المنازل .

ويضع التجار عدة لوحات للتلفزيون المغلق الدائرة فى فترينات محالهم لعرض بضائعهم التى بالداخل ، وقد تكون آلة جديدة أو أقمشة أو ملابس للسيدات ، أو أزياء الموسم .

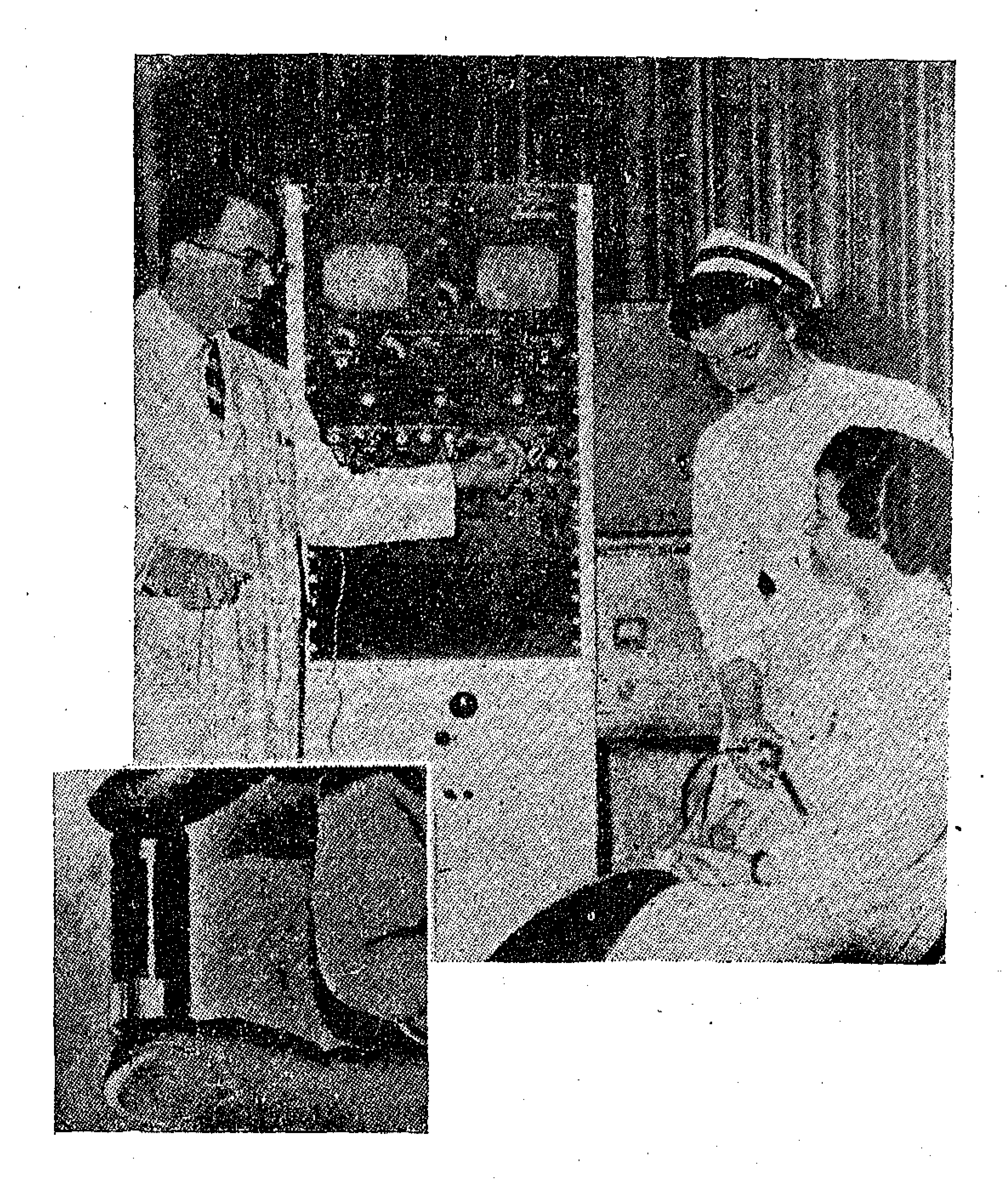
ويستعمل التلفزيون ذو الدائرة المغلقة فى العمليات الحربية ، وهو يؤدى فى هذا الميدان خدمات عظيمة ، كما أنه من أهم الأجهزة الموجودة فى الصواريخ والأقمار الصناعية ، وهو يلعب دوراً خطيراً فى الجاسوسية والاطلاع على ما يدور من استعدادات حربية بين الدول الكبرى .

ظهر التلفزيون لأول مرة فى ميادين الطيران خلال الحرب العالمية الماضية فى الشرق الأقصى ، فكانت الطائرات ترسل



عملية جراحية يتابع طلبة الطب خطواتها

الصور التى تلتقطها إلى مراكزها الحربية القريبة التى على سطح الأرض أو فوق سفينة مثلا . ففى جهاز القيادة بالطائرات فى وقتى الحرب والسلم لوحة تلفزيونية يشاهد عليها جميع تفاصيل الأرض التى يحلق فوقها . فالكاميرات الصغيرة الحساسة للأشعة تحت الحمراء تخترق الظلام والغيوم وتشاهد كل شىء على الشاشة واضحاً كأنها وسط النهار . وأخيراً يقوم جهاز « التليران » (Teleran) بعمله ، وهو يجمع بين الرادار والتلفزيون ، فترسل المعلومات عن الطائرات ومواقعها وقربها من أحد المطارات والطرق الجوية التى تتبعها ، إلى إحدى المحطات الأرضية التى



كاميرا تليفزيون يبتلعها المريض
ويشاهد الطبيب على الشاشة ما يحتاج إليه من معلومات

تقام متفرقة على مسافات ، واسمها « لوران » ، وهذه ترسلها بدورها عن طريق التلفزيون إلى الطائرات لتفيد مما يصلها من معلومات فى سيرها أو هبوطها أو تغيير اتجاهها أو سرعتها .

التلفزيون تحت الماء

فى وسط الجهود التى يبذلها العلماء للكشف عن مجاهل الفضاء بواسطة الصواريخ والأقمار الصناعية يقوم فريق آخر من العلماء ببحوث وتجارب ورحلات كشفية إلى عالم آخر مجهول . . . تلك المياه التى تغطى المحيطات والبحار ، والتى لا نعرف عنها أكثر مما نعرف عن سطح القمر . كان التلفزيون ذو الدائرة المغلقة هو السبيل للكشف عن تلك المجاهل ، فتهبط إلى قاع المحيطات كاميرات الڤيديكون داخل أسطوانات من الصلب تحميها من ضغوط الماء فى جميع الجهات .

واكتشفت طرق علمية جديدة لإمكان دراسة ما فى البحار من أسماك وحيوانات بحرية أخرى وطحالب وأعشاب ، وما فى قاعه من صخور ورمال ومعادن وبترول . ويحدثنا العالم

الأوقيانوسى « ستامب » عن تجربة قام بها بإنزال الڤيديكون إلى عمق مائة وعشرين قدماً ، فظهر على شاشة التلفزيون أن قاع المحيط مكون من قطع من الحصى يروح طولها بين نصف بوصة وثلاث بوصات مختلطة بنوع من الرمل كبير الحبيبات . ولمقارنة ما شاهد على الشاشة بحقيقة طبيعة القاع فى ذلك الموضع طلب إلى بعض الغواصين إحضار عينات منها أثبتت أن التقدير كان مضبوطاً إلى حد كبير .

وفى عام ١٩٥١ أمكن العثور على حطام الغواصة « آفرى » بفضل التلفزيون . وكانت جميع المحاولات قد أخفقت فى الكشف عنها من قبل . كان قبطان الباخرة التى خرجت للبحث عنها جالساً إلى لوحة التلفزيون. فإذا به يعثر على الغواصة ويقرأ عليها اسمها . وكان للعثور عليها دوى كبير ، إذ فتح أمام دول العالم السبيل للبحث عن آلاف السفن التى غرقت فى الحرب والسلم ، وكان الكثير منها يحمل أكداساً من البضائع والكنوز التى تجدد الأمل فى انتشالها .

التلفزيون الملون

من الممكن تحويل الجهاز التلفزيونى العادى إلى تلفزيون ملون ، ولكن هذا يكلف كثيراً ، فسوف يكون الجهاز التلفزيونى الملون الجديد مرتفع الثمن إلى حد كبير حتى فى أمريكا نفسها التى بدأت تستخدمه عام ١٩٥٣ ، ولذلك لا يزال عددها صغيراً جدا لا يتعدى الواحد فى المائة من أجهزة التلفزيون العادى ، فقد كان ثمن الجهاز من التلفزيون الملون الذى صنعته شركة (.R.C.A) نحو ألف دولار تقريباً ، ثم هبط منذ عامين تقريباً إلى ٤٥٠ دولاراً .

ولما كان هناك شبه كبير بين الصور التلفزيونية الملونة والسينما الملونة ، فقد اتجهوا فى تطبيق القواعد الأساسية للسينما الملونة على التلفزيون ، وهى تتوقف على الألوان الثلاثة الأساسية .

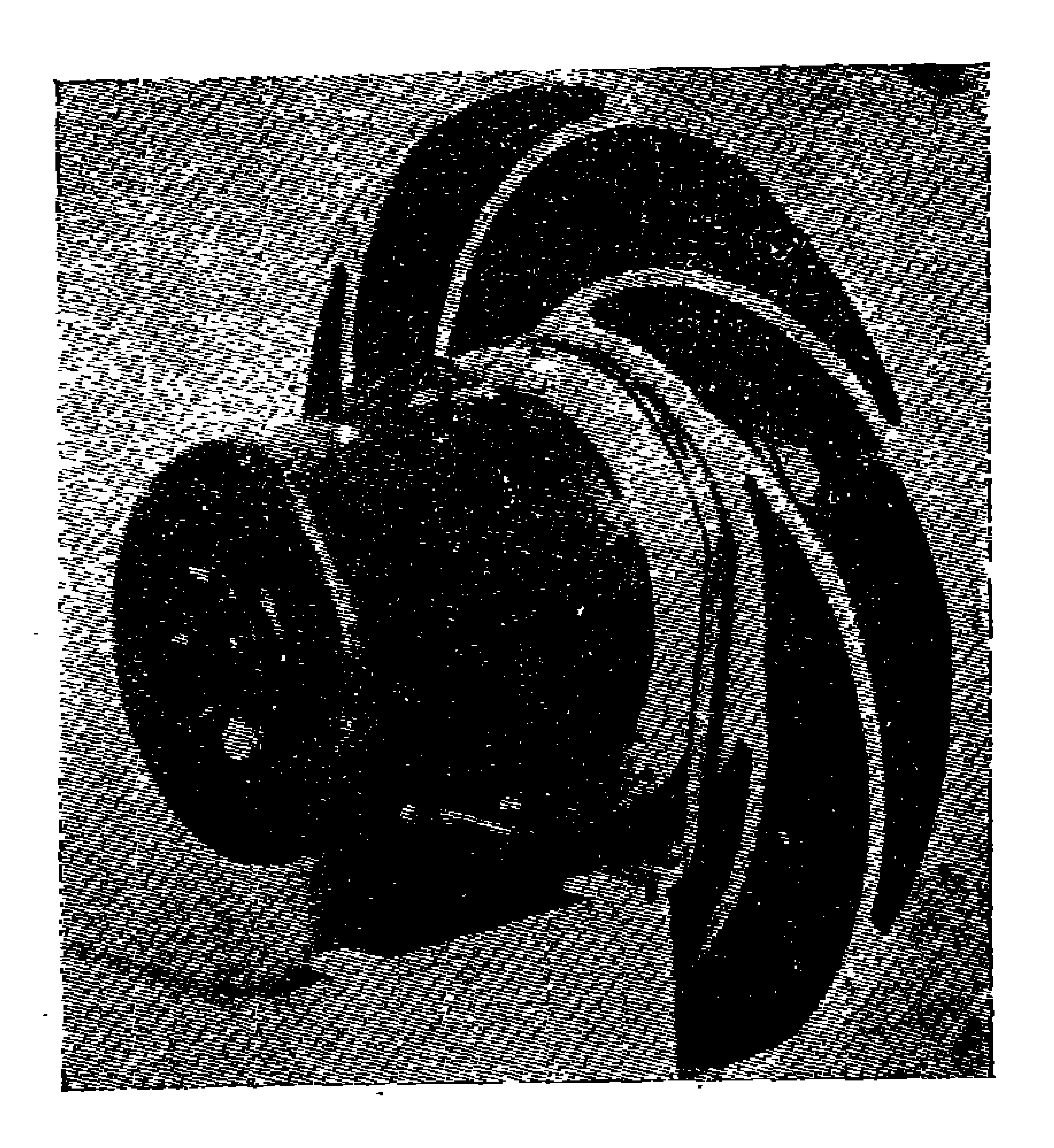
نحن نعلم أن اللون الأبيض يتركب من عدد كبير جداً من الألوان المتقاربة التى يمكن رؤيتها بواسطة شعاع من ضوء أبيض يخترق منشوراً زجاجياً . وأهم هذه الألوان التى نراها : الأحمر والبرتقالى والأصفر والأخضر والأزرق والبنفسجى .

ونعرف كذلك أن ثلاثة من هذه الألوان يمكن خلطها للحصول على الألوان الأخرى ، وهذه الألوان الثلاثة هى الأحمر والأخضر والأزرق ، فمزيج الأحمر والأخضر يعطى لوناً برتقالياً ، واللون البنفسجى هو مجموع اللونين الأحمر والأزرق ، واللون الأصفر يأتى من خلط الألوان الثلاثة الأحمر والأخضر والأزرق .

وتوضع فى السينما ثلاث صور بعضها فوق بعض على الفيلم ، هى الحمراء والخضراء والزرقاء ، وكل منها لا تحمل من الصورة الأصلية إلا الجزء ذا اللون المقابل لها . أى أن الأجزاء الحمراء فقط تكون على الصورة الأولى والخضراء على الصورة الثانية والزرقاء على الثالثة .

وفى التلفزيون طريقتان : الأولى ميكانيكية تستعمل أسطوانات وضع عليها مربعات من الألوان الثلاثة تدور بسرعة كبيرة جداً .

توجد مواد كيميائية تعطى بعض الألوان ، فمثلا يعطى كبريتيد الكلسيوم والزنك اللون الأحمر ، وكبريتيد الكلسيوم اللون الأخضر ، وكبريتيد الزنك اللون الأزرق . وبالرغم من ذلك فإن هذه الألوان لا تعطى الألوان المطابقة لها الموجودة فى



صمام التليفزيون الملون ذو الثلاثة الألوان الرئيسية

الطيف الشمسى . لذلك يفضل استعمال لوحات شفافة صنعت بطريقة فنية بحيث تعطينا ألوانا أقرب ما تكون إلى الألوان الطبيعية .

وهذه الطريقة الميكانيكية فى طريقها إلى الاختفاء إذ حلت مكانها الأنابيب الألكترونية . وهنا أيضاً كان للمخترع

زوريكين القسط الأوفر فى اختراع جهاز يحتوى اللاقط منه على صمامات الفيديكون الثلاثة ، ويحتوى الجهاز المستقبل على صمام كاثودى ذى ثلاثة مدافع ألكترونية . ففى إحدى صمامات الفيديكون فى الجهاز المرسل مرشح لا يسمح إلا بمرور اللون الأحمر ، والثانى للون الأخضر والثالث للون الأزرق . والمرشحات عبارة عن نوع خاص من المرايا تعكس نوعاً واحداً من الألوان فقط وتمتص بقية الألوان . ولكى تكون الصورة الملونة أوضح ما تكون يجب أن تكون مزيجاً من ٣٠٪ من اللون الأحمر و ٥٩٪ من اللون الأخضر و ١١٪ من اللون الأزرق ، ويجب أن تكون النبضات المنظمة للألوان تسير بنفس الطريقة فى كل من المرسل والمستقبل .

التلفزيون فى عالم الغد

الإنسان بطبعه تواق إلى السفر لرؤية أشياء ومناظر جديدة ، وأصبح لديه الآن أداة جديدة تتيح له وهو جالس فى بيته أن يطير إلى أقاصى الأرض أو يمتع نفسه برحلة خيالية فوق باخرة تمخر عباب البحار . هذا الحلم الجميل لم يتحقق بعد ، ولكن

سوف يأتى يوم يرى فيه النور . إن أهم ما يعوق تحقيقه هو المدى القصير للموجات التى تبعد عن محطة الإرسال أكثر من خمسين أو ستين ميلا . ثم هناك الأنواع المختلفة لمسح الصور التى يجب توحيدها أو اختراع جهاز يمكن به تحويل بعضها إلى بعض . فمثلا فى الجمهورية العربية المتحدة والولايات المتحدة وكندا والمكسيك وكوبا واليابان والفيليبين ٥٢٥ خطاً . فى حين أنها فى أستراليا وروسيا وأغلب أقطار أوربا ٦٢٥ خطا ما عدا فرنسا التى تعمل على ٨١٩ خطاً وبريطانيا على ٤٠٥ من الخطوط ، وذلك إذا أمكن العثور على أجهزة تنقل إلى مسافات بعيدة . حاولوا ذلك بواسطة الطائرات والبالونات ، ثم فكروا فى محطة على سطح القمر . وأخذوا منذ إطلاق الصواريخ والأقمار الصناعية إلى الفضاء يستعملون محطات الفضاء والأقمار الصناعية كمحطات تستقبل الإذاعات المختلفة لتذيعها على العالم كله .

الترانسستور :

فى يونية من عام ١٩٤٨ أعلنت معامل بحوث شركة « بل » نتائج بحوث ثلاثة من علمائها وهم « باردين » و « شوكلى »

و « براتان » فى الكشف عن أشباه موصلات صغيرة لا يزيد حجمها على رأس الدبوس الصغير تغنى عن الأنابيب الألكترونية وتقوم فى الوقت نفسه بالتقاط الموجات الكهربية وتكبيرها . وأخذت شركات كثيرة تعمل على إعداد كاميرات تلفزيونية صغيرة كالڤيديكون من الترانسستورات ، وكذلك الأنابيب الكاثودية المستقبلة، ومن مزاياها أنها لا تشغل إلا مساحة صغيرة، وأنها ليست معرضة للكسر أو التلف السريع مثل الأنابيب الألكترونية ، فهى تبقى مدة طويلة جداً . إن أكثر أجهزة الراديو تصنع الآن من الترانسستور ، وسوف يأتى يوم قريب تصنع منه أجهزة التلفزيون جميعاً وتنتشر اللوحات المطبوعة كما فى الراديو والأجهزة الألكترونية الأخرى ، وذلك لأنها ليست فى حاجة إلا إلى أقل كمية من الكهربا ، فينقص ثمنها إلى حد كبير ، ويزداد عدد المشتركين ، مما يعاون على تغطية نفقات محطات الإذاعة التلفزيونية . ويصنع من الترانسستورات كاميرات أصغر من الڤيديكون بكثير وتستعمل فى الأغراض الطبية للكشف عن أجزاء الجسم الداخلية .

التثقيف والتعليم

سوف يكون للأفلام الثقافية المسجلة أكبر الأثر فى نشر العلوم والثقافة ليس فقط بين طلبة المدارس والجامعات ، بل فى جميع أوساط الشعب ، تصل إليهم فى مصانعهم وحقولهم ، وفى قراهم وواحاتهم ، وفى الأندية والجمعيات . وبدأت التحسينات الكثيرة التى أدخلت على أجهزة التلفزيون تستغل فى مظاهر الحياة المختلفة ، ولسوف يأتى يوم نستطيع بواسطة أجهزة تلفزيونية داخلية مشاهدة من يدق الجرس الخارجى للبيت أو رؤية ما يدور فى غرفات المنزل أو الاتصال بالمحلات التجارية ورؤية ما فيها من أنواع السلع واختيار ما نرغب فى شرائه . وبدأ استعمال طريقة جديدة للإرسال فى أنحاء العالم سميت « الترافاكس » تصور الوثائق المختلفة على أفلام صغيرة ثم يقوم جهاز كاثودى خاص اسمه « النقطة الطائرة » — ويستعمل فى التلفزيون الملون أحياناً — بمسح الفيلم ثم إرساله ، وفى الجهاز المستقبل يقوم جهاز ألكترونى مماثل بطبع هذه الصور على فيلم متحرك حول أسطوانة ، ثم تتولى أجهزة أخرى

تكبير الصور وطبع عدد كبير من النسخ . وقد تصل سرعة الإرسال إلى سمائة ألف حرف فى الدقيقة ، وهذا يفتح الطريق للاستفادة منها فى طبع الصحف الكبيرة الرئيسية طبعات خاصة توسل إلى الأقاليم البعيدة بواسطة أجهزة التلفزيون ثم تطبع وتوزع فى فترة غاية فى القصر ، كما يمكن استعمالها لنشر طبعات إقليمية من الكتب والخرائط والبيانات والأفلام السينمائية والتنبؤات الجوية . وقد فكر البعض فى إرسال مجموعات كبيرة من الرسائل البرقية بهذه الطريقة . وهذا ييسر كثيراً من عملية إرسال عدد كبير من البرقيات الواحدة بعد الأخرى ، فترسل جملة واحدة فى شريط ، ثم يفصل بعضها عن بعضها وترسل إلى أصحابها فى وقت أقصر بكثير مما لو أرسلت بالطرق العادية .

إن عصر التلفزيون قد بدأ فعلا ، وسوف نرى فى هذا العصر معجزات ، ولقد بدأنا نشاهد بعضها . وما زال الكثير بعد فى عالم الأحلام ، وسوف يتحقق بفضل العلم وصبر العلماء وكفاحهم . . .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠

أكتوبر ١٩٦٠

الثمن ٣٠ مليماً

اقرأ

الدكتور زاهر رياض

قصة ملكة سبأ

بين الأسطورة والتاريخ

قصة ملكة سبأ

بين الأسطورة والتاريخ

الدكتور زاهر رياض

قصة ملكة سبأ
بين الأسطورة والتاريخ

اقرأ ٢١٥
دار المعارف بمصر

اقرأ ٢١٥ – نوفمبر ١٩٦٠

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ٥ شارع ماسبيرو – القاهرة ج. ع. م

قصة ملكة سبأ

بين الأسطورة والتاريخ

١

تنص المادة الثالثة من دستور إتيوبيا الذى صدر فى سنة ١٩٣١ على ما يأتى :

« يقرر القانون أن الشرف الإمبراطورى سيظل بصفة دائمة متصلا بأسرة هيلاسلاسى الأول ، سليل الملك سهلاسلاسى الذى يتسلسل نسبه بدون انقطاع من أسرة منليك الأول ابن الملك سليمان ملك بيت المقدس وملكة إتيوبيا المعروفة باسم ملكة سبأ » .

ولم تكن هذه المادة إلا ترديداً لما يعتقده الشعب — دون أن يخالجه أى شك فى هذا الاعتقاد—من أن ملوكه يتسلسلون من منليك الأول ابن ملكة سبأ .

وفى سنة ١٩٥٥ استبدل بالدستور القديم دستور آخر

نصت المادة الثانية منه على أن « يظل العرش بصفة دائمة محصوراً فى نسل هيلاسلاسى الأول ، المتسلسل من الملك سهلاسلاسى الذى هو بدون توقف أو انقطاع من نسل أسرة منليك الأول ابن ملكة إتيوبيا ملكة سبأ من سليمان ملك بيت المقدس » .

ويلاحظ فى نص المادتين أن المحافظة على العرش فى أسرة الإمبراطور هيلاسلاسى الأول إنما تستند على كونه سليلا مباشراً للملك منليك الأول ابن ملكة سبأ الذى أنجبته من سليمان ملك المقدس حين زارته فى مقر ملكه .

ويروى الإتيوبيون لهذه الزيارة قصة تعتبرها الحكومة قصة رسمية ، ضمنتها مع غيرها من قصص الملوك وسيرهم كتاباً هو « كبرانجست » أى سير الملوك ، وتقول هذه القصة :

كانت ماكيدا ملكة إتيوبيا تحكم الحبشة واليمن فترامى لهذه المملكة العظيمة صيت بعيد فى جميع أنحاء العالم . وكانت هذه الملكة واسعة الثروة والغنى تملك الكثير من الذهب والفضة ، والعدد الهائل من الجمال والعبيد الذين يعملون بإرشادها ، وتحت إمرتها ، فى نقل التجارة إلى الهند وأسوان . وكان هناك تاجر كبير يدعى تامارين أو تمر الدين يملك خمسمائة وعشرين جملا ، وثلاثمائة وسبعين سفينة . وعندما سمع

به سليمان الذى كان يحكم بيت المقدس أرسل إليه يدعوه ليحمل له شيئاً من تجارة الحبشة والجزيرة العربية من الذهب الأحمر والخشب الأحمر الذى يعز على السوس ؛ فلبى التاجر الدعوة ، وذهب إلى هناك ، فاشترى منه الملك كل ما عرضه عليه من ثمين العروض ، وأجزل له العطاء . وكان من الطبيعى أن يمكث تامارين فى بيت المقدس بضعة أسابيع شاهد فيها عظمة سليمان وسمع حكمته وأعجب به ، كما أعجب بطريقة حكمه لشعبه ، وحب الشعب له . حتى إذا عاد التاجر إلى ملكته ماكيدا فى الجنوب أخذ يقص عليها بعض ما شاهده وأعجب به من حكمة سليمان الذى كانت كلماته كالماء للعطشان ، والخبز للجائع ، والدواء للمريض ، والكساء للعارى . كما قص عليها أمر هيكله الذى بناه فى بيت المقدس . وكيف كان يستخدم فى بنائه سبعمائة نجار وثمانمائة بناء حتى جعله تحفة تروق للعين ولا تسأم التطلع إليه .

أخذت الملكة تستمع إليه فى سأم أولا ، ثم لم تلبث أن مالت إلى سماع حديثه وأنصتت إليه ، وتطور الحال إلى أن صارت تسأله عن هذا الملك العظيم وتلح فى السؤال ، وقد ازداد إعجابها به ، وزرع الله فى قلبها الرغبة فى أن تذهب إلى بيت

المقدس لترى هذا الملك العظيم وتتزود من حكمته . ولم يكن يثنيها عن عزمها إلا ما تعرفه عن طول الرحلة ومشاقها وما يتعرض له المسافر من أخطار الطريق . على أنها لم تلبث أن أعلنت رغبتها إلى شعبها فوافقها على ما تريد ، فأمرت ثمر الدين أن يقوم بأمر الرحلة ، فأعد سبعمائة وسبعة وتسعين جملا وعدداً لا يحصى من الحمير والبغال . وبدأت الملكة ذات الجاه رحلتها الخطيرة محاطة بكل أسباب العظمة والفخامة .

ولما وصلت إلى هناك استقبلها الملك العظيم ، وأحاطها بكل أسباب الترحيب ، وأفرد لها جناحاً خاصًّا فى قصره ، وأمر خدمه وطهاته أن يقوموا على خدمتها ، وأن يجهزوا لها ولأفراد قافلتها كل ما يحتاجون إليه من أسباب الراحة ، حتى لا يشعروا بألم الاغتراب وخصص لها فرقة مكونة من خمس وعشرين مغنية وخمس وعشرين راقصة ، لتقدم لها من ألوان التسلية ما يروح عن نفسها . وزارها سليمان كثيراً فى قصرها ، وأكثر من هذه الزيارة ، لما كان يحسه من متعة الجلوس إليها ، والاستماع إلى حديثها . كما جلست هى إليه واستمعت إلى حديثه ، فشكرت الرب الذى هداها إلى أن تقوم بهذه الزيارة لتسمع حديثه ، وتمتلىء من حكمته . ولمست كيف تشعب علمه ، وشمل جميع أنواع

الفنون ، واكتشفت أنه كان يعرف لغة الحيوان والطير ، وأنه كان يملك قوى يسيطر بها على الأرواح والشياطين التى كانت تأتمر بأمره . وكل ذلك أعطاه الله إياه ، لأنه لم يكن يبغى الشهرة أو الانتصار فى الحرب أو الثروة بل الحكمة وحدها .

استمعت ماكيدا إلى سليمان العظيم وامتلأت من حكمته ، ونزلت كلماته إلى قلبها ، وأخيراً وجدت فى نفسها الجرأة لأن تكلمه عن ديانتها ، إذ أنها كانت وشعبها يعبدان الشمس ، وأنها سمعت عن الله الواحد ، وعن تابوت العهد ، وعن لوح موسى النبى . فشرح لها سليمان قوة الله العلى خالق كل شىء ، مبدع كل شىء ، فسرعان ما اعترفت بقوة الله الأحد ، خالق السماء والأرض .

وأمضت ماكيدا فى هذه الضيافة ستة أشهر زارت فى أثنائها سليمان كثيراً فى قصره ، وزارها سليمان فى جناحها . وأخيراً أرسلت إلى الملك من ينبئه برغبتها فى العودة إلى مملكتها ولو أنها تود أن تمكث مدة أطول . وجالت فى خاطر سليمان فكرة الزواج بهذه الملكة الجميلة الممتلئة بالحكمة ، فأرسل إليها يقول إنها انتوت العودة دون أن ترى طريقة حياته فى قصره . ودعاها لأن تقيم فى هذا القصر لتتم حكمتها ؛ فلبت ماكيدا الدعوة

وانتقلت إلى القصر حيث هيأ لها مكاناً تستطيع أن ترقب منه كل ما يجرى فى القصر دون أن تزعج أحداً أو يزعجها أحد .

وكانت غرفتها مزينة بأبهج وأجمل وأغلى ما عرفه العالم من الجواهر الكريمة والطنافس الفاخرة والأستار الثمينة والذهب الذى كان يجلبه من أوفير ، كما كان الهواء معطراً بالعطور والبخور وزيت المر ، وكان الطعام يحمل إليها محتوياً كل ما فى الدنيا من أطايب الطعام والشراب ، مما جعلها تقبل عليه بنهم كبير ؛ وزاد فى إقبالها عليه ما كانت تحويه المائدة من النبيذ الفاخر والأفاوية التى تفتح الشهوة وتزيد العطش الذى لا يطفئه إلا الإقبال مرة أخرى على الطعام والشراب .

وبعد ذلك جمع سليمان الطهاة فى قصره ، وأمرهم أن يجهزوا طعاماً لكل من بالقصر ، وأعطاهم من مخازنه كل ما هو شهى من الطعام والتوابل النفاذة الرائحة . وامتثل الطهاة لأمره . وعند ما أكلت الملكة من هذه التوابل . أكثرت من شرب الماء البارد ليلا ونهاراً دون أن تروى ويطفأ ظمؤها . وفى الليلة الثالثة أمر سليمان سراً جميع من بالقصر وخارجه ألا يقدموا لها من الماء شيئاً ، وإلا كانوا عرضة للموت ، وإذا سألتهم عن مكانه فليجيبوها أنه بجوار سرير الملك .

وفى الليل شعرت الملكة بالحرارة فى جوفها ، بسبب ما أكلته من توابل كثيرة ، وأمرت خادمتها بصوت عالٍ أن تأتيها بالماء ، ولكنها لم تستطع أن تقدمه لها ، مما جعلها تدخل القصر وتسأل كل إنسان عن الماء ، وكان كل واحد يجيبها بقوله : إنه بجوار سرير الملك فعادت ورفيقتها إلى سريريهما ، ولكنها لم تستطع صبراً ، وكادت روحها تزهق ، فأسرعت إلى القصر مرة أخرى ودخلت حجرة الملك ، وكان يتظاهر بالنوم فشربت الملكة حتى ارتوت ، واستعادت روحها ، وشعرت أن قوتها قد ردت إليها بعد أن كادت تموت .

وعند ما أرادت الملكة أن تعود أدراجها قفز إليها الملك مسرعاً وأمسكها وقال لها . لقد أصبحت زوجتى وفقاً لقانون الملوك ، فقد جئت إلى حجرة نومى ، وحصلت على شىء ليس لك . هو الماء الذى هو أغلى شىء فى الوجود وعليه تقوم الحياة . فوهبت له نفسها عن إرادة وحرية .

ونام سليمان فرأى فى الحلم شمساً ساطعة ظهرت فى السماء وسارت حتى وصلت إلى إتيوبيا واستقرت هناك ، فسبب له هذا الحلم اضطراباً كبيراً . ولما استأذنت ماكيدا فى العودة إلى شعبها أعطاها سليمان هدايا كثيرة وستة آلاف جمل لقطع الصحراء ،

وسفينة لعبور البحر ، وأخرى لتسافر بها فى الهواء، كان سليمان قد صنعها بإرشاد من الله ؛ وودعها سليمان بعد أن أعطاها الخاتم الذى كان فى أصبعه كى لا تنساه .

عادت الملكة إلى مملكتها وشعبها ، وهناك ولدت ولداً أطلقت عليه اسم ابن الحكيم ، ونشأ الولد صحيح البدن، قوياً ، عاقلا حكيماً كأبيه .

وحدث أن تحدث يوماً إلى أمه ، وسألها عن أبيه : هل مات فى أثناء طفولته ؟ فأجابته الملكة : أبوك حى : إنه سليمان ابن داود نبي الله وملك أورشليم . وخاتم مملكة أبيك فى حوزتى . سأعطيك إياه حين تكون ملكاً ، وهذه إرادة الله ، وهى لا تنصبّ علىّ ، فالدولة لم تعد لى ، ولكنها لك ، ولك وحدك ، لأنك ابن ملك . فسر الابن بذلك كثيراً وشكر أمه التى قالت له : ابنى العزيز ؛ اجمع لنفسك الجند والهدايا ، وكل ما هو غال وثمين ، واذهب إلى أورشليم تجد أباك وتسمع حكمته ، وهو ينصبك ملكاً . ووضعت فى يده الخاتم الذى أخذته من سليمان .

وخرج الشاب على رأس قافلة كبيرة مجهزة بالجند يقصد قصر أبيه . وعند ما أدخل إلى غرفة سليمان عرفه أبوه وقبله فى

جبهته وفمه وبين عينيه ، وأكرمه غاية الإكرام ، وأهدى إليه حزاماً ، ووضع على مفرقيه تاجاً ، وفى أصبعه خاتماً ، وأجلسه معه على العرش ، وجعله مساوياً له ، وأطلق عليه اسم منليك ... .

ولم يكن فى نية سليمان أن يعيد ابنه إلى أمه ، فجعل يغريه بالبقاء معه فى بيت المقدس ، حيث تابوت العهد ولوح موسى ، ولكن ذلك كله لم يرغّب ابن الحكيم فى الإقامة ، بل صمم على العودة إلى وطنه ومملكته وشعبه ، بعد أن يحمل قطعة من غطاء تابوت العهد .

وعند ما تبين سليمان تصميم ابنه على الرحيل جمع أعيان دولته وطلب منهم — ما دام ابنه مصمماً على العودة إلى إثيوبيا ليكون ملكها — أن يرسل كل منهم ابنه البكر معه ليخدموه هناك كما يخدمون هم أباه ، فوافقوا جميعاً على ذلك .

وأخذ الكهنة منليك إلى الهيكل ، وأدخلوه قدس الأقداس حيث لمس المذبح ، وأعلنه صادوق الكاهن ملكاً باسم منليك ، ثم أركبوه بغلة أبيه سليمان ، وطافوا بين هتافات الشعب وأصوات المزامير والطبول .

وأخذ صادوق يعلمه كيف يحكم شعبه ، كما زوده بأهم ما جاء فى الشرائع ، كما زوّده الملك بكل ما يستطيع أن يحمله معه

من الخيول والعربات والجمال والبغال والحمير محملة كلها بالذهب والفضة واللؤلؤ والمرجان وغيرها من الأحجار الكريمة ، وبكل ما كان ضرورياً أن يحمله معه ليستعين به فى حكم مملكته . كما تجمع الأبناء الأبكار ليصحبوا ابن ملكهم ويكونوا عوناً له فى حكم مملكته .

وبينما كانت التجهيزات تجرى كان هؤلاء الأبناء يجتمعون ليدبروا معاً أمر مملكتهم الجديدة ، فسرعان ما ظهرت لهم الحقيقة الكبرى ، وهى أن هذه الرحلة بمثابة فراق نهائى لأهلهم ووطنهم ، وهاب أكثرهم أن يترك مدينته أورشليم التى تحتفظ بتابوت العهد والتى يبسط عليها الرب حمايته ، فاقترح عليهم عازار بن صادوق أن يحملوا معهم هذا التابوت ، كما بين لهم الوسيلة التى يستطيعون بها أن يحملوه معهم دون أن يدرى أحد بفعلتهم أو يفطن إليهم ، وهوّن عليهم كل تضحيه فى سبيل غرضهم . وجمع منهم عازار فى الحال مالا ، وذهب إلى نجار وطلب منه أن يصنع له صندوقاً من الخشب أبعاده أبعاد تابوت العهد ، حتى إذا أتم صنعه حملوه سراً إلى منزل أحدهم . واستأذن ابن الحكيم والده فى أن يقدم ذبيحة إلى الإله قبل أن يترك بيت المقدس ، ففرح سليمان برغبة ابنه ، وقدم له مائة ثور ومائة بقرة

وعشرة آلاف شاة وعشرة آلاف عنزة ، وكمية هائلة من الدقيق وخبز الشعير . وفى أثناء تقديم الذبيحة حمل عازار وأصحابه الصندوق الخشبي الذى صنعوه إلى المذبح وهناك استطاعوا أن يستبدلوا به التابوت الحقيقى ويحملوه سراً إلى منزل عازار فحفر له وخبأه وجعل على مكانه علامة يستدل بها عليه .

وإذ تم كل شيء استأذن منليك أباه فى الرحلة فقبّله ومنحه بركته .

وتذكر سليمان فى اللحظة الأخيرة أن زوجته كانت قد طلبت منه أن يزوّد أبنه بقطعة من غطاء تابوت العهد ، فأمر صادوق أن يذهب إلى الهيكل ويأتى بغطاء التابوت القديم ويضع بدله غطاء جديداً ، ففعل ذلك صادوق دون أن يكتشف الخديعة ، وأعطى سليمان ولده الغطاء ففرح به كثيراً .

وسارت القافلة تقودها الملائكة وتمهد لها الطريق فى البر والبحر ، وتظللهم بأجنحتها لتمنع عنهم أذى الشمس المحرقة . ولم يجرؤ حيوان أو إنسان على أن يتعرض لهم بسوء ، كما لم يشك أحد منهم متاعب الرحلة أو حرّ النهار أو برد الليل ، بل كانوا يقطعون فى يوم واحد ما تقطعه القوافل العادية فى ثلاثة وعشرين

يوماً . وفى مصر علم ابن الحكيم بأمر السرقة وأتوه بالتابوت فسجد له فى حين وقف رفاقه يصفقون و يرقصون من حوله ، وقد كشفوا التابوت ورفعوا عنه ما كان يخفيه ووضعوا عليه الأغطية الثمينة ، وساروا به فرحين يهللون ويزمرون حتى لقد تعجب منهم المصريون وزاد عجبهم حين وجدوا تماثيلهم تنحنى وتسجد له إذا ما اقترب منها ! وعند عبورهم البحر حملتهم الملائكة على أجنحتها ، وكانت الأسماك تخرج من الماء وتتجمع حولهم . وطيور السماء تغنى لهم أغانى الفرح والسرور ، حتى وصلوا سالمين إلى حدود إتيوبيا .

ولم يلبث سليمان أن روى لصادوق قصة الحلم الذى رآه وخاف منه خوفاً شديداً فلما سمعه هذا الرجل العجوز اصطكت ركبتاه هلعاً ، وخاف أن يكون التابوت قد مسه ضر أو خرج من بيت المقدس إلى إتيوبيا ، فسأله سليمان عما إذا كان قد رأى التابوت بعينيه يوم استبدل الغطاء الجديد بالقديم ؟ فأجابه بأنه لم يفعل ، فأمره الملك أن يسرع ليراه . وهناك تبينت له الحقيقة المؤلمة ، حيث لم يجد إلا صندوقاً خشبياً فارغاً ، فأغمى عليه وخر على وجهه . ولما علم سليمان أمر أن يطارد ابنه وجماعته حتى

يسترد التابوت . وسار سليمان بنفسه مع القوة المطاردة بعض الطريق . فلما وصلت هذه القوة إلى مصر ، عرفت من شعبها أن من يبحثون عنهم قد رحلوا عنها منذ تسعة أيام ، فأيقنوا أنهم قد أخفقوا، وأن التابوت قد خرج من يدهم إلى الأبد، فعادوا إلى بلادهم يجرون أذيال الخيبة .

ولم يكد ابن الحكيم يصل إلى إتيوبيا . حتى كانت الرسل قد سبقته إليها حاملة إلى أمه أخبار وصوله ومعه تابوت العهد ، فأرسلت إليه من يستقبله ويحمل إليه تحية أمه ، وسارت هى إلى أكسوم مدينة الملك لتستقبله هناك .

وعند ما رأت الملكة التابوت يسطع كالشمس فى كبد السماء خرت على الأرض ساجدة ، وكشفت عن صدرها ، وصفقت بيديها ، وضحكت بصوت عال ، ودارت ترقص حوله رقصة الفرح والسرور ، وأمرت بالذبائح تنحر ، فذبح فى هذا اليوم اثنان وثلاثون ألفاً بين ثور وبقرة وخروف وماعز ، وحمل التابوت إلى حصن قريب ورتب له ألف وثلاثمائة رجل لحراسته .

وبعد ثلاثة أيام استدعت الملكة ابنها ونصبته قائداً ووهبت له سبعة عشر ألفاً وسبعمائة فارس ، وسبعة آلاف وسبعمائة مهر

وألفاً وسبعمائة بغل ، وكلها مطهمة مجهزة بالذهب والفضة ، كما جعلت أعيان الدولة ووجهاءها يقسمون أمامها أن لا ينصبوا عليهم فى المستقبل ملكة ، وأن لا يقبلوا عليهم ملكاً إلا من نسل داود ، فأقسم الجميع فرحين ، ونصبت الملكة عازار كاهناً أعظم ، وتقبل الناس عبادة الإله الواحد ، وصارت منذ هذا اليوم ديانة لإتيوبيا .

وبرغم أنها جعلت أعيان الدولة يقسمون أن لا يضعوا على عرشهم امرأة أبداً ، فإنها لم تترك العرش بل ظلت محتفظة به ، وجعلت همها نشر الشريعة ، وسحق الديانة السبئية القديمة . واستمر حكمها بعد ذلك خمساً وعشرين سنة مملوءة بأنواع المجد ، مما جعل الإتيوبيين يعدونها أعظم ملوكهم ، ويرفعونها إلى مرتبة القديسات . وماتت ولها من العمر ستون سنة ، وكان ابن الحكيم ابنها الوحيد .

وبعد وفاتها جدد عازار ومن معه العهد لابن الحكيم ، ونصبوه ملكاً عليهم ، وصحبوه إلى المعبد الذى بنته والدته وحفظت به تابوت العهد ، وهناك مسحه بالزيت المقدس وأعلنه ملكاً على كل بلاد إتيوبيا ، فقابله الشعب بالتهليل والغناء ورقصوا ولعبوا

ألعاب الفروسية . وهذه الاحتفالات أقيمت على نفقة الملك واستمرت عدة أيام .

واختار ابن الحكيم لنفسه اسم منليك ، وهو الاسم الذى أطلقه عليه أبوه ، وجعل ينظم مملكته على نحو مملكة أبيه فى بيت المقدس . فعين اثنى عشر قاضياً ليجعل مملكته مثالا لمملكة أبيه .

وتصور لنا الأساطير الإتيوبية منليك هذا ملكاً شجاعاً اشترك فى حروب كثيرة خرج منها جميعاً منتصراً ، فهاجم أعداءه فى زاديا وهاديا ، وانتصر عليهم ، وقتل منهم عدداً كبيراً وخرّب بلادهم ، وسار إلى جعيزا حيث خرب المدينة التى كان يسكنها أناس لهم ذيول كذيول الحمير ، وعاد إلى أكسوم منتصراً .

ثم سار ومعه جيشه إلى سبأ فوصل إليها فى يوم واحد ، والرحلة إليها فى العادة لا تقطع فى أقل من ثلاثين يوماً . وخرّب بلاد النوبة حتى حدود مصر . وقد أوقعت انتصاراته الرعب فى قلوب ملوك مديام ومصر حتى لقد أرسلوا له الرسل والهدايا .

وفى حملة ثالثة تقدم إلى الهند ، فخاف ملوكها منه ، فساروا إليه وقدموا له الهدايا بعد أن سجدوا له وقبلوا دفع الجزية.

وتقول الأساطير إن منليك حكم أربعاً وعشرين سنة ، ومات بالغاً من العمر خمسين سنة بعد أن تزوج سيدة رزق منها ولداً ارتقى العرش من بعده .

٢

وإذا كانت هذه هى القصة الرسمية التى تعترف بها الحكومة والتى ضمنتها — كما ذكرنا — كتاب « كبرا نجست » ، والتى يؤمن بها شعب إتيوبيا — وخاصة شوا وجودجام وأجوامدر — إلا أن هذا لا يمنع أن هناك قصصاً أخرى تؤمن بها شعوب مقاطعات أخرى مثل تجرى ولاستا . وهذه القصص الأخرى تتفق فى كثير من أحداث هذه القصة التى أوردناها ، وتختلف معها فى مواضع أخرى ، إلا أنه اختلاف له مغزاه . ولا بد لنا أن نورد أكثر هذه القصص شيوعاً لنرى مبلغ هذا الاختلاف والغرض منه ، وحينئذ نصل إلى ما نريده من أن نبين نصيب

الأسطورة ونصيب التاريخ من هذا كله .

تقول هذه القصة : لما أراد الله – له المجد – أن يبنى سليمان هيكل الرب فى أورشليم بعد موت أبيه داود بن يسى ، بدأ سليمان فأمر بقطع الأحجار فى أحجام كبيرة ، ولكن العمال لم يكونوا بقادرين على نحتها بالحجم الكبير الذى أراده سليمان إذ انكسرت آلاتهم فى العمل ، وصرخوا إلى سليمان طالبين إليه أن يهديهم بحكمته . ولجأ سليمان إلى الله – مانح الحكمة ليرشده إلى بعض الوسائل ، ثم جمع سليمان الصيادين وأمرهم أن يأتوه برخ ، فأحضروه له ، فأمر بإناء من النحاس ذى ثلاث أرجل يسع هذا الرخ ، وأمرهم أن يضعوا الرخ فى فناء القصر والإناء النحاسى فوقه ، وكانت أجنحة الرخ ظاهرة من تحت الإناء .

وعند ما عادت أم الرخ إلى عشها فى أعلى الجبال ولم تجد ابنها ، جعلت تحوم فوق الأرض باحثة عنه . وجاءت إلى أورشليم حيث رأت ابنها تحت الإناء فى فناء القصر ، ولكنها لم تتمكن من الإمساك به ، وطارت حتى أتت الفردوس فى الجهة الشرقية من عدن ، ورأت فيه قطعة من الخشب كأنما وضعت هناك لتقف عليها . فأمسكت أم الرخ بها . واستمدت من حزنها قوة جعلتها تحملها وتطير بها ، ولا تتركها حتى أتت أورشليم

وأسقطتها على الإناء النحاسى ، وبقوة الله العلى انشق الإناء ورأت الأم ولدها ، فأمسكت به وحملته إلى عشها .

عند ما رأى سليمان ورجال دولته ذلك صرخوا بصوت عال ومجّدوا الرب لأنه منح الطير معجزة لا يستطيع بشر أن يفعلها ، وأمر النحاتين أن يأخذوا هذه القطعة من الخشب ويقيسوا عليها أحجام الأحجار التى يريدون قطعها . وحيثما أشارت الخشبة انكسر الحجر كما أراد النحاتون ، وبذلك أصبح عملهم سهلا ، فأيقن سليمان أن الرب قد وهبه بركة ؛ ولما كمل البناء ظلت قطعة الخشب فى الحجرة الأمامية من الهيكل ، ولكن بطل سحرها وإن ظلت موضع الاحترام والتقديس من سليمان وشعبه . ولأن الله – له المجد – أراد أن تنتقل مملكة داود وابنه سليمان إلى إتيوبيا المباركة أوعز إلى ملكة تلك البلاد أن ترحل إلى أورشليم لتسمع بعض حكمة سليمان ، كما يقول الإنجيل : «ملكة التيمن ستقوم مع هذا الجيل وتدينه لأنها أتت من أقصى الأرض لتسمع حكمة سليمان» .

وكانت هذه الملكة فتاة من تجرى تسمى أثيجى أزب ، وهى كلمة معناها ملكة الجنوب ، وكان شعبها يعبدون الثعبان ، وكان على كل واحد من أفراد الشعب أن يهبه ابنته الكبرى

وكميات كبيرة من الخمر واللبن كل عام فى ميعاد معين ، فلما جاء دور والد هذه الفتاة ليفعل ذلك قيدها إلى شجرة خارج المدينة ، ووضع بجانبها كميات الخمر واللبن فى انتظار مجىء الثعبان ، وهناك قدم القديسون السبعة ، وجلسوا تحت الشجرة طلباً للظل ، فسقطت على أحدهم دمعة أرسلتها هذه الفتاة وهى تبكى ، فتطلع إلى أعلى وتطلع بقية القديسين ، فوجدوا الفتاة مقيدة إلى أحد فروع الشجرة ، ففكوا وثاقها وأنزلوها ، وراحوا يسألونها عما إذا كانت إنساناً أم جنياً ؟ فأخبرتهم بقصتها وهى تبكى . فصمموا على إنقاذها ، وجلسوا فى انتظار الثعبان ، حتى إذا رأوه قادماً هجموا عليه ، فأمسك أحدهم بذقنه فى حين قال الثانى : لقد أخافنى ، وصرخ الثالث : فلنقبض عليه ، وهجم عليه هذا الأخير وساعده الباقون . وقتلوه بصليب كان معهم .

وبينما هم يفعلون ذلك طارت نقطة من الدم ووقعت على كعب الفتاة فصارت قدمها قدم حمار . وأسرع القديسون إليها وهيأوها وأرسلوها إلى أهلها فى القرية . ولكن الناس ومعهم أبوها طردوها ظناً منهم أنها قد هربت من الثعبان ، فعادت إلى الشجرة وصعدت مكانها حيث أمضت الليل . وفى صباح اليوم الثانى ذهبت ثانية إلى القرية حتى إذا هموا بطردها من جديد قصت

عليهم قصة الثعبان والقديسين ، وأتت جماعة منهم إلى حيث كان الثعبان مقتولا ، ففرحوا فرحاً شديداً ولم يجدوا أمامهم اعترافاً بجميلها عليهم إلا أن ينصبوها ملكة عليهم ، وجعلوا فتاة أخرى رئيسة لحرسها .

وسمعت أتيجى أزب بعد ذلك عن سليمان ومقدرته الطبية ، وعن قدرته على أن يفعل العجائب ، فصممت على أن تذهب إليه ليعيد قدمها إلى حالتها الأولى .

وكانت شهرة سليمان قد طارت إلى أقصى الأرض ، لأنه كان يعامل تجاراً كثيرين يأتون إليه من جميع بلاد العالم ، ومنها هذه البلاد التى تقع على شواطىء البحر الأحمر ، وقد جلبوا إليه من هناك الأشجار الثمينة والعطور الغالية والبهارات والأقمشة الرفيعة الغالية بل أتوا إليه بكل ما هو ثمين ليزين به هيكله وقصره .

وعند ما كانت هذه القوافل تعود إلى بلادها أو غيرها من البلاد أخذ من اشترك فيها يصفون لأهلهم ومستمعيهم العمل العظيم الذى كان سليمان يقوم به فى أورشليم . ومن بين رؤساء هذه القوافل تاجر يدعى تامارين ، كان متعهداً لمطالب ملكة الجنوب يحملها إليها من كل البلاد التى يذهب إليها ، كما يحمل إليها بعض أخبار هذه البلاد ،

فسعمت ما رواه تامارين قائد قافلتها عن سليمان ، فصممت على أن تذهب إليه .

فقامت قافلة كبيرة تنكرت فيها الملكة ورئيسة حرسها فى زى غلامين وسافرا إلى بلاط سليمان فى أورشليم .

وعند ما وصلت الملكة إلى أورشليم وسمع سليمان بوصولها ، وكان قد سمع عن قدمها ، دبر حيلة ماكرة يستطيع بها أن يرى هذه القدم دون أن يسألها أن تريه إياها ، فوضع عرشه فى أحد جوانب البهو فى الهيكل ، وأمر أحد عبيده أن يفتح ميازيب المياه حتى غمر أرض المكان بالماء ، ووضع فوقها الخشبة التى حملها الرخ من الفردوس . ولم يفهم أحد ممن حوله حكمة هذا العمل . فلما وصلت الملكة إلى باب الهيكل ترجلت عن دابتها وهمت بالتقدم إلى بابه ولكنها تراجعت وكادت تعاود امتطاء دابتها ظناً أنها أخطأت المكان ، ولكن من معها أفهموها أن هذا هو باب الهيكل الذى لا يدخله أحد راكباً . وعاونها خدمها على الدخول ، ومدت يدها وشمرت عن ساقها ، وبذلك رأى سليمان القدم دون أن يسألها . ثم مدت قدمها فمست قطعة الخشب ، فتحولت بقوة الله إلى قدم طبيعية كالأخرى . فحل بها خوف عظيم ، ولكنها فرحت وتقدمت وخاضت الماء رافعة أثوابها ،

حتى وصلت إلى حضرة سليمان ، فأخبرها أنه أمر بوضع الماء عمداً ليجعلها تكشف عن ساقها فيرى قدمها . وأمر سليمان الماء أن يجفف ، فظهرت الخشبة السحرية ، فقص سليمان قصتها على الملكة فقدمت لها احترامها ، وخلعت عقداً غالياً من جيدها وزينتها به ، مما جعل سليمان يزينها بعقد آخر . ويجعل لها مكاناً خاصاً فى الهيكل . وأصبح من عادة خلفاء سليمان كلما أتوا إلى الهيكل للصلاة — أن يزينوا قطعة الخشب بحلقة من فضة .

وبدأ سليمان فقدم للملكة كل فروض الاحترام ، وجعلها ورفيقتها وحاشيتها وجنودها يقيمون فى قصر بجوار قصره ، وكان يزورها كل يوم كما تزوره ، لتسمع من حكمته وتتعلم منه .

وتمضى القصة بعد ذلك متفقة مع القصة الأولى حتى تصل إلى زواجها من سليمان ، وتذكر كما ذكرت القصة الأولى أن هذا الزواج تم عن إرادة وحرية طبقاً لقانون الملوك . ولكنها تختلف عنها فى ذكر أن سليمان قد اضطجع مع خادمتها كما اضطجع معها ، وأعطى كلاً منهما قطعة من الفضة وخاتماً ومرآة ، وقال لهما : إذا كان المولود بنتاً فلتحمل قطعة الفضة وتأت إلىّ ، أما إذا كان ولداً فليحمل الخاتم . ثم عادت الضيفتان إلى بلدهما وولدت كل منهما ولداً .

وتحمل الرغبة الولدين على أن يطلبا رؤية والدهما ، فأرسلتهما الملكة إليه . ولكن القصة تذكر أن الملكة أعطت ولدها الخاتم والمرآة في حين نسيت الأخرى أن تعطى ولدها المرآة .

وخرج الشابان معاً على رأس قافلة كبيرة مجهزة بالجند يقصدان قصر أبيهما . ولما وصلا إلى القدس ، وعلم سليمان أن هناك ولدين يزعمان أنه أبوهما ، أمر بتأخيرهما ثلاثة أيام وفى نهايتها أعار واحداً من أصدقائه ملابسه الملكية وأجلسه على العرش ، ولبس هو خرقاً ممزقة وذهب إلى الإسطبل وأخذ يرقب كل شيء من بعيد . ثم أمر الشابين أن يدخلا إلى قاعة العرش فتقدم ولد الوصيفة أولاً وقبل يد الجالس على العرش وهو يحسبه أباه في حين ظل ابن الملكة المسمى منليك واقفاً من بعيد دون أن يقدم فروض الطاعة . وأخيراً تقدم وهو ينظر فى المرآة التى أعطته إياها أمه ، فرأى ملامحه كما تظهر فى المرآة مختلفة تماماً عن ملامح الجالس على العرش ، فأيقن أنه ليس أباه الملك ، فأخذ يتجه يميناً وشمالاً بحثاً عنه ، وهو لا يجد أحداً يشبهه ، وبعد مدة رأى سليمان ينظر إليه من وراء باب الإسطبل ، فعرفه لساعته ، فذهب إليه وقدم له فروض الطاعة ، فصرخ سليمان : هذا ابنى . . . الحقيقى . . . والثانى هو ابنى أيضاً

ولكنه غبى . وأراه ولده الخاتم الذى أخذه من أمه الملكة ، فلما شاهد سليمان الخاتم تأكد أنه ولده ، وغمره فرح عظيم ، واحتضنه وصرخ قائلا : مرحباً بابنى الحبيب ، أنت ابن داود . ووضع سليمان تاج أبيه على رأسه وأجلسه على عرش داود أبيه .

وضرب أصحاب الطبول طبولهم ،ونفخ أصحاب الأبواق أبواقهم وصرخ المعلنون قائلين : هذا داود بن سليمان بن داود ملك أورشليم ، وسمع هذا الأمر خارجاً ، وانتشر بين جميع قبائل أورشليم أن ابن سليمان من ملكة الجنوب قد أتى إلى أبيه وأن سليمان قد توجه ملكاً ليجمع مملكة داود أبيه ، وأجلسه على عرشه.

ولكن سرعان ما تبين الناس أن الابن والوالد كثيراً ما كانا يختلفان فى أحكامهما القضائية وحينئذ أبدى الشعب رغبته فى أن لا يحكمه ملكان ، وأن على سليمان أن يعيد ابنه إلى دولته . وصارح سليمان ابنه بذلك فطلب منه أن يسألهم : أليس هذا ابنى البكر ؟ فإذا وافقتم فسأرسله إلى دولته إذا رضيتم أن ترسلوا معه أبكاركم . ورضى الناس بذلك ، وأخذ سليمان يجهز لابنه رحلته .

وكان فى الهيكل الذى بناه سليمان تابوت عهد الرب وفى داخله لوحا الحجر اللذان كتب الله فيهما بأصابعه وصاياه ،

وعصا هارون ، ولوحا مانا . وكان هذا التابوت مغطى بصفائح من الذهب وملفوفاً بلفائف من القماش المطرز بالذهب . وكانت هناك معجزة يراها الشعب كله ، وهى أنهم إذا انتهوا من ضراعاتهم فى أثناء صلاة الكهنة ومثول الشعب أمام الرب مدبر الكون ، يرتفع التابوت عن الأرض فيعلم الناس أن تضرعاتهم قد قبلت ، فإذا لم يرتفع أيقن الكهنة أنهم قد ارتكبوا شيئاً . أو ارتكب الشعب شيئاً يستحق المؤاخذة . ويأخذون فى البحث عن مرتكب هذا الشىء ليعاقبوه ، حتى إذا تم ذلك ارتفع التابوت ، فكان ذلك بمثابة انصراف غضب الرب . وحدث أن ذهب ابن سليمان إلى الهيكل للصلاة ، ورأى التابوت وقد ارتفع ، الشىء الذى لا يستطيع عقل بشر أن يفهمه فسر من ذلك ، وصمم على أن يحمله معه إلى مملكته ، وأعلن ذلك لسليمان أبيه ، وقال له سأحمل تابوت عهد الرب إلى مملكتى . فأجابه : يا بنى العزيز ، إنك لا تستطيع أن تفعل ذلك ، فليس هناك من يستطيع أن يحمله إلا من كان كاهناً . وإذا مسه غير كاهن ذهبت طهارته حالا . هذا إلى أن الشعب ليس له حام من أعدائه سوى تابوت عهد الرب . ولكن هذا الكلام لم يقنع الابن وقال لأبيه : أنا لا أسألك ذهباً ولا فضة ، لأنه كثير فى مملكتى ؛ ولا أسألك إلا هذا التابوت . كى

يصونني فى رحلتى ، ويسند دولتى وجندى . فأجابه سليمان : إذا كانت إرادة الله قد قضت أن تأخذه ، فسيكون ذلك ميسوراً لك . ولكن إذا كنت ستحمله معك فلا تجعلنى أعرف ذلك ، ولا تودعنى لأن الكهنة وأبناء الشعب جميعاً سوف يسألوننى عنه ويجعلوننى أقسم على ما أقول ، ولن أقسم لهم إلا صادقاً .

ودعا الابن سراً صانعاً وكلفه أن يعمل صندوقاً خشبياً . مقاييسه هى نفس مقاييس الصندوق الذى فيه التابوت . فلما أتم عمله نقاه ليلاً ، ودعا صناعاً آخرين وكلفهم أن يضعوا عليه الذهب كما فى صندوق التابوت ، وقتلهم جميعاً ، كما قتل الصانع الأول. ثم غطى الصندوق الجديد بأقمشة مطرزة بالذهب تشبه أقمشة الصندوق الأول . ولم يعلم سليمان عن هذا كله شيئاً. ودعا الابن أربعة من الكهنة ليصلوا له قبل رحيله . وأقنعهم بعد أن أعطاهم ذهباً كثيراً ورشوة كبيرة كى يساعدوه فى كل ما يريد .

وفى ليلة رحيله جاء الكهنة ليودعوه ، فأخذهم إلى مسكنه ليصلوا له ، فلما اختلى بهم أمر فقيدوا بقيود من حديد ، ثم أمر جنوده أن يصعدوا ويرحلوا دون أن يعلنوا الرحيل. وأخذ معه حفنة

من رجاله المخلصين مزودين بالحراب ومعهم هؤلاء الكهنة إلى الهيكل ، وأمر الكهنة أن يحملوا التابوت ويجعلوا الصندوق الذى صنعه مكانه ، وخرج من المدينة ليلا ومعه التابوت يحمله الكهنة ولم يودع والده ولم يعلمه برحيله . وحدث كل ذلك بإرادة الرب له الشكر لحمايته التابوت المقدس . كى يسكن إلى الأبد فى مملكة داود كما وعد الله داود أن يجلس نسله على العرش إلى الأبد.

وفى الصباح ذهب الكهنة والشعب إلى الهيكل ليقيموا الصلاة ، وبعد ما انتهى الكهنة من تضرعاتهم لم يرتفع التابوت فى الهواء كما كان يحدث من قبل ، بل لم يتحرك من مكانه ، فظنوا أن أحداً قد أخطأ ، وأمروا بالصوم والصلاة ثلاثة أيام . وداروا يبحثون بين الناس عمن يكون قد ارتكب الإثم ، ولكنهم لم يجدوا أحداً . فذهب الكهنة إلى التابوت وكشفوا عنه الغطاء . . . فأى مصيبة وأى نكبة ! وأى رعب وأى حزن حل عليهم بسبب ما اكتشفوه من عدم وجود التابوت ، وما معه من أشياء مقدسة !

وعند ما تأكدوا أن ابن سليمان هو الذى أخذه بحثوا فعرفوا الكهنة الناقصين ، لأنه كان قد أخذهم معه ، فأيقنوا أنهم الخطاة . وعندئذ ذهب الكهنة والشيوخ إلى سليمان الملك ،

وكانوا جميعاً يصرخون ويولولون من الحزن بسبب ضياع التابوت المقدس ، فقالوا لسليمان أنت الذى أمرت ولدك أن يأخذ التابوت ، فبكى سليمان وأقسم لهم أنه لم يسمح لولده بذلك ، ولم يودعه ، ولم يعلم شيئاً عن سفره . فأجابه الكهنة والشيوخ . قائلين : حفظ الله الملك ، إذا كان ذلك قد حدث دون إذنك فأرسل جندك المسلح لتطارده وتستعيد التابوت . وتعيده إلى مكانه المقدس . وفعل سليمان ذلك وأعطاهم مالاً ومؤونة . وخرجوا فى طلب الشاب فساروا أربعين يوماً ، ووجدوا تجاراً فى الطريق ، فسألوهم عما إذا كانوا قد رأوا التابوت ، فأجابهم التجار أنهم قد رأوا ملكاً عظيماً ، وجنوده الكثيرين ، وأن الصندوق كان معهم ، وأنهم يسيرون كسحاب يدفعه ريح قوى . وأخبرنا سكان القرى التى مررنا بها أنهم ساروا منذ أربعين يوماً . فعاد الجند يملأ الحزن أفئدتهم ، ولكن هذا الحزن لم ينفعهم شيئاً . وأخيراً وصل الشاب إلى مملكته سالماً ، وقابلته أمه ونزلت عن عرشها وجلس هو ملكاً على عرش داود أبيه . وبذلك أصبحت مملكة إتيوبيا تتبع عرش داود إلى الأبد . واستقر التابوت هناك .

٣

لعل أول ما يلاحظ فى هاتين القصتين اتحادهما فى الهدف وفى أجزاء كثيرة منهما ، وإن اختلفا فى اللفظ وفى بعض التفاصيل

ولعل أولى نقاط هذا الاختلاف تجاهل القصة الأولى للمقدمة التى تشير إلى الثعبان الذى كان يعبده أهل تجرى ، وتقديم الأهالى له الفتاة واللبن والخمر كل عام . ولعل هذا الجزء أيضاً هو أقرب أجزاء القصة إلى الخرافة ؛ وظاهر أنه وضع من أجل إيجاد سبب لقيام الملكة برحلتها إلى أورشليم . وقصدت القصة إلى الهدف مباشرة ، وهو رغبة الملكة فى تعلم الحكمة من سليمان كغرض أساسى وحيد .

أما اختلاف القصتين من حيث عبادة أهل إتيوبيا للحية فى القصة الثانية أو الشمس فى القصة الأولى ، فليس بذى بال ، ما دام الشعبان وثنيين تهديهما الملكة بعد زيارتها لسليمان إلى عبادة الله الواحد .

ونقطة أخرى من نقاط الاختلاف ، وأكثرها وضوحاً ، هو تجاهل القصة الأولى لهذه الفتاة الثانية التى صحبت الملكة في

رحلتها . وإنجابها ولداً آخر من سليمان . ولا بد أن واضعى القصة الثانية قد هدفوا من وراء وضع هذا الجزء إلى غرض معين سوف نبينه فيما بعد .

ونقطة ثالثة من نقاط الاختلاف أيضاً ، وهى إصرار القصة الأولى على إظهار ابن الحكيم بمظهر غير السارق أو القاتل ، فأصحابه من أبكار الرجال هم الذين دبروا أمر السرقة دون أن يعلم بها منليك ، ولم يعرف خبرها إلا فى مصر فلم يسعه إلا التسليم بها.

ونقطة رابعة من نقاط الاختلاف أيضاً ، هو العهد الذى أخذته الملكة على شعبها بعد عودة ولدها من عند أبيه أن لا ينصبوا عليهم ملكة فى المستقبل ، بل أن يكون كل من يتولى الملك فى بلادهم من الذكور ، ومعنى ذلك ولا شك عدم الاعتراف بأى ملكة ترقى العرش باعتبارها مغتصبة له ، وبالتالى اعتبار كل من يلى العرش من أبناء هذه الملكة ملوكاً غير شرعيين .

ونقطة خامسة أيضاً تتمسك بها القصة الأولى ، هى هذا الحلم الذى رأى فيه سليمان الشمس تنتقل من فوق مملكة أورشليم إلى إتيوبيا واستقرارها فيها .

ومن الطبيعى أن هذه الاختلافات لم توجد عبثاً ، ولم توضع

فى إحدى القصتين دون الأخرى دون سبب أو غرض ، مما سوف نبينه .

والآن نعود إلى دراسة القصتين بصفة عامة .

أما زيارة ملكة سبأ لسليمان ملك بيت المقدس فهى حقيقة تاريخية لا سبيل إلى الشك فيها ، فقد جاء فى الإصحاح الرابع من سفر الملوك الأول كيف أعطى الله سليمان حكمته . حين قال « وأعطى الله سليمان حكمة وفهماً كثيراً ورحبة قلب كالرمل الذى على شاطىء البحر ، وفاقت حكمة سليمان جميع بنى الشرق ، وكل حكمة مصر ، وكان أحكم من جميع الناس ، من أتان الأزراحى ، وهيران وكلكول ، ودردغ ابن ماحول ، وكان صيته فى جميع الأمم حواليه ، وتكلم بثلاثة آلاف مثل ، وكانت نشائده ألفاً وخمساً ، وتكلم عن الأشجار من الأرز الذى فى لبنان إلى الزوفا التى تنبت فى الحائط ، وتكلم عن البهائم ، وعن الطير ، وعن الدبيب ، وعن السمك ، وكانوا يأتون إليه من جميع الشعوب ليسمعوا من حكمة سليمان من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا عن حكمته » .

وقد وهبه الله هذه الحكمة حين ألح فى طلبها وفضلها عن كل ذهب الأرض ، بل فضلها على طول العمر ، وعلى السلطة

التى تمكنه من قهر أعدائه .

كما جاء فى الإصحاح العاشر من نفس السفر خبر هذه الزيارة . فقد قال : « وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل كثيرة ، فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جدا بجمال حاملة أطياباً ، وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة ، وأتت إلى سليمان ، وكلمته بكل ما كان فى قلبها ، فأخبرها سليمان بكل كلامها ، ولم يكن أمراً مخفياً عن الملك لم يخبرها به . فلما رأت الملكة سبأ كل حكمة سليمان ، والبيت الذى بناه ، وطعام مائدته ، ومجلس عبيده ، وموقف خدامه وملابسهم ، ومحرقاته التى كان يصعدها إلى بيت الرب ، لم يبق فيها روح بعد ، فقالت للملك : صحيحاً كان الخبر الذى سمعته فى أرضى عن أمورك وعن حكمتك ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناى ، فهوذا النصف لم أخبر به . فقد زادت حكمتك وصلاحك عن الخبر الذى سمعته . طوبى لرجالك ، وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائماً ، السامعين حكمتك ، ليكن مباركاً الرب إلهك . الذى سر بك وجعلك ملكاً لتجرى حكماً وبراً ، وأعطت الملك مائة وعشرين وزنة ذهب . وأطياباً كثيرة جداً وحجارة كريمة . ولم يأت مثل ذلك الطيب فى

الكثرة الذى أعطته ملكة سبأ . للملك سليمان .وكذلك سفن حيرام التى حملت ذهباً من أوفير أتت من أوفير بخشب الصندل ودرابزينا لبيت الرب . وبيت الملك . وأعواداً ورباباً للمغنين . ولم يأت ولم ير مثل خشب الصندل . ذلك إلى هذا اليوم . وأعطى الملك سليمان لملكة سبأ كل مشتهاها الذى طلبت عدا ما أعطاه إياها حسب كرم الملك سليمان . فانصرفت وذهبت إلى أرضها هى وعبيدها» .

كما جاء فى الإصحاح الحادى عشر من نفس السفر أن جميع الملوك كانوا يقصدونه ابتغاء سماع حكمته حين قال : « وكانت كل الأرض ملتمسة وجه سليمان لتسمع حكمته التى جعلها الله فى قلبه » .

وتتكرر القصة فى أخبار الأيام الثانى . ويكاد النصّان يتفقان فى الكلمات ، ولكنها فى الثانى تزيد عن الأول فى وصف قصر سليمان وآنيته ومركباته وخيوله .

كما ذكرت هذه الزيارة فى العهد الجديد فى موضعين ، وهما الآية الثانية والأربعون من الإصحاح الثانى عشر من إنجيل متى « وملكة الجنوب ستقوم مع هذا الجيل وتدينه لأنها أتت من أقصى الأرض لتسمع حكمة سليمان » ، والآية الواحدة

والثلاثون من الإصحاح الحادى عشر من إنجيل لوقا « ملكة التيمن ستقوم فى الدين مع رجال هذا الدين وتدينهم لأنها أتت من أقاصى الأرض لتسمع حكمة سليمان وهوذا أعظم من سليمان ها هنا » .

وذكرت هذه القصة فى القرآن الكريم أيضاً فجاء فى سورة النمل : « ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين . وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين . وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين . وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين . فمكث غير بعيد ، فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون

للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم . قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون. قالت يا أيها الملأ إنى ألقِىَ إلىّ كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم .ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين . قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان قال أتمدوننى بمال فما آتانىَ الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ، قال يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها . قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن . أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب ، أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك فلما رآه مستقراً

عنده قال هذا من فضل ربى ، ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم. قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو ؛ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت : ربى إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » .

٤

ولكن من هى ملكة سبأ التى ذكر كل من العهد القديم والقرآن الكريم أنها أتت إلى سليمان ؟ ومن هى ملكة الجنوب التى جاءت فى إنجيل متى أو ملكة التيمن كما جاء فى إنجيل لوقا ؟ وما علاقتها بإتيوبيا ؟ وماذا كانت نتيجة زيارتها لسليمان ، غير هدايتها وتركها الوثنية إلى التوحيد على ما يذكر القرآن ؟

الجواب عن هذا لم تذكره المصادر الدينية ، ولكن تتكفل به القصتان الإتيوبيتان لتصلا به إلى الهدف الذى أرادتاه من أن ملك إتيوبيا هو ابن سليمان ملك بيت المقدس .

ولكنا نعرف أن سبأ جزء من اليمن لا من إتيوبيا ، وأنها كانت تكون جزءاً من مملكة معين ، وكانت هذه الأخيرة — بحكم طبيعة بلاد اليمن الجبلية — مقسمة إلى ولايات تنحصر كل ولاية فى واد من أودية اليمن ، وكان يتولى كل ولاية ملك يتبع ملك معين ، ويدين بالطاعة له ، وذلك فى الفترة ما بين سنة ١٢٠٠ و ٦٥٠ ق . م

بدأت سبأ تظهر منذ القرن العاشر ، ولكنها بدأت تعظم وتقوى حين أخذت معين تضعف حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد . ولا تمدنا المصادر التاريخية بأسباب ضعف معين وقوة سبأ ، ولكنا نعلم أن التجارة كانت المصدر الرئيسى لثروة كل من معين وسبأ ، فقد امتد نشاط اليمنيين التجارى إلى الخليج الفارسى وإلى أعالى بلاد الحجاز مما يلى سواحل البحر الأحمر ، وأنهم كانوا يحملون أنواع البخور من اليمن إلى شمال الجزيرة العربية . فلا بد أن نشاط التجار السبئيين قد فاق نشاط التجار فى أجزاء مملكة معين الأخرى ، مما مكنهم ومكن ملوكهم من اقتناء ثروة زادت من قوتهم ؛ وربما كان خصب سبأ واشتغال

أهلها بالزراعة إلى جانب التجارة قد مكنهم من زيادة ثروتهم حتى استطاعوا أن يرثوا دولة معين فى القرن السابع قبل الميلاد ؛ وأخذت قوتها تكبر ونفوذها يمتد حتى تسلطت على ما جاورها من القلاع والمخاليف . وكانت مأرب عاصمتها . تمتد إلى مسافة مائة وستين ميلا شمالى شرقى بلاد اليمن . ومن أجل الزراعة وإقبالهم عليها واهتمامهم بها بنوا سداً كبيراً لحجز مياه المطر . وما كشفت عنه الحفريات الحديثة من هذا السد يدل على أنه كان متين البناء له فتحات كثيرة علاوة على سلسلة من الصهاريج الجبلية التى تغذيها ينابيع الماء . وقد كان لسبأ فى عهد قوتها أسطول قوى يمخر البحر الأحمر ليحمل البخور واللبان إلى الهياكل المصرية . ولكن لم يلبث الضعف أن تسرب إلى هذه المملكة الغنية ، فأهملت الاهتمام بالسد والصهاريج مما كان سبباً فى تصدعه وتخريبه ، فكان من أثر ذلك أن عجز الأهالى عن زراعة أراضيهم إلا لفترة بسيطة هى التى تلى فترة المطر الصيفى ، فعمتها المجاعات فى أوقات كثيرة حتى اضطر أهلها إلى الهجرة والتفرق فى البلاد المجاورة ؛ ومن ثم أخذت بلاد أخرى كانت تابعة لها تتفوق عليها وتقبض على زمام السيادة . ويذكر المؤرخون أن ذلك كان فى نهاية القرن الثانى قبل الميلاد ، حين أخذت

حمير تظهر .

ويذكر المؤرخون أن ملوك سبأ لم يحملوا لقب الملك قبل القرن السابع ، وأن ملكهم كان يسمى « مكرب سبأ » وقد تلقب بهذا اللقب نحو سبعة عشر ملكاً . وكانت كلمة مكرب تعنى تابعاً .

والشيء الثابت أن مملكة سبأ . وإن اتسع نفوذها — لم تمتد فتعبر البحر الأحمر مطلقاً ، فلا نستطيع أن نقول إن إحدى ملكات هذه الدولة قد امتد نفوذها فشمل إتيوبيا حتى يقول الإتيوبيون إنها كانت ملكة لهم .

ولكنا نعرف أن دولة أكسوم قد امتدت فى أوقات كثيرة فعبرت البحر وشملت أجزاء من اليمن ، فهل نستبعد أن تخرج مملكة سبأ فى القرن العاشر قبل الميلاد عن سلطة ملوك معين لتدخل فى سلطة ملوك أكسوم ؟ إن لدينا أكثر من دليل على اتساع دولة أكسوم وعبورها البحر وشمولها أجزاء من اليمن فى أوقات كثيرة من تاريخها ، فقد قويت مملكة أكسوم بعد انحلال مملكة نباتا فى الربع الأخير من القرن الأول قبل الميلاد بفضل اشتغالها بالتجارة ، وامتد نفوذها حتى شملت سبأ ، وأقام ملوكها نصباً تذكارياً يشهد بفضل الإله محرم السبئي .

على ما أولاهم من نصر على مملكة سبأ .

كما تدلنا النقوش التى كشفها ونشرها الأستاذ ليتمان سنة ١٩٠٥ على أن ملكاً لا يذكر النقش اسمه كان يعيش فى أكسوم فى النصف الثانى من القرن الأول بعد الميلاد قام بجملة فتوحات غزا فى الأولى منها شعب الجزء الجنوبى من الجزيرة العربية كما غزا غجامى وسجايت وعدوة وغيرها من البلاد التى تقع فى الركن الشمالى الشرقى من الهضبة الحبشية ، وكانت غزوات مستمرة آخرها هذه الغزوة الكبيرة التى أرسلها عبر البحر الأحمر ليؤدب الحميريين وجميع الشعوب التى تسكن جنوب الجزيرة العربية حتى عدن ، لأنهم كانوا قد اتخذوا حرفة لهم نهب التجارة الأكسومية التى تسير فى البحر الأحمر أو جنوب الجزيرة العربية صوب حضرموت .

وإن هذا النقش الذى عثر عليه ديتمبرجر عن ملوك أكسوم يقول : « قد تملكت الشعوب التى تعيش بالقرب منى لأحافظ على السلم ، فقد غزوت شعوب (كذا وكذا) واقتسمت معهم أملاكهم ، وعبرت النيل ، وغزوت الشعوب التى تسكن على الناحية الأخرى التى تتحصن فى الجبال العالية المغطاة بالثلوج ، والتى يغوص فيها الإنسان حتى ركبتيه ، كما تسلطت على جميع

الشعوب التى تجاورهم حتى وصلت إلى حدود مصر ، وهناك أسرت جميع رجال هذه القبائل ونساءهم وأولادهم وبناتهم ، كما استوليت على جميع ممتلكاتهم ، ومن بقى منهم رضى بالخضوع لى ، كما رضى بدفع الجزية ، كما أرسلت حملة بحرية لمحاربة الأرابيت الذين كانوا يقطنون الضفة الأخرى من البحر الأحمر وقوضت عروشهم هناك . وأرغمتهم على دفع الجزية عن أرضهم ولقد حاربتهم ابتداء من بلاد ليكوكومى حتى أراضى السبئيين وساعدنى الإله العظيم القوى لأخضع لسطوتى جميع الشعوب التى تجاورنى من الشرق إلى أقصى ما تمتد الأرض ، ومن الغرب إلى أبعد ما يراه الإنسان. وأخيراً عدت إلى عدول حيث قدمت قرابين الشكر إلى أريوس وأرس و بوسيدون . بعد أن استرجعت جيوشى وجمعت شملهم جئت إلى هذا المكان وشيدت هذا العرش ، وكان ذلك فى السنة السابعة والعشرين من حكمى » .

وظلت إتيوبيا فى القرن الثالث الميلادى دولة قوية تشرف على البحر الأحمر عن طريق ثغر عدول ، وترسل سلع التجارة التى تزخر بها إلى غيرها من البلاد وخاصة بلاد الدولة الرومانية الشرقية عن طريق هذا البحر حيناً وعن طريق البر الذى يمر بمكة و يثرب حيناً آخر فكان يعنيها أن تسيطر على هذه الطرق ،

كى لا يعترض طريق التجارة معترض ما . وكانت اليمن وسبأ تكونان جزءاً من هذا الطريق الذى يعنى إتيوبيا السيطرة عليه والتحكم فيه .

وهناك من يقول إن سبأ كان اسماً لمكان ما فى إتيوبيا فى الزمن القديم حمله معهم المهاجرون الأولون الذين قدموا من اليمن فى عصور سابقة — واستقروا فى إتيوبيا ، على نحو ما فعلت القبائل العربية بعد الإسلام . فقد هاجرت هذه القبائل العربية بنظامها القبلى وسكنت أجزاء جديدة فى مهاجرها الجديدة كالأندلس ، وبلغ من حبها لمواطنها الأولى واعتزازها بها أن أطلقت على هذه الأجزاء الجديدة التى استقرت فيها أسماء الأماكن التى أتت منها فى مواطنها الجديدة ، ولكن هذا الاسم اختفى بعد قليل أو كثير من الزمن كما اختفى غيره من الأسماء لسبب أو لآخر .

٥

إلى جانب هذا الجزء التاريخى من القصة يوجد الجزء الآخر وهو زواج الملكة من سليمان ، وإنجابها منه ولداً ، ومجىء هذا الولد إلى أورشليم ، ثم تتويجه بواسطة كل من أبيه والكهنة ، ثم حمله تابوت العهد وما يحويه من ألواح إلى مملكته ، ومطاردة سليمان له ، وعدم نجاح هذه المطاردة وانتهاؤها باستقرار اللوح والتابوت فى إتيوبيا كى تنتقل مملكة داود إلى هذه الأرض الجديدة .

وهذا الجزء لم يقم عليه دليل فى الكتب السماوية أو غيرها من مصادر التاريخ ، ولم يعثر على نقش أو أثر يؤيد جزءاً أو أجزاء منها ، ولذا لا يستطيع المؤرخ المنصف إلا أن يقف منه موقف المتحفظ ، فهو فى نظرنا موضوع حتى يقوم عليه دليل تاريخى يوثق به ، ولذا لا نستطيع إلا أن نحاول تحليل ما بقى من هذه القصة لنعرف متى وضع ومن وضعه والغرض الذى وضع من أجله.

ولعلنا لا نستطيع أن نتكلم عن زمان وضعه أو شخصية الذى وضعه قبل أن نعرض للغرض الذى وضع لأجله .

وهذا الغرض واضح لا يحتاج إلى كثير من الجهد للكشف عنه ، إذ هو إظهار حق أسرة معينة فى العرش الإتيوبى ، طبقاً للقصة الأولى أو حق أسرتين معينتين ، طبقاً للقصة الثانية .وليس الغرض من هذه القصة إثبات هذا الحق فحسب ، بل إثباته بصفة قاطعة ، مانعة ، تحول دون أى محاولة للثورة على هذه الأسرة ، بل تجعل مثل هذه المحاولة إن حدثت نوعاً من الكفر أو تحدياً لمشيئة الله ، .ما دامت إرادة الله قد شاءت أن تدفع بهذه الملكة إلى زيارة سليمان من أجل إنجاب هذا الولد الذى أصبح يستند فى حقه فى العرش الإتيوبى على حق إلهى .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم لماذا ألح الملك يوحنا الرابع على « إيرل جرانفل » وزير خارجية إنجلترا ، أن يعيد إليه النسختين الخطيتين من كتاب « كبرانجست » اللتين كانت الحملة البريطانية على إتيوبيا قد استولت عليهما إثر هزيمة الملك تيودوروس الثانى فى موقعة مجدلا ، إذ كتب إليه يقول : « إن الشعب الإتيوبى لن يطيعنى أو يخضع لى بدونهما » .

وكذلك عند ما طلب المسيو « هيولورو » مندوب فرنسا لدى جلالة الإمبراطور منليك الثانى إذناً بترجمة هذه المخطوطة إلى الفرنسية ، أجابه جلالته : « إن الأسلحة وحدها لا تكفى

للدفاع عن الدولة ، ولكن الكتب أيضاً . إن ما تتكلم عنه هو فخر دولتى ، وإنه لمما يسرنى ، ويسر جميع أفراد الشعب الإتيوبى منى فنازلا أن يترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية ، ليعلم أصدقاؤنا أننا نعيش ، وليعلموا أيضاً أن الله لن يتركنا أبداً لأعدائنا » .

٦

هذا من ناحية الغرض الذى وضعت من أجله تلك القصة أو القصتان. أما عن زمن وضع كل منهما فإن ما ذكر عن سبب سفر الملكة إلى أورشليم يكفى لمعرفة هذا الزمن على وجه التقريب . فإن قصة الثعبان — الذى ذكرته القصة الثانية — والذى كان يعبده أهل تجرى ، ثم تعودهم التقرب إليه بفتاة وقدر من الخمر وآخر من اللبن ، ثم تغلب الملكة على هذا الثعبان بمعونة القديسين السبعة ، يجزم تمام الجزم بأن هذا الزمن بعد ظهور المسيحية بقرون ستة على أقل تقدير ؛ فهؤلاء القديسون الذين ذكرت أسماؤهم لم يصلوا إلى إتيوبيا إلا فى القرن الخامس الميلادى .

ومن الواضح أيضاً أن هذا الجزء لا يمت بصلة كبيرة إلى مجرى القصة ، وأنه قد وضع ، أو استعير لا لهدف سوى تشويق القارئ أو السامع إلى سماع بقية القصة ، ثم إلى « خلق » السبب الذى من أجله قامت الملكة بهذه الرحلة الطويلة : لأنها « سمعت عن سليمان ومقدرته الطبية وعن قدرته على أن يفعل العجائب ، فصممت على أن تذهب إليه ليعيد قدمها إلى حالتها الأولى » .

ولكن الشىء الهام الذى يحدد زمن وضع القصة على وجه الدقة هو هذا الجزء من القصة الثانية الذى يروى أن الملكة قد صحبت معها فى رحلتها وصيفتها ، وأن سليمان قد تزوجها كما تزوج سيدتها ، وأهدى إليها كما أهدى إلى الملكة قطعة من الفضة وخاتماً ومرآة ، وأوصاها كما أوصى الملكة أن تبادر فترسل إليه ولدها الذى تنجبه . وتزيد القصة الثانية أيضاً أن الوصيفة أنجبت ولداً كملكتها ، وأرسلت هذا الولد مع أخيه إلى بيت المقدس ، وأن هذا الولد أخفق فى معرفة أبيه . ثم تتجاهل القصة هذا الولد تجاهلا تامًّا الأمر الذى يبدو غريباً غاية الغرابة ، كأنه لم يذهب إلى أورشليم . فذكر هذا الجزء من القصة الثانية ، بل إن تجاهله فى القصة الأولى ، ينبهنا إلى

أهمية وضع هذا الجزء ، وهذا الوضع لا بد أنه كان لغرض خاص حرص واضع القصة الأولى على تجاهله .

وهذا الشيء الذى يحرص أصحاب القصة الأولى على تجاهله هو حق غيرهم فى ارتقاء العرش مهما كان هذا الحق ضعيفاً ، فإنجاب ولد آخر من امرأة أخرى يجعل لهذا الولد حقًّا فى العرش .

ونحن نعرف من تفاصيل تاريخ إتيوبيا أن ملوك الأسرة السليمانية التى تجلس على العرش فى الوقت الحاضر يقولون إنهم فقدوا العرش فى القرن العاشر الميلادى حتى القرن الثالث عشر حين استرده من هذه الأسرة المغتصبة الإمبراطور يكونوا أملاك. وكانت الأسرة المغتصبة هى أسرة زاجوا التى يذكر كتاب « كبرانجست » أن ملوكها أحد عشر ملكاً حكموا مدة ثلاثة قرون ، وأن أشهرهم وأكبرهم شأناً هو سابعهم الملك لاليبالا الملقب بجبراماسقال الثانى وأن آخر ملوكهم هو نكويتا لآب الذى نزل عن العرش نزولا سلميًّا للإمبراطور يكونو أملاك سنة ١٢٨٠م .

فليس لنا إذن إلا أن نقطع بأن هذه الأسرة الزجوية التى اغتصبت العرش فى القرن العاشر الميلادى ، وتمكنت من

الاحتفاظ به ثلاثة قرون كاملة ، هى التى وضعت فى القصة هذا الجزء ، وأنها قصدت بذلك تأييد حقها فى العرش وإظهار أن حقها فيه يستند إلى نفس الأسس التى يستند إليها حق الأسرة الأخرى . التى تفخر بانتسابها إلى منليك ابن ملكة سبأ من سليمان الذى لا يستند فى حقه فى العرش إلى كونه ابناً لهذه الملكة بل إلى كونه ابناً لسليمان . والولدان يستويان فى هذه الصفة ، ولا شأن لكون هذا الابن الثانى ابناً للوصيفة لا للملكة . بل أكدت القصة الثانية حقه فى العرش أكثر من أمه حين جعلتها تنزل عن عرشها له ، وما دامت الأسرة الأخرى قد ضعفت إلى حد عدم استطاعتها الاحتفاظ بالعرش فى نسلها ، فلن يكون هناك وارث طبيعى لها — يستطيع المحافظة على العرش السليمانى والمحافظة على تابوت العهد ولوحى الشريعة — إلا هذا الابن الثانى الذى لا يقل حقه فى العرش عن حق الابن الأول . ومن هنا نستطيع أن نجزم أن زمن وضع القصة الثانية كان النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى ، حين احتاجت هذه الأسرة الجديدة إلى تأييد حقها فى العرش . وإن وضع هذه القصة الثانية كان سابقاً لوضع القصة الأولى التى عنيت حين استردت العرش بإظهار حقها فيه . فهى فى المدة السابقة لاغتصاب هذا الأسرة

الزاجوية العرش ، ثم استردادها إياه فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر لم تكن فى حاجة إلى ما يؤيد حقها فى العرش ما دام العرش فى يدها حقيقة واقعة .

وأكثر من هذا أن القصة الثانية عنيت بأن تظهر أن الملك منليك لم يأت بتابوت العهد من أورشليم إلى أكسوم إلا بعد أن سرق وقتل ولجأ إلى الخديعة والغش ، فإنه لم يتردد فى إدخال الغفلة على أبيه من أجل أن يسرق التابوت ، كما لم يتردد فى قتل النجار الذى صنع له الصندوق ، وإجبار الكهنة على الصلاة من أجل أن يرفعوا الصندوق ، بل إنه لم يخرج من أورشليم إلا مطروداً بعد أن سئم الشعب تضارب أحكامه مع أحكام أبيه . ولما كان أبوه معروفاً بالحكمة وسداد الرأى فلا بد أن تكون أحكام هذا الملك الشاب أبعد ما تكون عن الحكمة وسداد الرأى .

كل هذا يجعلنا نعتقد أن الذى وضع النصف الثانى من هذه القصة الثانية هم أصحاب الأسرة التى اغتصب حقها مدة ثلاثة قرون ، ثم نجحوا فى استرداده ؛ أى أن القصة الثانية قد وضعت فى عهدين : وضع أولها فى عهد الأسرة الزاجوية المغتصبة ، ووضع آخرها فى عهد الأسرة التى استردت العرش . بل إن

هؤلاء الذين وضعوا النصف الثانى عنوا بأن يظهروا ابن سليمان الثانى بمظهر المهمل الذى لم يأخذ المرآة معه ليعرف وجه أبيه ، وقد جوزى على هذه الغفلة بأن سلب حقه فى العرش .

ولما كانت هذه الأسرة الزاجوية قد قامت فى لاستا ، وهى مدينة فى تجرى ، وكانت سلطتها فى لاستا وتجرى أقوى منها فى أى جزء آخر أدركنا لم تداول أهل تجرى هذه القصة دون غيرهم من أهل إتيوبيا .

ونلاحظ فى القصة الثانية أنها — بعد وصول التابوت إلى أكسوم واحتفاظ منليك به — لم تحاول أن تقدم لنا منليك فى صورة الملك المحارب الذى ينجح فى حكم دولته ، ولم تحاول أن تصوره لنا بطلا كما تفعل القصة الأولى ، فهى تريد أن تتجاهل هذا الملك بعد أن أدى الرسالة التى هيأه الله لأدائها ، لأن دوره لم يكن أكثر من حمل تابوت العهد إلى إتيوبيا مما لا يجعل حقه فى العرش مؤيداً .

وإذا استطعنا أن نحدد بصورة تقريبية واضع هذه القصة وزمان وضعها ، لأننا نعرف أن الأسرة الزاجوية حكمت ثلاثة قرون كاملة ، بل على وجه التحديد ٣٤٣ سنة (٩٤٠ — ١٢٨٣) ، فإننا نستطيع أيضاً أن نكون أكثر دقة ، فنحاول أن نعين

فى أى جزء من هذه القرون الثلاثة بدأ وضع هذه القصة ، فقد انتهزت فرصة ضعف الأسرة الأولى ، وعدم اتساع سلطة الملوك إلى أكثر من مدينة أكسوم وما حواليها ، وقامت الأسرة الجديدة فى لاستا ، وهى منطقة متطرفة فى غربىّ تجرى ، وجمعت حولها العناصر الغاضبة والتى أضرت بها الأسرة القديمة أو التى أضرت بها سيادة العناصر السامية ، وهى قبائل الأجوا التى كانت تسكن أجزاء أجوامدر ، وقبائل الفلشا . واستطاعت هذه العناصر مجتمعة أن تقضى على الأسرة القديمة وتنقل العاصمة من أكسوم إلى لاستا لتبدأ عهداً جديداً .

وكان العرش من نصيب الملكة چوديت ، وقد استمر حكمها أربعين سنة (٩٤٠ — ٩٨٠) فليس من المقبول عقلا أن تلجأ مثل هذه الملكة إلى اصطناع القصص لتأييد عرشها ، فالوسائل الشديدة العنيفة ، بل المتناهية فى الشدة والعنف التى لجأت إليها هذه الملكة لا تتسق مطلقاً مع سياسة اصطناع قصة ما من أجل تأييد حق فى عرش قد حصلت عليه فعلا بقوتها وقوة من معها من جند وما معها من سلاح .

وخلف هذه الملكة الملك تكلاهيمانوت الذى سرعان ما تبين خطأ سياسة الملكة السابقة .

ورأى ما جرته سياستها على البلاد من السخط والتذمر وانتشارهما بين الشعب إلى درجة هددت الأمن والسلام ، حتى خيف أن يخرج الأمر من يدها ، فلجأ إلى وسائل من شأنها القضاء على هذا السخط وإعادة الطمأنينة إلى نفوس الناس ، فكانت العودة إلى المسيحية إحدى هذه الوسائل ، وإعادة العلاقات الدينية مع مصر وسيلة أخرى ، وتعاون الدولة ، مع الكنيسة على بث الطمأنينة فى النفوس وسيلة ثالثة ، ثم كان تأليف هذه القصة التى تثبت حق الأسرة الجديدة فى العرش مستندة إلى أصول عميقة تعود إلى ما قبل الميلاد بعشرة قرون وسيلة رابعة .

لذلك أرجح أن تكون هذه القصة التى روت زيارة ملكة سبأ لسليمان ملك المقدس مصحوبة برئيسة حرسها ، وأن سليمان رزق ولداً من كلتيهما ، قد وضعت فى هذا العصر . ولم يتورع منشئ هذه القصة — وربما يكون راهباً إتيوبيا — عن أن يدخل فى قصته أجزاء من قصص كانت متداولة بين المسيحيين وكانوا يؤمنون بها إيماناً لا يعتوره الشك مثل قصة الثعبان الذى يطلب العروس واللبن والخمر ، ثم التغلب عليه بقوة الإيمان أكثر من أى قوة أخرى .

وكانت هذه الوسائل مجتمعة كافية لأن تبعث القوة فى هذه الأسرة الجديدة فيمتد حكمها خلال عهد الملوك من الثالث إلى السادس دون أن نسمع أو يسجل لنا التاريخ ثورة أو محاولة لثورة من أجل الانتقاض على هذه الأسرة ، بل إن الأساطير تروى أن فرداً واحداً من أبناء الأسرة القديمة نجا من المذبحة التى قضت على جميع أفرادها وأنه استقر فى شوا لا يستطيع أو يجرؤ على أن يرفع رأسه ، لأن نفوذ الأسرة الجديدة التى تحكم فى لاستا كان ساحقاً ، برغم ضعف الملوك القائمين بالأمر ، فالمصادر كلها تجمع على أن السلطة الفعلية لملوك أسرة زاجوا لم تكن تتعدى منطقة سمن ، ولكن يبدو أن نفوذهم الأدبى كان كبيراً إلى حد أن أرغم أعداءها على الانزواء ، ولم يكن هذا النفوذ الأدبى إلا نتيجة هذه القصة التى تثبت حقهم فى العرش والتى انتشرت بين أفراد الشعب عن طريق رجال الدين والقصاص الذين انبثوا فى الشعب يروون له هذه « الحقائق » التى لا يعتورها الشك . وأخيراً جاء الملك لاليبالا الذى اتخذ لنفسه اسم جبراماسقال الثانى فأكمل عمل تكلاهيما نوت ، فبنى مجموعة كبيرة من الكنائس ووقف عليها الأراضى مما كان سبباً فى تدعيم هذه الأسرة . وقد استعان هذا الملك على إتمام برنامجه الإنشائى بمجموعة كبيرة من الفنانين المصريين والعمال المصريين .

ويبدو أن رجال الدين الذين نعموا بالهدوء والاطمئنان فى عهد كل من تكلاهيمانوت ولاليبالا لم يكتفوا بما ترويه القصة ، أو أنهم رأوا أن يدعموا هذه الأسرة أكثر مما دعمت ، أو ربما رأوا بوادر ضعف قد سرت إليها ، فرفعوا الملك الأخير إلى مرتبة القديسين ، وصاغوا حول اسمه مجموعة من القصص والخرافات تجعله فوق مرتبة البشر ، فقد عرف النحل ميعاد ولادته فتجمع حول والدته وسلم عليها سلام الملك . ولم تكن هذه الجماعات من النحل سوى جماعات من الملائكة رأت أن تتخذ النحل صورة لها . وكان هذا الملك أيضاً — كما تروى هذه القصص — مملوءاً بالحكمة ومن روح الله ، حتى لقد تآمر إخوته عليه لقتله بالسم فدسوا إليه لحماً مسموماً ، ولكن الملائكة أنقذته وحملته على أجنحتها إلى السماء الأولى فالثانية فالثالثة إلى السابعة حيث شاهد مجد الله بعينيه ، فأمره — جل جلاله — أن يبنى عدداً من الكنائس . ولم تقف مؤامرات الأعداء عند حد ، فأخذت الملائكة على عاتقها أمر حمايته بإخفائه عنهم فى الكهوف والمغارات ، بل لم يترددوا فى أن يقفوا إلى جانب العرش يحفظونه من أن يجلس عليه مغتصب ، وحملته أيضاً على أجنحتها إلى بيت المقدس لزيارتها ، ولعل الصلة بين قصة زيارة الملكة

لسليمان فى أورشليم وهذه القصة الأخيرة واضحة لا تحتاج إلى برهان أو دليل .

وحكم بعد لاليبالا أربعة ملوك ، ويبدو أنهم كانوا ضعافاً كأسلافهم كما أنهم لم يقوموا بأية أعمال إنشائية تدر بعض الخير على الناس ، فمادت الأرض تحت أقدامهم ، وأخذت السلطة تنتقل رويداً رويداً من أيديهم ، حتى انتهى أمر أسرتهم نهائياً بقيام يكونو أملاك فى سنة ١٢٨٣ .

ولعلنا نلاحظ أيضاً أثر الإسلام الواضح فى هذه القصة ، فقد عنيت بإظهار ما ذكره القرآن الكريم من كشف الملكة عن ساقها حين حسبت أرض الهيكل مغمورة بالماء كى تتسق مع ما ذكره أولا من تحول قدم الملكة إلى قدم حمار ورغبتها فى شفائها ثم رغبة الملك سليمان فى رؤيتها دون أن يطلب منها ذلك . ويبدو أن المؤلف لم يفهم تماماً ما جاء فى القرآن الكريم ، أو أنه أراد أن يعطى قطعة الخشب ، أهمية أخرى علاوة على أهميتها الأولى فى الدور الأول من القصة ، فغمر أرض الهيكل بالماء ووضع الخشبة فيها .

ولا غرابة فى تأثر أهل إتيوبيا بالإسلام ، فقد كانوا . ولا يزالون — أقرب الناس إلى سكان الجزيرة العربية وأكثرها

استقبالا للعرب قبل الإسلام وبعده ، حتى كانت هذه البلاد أولى الأجزاء التى سمعت عن قيام الإسلام وأولى البلاد التى فكر النبي صلى الله عليه وسلم فى أن يهاجر إليها المضطهدون من أنصاره ، فيستقرون فيها زهاء ستة عشر عاماً . فلا بد أن أجزاء كثيرة من إتيوبيا قد قطنها المسلمون واختلطوا بالمسيحيين ، فإذا ما جاء وقت تأليف هذه القصة كان أثر هذا الاختلاط واضحاً ، كما وضح هذا الأثر أيضاً فيما قيل عن حمل الملائكة للملك لاليبالا إلى القدس . وكذلك وضح هذا الأثر فى القصة الأخرى حين عنيت بأن تذكر أن الملكة اكتشفت عن سليمان أنه كان يعرف لغة الحيوان والطير وأنه كان قوياً يسيطر بقدرته على كل الأرواح والشياطين التى كانت تأتمر بأمره وأن شعب ملكة سبأ كان يعبد الشمس كما جاء فى القرآن . . .

٧

والآن إلى القصة الأخرى لنحللها أيضاً كما فعلنا فى القصة لأولى :

ولعل أول ما نلاحظه على القصة الأخرى (الأولى فى الترتيب

الذى أوردناه) أنها لم تعن بقصة الثعبان ، بل قصدت إلى الهدف مباشرة ، وذكرت أن الملكة ماكيدا كانت واسعة الثروة والغنى تملك الكثير من الذهب والفضة ، وأنها سمعت عن حكمة سليمان فأعجبت به ، وزرع الله فى قلبها أن تذهب إلى بيت المقدس لترى هذا الملك العظيم وتتزود من حكمته . فلم يكن حب الثروة ولا الرغبة فى الشهرة ولا الرغبة فى معالجة نقص بها هى التى دفعتها إلى هذه الزيارة ، بل حب الحكمة ، وهو فى ذاته غرض نبيل يرفع من قيمة الملكة فى هذه القصة عن قيمتها فى القصة الأخرى .

وتجاهلت القصة الأولى ذكر رئيسة الحرس وذهابها مع الملكة إلى أورشليم وزواج الملك بها وإنجابه منها ؛ بل تجاهلت كل ما يتعلق بهذا الولد الثانى . ومن الواضح أن هذا التجاهل لا يدع لأحد حقا فى العرش ، بل حصر هذا الحق فى شخص واحد هو هذا الابن الوحيد الذى أنجبته الملكة من سليمان ؛ فكل من عداه وليس من نسله لاحق له فى العرش ، بل هو مغتصب له .

وأصرت القصة الأولى على ذكر الحلم الذى رآه سليمان فى منامه ، بل أطال فى ذكر هذا الحلم وتفاصيله ، وأن الشمس

سطعت فى كبد السماء ثم سارت حتى وصلت إلى إتيوبيا، واستقرت هناك . ومعروف أن هذه الشمس تمثل انتقال الأسرة والعرش إلى بلد جديد ، الأمر الذى أثار رعب سليمان فكاشف به رئيس الكهنة ، فلم يكن رعب هذا الأخير أقل من رعب الملك .

وأظهرت هذه القصة أيضاً كيف صحب صادوق الكاهن الأكبر منليك إلى الهيكل وأدخله إلى قدس الأقداس حيث لمس المذبح وأعلنه ملكاً ، ثم أركب بغلة سليمان وطيف به فى المدينة بين هتافات الشعب ، فى حين اكتفت القصة الأخرى بأن ذكرت أن سليمان تَوَّجه ملكاً ، وأجلسه على العرش . والفرق بين النصين ظاهر ، فالمقصود بالنص الأول اشتراك السلطتين الدينية والزمنية فى هذا الاختيار بل قد اتخذت فى القصة كل مظاهر التتويج من إعلانه ملكاً فى الهيكل ، ثم خروجه فى موكب رسمى يركب فيه بغلة سليمان ، وطوافه بالمدينة ، ثم استقبال الشعب وترحيبه به .

وأكثر من هذا كله أن القصة الأولى عنيت أكثر ما يكون بأن تظهر أن من فكر فى « سرقة » التابوت عن طريق الخداع والسير فى إجراءات هذا الخداع لم يكن منليك نفسه، فتنزهه

عن ارتكاب كل هذه الأفعال التى لا تليق بالملوك ، بل كان الذى فعل ذلك هم الكهنة الذين صحبوه فى رحلته بالاتفاق مع أبكار رجال الدولة ، فقد اجتمعوا من تلقاء أنفسهم وصمموا على أن يحملوا هذا التابوت دون أن يدرى أحد بفعلتهم ، ودون أن يستشيروا منليك أو أن يشترك معهم فى شىء من تفاصيله ، ودون أن يقتل أحداً أو يخدع أحداً أو يأتى ما تأباه الشرائع والقوانين الوضعية أو السماوية ؛ بل فوجىء منليك بالتابوت بعد أن وصل إلى مصر ، فلم يملك إلا أن يسجد له مع الساجدين ، على حين وقف رفاقه يصفقون و يرقصون .

كذلك أظهرت القصة الأولى أن منليك لم يحاول الهرب من أبيه أو خديعته ، بل استأذنه فى الرحلة ، فأذن له وقبله ومنحه بركته ، وأعطاه الغطاء القديم للتابوت .

وشىء آخر هام عنيت القصة بإظهاره ، وهو جمع الملكة لأعيان الدولة ووجهائها وقسمهم أمامها على أن لا يجعلوا عليهم مستقبلا ملكة مطلقاً ، وأن لا يقبلوا عليهم ملكاً فى المستقبل لا يكون من نسل داود بن سليمان ، ثم إقبال الجميع على هذا القسم فرحين به .

وكذلك أظهرت هذه القصة أيضاً أن الملكة هى التى

عينت عازار بن صادوق كاهناً أعظم للدولة ، ومعنى ذلك — ولا شك — خضوع السلطة الدينية للسلطة الزمنية إذ أن الجالس على العرش هو الذى يعينه فى مركزه .

وكذلك عنيت القصة الأولى بأن تظهر منليك بأنه هو الذى نظم دولته على نحو مملكة أبيه ، كما نظم قوانينها وفقاً للشريعة الموسوية ، وأنه حاول من هذا كله أن يجعل من مملكته مثالا لمملكة أبيه ، وبذلك يكون الملك هو صاحب السلطة التشريعية والتنفيذية العليا فى الدولة ، وليست هناك سلطة أخرى تملك شيئاً من التشريع أو التنفيذ .

وأخيراً عنيت القصة الأولى بأن تقدم منليك إلى الشعب ملكاً شجاعاً اشترك فى حروب كثيرة خرج منها جميعاً منتصراً ، ثم إظهار أعدائه بأنهم كانوا أناساً لهم ذيول كذيول الحمير !

هذه كلها فروق فى القصتين لم توضع عبثاً ، بل قصد بكل واحد منها إلى هدف معين ، فإظهار الملكة بمظهر الغنية التى تملك الكثير من الذهب والفضة يجعلها — كما ذكرنا — لا تهدف إلا لغرض نبيل ، كما يظهر أنها تقوم بهذه الزيارة لأن الله أراد أن يرزقها ولداً من سليمان يرث والده فى الحكم ،

وأن الله هو الذى أراد أن ينقل بيت داود من أورشليم إلى إثيوبيا .

وشاء الله أيضاً أن يجعل منليك يرتقى العرش ارتقاء صحيحاً ترضى عنه السلطات المدنية والدينية ، بل أن يتبع فى ارتقاء العرش جميع الطقوس الدينية الصحيحة التى رضى الله عنها قبل أن يظهر غضبه على إسرائيل ، كما أن منليك هذا كان فى كل تصرفاته مثلا للابن الصالح الذى يرضى عنه والده ، ولم يحاول أحد منهما تخطئة رأى الآخر . فكان الاثنان معاً مثالا للحكمة البالغة التى زرعها الله فيهما ، كما أن منليك لم يحاول أن يخدع أحداً أو يرتكب إثماً فى سبيل هدف ما ، وأنه إلى وقت سفره كان مباركاً من سليمان حتى لقد أهداه غطاء التابوت .

وقسم أعيان الدولة ووجهاؤها أن لا يجعلوا عليهم فى المستقبل ملكة ، مقصود به إظهار اغتصاب أسرة زاجوا لعرش لم يكن لهم حق فيه ، لا سيما أنه لم يصحب الملكة فى سفرها أحد ممن يستطيع أن ينجب ولداً ثانياً لسليمان . وإذا كانت الملكة چوديت أولى ملوك الأسرة الزاجوية قد ارتقت العرش الإثيوبى فى القرن العاشر ، فقد كانت مغتصبة للعرش ، وبذلك أصبحت

كل أسرتها ومن تولى العرش من بعدها من ملوك هذه الأسرة مغتصبين له أيضاً ، بل إن كل من يرتقى هذا العرش فى المستقبل من غير الأسرة السليمانية مغتصب للعرش ، لأن إرادة الله هى التى شاءت أن تجعل عرش إتيوبيا من حق هذا الابن ونسله من الذكور دون غيرهم ؛ وكل من يحاول ذلك إنما يقف أمام إرادة الله ، بل يعارض إرادة شعب بأكمله ، كما يعارض قسماً أقسمه الشعب ممثلا فى ذوى المكانة منه عن رضا وارتياح . ومن أجل هذا الغرض نصت المادة الخامسة من دستور سنة ١٩٥٥ على أن « نظام الوراثة ينحصر فى الذكور المولودين من زواج شرعى » .

وطبقاً لهذه القصة أيضاً لا يملك أحد من الشعب حقاً بجانب حقوق الملك ، فهو الوحيد الذى يملك حق التشريع والتنظيم لهذه الدولة ، وكل قانون أو تشريع أو تنظيم أو تنفيذ لا بد أن يصدر عن الملك بمحض إرادته ، بل إن هذه التنظيمات والقوانين التى يضعها الملك للدولة إنما هى تشريعات إلهية لا تصدر إلا وفقاً لقوانين سماوية لا يملك أحد حق معارضتها أو نقضها أو الخروج عليها .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم لماذا ذكر الإمبراطور

فى خطابه الذى وجهه إلى « الأمراء والأعيان والأساقفة ورؤساء الكنيسة » فى التاسع من هملى سنة ١٩٢٣ (١٩٣١ م) ، والذى أعلن بمقتضاه صدور الدستور الأول أن « أفكاره التى اتجهت إلى مصالح إتيوبيا ومصالح شعبها المحبوب هى التى تتجه الآن إلى أن يمنح شعبه دستوراً ، وإنه من أجل سعادة الشعب وتقدمه يمنحه هذا الدستور دون أن يسأله أحد أو يطلب منه إصداره » .

كما نصت المادة الحادية والتسعون من الدستور الجديد الصادر فى سنة ١٩٥٥ على أن الإمبراطور « يملك فى حالة عدم اتفاق مجلسى النواب والشيوخ على تشريع ما ، أن يضع مشروعاً جديداً يختلف عن مشروعى المجلسين » .

بل إن الملك — وفقاً لهذه القصة — لا بد له أن يدافع عن هذه القوانين وعن هذه النظم بكل ما يملك من قوة ، منها قوة السلاح . وإن من يخرج عن إرادته أو يقف فى وجهه معارضاً إنما هو حمار أو كالحمار !

ومن هذا كله نستطيع أن نشير بيدنا الآن إلى من وضع هذه

القصة الأخرى ، ومتى وضعها ؛ ولماذا وضعها ؟ فجميع الأدلة تشير إلى شخص واحد ووقت واحد وغرض واحد ، وهو يكونو أملاك الذى « استرد » العرش الإتيوبى كما تقول الأساطير الإتيوبية فى القرن الثالث عشر الميلادى ، لتثبيت حقه وحق أسرته فى العرش وانتزاع كل وهم يتجه إلى شخص آخر أو أسرة أخرى .

ونحن نعرف من حوادث التاريخ الإتيوبى أن يكونو أملاك عند ما ظهر فى القرن الثالث عشر حرص على أن يظهر نفسه بأنه سليل الأسرة السليمانية القديمة ، ويذكر أنه كان مختفياً فى إقليم شوا . وأنه لم يكد يظهر معلناً دعوته حتى لجأ إلى وسائل مختلفة تعينه على بلوغ غرضه وكانت هذه الوسائل هى :

١ ــ عقد اتفاقاً مع (أبونا) تكلاهيمانوت الذى كان رئيساً لدير دبرا ليبانوس ، ينص على : أن يمنحه رجال الدين وعلى رأسهم تكلاهيمانوت تأييدهم وتأييد الجماهير التى تتأثر بهم ؛ وأن يهب يكونو أملاك ثلث أراضى الدولة للكنيسة للصرف عليها وعلى رجال الدين والمنشئات الدينية فى البلاد ؛ وأن ينصب تكلاهيمانوت رئيساً للإكليروس الإتيوبى ويحظى بلقب

يؤيد هذه الرئاسة ولا يتمتع به أحد غيره ، وهو الإتشيجى ، كما يتمتع بسلطات لا يتمتع بها أحد غيره من رجال الدين الإتيوبيين .

وتذكر الأساطير الإتيوبية التى تروى تاريخ هذه الفترة أن « يكونو أملاك كان محبباً للرب ، وبسبب حكمته ذهب إلى تكلاهيمانوت وجعله أميناً على مملكته كى يقويه الرب على جميع أبناء إسرائيل ، فصلى تكلاهيمانوت وطلب من الرب — مصدر كل قوة — فصنع سلاماً بينه وبين الرب ، فحينئذ ذهب يكونو أملاك إلى أبينا تكلاهيمانوت مصدر كل النور ورئيس الكهنة . وأعطاه ثلث مملكة إتيوبيا وحكم خمس عشرة سنة » .

وواضح من هذا النص اتفاق السلطتين الزمنية والدينية على منح العرش الإتيوبى ليكونو أملاك ، ومباركة رئيس الكهنة لهذا العمل ، وهو نفس ما روته القصة من رضى عازار ابن صادوق رئيس كهنة أورشليم على تنصيب منليك ملكاً ، ثم قيام عازار رئيس الكهنة فى المملكة الجديدة بهذا العمل بعد أن عينته ماكيدا أم الملك .

وفى سبيل تنفيذ هذا الاتفاق لم يكد يكونو أملاك يعلن

نفسه « نجوس نجست » لإتيوبيا حتى أعلن تكلاهيمانوت من جانبه أنه قد توصل إلى عقد اتفاق سلمى مع آخر ملوك الأسرة الزاجوية، وهو نكويتالاب ، على أن ينزل عن التاج واللقب للأسرة السليمانية فى شوا مع احتفاظه ونسله بلقب « نجوس» وجزء من ولاية لاستا . على أن تكون أرضه معفاة من الضرائب، كما يحق له أن يجلس على عرش ذهبى مماثل لعرش الإمبراطور، وأن تكون له شارات ملكية مصنوعة من الفضة ، وكذلك سنان رمحه ، وأن تكون له طبول محلاة بالفضة أيضاً.

وكوفئ أبونا تكلاهيمانوت على هذه المساعدة بأن نصبه يكونو أملاك إتشجى ، أى رئيساً للإكليروس الوطنى ؛ ورفعته الأسرة السليمانية فيما بعد إلى مرتبة القديسين ، وألفت فى حياته كتاباً ضخماً ذكرت فيه أنه من نسل عازار بن صادوق الكاهن الذى أرسله سليمان مع ابنه منليك ليكون كاهن مملكته الجديدة ، والذى دبر مسألة نقل تابوت العهد من أورشليم إلى إتيوبيا . كما أحيط تكلاهيمانوت بمختلف الأساطير التى ترفع من قيمته ، فقد بشر الملاك والديه العاقرين بولادته ، ووقعت أمه مرة فى أسر حاكم داموت وأراد أن يتخذها زوجة له ،

لولا أنه رأى برقاً وسمع رعداً ، وزلزلت الأرض فجن وقتل حرسه وظل مجنوناً خمساً وعشرين سنة حتى ولد القديس تكلاهيمانوت وكبر وترهب وشفاه من مرضه !

ولما وضعته أمه سماه الملاك لها تكلاهيمانوت ، وبعد ثلاثة أيام من ولادته نزل عليه الروح القدس ، فصنع المعجزات قبل أن يبلغ الشهر الخامس عشر ، ولما بلغ السنة السابعة من عمره كان قد حفظ المزامير والعهدين القديم والجديد ، وصارت له قدرة على إخراج الشياطين وعمل المعجزات وإحياء الموتى .

وقد ساعد تكلاهيمانوت بنفوذه ونفوذ الكهنة الذين يخضعون له على نشر الدعاية ليكونو أملاك فى مختلف أنحاء الدولة ، حتى استطاع أن يجمع جنوداً بلغت ست فرق سارت بقيادة مالزاى رئيس الجند الذى باركه تكلاهيمانوت ، واستطاعت هذه الجيوش أن ترغم الملك الزاجوى على تنفيذ الاتفاق الذى كان قد وقعه مع أبينا تكلاهيمانوت .

ب ــ وكانت الوسيلة الثانية التى لجأ إليها يكونو أملاك هى أنه أرسل إلى مصر يطلب إعادة العلاقات الدينية مع الكنيسة المصرية ، وكانت هذه العلاقات الدينية قد قطعت منذ عشرين سنة تقريباً ظل فيها منصب المطران شاغراً ،

ومات فيها كثير من رجال الدين ، واضطر الناس خلالها إلى أن يتزوجوا دون اللجوء إلى الكنيسة ، وأن يدفنوا موتاهم دون الصلاة عليهم ، وأن يهملوا تعميد أولادهم ، بل أن يهملوا أيضاً الذهاب إلى الكنائس والقيام بالطقوس الدينية والمدنية ؛ فأرسل يكونو أملاك فى سنة ١٢٧٤ إلى بطريرك الإسكندرية أتناسيوس الثالث يطلب مطراناً ، كما أرسل خطاباً ثانياً — على نحو ما جرت العادة منذ الفتح الإسلامى — إلى السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى يستأذنه فى أن يسمح للبطريرك باختيار مطران وتعيينه .

بل إن الإمبراطور يكونو أملاك لم يتردد فى أن يذل نفسه إلى السلطان الظاهر فيصف نفسه بعبارات ذليلة حين قال له فى خطابه : « أقل المماليك يقبّل الأرض بين يدى السلطان الملك الظاهر خلد الله ملكه . . . . وأقل المماليك يسير إلى نواب الملك المظفر صاحب الملك ما يلزمه وهو يسيره إلى مولانا السلطان » .

ويبدو أن يكونو أملاك لم يرسل هذا الخطاب بواسطة رسول خاص إلى البطريرك أو إلى السلطان ولا مشفوعاً بالهدايا التي كان من عادة ملوك إتيوبيا أن يرسلوها إلى كل من

السلطان والبطويرك ، بل اكتفى بإرساله إلى الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن على بن رسول صاحب اليمن — وكانت تابعة لمصر آنذاك — وتولى هذا إرساله إلى مصر بعد أن احتجز الرسول فى اليمن منتظراً أوامر بشأنه من السلطان الظاهر أو منتظراً ورود الرد ليحمله إلى مولاه .

ولهذا السبب ولأسباب أخرى رفض السلطان الظاهر بيبرس السماح للبطويرك بتعيين مطران، بل أرسل إلى يكونو أملاك رداً جافاً علل فيه رفضه بعدم وصول رسول من الإمبراطور كى يكون الاختيار بوجوده كما جرت العادة ، مع علم السلطان أن رسول الإمبراطور قد احتجزه تابعه صاحب اليمن .

ورأى يكونو أملاك انهيار آماله التى بناها على ورود المطران وهى تتويجه بساطة دينية شرعية تملك سلطة هذا التتويج ، الأمر الذى لم يكن يملكه تكلاهيمانوت ولا غيره من رجال الدين الإتيوبيين ، فحاول أن يجرب وساطة الدولة الرومانية الشرقية فكتب إلى إمبراطورها باليولوجوس (١٢٦١ — ١٢٨٢) كتاباً يسأله هذه الوساطة ، وأرسل له فى سبيل ذلك هدية هى بضع زرافات . ولكن هذا الأخير لم يكن فى حالة تسمح له بحرية العمل ، فقد كانت صلته بمصر مقطوعة ،

كما أن حالة الدولة الداخلية كانت أسوأ من أن تترك له فرصة يلتفت فيها إلى عمل خارجى آخر ، فقد استرد القسطنطينية من الاحتلال اللاتينى ، وكان أمامه من المشكلات والنفقات ما فوق طاقته .

وكان هذا الرد غير المنتظر من مصر . والاخفاق فى وساطة إمبراطور الدولة الرومانية قد أفقدا يكونو أملاك أعصابه ، إذ كان ينتظر وصول المطران بفارغ صبر ، ويعلق على وصوله الآمال الكبار ، وربما ضيع عدم وصوله كل ما بذله وما نجح فيه حتى الآن ، بل ربما يكون انتشار خبر رفض البطريرك تعيين مطران معناه عدم اعترافه به إمبراطوراً مما يعجل بانفضاض الناس من حوله وظهور رءوس لفتنة جديدة وارتفاع أسهم الأسرة القديمة أو غيرها ، فلجأ إلى مطران القدس يوسطه أيضاً ، وكان هذا قبطياً مصرياً لأول مرة ، ولكن هذه الوساطة لم تنجح أيضاً ؛ فلجأ — بعد أن تعقدت الأمور إلى هذا الحد وأنذرت بالخطر — إلى بطريرك أنطاكية السريانى الأرثوذكسى المذهب يطلب منه تعيين مطران سريانى ، فبادر هذا بإرسال مطران يدعى تيودوسيوس لشغل المنصب ، ولكن هذا الاتجاه لم يكن ليخدع الشعب الشديد التمسك

بمذهبه الشديد التعلق بتبعيته لبطريرك الإسكندرية ، مهما يحدث من خلاف كان يؤدى فى بعض الأحيان إلى طرد المطران ، ومهما ارتكب المطران من أعمال تؤدى إلى إغضاب كثير من الإتيوبيين ، أو مهما انقطعت الصلة بينه وبين بطريرك الإسكندرية . بل يبدو أن رجال الدين الإتيوبيين تذمروا من هذه الخطوة ، ووصل تذمرهم إلى حد الثورة على الإمبراطور ، فكاتبوا البطريرك الجديد فى الإسكندرية (يؤنس الثامن) فى ذلك ، وربما حاولوا استصدار قرار بطريركى بحرمان الإمبراطور.

حـ ـ ولجأ يكونو أملاك إلى وسيلة ثالثة وهى استعمال القوة لإرغام آخر ملوك أسرة زاجوا على تنفيذ اتفاق النزول عن العرش ، ولسحق كل من تحدثه نفسه بالثورة على الإمبراطور الجديد ، فلجأ من أجل ذلك إلى التجار المسلمين يستنجدهم ، وكان هؤلاء على نصيب كبير من القوة والثروة بفضل هذه التجارة الواسعة التى كانوا يدبرون أمرها سواء فى المحيط الهندى أو البحر الأحمر ، فقد كانوا هم الذين يتولون نقل التجارة الهندية ـ بعد أن يتولى التجار الهنود نقلها من مواطنها إلى عدن بسفنهم الضخمة ـ إلى موانى شرق إفريقية وإلى موانى

إتيوبيا والسودان ومصر المطلة على البحر الأحمر ؛ بل كانوا يتولون نقلها أيضاً إلى بقية أجزاء إفريقية، وكان لهم من أجل ذلك أساطيل بحرية ضخمة وجيوش منظمة قوية تحمل أحدث ما وصل إليه العلم آنذاك من سلاح .

وكان أن عقد يكونو أملاك مع أحد هؤلاء التجار ويدعى عمر ولسمع اتفاقاً نص على أن يقدم هذا التاجر مساعدته المالية والحربية إلى يكونو أملاك حتى يتمكن من تنصيب نفسه إمبراطوراً على إتيوبيا ، فإذا نجح فى ذلك نصب عمر ولسمع سلطاناً لسلطنة إيفات المسلمة التى تقع فى شرق إتيوبيا وتطل على البحر الأحمر عن طريق ميناء زيلع ، كما يمنحه حرية الإغارة على مملكة شوا الإسلامية التى كانت قائمة فى شرق إتيوبيا أيضاً منذ أكثر من ثلاثة قرون ويحكمها حكام وملوك مسلمون وتتمتع بنصيب كبير من الاستقلال ، كما يمنحه رياسة الأجزاء الإسلامية من دولته على أن يكون بعد ذلك خاضعاً لسلطة الإمبراطور .

وقام عمر ولسمع بما يوجبه عليه الاتفاق ، وانضم إلى يكونو أملاك ومعه عدد كاف من الجنود المسلمين المسلحين وصل — كما تقول رواية يكونو أملاك نفسه كما جاء فى كتابه

إلى الظاهر بيبرس — إلى عشرة آلاف فارس ، وكوّن منها — إلى جانب ما استطاع رجال الدين الإتيوبيون أن يجمعوه له بإرشاد تكلاهيمانوت — ما مكنه من تنفيذ أهدافه . وجلس أخيراً على العرش الإتيوبى إمبراطوراً فى سنة ١٢٦٨ م . . . وانصرف عمر ولسمع إلى مهاجمة ملك شوا الإسلامية ، فهاجمها أربع مرات بقيادته أحياناً ، وبقيادة أولاده أحياناً أخرى ، كما كان يدفع أمراء هذه الدولة إلى الوقوف فى وجه سلطانها ويؤيدهم بالرجال والمال ، مستنداً فى ذلك إلى مصاهرته لأحد هؤلاء الأمراء . وفى هذه الغزوات الأربع خرب مملكة شوا تخريباً شاملا وأحرق عاصمتها ، وأرغم رجالها على الهرب من وجهه حتى انتهى الأمر إلى ضمها إلى إيفات سنة ٦٨٧ هـ ١٢٨٨ م بعد موت يكونو أملاك بثلاث سنوات .

فهل نستبعد أن يلجأ يكونو أملاك إلى سلاح الدعاية يستخدمه ليثبت حقه فى العرش ، فيضع هذه القصة التى تظهر أن ما يبذله من الجهد للجلوس على العرش الإتيوبى ليس إلا من أجل استعادة حق اغتصبه المغتصبون قبل ذلك بقرون ثلاثة ، وأن حق هؤلاء المغتصبين — وإن طالت مدتهم — لا يرقى إلى حقه ، وأن الوارث الطبيعى جاء ليسترد حقه

المسلوب ؟ وكان فى وضعه لهذه القصة فى شكلها الجديد سالباً كل حق من الأسرة القديمة ، بل مظهراً إياهم بأنهم اغتصبوا شيئاً لم يكن لهم فيه أدنى حق أو شبهة من حق ، وأن هذه القصة التى يستند إليها هؤلاء الملوك الزاجويون إنما هى قصة مخترعة أضافوا إلى أصلها أشياء لم تكن فيها ، وحذفوا منها أشياء لم يكن من حقهم أن يستبعدوها لأنها تسند حقاً لم يكن لهم ، وأن القصة الحقيقية للزيارة إنما هى تلك التى يذيعها هو .

ولعل إخفاق يكونو أملاك فى سياسة استقدام مطران مصرى جديد ، ثم محاولة استقدام مطران أرثوذكسى آخر وإن كان غير تابع لكرسى الإسكندرية ذى العلاقات التقليدية ، ثم عدم رضا الشعب عن هذه الخطوة الجريئة التى رآها فصلا بينه وبين كنيسته التقليدية المحبوبة ، وعدم رضا رجال الدين عن هذا كله ، هو الذى شجعه على اختراع هذه القصة وعلى إعطائها هذه الصورة التى يرغب فيها والتى تؤيد حقه وتسلب الآخرين حقهم .

ويؤيد هذا ما فعله يكونو أملاك لأول مرة فى التاريخ الإتيوبى من إنشائه ما نستطيع أن نسميه « ديوان التأريخ »

مهمته تسجيل الحوادث الهامة التي تقع وترتيبها وإذاعتها . فهل نستبعد أن يقوم هذا الديوان أو هذه الإدارة بمهمة وضع هذه القصة في الشكل الذي يتلاءم مع الهدف الذي يسعى إليه الإمبراطور ؟

٨

وأخذ يكونو أملاك ينشر هذه القصة بمختلف وسائل النشر ، فكان رجال الدين من هذه الوسائل ، فأخذوا يرددونها في مجتمعاتهم ويكثرون من ترديدها كلما اجتمعوا مع أفراد الشعب ، كي يجعلوه يؤمن بما جاء بها . وكان تكلاهيمانوت ورياسته الجديدة على رجال الدين أكبر عون على هذا الذيوع . وأخذ الرهبان في الأديرة المختلفة بفضل المنحة التي وهبها إياهم ، وهي ثلث أراضي الدولة ، يكتبون هذه القصة ويكثرون من كتابتها في مخطوطاتهم ، ويرسلون هذه المخطوطات إلى مختلف الكنائس كي يقرأها أفراد الشعب أو يقرأها الكهنة للشعب أو يعلموها للصغار في المدارس والكتاتيب الملحقة بالكنائس والأديرة . ولا بد أن هذه المنحة قد هيأت الظروف لكثير من

الناس أن ينضموا إلى صفوف الرهبان ورجال الدين بعد أن رأوهم يتنعمون بما لم يكونوا يتنعمون به من قبل ، فكثر عددهم فى الأديرة القائمة ، بل كثر عدد الأديرة فى طول البلاد وعرضها وأقبل الإتيوبيون يلتحقون بها ؛ فكانت هذه الوسائل هى الأداة التى مكنت يكونو أملاك من نشر القصة وإذاعتها .

ولجأ يكونو أملاك إلى الشعراء والمنشدين يدفع إليهم أو يدفع بهم إلى من يحفظهم هذه القصة ، ثم يطلقهم ينشدونها فى معابر الطرق وزوايا الشوارع وفى سهرات الإتيوبيين وحفلاتهم ومآتمهم وأفراحهم ، وكلها مجتمعات تضم أشتاتاً مختلفة من الناس أياماً قد تطول إلى أربعين يوماً بل إلى عام كامل فى بعض الأوقات على نحو ما جرت به عادة القوم فى تلك الأيام . فكانت كلها فرصاً تتيح لهؤلاء الشعراء والكهنة والرهبان ورجال الدين أن يبلغوا من غرضهم ما يريدون وما يريد سيدهم أن يبلغ .

وكان للإتيوبيين من الظروف الطبيعية ما يساعد على سرعة انتشار هذه القصة ، فهم شعب مرح يحب الغناء والطرب ويميل إليه ، وعندهم كثير من الآلات الموسيقية تساعدهم على توقيع الألحان مصحوبة بالغناء ، بل كان لهم

من الآلات الموسيقية ما يساعد الشاعر أو المنشد على ترديد القصص وأعمال البطولة لمن يحبونهم من الأبطال والشجعان . فإذا ما أظلمت الدنيا وأقبل الليل كوّن الإتيوبيون فى بيوتهم الحلقات المختلطة من الرجال والنساء ، وأقبلوا على مشروبهم الوطنى الذى يصنعونه من الشعير أو العسل يرشفونه رشفاً بل يعبونه عبًّا فى كميات كبيرة ، فتميل نفوسهم إلى سماع الشاعر ضارباً على آلته الموسيقية مترنماً بالشعر والقصص على نحو ما يفعل الفلاحون المصريون فى الوقت الحاضر .

وكان فصل المطر الذى يستمر أربعة أشهر أو أكثر فى بعض الأحيان فرصة أخرى لانتشار هذه القصص وأشباهها بينهم ، فمن عادتهم أن يهيئوا أنفسهم كل عام لقدوم هذا الفصل ، فيختزنون من المواد الغذائية ما يكفيهم طوال هذه المدة التى يقضونها فى بيوتهم ما دام المطر ينهمر طول الليل وجزءاً كبيراً من النهار فلا يمكنهم من رعى مواشيهم أو الابتعاد بها عن مواطنهم ، ولا يمكنهم من زراعة أرضهم ، ويحول دون الانتقال أو السفر إلى قرى غير قراهم ، فليس لهم إلا أن يقضوا هذا الفصل الطويل فى كسل دائم يقبلون فيه على طعامهم وشرابهم وإلى ما يحبونه من التجمع حول الشاعر ،

يسمعون منه ما تميل إليه نفوسهم من قصص الأبطال .

وكانت هذه الأوقات أيضاً فرصة لرجال الدين ليترددوا على أبنائهم فى بيوتهم يسمعونهم من هذه القصة ما تصبو إليه نفوس الشعب ، وما يرغب الكهنة فى ترديده من قصص تزيد من سلطانهم فيجزون عنها خير الجزاء .

وعمد يكونو أملاك إلى الرسامين أيضاً ينقدهم مكافآت جزيلة فيقومون برسم تفاصيل هذه القصة فى صور صغيرة متلاحقة متلاصقة على قطع كبيرة من الجلد أو القماش أو الورق ، ويلونونها بالألوان الصارخة التى تستهوى الناس فيقبلون على شرائها . وما زال هؤلاء الرسامون يقومون بعملهم هذا حتى الآن . وقد تبلغ تفاصيل القصة من الكثرة درجة تؤهل الرسام لأن يرسم عدداً من الصور تبلغ المائة عداً يجعلونها خطوطاً منتظمة لتروى وقائع القصة فى إسهاب وتفصيل دون أن يتركوا منها شاردة ولا واردة .

ولم يكن يكونو أملاك فى هذا العمل مخترعاً ولا مبتدعاً ، فقد سبقه ملوك الأسرة الزاجوية فى وضع القصة ، بعد أن استندوا فى وضعها إلى ما جاء بالكتب السماوية من أصل تاريخى لزيارة من كانت تسمى بملكة سبأ لسليمان ملك بيت

المقدس فى عاصمته . ثم أكملوا القصة بما وجدوه فى كتب السير والقصص المتداولة ، واختاروا منها ما يشتهون . فاستند يكونو أملاك على هذه القصة : أخذ أكثرها ، وحذف منها ما لا يروقه أو يتفق مع غرضه، وأضاف إليها أجزاء تتفق وهذا الغرض .

ولم يكن ما ورد فى الكتب السماوية ، ولا ما روته القصة الأولى ، هى المصدر الوحيد الذى استند عليه فى روايته لقصته وتأليفها ، بل كان هناك أيضاً ما يردده سكان أجزاء أخرى من إتيوبيا عن قصة ملكة « الحبشة » التى كانت حاملا ، ورأت عنزة سمينة فنظرت إليها واشتهتها ، وقالت : ما أسمن هذا الحيوان ! وما أسمن أقدامه ! ولما أتت أيامها ولدت طفلة جميلة، إحدى قدميها قدم عنزة،وعند ما كبرت هذه الفتاة وأصبحت تصلح للزواج أعرض عنها الناس بسبب قدمها ، وظلت هذه الفتاة عذراء حتى ارتقت العرش وسمعت عن سليمان وحكمته ومقدرته فى شفاء جميع الأمراض والعلل ، فأرادت أن تسافر إليه لأن إرادة الرب كانت أن يستمر ملك داود إلى نهاية العالم ، فقد أقسم الربّ لداود أن نسله لن يفنى ، وسيجلس هذا النسل على العرش ما دام يحافظ على اللوح

والشريعة ، وما أسهل أن يحمل هذا اللوح وهذه الشريعة إلى إتيوبيا !

وهذه القصة الجديدة لا تختلف عن القصة الثانية التى أوردناها فى أول هذا البحث إلا فى هذه المقدمة ، ويبدو أن واضع هذه القصة الجديدة رأى أن مقدمة الأولى عن بناء الهيكل ، ثم عن هذه الفتاة التى خلصها القديسون السبعة من الثعبان الشره ، مما لا يثير اهتمام الناس لما فيها من خرافة ظاهرة فأهملها واستبدل بها هذا «الوحم» الذى يصيب الحبالى فى الشرق وغير الشرق ، والذى يدفع بالنساء إلى طلب المستحيل مخافة أن يصيبهن ما أصاب هذه الفتاة .

ولم يكتف مؤلفو هذه القصة أيام يكونو أملاك بهذه المصادر ، بل اتخذوا أيضاً مما يردده المسلمون القاطنون فى شرق الحبشة عما ورد فى القرآن الكريم عن ملكة سبأ وزيارتها لسليمان ، فقد كانوا يضعون لهذه الملكة اسم بلقيس ، ويجعلونها ملكة على اليمن ، ويزيدون على ما ورد فى القرآن الكريم ما ردده المفسرون والقصاص من أنها أرسلت هديتها الأولى إلى سليمان خمسمائة رجل وخمسمائة جارية بعد أن ألبست الرجال ملابس النساء والجوارى ملابس الرجال ،

وحملوا معهم خمسمائة أوقية من الذهب وتاجاً مرصعاً وقدراً كبيراً من المسك والعنبر والتوابل والأخشاب الثمينة ، وأسرع الهدهد إلى سيده ليخبره بما حدث وبأن سفارة من الملكة فى طريقها إليه ، فلما وصلوا استقبلهم سليمان فى ميدان فسيح يحيط به حائط حجارته من ذهب وفضة ، وأمرهم أن يعودوا من حيث أتوا ويقولوا لسيدتهم إن سليمان قادر على أن يرسل لهم جيشاً لا يقاوم . فلما عرفت بلقيس ذلك عولت على أن تذهب بنفسها لتقدم له خضوعها ، وخرجت تقصد أورشليم يصحبها جيش كبير ، وهناك وهبته نفسها ، وندمت على عبادتها للشمس وأسلمت .

وكان المصريون وبخاصة مسيحيوهم ورهبانهم الذين عاش بعضهم فى الأديرة الإتيوبية أو اختلط بهم الرهبان الإتيوبيون فى الأديرة المصرية ، يرددون ما جاء فى العهد القديم ، وما ذكره الشيخ المكين ابن العميد فى كتابه « التاريخ » من أن سليمان بن داود كان ثالث ملوك مملكة إسرائيل ، وأنه ملك أربعين سنة ، وأنه كان يقدم فى كل يوم على مذبح الرب ألف ذبيحة ، وأن الرب أعطاه ما طلبه من الحكمة كى يستطيع أن يحكم شعبه مفضلا إياها على الأموال الوفيرة

وطول العمر ، وأن الله مكنه من بناء الهيكل الذى حفظ فيه تابوت الرب ، وأن الملوك كانوا يسعون إليه كى يسمعوا الحكمة منه ، وأن ملكة سبأ سمعت عن حكمته فأتت إلى أورشليم ، ولكن الله غضب عليه لكثرة ما تزوّج من نساء غريبات وثنيات ولسماحه لهن أن يتعبدن لآلهتهن ، بل لقد بنى لهن المحرقات ليقدمن الذبائح لهذه الآلهة ، حتى لقد أقسم الربّ ليشقن ملكه من بعده ويصيره لغيره .

وكذلك كان البابليون يحتفظون أيضاً بلوح عليه صورة إلههم بعل ، وكان الإله يزور هذا المكان الذى فيه اللوح مرة كل عام كما يعتقدون ؛ بل كانوا يحتفلون بهذه الزيارة التى يقوم بها الإله فى يوم معين من العام ، فيقيمون المواكب الكبيرة الفخمة .

فمن هذه المواد مجتمعة ومن غيرها صاغ يكبونو أملاك قصته الأخيرة ، وضمنها كتاب « كبرا نجست » الذى يحوى علاوة على هذه القصة أسماء ملوك إتيوبيا منذ أيام منليك بن سليمان . ويعتقد الإتيوبيون جميعاً فى صحة ما جاء فى هذ الكتاب اعتقاداً لا يعتوره أىّ شكّ .

وهناك من المؤرخين من يقول إن إنشاء قصة زيارة ملك

سبأ إلى بيت المقدس تعود إلى عصور سابقة لهذا كله ، إذ يرجعونها إلى القرن السادس الميلادى ، بل يقولون إنها وضعت أصلا بالقبطية بواسطة راهب قبطى عاش فى مصر أو أكسوم أو أى جزء آخر من إتيوبيا ، وإنها ترجمت إلى العربية أولا فى عصور تالية ثم إلى الحبشية فى القرن الثالث عشر ، وإنه قد أضيفت إليها فى أثناء الترجمة إلى العربية زيادات من مصادر عربية أو إسلامية . بل هناك من يؤيد نصف هذا الرأى ويقول إن الترجمة من العربية إلى الحبشية كانت سابقة للقرن الثالث عشر ، ويحدد لها مدة حكم لاليبالا ، سابع ملوك الأسرة الزاجوية . وسواء أكان هذا الرأى أم ذاك فهو لاينفى ما ذهبنا إليه بل يؤيده اذكرناه ن أن ملوك الأسرة الزاجوية هم أول من اهتم بهذه القصة وعمل على تدوينها ونشرها ، وتابعهم فى هذا التدوين والنشر ملوك الأسرة السليمانية الجديدة فى القرن الثالث عشر . وكان وضع ملوك الأسرة الزاجوية لها بالصورة التى تروق لهم وتتفق مع أهدافهم ، كما كان اهتمام ملوك الأسرة السليمانية بها فى القرن الثالث عشر ، أى يكونو أملاك أو ابنه على أكثر تقدير . ولا بد أن يكون هناك جزء مشترك بين لقصتين .

ويذهب إلى هذا الرأى كثير من المؤرخين ، ويقولون إن الصياغة النهائية لهذه القصة أو الترجمة إلى الحبشية سواء من القبطية مباشرة أو من العربية لم تتما إلا عقب نجاح يكونو أملاك فيما أسماه « عودة » الأسرة السليمانية ؛ ويؤيدون قضيتهم مستندين إلى أن بعض تعبيرات قصة « كبرانجست » تثبت النص العربى الذى ترجمت منه ، بل يؤكدون أن هذه الترجمة من العربية تمت على يد أبى الفرج بن العسال الذى عاش فى مصر فى القرن الثالث عشر تحت إشراف قس إتيوبى يدعى إسحق استطاع أن يدس إلى الأصل العربى بعض إضافات لتعطى القصة أهمية لم تكن لها .

٩

وبعد أن أتم الإتيوبيون وضع القصة على الصورة التى يشتهونها والتى تتفق مع أغراضهم اجتهدوا فى أن يجعلوا مظاهر دولتهم ومراسمها تتفق مع ما جاء بهذه القصة ، فبالغوا فى المحافظة على مظاهر خاصة من أجل أن يجعلوا انتسابهم إلى سليمان بن داود أمراً مفروغاً منه ، وراعوا أن تنطبق هذه

المظاهر على ما كان يحدث أيام هذا الملك ، فيقولون إن من عادة أباطرة إتيوبيا إذا ما ارتقى أحدهم العرش أن يخرج فيستقبله الجيش والشعب بالأعلام الملكية داعين له بالسعادة والأيام المليئة بالهناءة ، فيبادر هذا ويطلب من المطران تتويجه كي يحصل على السند الشرعى بجانب السند الفعلى .

ونحن نجد فى مظاهر هذا التتويج التى كانت متبعة حتى أواخر القرن الثامن عشر ، والتى يصفها لنا بروس الرحالة الإسكتلندى انطباقاً يكاد يكون تاماً على ما كان يحدث أيام سليمان وروته لنا الكتب المقدسة ، إذ كان الإمبراطور يخرج من قصره راكباً بغلته يقصد الكنيسة وهى مهيأة لهذه المناسبة مفروشة بالبسط ، وفى صدرها العرش الملكى تحت صورة كبيرة للقديس جورجيس أو الملاك ميخائيل ، ويحيط به القضاة والأشراف ، ثم يأتى المطران — وهو رئيس الكهنة — فيمسح رأسه بالزيت المقدس ، ويضع التاج على مفرقيه وهو يقول : « مات الملك ، عاش ملكنا » ، فيصيح الرجال علامة الفرح ، ويتقدمون فيقبلون يده ، فى حين يكون الفناء الخارجى يعج بالحرس والشعب . وبعد انتهاء الاحتفال يغادر الأشراف المكان وهم يقرعون الطبول لإعلان الخبر الجديد إلى بقية

الولايات بطريقة غير منتظمة ، حتى إذا تم هذا أصبح في استطاعة الملك ومن حقه دون أي اعتراض من أحد أن يعزل من يشاء من أصحاب المناصب ، وبخاصة مناصب القصر ، ويعين فيها من يشاء من أصحابه .

ونحن نجد مظاهر التتويج أيام سليمان كما جاءت في العهد القديم قريبة من هذا ، فقد جاء في الإصحاح الأول من سفر الملوك الأول بشأن تتويج سليمان : « فنزل صادوق الكاهن وناتان وبناياهو بن يهوداع والجلادون والسعاة ، وأركبوا سليمان على بغلة الملك داود ، وذهبوا إلى جيحون — لأن الهيكل لم يكن قد بني بعد — فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة — وهي التي كانت حتى ذلك الوقت بمثابة الهيكل — ومسح سليمان ، وضربوا بالأبواق ، وقال جميع الشعب : ليحيي الملك سليمان . وصعد جميع الشعب وراءه ، وكان الشعب يضربون الناي ويفرحون فرحاً عظيماً حتى لقد انشقت الأرض من أصواتهم » .

بل حرص أباطرة إتيوبيا إلى عهد قريب جداً على أن يكون تتويجهم في مدينة أكسوم حيث يحتفظون بتابوت العهد ، فصارت تعرف باسم المدينة المقدسة . وما زالت تيجان كثيرين

من هؤلاء الأباطرة محفوظة هناك . وكانوا يختارون لأنفسهم عقب التتويج أسماء جديدة يعرفون بها كما اختار سليمان لابنه اسم منليك .

وكذلك عنى الإتيوبيون بإكمال هذا التشابه ، فعين الإمبراطور اثنى عشر قاضياً ليكوّنوا مجلس القضاة ، وكان هذا المجلس مختصاً بالنظر فى القضايا الكبيرة ، كما كان بمثابة مجلس استشارى يستشيره الإمبراطور فى أمور الدولة ، وبخاصة ما كان متعلقاً بالدخول فى المعارك الكبرى أو عقد المعاهدات ، وإن كان الإمبراطور غير ملزم باتباع ما يستقر عليه رأى المجلس أو رأى أغلبية أعضائه ، بل كان يملك حق مخالفته وتنفيذ ما يراه . وقد ظل الإتيوبيون طوال تاريخهم لا يزيدون عدد أعضاء هذا المجلس واحداً ولا ينقصونه واحداً . بل ظل كما هو اثنى عشر عضواً ، كما ظل الإمبراطور يحمل لقب « الأسد المنتصر ، الخارج من سبط يهوذا ، المختار من الله ، ملك ملوك إتيوبيا » .

وإذا كان الإمبراطور حينما منح شعبه الدستور الأول فى سنة ١٩٣١ لم ينص فيه على وجود مجلس القضاة ذى الاثنى عشر عضواً ، فلم يكن هذا يعنى إلغاءه ، بل ظل قائماً

يسدى المشورة إلى الملك كلما دعاه الإمبراطور إلى الاجتماع وطلب النصيحة منه . أما فى الدستور الثانى فقد أضاف الإمبراطور إلى المجلس المطران وأسماه مجلس التاج وجعل أعضاءه جميعاً معينين ، وجعل منه أداة يستشيرها فى المسائل ذات الخطورة ، بل فى أخطر شؤون الدولة . مثل رغبة الإمبراطور فى نزع ولاية العهد من أكبر أبنائه واختياره آخر ليخلفه على العرش إذا كان الابن الأكبر غير مستطيع تحمل أعباء الملك لقصور فيه . وجعل الحكم على كفاية ولى العهد محصوراً فى يد الإمبراطور بعد استشارة مجلس التاج .

كما عنى الإمبراطور أيضاً أن يعين له إلى جانب الحاشية المدنية حاشية أخرى دينية لها ما للحاشية المدنية من السلطة والنفوذ ، وكان يرأسها الاتشيجى الذى هو كما ذكرنا كبير الرهبان الإتيوبيين ثم يليه « الأكابى ساعات » وهو الموكل بالمحافظة على المعتقدات وتتبع الخارجين ومحاكمتهم ، والحكم عليهم وتنفيذ الحكم ؛ وإن كان هذا المنصب لم يخلق إلا أيام الأمبراطور زرء يعقوب فى القرن الخامس عشر .

وكذلك عنى الإتيوبيون بأن يحافظوا على الكنيسة المستديرة

الشكل التى تشبه خيمة الاجتماع يتوسطها قدس الأقداس الذى لا يدخله إلا الكهنة والملك والأشراف ، ثم القسم الأوسط الذى يدخله رؤساء الشعب ، وهم الذين يمثلون رؤساء القبائل التى كانت تتكون منها مملكة سليمان ؛ ثم القسم الخارجى الذى يقف فيه الشعب ، بشرط أن يكون الواحد منهم مستحقاً أن يقف فيه ، أى متطهراً لم يرتكب إثماً ؛ أما من يجد نفسه غير مستحق لأن يقف فى أحد هذه الأقسام فعليه أن يقف خارج أسوار الكنيسة ، ولو كان فى الكنيسة مكان له . وكانت الكنيسة تشبه أيضاً هيكل الرب الذى بناه سليمان حين « هيأ محراباً فى وسط البيت من داخل ليضع هناك تابوت عهد الرب » ، كما جاء فى الأصحاح السادس من سفر الملوك الأول .

كما حافظ الإتيوبيون على أن يظلوا فى الكنيسة وقوفاً ، فبرغم أن جميع الكنائس المسيحية ، ومنها كنيسة مصر التى يتبعونها ، قد أدخلت نظام الجلوس فى غير الهيكل ، إلا أن الإتيوبيين وحدهم ظلوا يحافظون على الوقوف رغبة فى التشبه بنظام الهيكل القديم . ومراعاة لهذا التشبه أيضا ظل الإتيوبيون يحافظون — على استعمال بعض الآلات الموسيقية فى بعض احتفالاتهم

الدينية كالطبول والسسترون وغيرهما ؛ كما حافظ الرهبان على الرقص أيضاً فى بعض الاحتفالات لأن كهنة أورشليم كانوا يزاولون هذه العادة فى احتفالاتهم ، بل إن سليمان وداود كانا يرقصان فى هيكل الرب أمام المذبح تمجيداً له .

بل ما زال الإتيوبيون حتى الآن يميلون إلى ترتيل المزامير أكثر من أى جزء آخر من أجزاء الكتاب المقدس ، فيحفظونها عن ظهر قلب ، أكثر مما يحفظون من أى جزء آخر ، ويقبلون على نسخها فى الأديرة أكثر من أى جزء آخر ، كما يقبل الناس على شرائها وحيازتها أكثر مما يقبلون على شراء أى جزء آخر من أجزاء الكتاب بعهديه القديم والجديد .

ويجوز لنا أن نقول أيضاً إنه من أجل إكمال التشابه بين مملكة إتيوبيا ومملكة أورشليم لم يحاول أحد من الأباطرة أن يضع نظاماً ثابتاً من أجل توارث العرش ، ومن ثم أصبح هذا التوارث — وإن كان محصوراً فى نسل منليك بن سليمان ومتجهاً إلى الابن الأكبر للجالس على العرش أمراً نظرياً فقط ، وقلما كان يحدث من الوجهة الفعلية أو الواقعية ؛ فوراثة الابن الأكبر لأبيه الجالس على العرش نادرة ، فقد حدث فى أكثر من مرة أن فضل الابن الأصغر على الأكبر ،

كما اتجهت الوراثة فى بعض الأحيان إلى الأخ أو العم ، ثم تعود بعد فترة طويلة إلى الابن ، وربما كانت القاعدة الوحيدة التى أخذ بها هى مبدأ القوة ، أى أن العرش كان دائماً من نصيب الأقوى الذى يستطيع التغلب على المتنافسين ؛ كما كانت القاعدة أيضاً أن يبادر الجالس على العرش بالقبض على كل من كانت هناك شبهة فى ارتقائه العرش من الإخوة والأعمام وقتلهم ، أو على الأقل الزج بهم فى السجون وحراستهم حراسة قوية ، حتى إذا جاء الدستور الأخير نص على وجوب تسلسل الوراثة فى أبناء الذكور دون أبناء الإناث ، وفى الابن الأكبر دون الأصغر ، إلا أنه فى الوقت نفسه ترك للإمبراطور حق اختيار ولى عهد آخر غير ولى العهد الشرعى ، على أن يأخذ بذلك إذناً من مجلس التاج بعد أن يتبين كل من المجلس والإمبراطور أن هناك من الأسباب ما يمنع ولى العهد من القيام بوظيفة الملك خير قيام ، لمرض أو غيره من الأسباب التى تعوقه عن مباشرة وظيفته . ولا يشترط فى هذا المختار إلا أن يكون من أقرب الذكور إلى الإمبراطور ومن النسل المباشر للإمبراطور سهلا سلاسى الجد الأكبر للإمبراطور الحالى ، على أن يقسم عند اختياره بأن يراقب تصرفات الإمبراطور

الجالس على العرش ويحترم رغباته ولا يحيد عنها .

ويبدو أن هذا كله وإن كان متفقاً مع التقاليد الإتيوبية إلا أنه وضع أيضاً من أجل إكمال التشابه بين السلطة الإمبراطورية فى إتيوبيا والسلطة الملكية التى كانت لداود ونسله من بعده ، فقد جاء فى سفر الملوك أن داود اختار سليمان لوراثته فى العرش دون أن يكون سليمان هذا أكبر أبنائه ، فقد حدث أن أدونيا وهو الابن الثانى لداود لما رأى كبر أبيه وعجزه عن القيام بأعباء الملك أراد أن يتعجل الأمر لنفسه ، فأعد عجلات وفرساناً واتفق مع إبياثار الكاهن على أن يولم أدونيا وليمة يعلن بعدها جلوسه على العرش مكان أبيه ، فسمعت أم سليمان بذلك . فذهبت إلى داود وذكرته بوعده الذى كان قد بذله لها أن يملك ابنها سليمان من بعده ، فأمر داود أن يدعى له صادوق الكاهن وناثان النبى وبناياهو بن يهوداع وأمرهم أن يأخذوا معهم عبيد الملك ، ويركبوا سليمان — وكان أصغر أولاده — على بغلته ، وينزلوا به إلى جيحون حيث يمسحه صادوق الكاهن وناثان النبى ملكاً . وسمع بذلك أدونيا فاغتاظ ولكنه سلم بالأمر ورضخ له ، بل انطلق وأمسك بقرون المذبح خائفاً أن يقتله أخوه ، ولكن سليمان عفا عنه ، ثم لم يتردد بعد

ذلك فى قتله عند ما رأى منه ما يخالف التقاليد . بل لم يتردد عن أن يعزل أو يقتل كل من يشتم منه روح الثورة عليه من أنصار أخيه ، كما فعل مع أبياثار الكاهن الذى صرفه عن أن يكون كاهناً للرب ، وقتل أيضاً بوآب قائد الجيش برغم التجائه واستجارته ببيت الرب وقرون المذبح — قتله وهو داخل الهيكل . وعين بناياهو بن يهوداع قائداً للجيش مكانه ، كما وضع صادوق مكان أبياثار ، وحدد إقامة شمعى أحد أعوان أخيه فى مكان خلف وادى قدرون فى مدينة أورشليم وهدده بالموت إن ترك مكانه ، ثم قتله حين سمع أنه أخل بعهده . وكان الشعب يرى كل ذلك حقاً من حقوق الملك لا يجادله فيها . وما زال الشعب الإتيوبى يرى فى أشباه هذا العمل حقا من حقوق الإمبراطور .

١٠

ويعنى كتاب « كبرانجست » (سير الملوك) بذكر قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان ملك بيت المقدس ويتخذها بدءاً تاريخ إتيوبيا ، ثم يتدرج إلى ذكر منليك الأول وارتقائه

العرش خلفاً لوالدته ، ثم يذكر بعد ذلك أسماء الملوك الذين تولوا العرش الإتيوبى ، ولكن الشك يعتور كل أجزاء هذه السير أيضاً كما اعتور القصة من قبل ، إذ لدينا من هذا الكتاب نسخ متعددة يختلف بعضها عن بعض ، فبينما يذكر بروس الرحالة الإسكتلندى الذى ساح فى بعض أجزاء إتيوبيا فى أواخر القرن الثامن عشر وحصل على نسخة من هذا الكتاب أن عدد الملوك الذين حكموا إتيوبيا منذ عصر منليك حتى عصر بازن ، وهو الملك الذى عاصر ميلاد المسيح ، اثنان وعشرون ملكاً . ذكر أسماءهم نقلا عن النسخة التى اطلع عليها ، يذكر لنا صولت الذى ساح أيضاً فى إتيوبيا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر أنهم سبعة عشر ملكاً ، وتذكر المخطوطة الخاصة بذلك والموجودة فى المتحف البريطانى تحت رقم ٢٨١ فى صفحتها رقم ٢٨ ب أنهم واحد وعشرون ، وتذكر مخطوطة أخرى بنفس المتحف تحت رقم ٨٢١ أنهم ستة وعشرون. وسواء أكانوا واحداً وعشرين أو اثنين وعشرين أو سبعة عشر أو ستة وعشرين ، فلن يستريح عقل باحث إلى أن يكون عدد الذين حكموا البلاد طيلة تسعة قرون هذا العدد اليسير من الملوك ، مما يجعل متوسط حكم كل منهم لا يقل

عن خمس وأربعين سنة ، وهو رقم لا يستطيع عقل بشر أن يسلم به . والمعقول أن يتولى خلال هذه المدة سبعون ملكاً متوسط حكم كل منهم خمس عشرة سنة ؛ فإذا كانت هذه الأسماء المذكورة بعض أسماء من تولوا الحكم فأين ذهبت بقية الأسماء ، لا سيما وأن الأسماء التى ذكرت لم تقرن بأية معلومات عنها ؟ وإذا كانت بعض هذه الأسماء قد ضاعت فمن يضمن لنا أن ما بقى من هذه الأسماء لم تمتد إليه يد التغيير أو التقديم أو التأخير ؟ بل أين المصدر الذى اعتمد عليه فى ذكر هذه الأسماء دون غيرها ؟ هذا إلى أن بعض أسماء هؤلاء الملوك تختلف فى كشف عنها فى آخر ، سواء من حيث حقيقة الاسم أو الترتيب . فالشك إذن يعتور كل ما جاز بهذه الأجزاء كما يعتور غيرها ؛ وما دام الشك قد قام حول جزء من الرواية دون أن يجد ما ينفيه أو يؤيده فما زال الشك قائماً على بقيتها إلى أن يجد أيضاً ما يدحضه أو يؤيده .

ويمضى الكتاب بعد ذلك فيذكر أيضاً أسماء ملوك يقول إنهم حكموا البلاد منذ عهد بازن حتى حكم عيزانا فى القرن الرابع . ويكاد حكم عيزانا يقطع بصحة زمانه ومكانه ووقائعه بما عثر عليه من نقوش أتينا على بعضها . وقد ذكر الرحالة

بروس أيضاً أن هؤلاء الملوك الذين حكموا خلال هذه المدة كانوا ثلاثة عشر ملكاً ، فى حين تذكر وثيقة المتحف البريطانى الأولى أنهم كانوا أحد عشر . وما قيل عن ملوك الفترة الأولى يمكن أن يقال عن ملوك هذه الفترة أيضاً من أن متوسط حكم كل واحد منهم كبير إلى حد يدعو إلى الشك أيضاً . ويمضى الكتاب فيذكر أسماء تلو أسماء حتى القرن العاشر الميلادى ، ثم يقول إنه بعد الملك دل نآد انتقل العرش إلى أسرة أخرى من غير أبناء سليمان ، يطلق عليهم اسم زاجوا . . .

ونحن لا نعرف من أين أتت كلمة زاجوا ، فليس فى الأسماء التى ذكرت فى كتاب سير الملوك اسم لملك يسمى زاجوا حتى ينتسب الملوك إليه ، ولكن جويدى يقول إنه تحريف لكلمة بنى الحجوية أو الأجوية ؛ ويقول إن هذه الكلمة وردت فى رسالة عربية كتبها ملك إتيوبيا إلى جورج ملك النوبة يسأله التوسط لدى فيلوتاوس بطريرك الإسكندرية (٩٨١ — ١٠٠٢) كى يرسل مطراناً إلى إتيوبيا إذ أنها محرومة من ذلك منذ زمن طويل بسبب وجود ملكة غزت المدن وأحرقتها وخربت الكنائس ، وهذه الملكة من بنى الحجوية

أو الأجوية . . .

وقصة حرق چوديت للكنائس والأديرة وتخريبها للبلاد لا يذكره « كبرانجست » ، إذ أنه مقصور على ذكر أسماء ملوك هذه الأسرة دون أية أعمال تنسب إليهم .

وقد اعتور الشك أيضاً نسبة هذه الملكة إلى أسرة زاجوا ، فقد اختلف المؤرخون فى ذلك كما اختلفوا فى أسماء ملوك هذه الأسرة . فلا يذكر « كبرانجست » إلا أحد عشر ملكاً بعد جوديت ، ومعنى ذلك أن هؤلاء الملوك حكموا ٣٥٤ سنة ، أى أن متوسط حكم كل واحد منهم يمتد إلى اثنتين وثلاثين سنة بل إن ثمانية من هؤلاء الملوك يرتفعون إلى أربعين سنة ، وهى مدة يتطرق إليها كل الشك .

ويقسم بروس هؤلاء الملوك إلى قسمين ، ويجعل القسم الأول خمسة ملوك ، ويقول إنهم كانوا يهودا يمتون بصلة القربى إلى چوديت . أما الستة الآخرون فمسيحيون وينتسبون إلى مقاطعة لاستا . وتذكر مخطوطة أخرى فى متحف باريس تحمل رقم ٦٤ أن ملوك الزاجوا كانوا خمسة فقط ، وأنهم حكموا من ١١٤٥ إلى ١٢٦٨ ، وأنهم كانوا جميعاً مسيحيين ، وربما تكون هذه المخطوطة هى التى أوحت إلى بروس برأيه . . .

ومهما اختلف المؤرخون فى أسماء ملوك أسرة زاجوا أو عددهم فإنهم يجمعون على أن تكلاهيمانوت هو الذى خلف چوديت ، وأنه هو الذى أعاد المسيحية إلى البلاد بعد أن كتب إلى مصر يطلب مطراناً . فلا بد أن يكون هو الذى كتب إلى جورج ملك النوبة .

فمن ذلك نرى أن الشك قد اعتور سلسلة الملوك الذين تعاقبوا على العرش الإتيوبى من منليك الأول ؛ فهل يكون بعد ذلك عجب إذا سرى هذا الشك أيضاً إلى القصة من أولها إلى آخرها ، ولم يترك لنا إلا الجزء الأول منها الذى يروى لنا خبر زيارة من تدعى ملكة سبأ لسليمان ، مما يجعلنا نكاد نجزم أن الإتيوبيين قد اتخذوا هذا الأساس الدينى الثابت أساساً لهذه القصة القومية التى تروى أمجاد تاريخهم وتعطيهم الأساس الذى ينتسب إليه ملوكهم .

١١

ولم تكن مخطوطة «كبرانجست» أو قصتها معروفة فى أوربا حتى الربع الثانى من القرن السادس عشر ، حين بدأ

الدارسون يهتمون بأرض « القديس حنا » بعد أن قرأوا عنها ما كتبه « فرنسسكو ألفارز » الذى كان مبعوثاً للملك إيمانويل ملك البرتغال إلى الملك داود . وكانت هذه البعثة برئاسة « دريجو دى ليما » فيما بين سنتى ١٥٢٠ و ١٥٢٧ ، فمن بين الوثائق الخاصة بهذه البعثة ذكر ألفارز سجلا بأسماء ملوك إتيوبيا بالإضافة إلى ما ذكره عن أحوال وعادات الشعب فى كتابه الذى ظهر فى سنة ١٥٤٠ باسم « القديس جون الهندى » .

وتلا ذلك أن نشر Godinho بعض قصة الملك سليمان وابنه منليك وذكر أنه اقتبسها من « كبرانجست » ، وفى سنة ١٥٨٠ نشر القس اليسوعى ما نويل الميدا كتابه عن « تاريخ إتيوبيا العام » ، وكان مانويل الميدا هذا قد أرسل مبعوثاً إلى إتيوبيا فى أكثر من فرصة لأجل دراسة كتاب « كبرانجست » مباشرة ، ولذا كان كتابه هذا كبير القيمة ، وقد أرسل أخوه أبوليناري من بعده إلى إتيوبيا أيضاً إلا أنه رجم هو وزميلان له حتى الموت فى تجرى .

وإذا ما جاء Tellez فى نهاية القرن السابع عشر وكتب « التاريخ العام لإتيوبيا القديمة » أو القديس جون ، أعطانا

تفصيلات كثيرة عن محتويات « سير الملوك » وقد اعتمد فى كتابته على ما كتبه من سبقوه من أمثال مانويل الميدا وألفونسو مندز وجودنهو والأب بايز ؛ وأشار إلى كتاب Tellez عدة مرات جون لودلفس حين كتب كتابه « تاريخ إتيوبيا » الذى نشره فى فرنكفورت سنة ١٦٨١ . ومن الواضح أنه لم يطلع على نسخة أصلية من القصة إلا أنه اعتبرها كلها خرافية .

وعاد الظلام يخيم مرة أخرى على إتيوبيا وعلى قصة « كبرانجست » حتى نهاية القرن الثامن عشر حين أشار إليها جيمس بروس الرحالة الإسكتلندى فى كتابه « رحلات لكشف منابع النيل » ، فقد أهدى إليه الرأس ميخائيل وزير الملك تكلاهيمانوت عند مبارحته إتيوبيا بعض المخطوطات الإتيوبية الثمينة كان من بينها نسخة من « كبرانجست » وأشار له إلى أهميتها . كان بروس قد سمع عن هذه الأهمية حين مكث فى إتيوبيا ، وعرف مقدار تقدير الإتيوبيين لها ، حتى إذا كانت الطبعة الثالثة من كتابه ضمنه القصة كاملة . فكان أول ناشر لها كاملة فى لغة أوروبية ؛ ثم أهدى بروس هذه المخطوطات إلى مكتبة بلاودن فحفظها باسم مجموعة بروس رقم ٩٣ ، ٨٧ ، فكان ذلك بداية دراسة هذه القصة على نطاق واسع .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠

نوفمبر ١٩٦٠

